

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد الثاني

النساء - الأنعام

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

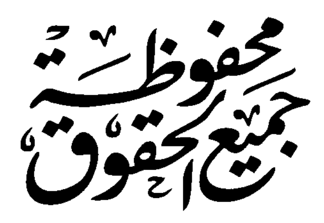


كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة



الإصدار رقم 

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +) ،فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae



الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae



اللجنة التنفيذية للمشروع

أ. د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ. د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ. د. أحمد البدوي	عضواً
أ. د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم أسعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً



الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ.د. مصطفى مسلم محمد

أ.د. عيادة أيوب الكبيسي

أ.د. أحمد محمد الشرقاوي

أ.د. ناصر سليمان العمر

أ.د. أحمد عباس البدوي

أ.د. محمد أحمد عيد الكردي

أ.د. مساعد مسلم آل جعفر

أ.د. شحادة احميدي العمري

أ.د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب

د. أبو بكر علي الصديق

د. أحمد شحروري

د. أحمد محمد نور إبراهيم

د. أحمد محمد مفلح القضاة

د. جمال أبو حسان

د. طه ياسين ناصر الخطيب

د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة

د. عبد الله محمد سلقيني

د. عدنان عبد الرزاق الحموي

د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان

د. عطية محمد عطية

د. عفاف عبد الغفور حميد

د. محمد السيد محمد يوسف

د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي

د. محمد عبد الرحمن الشايع

د. محمد عصام القضاة

د. محمد عيادة الكبيسي

د. نايل ممدوح أبو زيد

د. نشأت محمود الكوجك

د. هارون نوح علي سليمان

د. يوسف الشامسي






مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة النساء

أولاً: بين يدي السورة:

أ- اسم السورة: النساء. سميت « سورة النساء الكبرى » لكثرة ما فيها من أحكام تتعلق بالنساء [1]. وسميت سورة الطلاق في مقابلها بـ« سورة النساء القصرى » [2].

ب- فضائل السورة: أخرج الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [الآية: ٤٠]، و﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الآية: ٣١]، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [الآية: ٤٨، ١١٦]، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الآية: ٦٤]. ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه، وقد اختلف في ذلك [3]. وزاد في رواية الطبراني قال عنها الهيثمي: « ورجاله رجال الصحيح » [4] آية: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ [الآية: ١١٠] [5].

ج- السورة مدنية، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ [6]، ولا خلاف أن النبي ﷺ إنما بنى بها بالمدينة [7].

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/ ٨٩).

(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي (٣/ ٢٢٠).

(٣) فتح القدير، الشوكاني (١/ ٤١٦).

(٤) (٧/ ١١، ١٢).

(٥) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/ ٩٣-٩٤، ١٠١-١٠٢)، جامع الأصول (٨/ ٤٧٩) حديث رقم (٦٢٥٢)، والحاكم في التفسير : باب تفسير سورة النساء (٢/ ٣٠٥)، وقال: هذا إسناد صحيح، ووافقه الذهبي.

(٦) اللفظ : «... وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده » البخاري في كتاب فضائل القرآن : باب تأليف القرآن، رقم (٤٩٩٣).

(٧) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/ ٨٦، ٨٧).

د- عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العدد وسببه:

عدد آياتها عند الشاميين مائة وسبع وسبعون آية، وعند الكوفيين ست وسبعون، وعند الباقين خمس وسبعون.

والمختلف فيه منها آيتان. إحداهما: ﴿ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الآية: ٤٤]، وثانيتهما: ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الآية: ١٧٣]. فالكوفيون يثبتون الأولى آية فقط، والشاميون يثبتون الثانية أيضاً، والباقون يقولون: هما بعض آية [1].

هـ- محور السورة: (التوحيد الصحيح ومقوماته).

و- المناسبات في السورة:

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

مقصودها الاجتماع على التوحيد الذي هَدَت إليه سورة آل عمران، والكتاب الذي حدت إليه سورة البقرة، لأجل الدين الذي جمعته الفاتحة تحذيراً مما أراده شاس بن قيس [رجل من يهود بني قينقاع] وأنظاره من الفرقة.

ولما كان مقصودها الاجتماع (على ما دعت إليه السورتان قبلها من التوحيد)، وكان السبب الأعظم في التواصل عادة الأرحام العاطف على مدارها النساء ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد [2].

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

يقول سيد قطب: « وهكذا تختم السورة التي بدأت بعلاقات الأسرة وتكافلها الاجتماعي، وتضمنت الكثير من التنظيمات الاجتماعية في ثناياها.. تختم بتكملة أحكام الكلالة - وهي على

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (٢/ ٢).
(٢) مصاعد النظر، البقاعي (٢/ ٨٨، ٨٩).



قول أبي بكر رضي الله عنه، وهو قول الجماعة: ما ليس فيها ولد ولا والد »[1].

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

وجه المناسبة أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى وافتتحت هذه السورة به، وذلك من آكد وجوه المناسبات في ترتيب السور، وهو نوع من أنواع البديع يسمَّى في الشعر تشابه الأطراف[2]، وقوم يسمونه بالتسبيغ[3].

٤- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

وجه مناسبتها لآل عمران أمور ؛ منها أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى وافتتحت هذه السورة به.

ومنها أن في آل عمران ذكر قصة أحد مستوفاة، وفي هذه السورة ذكر ذيلها، وهو قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾. فإنه نزل فيها يتعلق بتلك الغزوة مروياً عن البخاري ومسلم وغيرهما.

ومنها أن في آل عمران ذكر الغزوة التي بعد أحد كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ الآيات [١٧٢-١٧٥]. وأشير إليها ههنا بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾. وبهذين الوجهين يعرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها عليها كما في مصحف ابن مسعود ؛ لأن المذكور هنا ذيل لما ذكر هناك وتابع، فكان الأنسب فيه التأخير. ومن أمعن نظره وجد كثيراً مما ذكر في هذه السورة مفصلاً لما ذكر قبلها، فحينئذ يظهر مزيد الارتباط وغاية الاحتباك[4].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٤٩).

(٢) ولا يضر في ذلك كون الخطاب الأول بـ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾، والخطاب الثاني بـ﴿ يا أيها الناس ﴾ كما لا يخفى.

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢، ٣).

(٤) المرجع السابق.

ثانياً: تفسير السورة:

المقطع الأول: أصل البشرية واحد وخالقها واحد، فلا عدوان على المال والنسل (١-١٨)

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴿١﴾ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ﴿٢﴾ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ﴿٣﴾ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ﴿٤﴾ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ﴿٥﴾ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا ﴿٦﴾ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ﴿٧﴾ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا ﴿٨﴾ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴿٩﴾ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴿١٠﴾ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما ﴿١١﴾ ۞ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن

لَكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

التفسير الإجمالي للمقطع:

إن الله تعالى جعل هذا المطلع مطلعاً لسورتين في القرآن، إحداهما هذه السورة، وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن، والثانية سورة الحج، وهي أيضاً الخامسة من النصف الثاني من القرآن. ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرة الخالق، وكمال علمه، وكمال حكمته وجلاله ؛ وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد، وهو قوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١]، فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة

الدالة على المعاد [(١)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [(٢)].

يخاطب الله الناس جميعاً لأن محمداً ﷺ بعث للناس كافة، فيأمرهم بأن يتقوه بالتزام أوامره واجتناب معاصية، ويتحرروا عن العبودية لسواه، فهو ربهم، ومالكهم، وسيدهم، وخالقهم الذي خلقهم ﴿ مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ هو آدم عليه السلام خلقه من تراب، وخلق منه زوجه حواء، خلقها من ضلعه. قال رسول الله ﷺ: « استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج » [(٣)]، ثم نشر وفرق من

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (٩/ ١٢٩).

(٢) نظراً لأهمية التقوى التي هي أصل التوحيد الصحيح وتكررها كثيراً، ونظراً لأن كثيراً من المسلمين يسمعونها ويرددونها ولا يهتمون بحقيقتها، أو لا يفهمون معناها، فإننا نذكرها هنا بمعناها ليتضح مطلع السورة الذي بدأ بالأمر بالتقوى.

أصلها : وقاه فاتقى، ففاؤه واو لا تاء. والوقاية لغة : الصيانة مطلقاً، وشرعاً صيانة المرء نفسه عمّا يضر في الآخرة [روح المعاني، الألوسي (١/ ٩٢)]، لذلك قالوا : أصل الاتقاء والتقوى : الحجز بين شيئين، ومنه يقال : اتقى بترسه، أي جعله حاجزاً بين نفسه وبين ما قصد به من المكروه، وفي الخبر : « كنا إذا احمر الباس اتقينا برسول الله ﷺ »، أي اشتدت الحرب جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدو. فكأن المتقي يجعل امتثال أمر الله والاجتناب عن نهيه حاجزاً بينه وبين العذاب، فيتحرز بطاعة الله عن عقوبة الله [تفسير السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (١/ ٤٢)]. ومراتب الوقاية من العذاب في الآخرة متعددة لتعدد مراتب الضرر، فأولاها : التوقي من الشرك، والثانية : التجنب عن الكبائر، ومنها الإصرار على الصغائر، والثالثة : ما أشير إليه بما رواه الترمذي عنه ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » [صحيح الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجة (٤٢١٥)]، ويدخل في ذلك فعل المأمورات، ولذلك قيل : التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفتقدك حيث أمرك [روح المعاني، الألوسي (١/ ٩١)].

(٣) وعند ابن كثير بعد كسرته : « وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج ». [البخاري (٣٣٣١، ٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨)].

آدم وحواء بطريق التوالد رجالاً كثيراً ونساءً كثيرات.

وقد أجمع الناس على أن الله خلق أباهم آدم ﷺ، واتفقت الديانات جميعاً على ذلك، وكل إنسان يعلم أن الله خالقه ولم يخلق نفسه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين فيه تأييد أمره تعالى بالتزام شرعه وحكمه لسيادته على الخلق جميعاً، وكذا وصف الرب بقوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾؛ لأن الاستعمال جار على أن الوصف الذي علق به الحكم علة موجبة له، أو باعثة عليه داعية إليه، ولا يخفى أن ما هنا كذلك؛ فالخالق والمالك هو السيد المطاع لا غيره. ولأن ما ذكر يدل على القدرة العظيمة أو النعمة الجسيمة؛ ولا شك أن الأول وهو القدرة العظيمة يوجب التقوى مطلقاً، حذراً من العقاب العظيم، وأن الثاني - وهو النعمة الجسيمة - يدعو إليها وفاءً بالشكر الواجب[1].

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾؛ كرر الاتقاء تأكيداً وتنبيهاً لنفوس المأمورين، وكان يسأل بعضهم بعضاً بالله، واتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها[2].

وقد نبه سبحانه إذ قرن الأرحام باسمه على أن صلتها بمكان منه تعالى، وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل مَنْ وصلك وأقطع من قطعك، قالت: بلى، قال: فهو لك»[3].

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢).
(٣) صحيح البخاري (٥٩٨٧)، وصحيح مسلم (٢٤٥٥). وانظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨).

وجعل الله قطيعة الرحم من أعظم أسباب الفساد بعد التولي عن الإيمان إلى الكفر فقال سبحانه: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [محمد:٢٢].

وقد اتفقت الأمة على أن صلة الرحم واجبة، وأن قطيعتها محرمة، والرحم اسم لكافة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره [١].

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾، أي حفيظاً، فهو من رقبه بمعنى حفظه، وقد يفسر بالمطّلع، ومنه المرقب للمكان العالي الذي يشرف عليه الرقيب ليطلع على ما دونه، ومن هنا فسره ابن زيد بالعالم. وعلى كل فهو فعيل بمعنى فاعل، والجملة في موضع التعليل للأمر ووجوب الامتثال [٢].

ولنعد النظر إلى آية الافتتاح، فإن الخطاب « للناس » بصفتهم هذه لردهم جميعاً إلى ربهم ﴿ الَّذِي خَلَقَهُمْ ﴾، والذي ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾، ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾، ورقابة الله واطلاعه على خلقه جميعاً. إن هذه الحقائق الفطرية البسيطة لهي حقائق كبيرة جداً، وعميقة جداً، وثقيلة جداً. ولو ألقى ﴿ النَّاسُ ﴾ أسماعهم وقلوبهم إليها لكانت كفيلة بإحداث تغييرات ضخمة في حياتهم، وبنقلهم من الجاهلية - أو الجاهليات المختلفة - [٣] إلى الإيمان والرشد والهدى، إلى الحضارة الحقيقية اللائقة بـ ﴿ النَّاسُ ﴾ وبالـ ﴿ نَّفْسٍ ﴾ واللائقة بالخلق الذي ربه وخالقه هو الله.

إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتّى:

١ - إنها ابتداءً تذكر ﴿ النَّاسُ ﴾ بمصدرهم الذي صدروا عنه، وتردهم إلى خالقهم الذي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٦، ٧).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨). وانظر معنى الرقيب في المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٢٠١.

(٣) ليس المراد بالجهل هنا جهل القراءة والكتابة، إنما المراد: جهل الحق الواضح والإعراض عنه، والخوض في الباطل والفساد.

أنشأهم في هذه الأرض، كما قال صالح لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]. هذه الحقيقة التي ينساها ﴿ ٱلنَّاسُ ﴾ فينسون كل شيء ! ولا يستقيم لهم بعدها أمر !

إن ﴿ ٱلنَّاسُ ﴾ جاءوا إلى هذا العالم بإرادة خالقهم الذي رسم لهم الطريق، واختار لهم خط الحياة، ومنحهم خصائص وجودهم واستعداداتهم ومواهبهم، ومنحهم القدرة على التعامل مع هذا الكون الذي جيء بهم إليه.

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة البديهية التي يغفلون عنها لثابوا إلى الرشد من أول الطريق.

إن الله الذي خلقهم في هذا الكون، وخط لهم طريق الحياة فيه، ومنحهم القدرة على التعامل معه، لهو وحده - سبحانه - الذي يملك لهم كل شيء، وهو وحده الذي يعرف عنهم كل شيء، وهو وحده الذي يدبر أمرهم خير تدبير، وإنه سبحانه وحده صاحب الحق في أن يرسم لهم سلوكهم الصحيح، ويضع لهم قيمهم وموازينهم، ويشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم.

٢- كما أنها توحي بأن هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة تنبثق من أصل واحد، وتنتسب إلى نسب واحد.

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة لتضاءلت في حسّهم كل الفروق الطارئة التي نشأت في حياتهم متأخرة، ففرقت بين أبناء (النفس الواحدة)، ومزقت وشائج الرحم الواحدة.

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلاً باستبعاد الاستعباد الطبقي بين الأمم وفي الأمة الواحدة، والاستعباد العنصري، واستعلاء الأمة الواحدة على غيرها من الأمم، وتسيل الدماء أنهاراً بين الاستعباد والتحرير، وينسى الناس النفس الواحدة التي انبثق منها الجميع، والربوبية الواحدة التي يرجع إليها الجميع !

٣- والحقيقة الأخرى التي تتضمنها الإشارة إلى أنه من النفس الواحدة ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا

زَوْجَهَا ﴾ كانت كفيلة - لو أدركتها البشرية - أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة التي ترددت فيها، وهي تتصور في المرأة شتّى التصورات السخيفة، وتراها منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء. وهي من النفس الأولى فطرة وطبعاً، خلقها الله لتكون لها زوجاً، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً. فلا فارق في الأصل والفطرة، إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة.

ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلاً ؛ جردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فترة من الزمان، تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له. فلما أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى، وأطلقت للمرأة العنان، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان، ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمل لشطر، وأنهما ليسا فردين متماثلين، إنما هما زوجان متكاملان.

والمنهج الرباني القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد.

٤- كذلك توحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة. فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة، فخلق ابتداءً نفساً واحدة، ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، فكانت أسرة من زوجين، ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾، ولو شاء الله لخلق - في أول النشأة - رجالاً كثيراً ونساءً، وزوجهم فكانوا أسراً شتى من أول الطريق، لا رحم بينها من مبدأ الأمر، ولا رابطة تربطها إلا إرادة الخالق الواحد. وهي الوشيجة الأولى. ولكنه سبحانه شاء لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها أن يضاعف الوشائج، فيبدأ بها من وشيجة الربوبية - وهي أصل الوشائج - ثم يثني بوشيجة الرحم، فتقوم الأسرة الأولى من ذكر وأنثى - هما من نفس واحدة، وطبيعة واحدة، وفطرة واحدة - والناس كلهم يرجعون ابتداءً وخلقاً إلى وشيجة الربوبية، ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني بعد قيامه على أساس العقيدة.

ولهذا رعى الإسلام الأسرة، وشرع من الأحكام، وأوصى من التوصيات ما يوثّق عراها، ويثبت بنيانها، ويحميها من جميع المؤثرات التي توهن بناءها. وفي أول هذه المؤثرات: مجانبة الفطرة، وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة، وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها

البعض، وتكاملها لإقامة هذه الأسرة من ذكر وأنثى.

٥- وأخيراً فإن نظرة إلى التنوع في خصائص الأفراد واستعداداتهم - بعد بثهم من نفس واحدة وأسرة واحدة - على هذا المدى الواسع الذي لا يتماثل فيه فردان قط تمام التماثل على توالي العصور، وفيما لا يحصى عدده من الأفراد في جميع الأجيال؛ التنوع في الأشكال والسمات والملامح، والتنوع في الطباع والأمزجة والأخلاق والمشاعر، والتنوع في الاستعدادات والاهتمامات والوظائف. إن نظرة إلى هذا التنوع المنبثق من ذلك التجمع لتشي بالقدرة المبدعة على غير مثال، المدبرة عن علم وحكمة، وتطلق القلب والعين يجولان في ذلك المتحف الحيّ العجيب، يتمليان ذلك الحشد من النماذج التي لا تنفد، والتي دائماً تتجدد، والتي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يجرؤ أحد على نسبتها لغير الله.

والتأمل في ﴿ ٱلنَّاسُ ﴾ على هذا النحو كفيل بأن يمنح القلب زاداً من الأنس والمتاع فوق زاد الإيمان والتقوى.

وتختم آية الافتتاح برقابة الله على الناس، وما أهولها رقابة والله هو الرقيب! وهو الرب الخالق الذي يعلم من خلق، وهو العليم الخبير الذي لا يخفى عليه خافية، لا في ظواهر الأفعال ولا في خفايا القلوب.

من هذا الافتتاح القوي المؤثر، ومن هذه الحقائق الفطرية البسيطة، ومن هذا الأصل الأساسي الكبير يأخذ في إقامة الأسس التي ينهض عليها نظام المجتمع وحياته؛ من التكافل في الأسرة والجماعة، والرعاية لحقوق الضعاف فيها، والصيانة لحق المرأة وكرامتها، والمحافظة على أموال الجماعة في عمومها، وتوزيع الميراث على الورثة بنظام يكفل العدل للأفراد والصلاح للمجتمع [1]، وصيانة الأسرة من الفاحشة التي تهدم بنيانها، وتلوث النسل فيها، يشرع سبحانه في تفصيل موارد اتقاء الله لإقامة أسس نظام المجتمع على أتم وجه، ويبدأ باليتامى إظهاراً

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢١٩-٢٢٣).



لكمال العناية بشأنهم، ولملابستهم بالأرحام:

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾[1].

إن أموال اليتامى وحقوقهم وحقوق النساء كانت تؤكل في الجاهلية الأولى. وكذا نرى في الجاهلية الحديثة أمثاله في المدن والقرى. وعلى الرغم من كل الاحتياطات القانونية، ومن رقابة الهيئات الحكومية المخصصة للإشراف على أموال الصغار، ما تزال أموال اليتامى تؤكل بشتى الطرق وشتى الحيل، ومن كثير من الأوصياء. فهذه الظاهرة لا تنفع فيها الرقابة الظاهرية، ولابد من وجود الرقابة الداخلية قبل الظاهرية. إنها التقوى. الخوف من عقاب الله الذي يعلم ما ظهر وما خفي، هو الذي يجعل التشريع الظاهري له قيمته وله أثره.

إن الله سبحانه خالق الإنسان، والعليم به. يأمر الأولياء والأوصياء أن يعطوا اليتامى أموالهم.

وإيتاء اليتامى أموالهم يكون بوجهين:

الوجه الأول: أن يكون المراد باليتامى البالغين الذين بلغوا سنّ الرشد، وسمّوا يتامى (مجازاً) باعتبار ما كان، أي الذين كانوا يتامى، وهو استصحاب الاسم، كقوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٦]، أي الذين كانوا سحرة، ولا سحر مع السجود لرب العالمين.

والوجه الثاني: أن المراد باليتامى الصغار الذين هم دون سنّ البلوغ، والمراد بالإيتاء الإنفاق عليهم بالطعام والكسوة، إذ لا يمكن إلا ذلك لمن لا يستحق الأخذ الكلي والاستبداد،

---

(١) اليتامى جمع يتيم، مثل: ندامَى ونديم. واليتيم في بني آدم بفقد الأب، وفي البهائم بفقد الأم. وأصله الانفراد، يقال: صبيّ يتيم، أي منفرد من أبيه. ودرّة يتيمة: أي منفردة ليس لها نظير. والإيتاء: الإعطاء. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ١٤).

كالصغير والسفيه الكبير [١].

ويمكن أن يكون المراد بالإيتاء ترك الأموال وحفظها لليتامى، وعدم التعرض لها بسوء فهو مجاز مستعمل في لازم معناه، لأنها لا تؤتى إلا إذا كانت كذلك.

والنكتة في هذا التعبير الإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الغرض من ترك التعرض إيصال الأموال إلى من ذكر، لا مجرد ترك التعرض لها، وعلى هذا يصح أن يراد باليتامى الصغار، على ما هو المتبادر [٢].

﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾. تبدل الشيء بالشيء واستبداله به: أخذ الأول بدل الثاني بعد أن كان حاصلاً له، أو في شرف الحصول. يستعملان أبداً بإفضائهما إلى الحاصل بأنفسهما، وإلى الزائل بالباء، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وقوله: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١]. ويظهر من كلام المفسرين أنه قد يراد بالخبيث الحرام، وبالطيب المال الحلال ؛ والمعنى: لا تستبدلوا أموال اليتامى بأموالكم، أو لا تذروا أموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من أموالهم فالنهي عن استبدال مال اليتيم بمال أنفسهم مطلقاً، أو أكل ماله مكان مالهم المحقق أو المقدر. وأياً ما كان فالتعبير عن ذلك بالخبيث والطيب للتنفير عمّا أخذوه، والترغيب فيما أعطوه [٣].

وقد يراد بالخبيث والطيب: الرديء والجيد، ومورد النهي حينئذ ما كان الأوصياء عليه من أخذ الجيد من مال اليتيم، وإعطاء الرديء من مال أنفسهم. روى ابن جرير الطبري عن السدي أنه قال: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويجعل مكانها المهزولة، ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف، ويقول: درهم بدرهم [٤]. وتخصيص

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٨، ٩).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٩، ١٠)، وجامع البيان، الطبري (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢٢٩)، وانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٢/ ٥).

هذه المعاملة بالنهي لخروجها مخرج العادة، لا لإباحة ما عداها، فلا مفهوم للمخالفة لانخرام شرطه عند القائل به.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ والمراد بالأكل في النهي الأخير مطلق الانتفاع والتصرف، وعبر بذلك عنه لأنه أغلب أحواله، والمعنى: لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، أي تنفقوهما معاً، ولا تسووا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام [١]. والحوب: الإثم. والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه [٢].

ثم شرع في النهي عن منكر آخر كانوا يباشرونه:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾.

وهذا متعلق بأنفس اليتامى أصالة، وبأموالهم تبعاً، عقب النهي عمّا يتعلق بأموالهم خاصةً، وتأخيره عنه لقلة وقوع المنهي عنه بالنسبة للأموال [٣].

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ شرط، وجوابه: ﴿ فَٱنكِحُواْ ﴾ ؛ أي إن خفتم ألا تعدلوا في مهورهن وفي النفقة عليهن، فانكحوا ما طاب لكم غيرهن، ويفسر تعلق الشرط بالجواب على هذا النحو بيان عائشة رضي الله عنها، فقد روى الأئمة عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ﴾، فقالت: يا ابن أختي ؛ هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يُقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهوا أن ينكحوهن إلا أن يُقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق، وأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٤٩).
(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٠، ١١).

النساء سواهن [١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها، وكان له عَذْق نخل فكانت شريكته فيه وفي ماله، فكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ الآية [٢].

وأقسط: عدل [٣]. فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء اليتيمات إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال، فلينكحوا من شاءوا غيرهن من النساء ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾، أي إن شاء أحدكم اثنتين، وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء أربعاً كما قال تعالى: ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [فاطر: ١]، أي منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم أربعة. ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه في الآية نفسها: ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾، بخلاف قصر الرجال على أربع، فدليله هذه الآية كما قال ابن عباس وجمهور العلماء؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره، وقد دلت السنة المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيح، فهذا عند العلماء من خصائصه ﷺ دون غيره من الأمة.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن شهاب الزهري عن سالم عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: « اختر منهن أربعاً ». وعند الترمذي عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره

(١) البخاري (٧٥٧٤)، ومسلم (٣٠١٨)، واللفظ لمسلم.

(٢) البخاري (٤٥٧٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٢). يقال: قَسَط الرجل إذا جار، وأقسط إذا عدل. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]. انظر المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٣.

النبي ﷺ أن يختار منهن أربعاً [١].

والخوف في قوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾، وقوله: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ من الأضداد فإنه يكون المخوف منه معلوم الوقوع، وقد يكون مظنوناً [٢]، والصحيح أن معنى خفتم: ظننتم. قال ابن عطية: « ولا يكون الخوف بمعنى اليقين بوجهٍ، وإنما هو من أفعال التوقع إلا أنه قد يميل الظن فيه إلى إحدى الجهتين، وأما أن يصل إلى حد اليقين فلا » [٣]. فمن غلب على ظنه التقصير في العدل لليتيمة بعدم إعطائها حقوقها في المهر والنفقة، وما يظهر للعلن من الأمور النفسية التي تحتاجها الزوجة، فليعدل عن اليتيمة إلى غيرها، ولينكح ما طاب له من النساء، أي ما حل من النساء ؛ لأن المحرمات منهن كثير [٤]، فكأنه قال: فانكحوا الطيب من النساء من جهة التحليل. وهذا الأمر بالنكاح هو ندب لقوم وإباحة لآخرين؛ بحسب قرائن المرء والنكاح في الجملة [٥].

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾. قال الضحاك وغيره: فإن خفتم ألا تعدلوا في الميل والمحبة والجماع والعشرة والقسْم بين الزوجات الأربع والثلاث والاثنتين﴿ فَوَاحِدَةً ﴾. فمنع من الزيادة التي تؤدي إلى ترك العدل في القَسْم وحسن العشرة، وذلك دليل على وجوب ذلك [٦]. ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ من الإماء، وذلك لأنه لا حق لملك اليمين في الوطء ولا

---

(١) مسند الإمام أحمد (٤٥٩٥، ٤٦١٧)، والترمذي (١١٢٨). وقد ذكر ابن كثير رحمه الله للحديث شواهد كثيرة، وقال : والإسناد الذي قدمناه من مسند الإمام أحمد رجاله ثقات على شرط الشيخين. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٢).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي (٢/ ٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٥).

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧).

(٦) وقراءة النصب بإضمار فعل، أي ﴿فانكحوا واحدةً﴾. وقرئت بالرفع، والمعنى: فواحدةٌ فيها كفاية أو كافية.

القَسْم [١]. ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾، أي أقرب إلى ألاّ تميلوا عن الحق وتجوروا [٢].

ونحن نرى في هذا العصر بعض النساء والرجال يزعمون أنهم يدافعون عن المرأة وحقوقها، ويدعونها للتحرر من العفة والفضيلة لتكون سلعة رخيصة بيد الرجل، لا أماً وزوجة لها كرامتها وحقوقها المادية والمعنوية. ومن جملة دعاويهم لحقوق المرأة دعوتهم إلى منع وتحريم تعدد الزوجات؛ وربما تمكنوا في بعض المجتمعات الإسلامية أن يصدروا تشريعات تحرم التعدد، وتضع عقوبة السجن والغرامة المادية على من يتزوج زوجة ثانية، وربما تكون العقوبة على الزوجة الثانية ووليها أيضاً. أما أن تكون هذه الزوجة الثانية خليلة أو عشيقة يتردد عليها هذا الرجل أو غيره من الرجال لتكون مفسدة للرجال، وناقلة للأمراض الجنسية الفتاكة، فلا مانع من ذلك، ولا عقوبة على الزنا، حتى لو كان من متزوج أو متزوجة، طالما كان الأمر بالتراضي وبغير إكراه.

وهذا الوضع أسوأ حالاً من الجاهلية الأولى، حيث كان من المعيب عندهم أن تزني الحرة. وهذا ما يريده الذين يتبعون الشهوات، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٢٧]، يريد أتباع الشهوات وعباد الهوى أن يميل الرجال والنساء عن المبادئ والتشريعات التي أنزلها الله لتحافظ على النسل، الذي هو عماد الأمة؛ وبكثرة الشباب - من الرجال والنساء - وصحتهم البدنية والنفسية تكون الأمة مهيبةٍ لا يستطيع أعداؤها العدوان عليها، كما تكون قوية في اقتصادها، لأن الشباب المنتجين أكثر بكثير من الشيوخ المستهلكين، وهذه التشريعات الإلهية تحفظ الأمة جميعاً مع نسلها من الأمراض الجنسية الفتاكة، التي تنتشر انتشاراً عظيماً وسريعاً بسبب الزنا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٠).

(٢) أدنى: أقرب، وهو من الدنو. وموضع ﴿ أن ﴾ من الإعراب نصب بإسقاط الخافض، والتقدير: ذلك أدنى إلى أن لا تعولوا. وتعولوا: تميلوا. قاله ابن عباس وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم. يقال: عال الرجل يعول؛ إذا مال وجار. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨).

الذي هو علاقة بين رجل وامرأة بدون ضوابط ولا حدود ولا حقوق ؛ إنما هو المال والغريزة الحيوانية، تكون المرأة فيه سلعة تافهة رخيصة ينالها الرجل في أي وقت يريد. ولن نتكلم عن الأمراض والعقد النفسية، والتفكك الاجتماعي، والخصومات والأحقاد بين الرجال والنساء، وبين الرجال والرجال، وبين النساء والنساء؛ فهذا يريد تلك، وتلك تريد غيره، وهذا مشاهد في الواقع معروف.

إن المجتمعات الجاهلية - غير الإسلامية - أصبحت الآن بعد التقدم العلمي في الفحوصات الطبية التجريبية، وبعد التقدم في التحاليل ودراسة الجراثيم وأنواعها، أصبحت تعرف أن الزنا هو السبب الرئيسي في انتشار الأمراض الجنسية الفتاكة، ولكن - بسبب الشهوات التي أعمتهم وأصمتهم - يأبى هؤلاء الناس أن يفكروا باستئصال الأسباب الأصلية ومعالجتها بالطهر والعفة، والزواج ولو بأكثر من واحدة إذا احتاج الأمر ذلك [1]، إنما يريدون من أهل الطهر والعفة والنظافة ﴿ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴾.

إن الإسلام جاء وتحت الرجال في الجاهلية الأولى عشرة نسوة أو أكثر أو أقل، دون حدّ ولا قيد، فجاء الإسلام ليضع حداً لا يتجاوزه المسلم - وهو أربع - ويضع قيداً - هو إمكان العدل - وإلا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم. جاء الإسلام لا ليطلق، ولكن ليحدد، ولا ليترك الأمر لهوى الرجل، ولكن ليقيد التعدد بالعدل، وإلا امتنعت الرخصة المعطاة !

ولابد لنا من استصحاب بعض الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي حين ننظر إلى قضية تعدد الزوجات:

أ- الإسلام نظام يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠].

ب- الإسلام نظام يتوافق مع واقع الإنسان وضروراته ؛ فهو نظام واقعي إيجابي.

---

(١) لا ينبغي أن ننسى أن الإسلام لم يفرض التعدد، وإنما أباح وحدد وقيّد.



جـ- الإسلام نظام يتوافق مع ملابسات حياة الإنسان المتغيرة في شتّى البقاع، وشتى الأزمان، وشتى الأحوال. فهو يراعي خلق الإنسان، ونظافة المجتمع ؛ فلا يسمح بإنشاء واقع مادي من شأنه انحلال الخلق وتلويث المجتمع تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع الذي أقامه شياطين الإنس والجن. بل يتوخّى الإسلام دائماً أن ينشئ واقعاً يساعد على صيانة الخلق، ونظافة المجتمع، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع.

بعد استصحاب هذه الخصائص نرى أن هناك حالات واقعية - في مجتمعات كثيرة تاريخية وحاضرة - تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج على عدد الرجال الصالحين للزواج. والحد الأعلى لهذا الاختلال الذي يعتري كثيراً من المجتمعات لم يُعرف تاريخياً أنه تجاوز نسبة أربع إلى واحد. وهو يدور دائماً في حدودها.

فكيف نعالج هذا الواقع الذي يقع ويتكرر وقوعه بنسب مختلفة. هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار أو الكلام الفارغ الذي يدعي فيه بعضهم أنه ينصف المرأة ويعطيها حقوقها وهو في الواقع يسلب حق المرأة في أن تكون زوجة محترمة لها حقوقها المشروعة كغيرها من النساء.

وإذا أردنا اتخاذ إجراء ووضع نظام لهذا الواقع نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

١ - أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج، ثم تبقى واحدة أو أكثر -حسب درجة الاختلال الواقعة- بدون زواج، تقضي حياتها -أو حياتهن- لا تعرف الرجال.

٢ - أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجاً شرعياً نظيفاً، يكون لزوجته الشرعية هذه حقوقها المادية والمعنوية، ثم يخادن هذا الزوج أو يسافح واحدة أو أكثر من هؤلاء اللواتي ليس لهن مقابل في المجتمع من الرجال، فيعرفن الرجل خديناً أو خليلاً في الحرام والظلام !!

٣ - أن يتزوج الرجال الصالحون -أو بعضهم حسب درجة الاختلال- أكثر من واحدة، وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل زوجة شريفة في وضح النور، لا خدينة ولا خليلة في الحرام والظلام !

الاحتمال الأول ضد الفطرة، وضد الطاقة بالقياس إلى المرأة التي لا تعرف في حياتها الرجال. ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدق به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب، فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون المتحذلقون المتظرفون الجهال عن فطرة الإنسان. فحواء خلقت من آدم - كما مرّ معنا - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ؛ والمرأة لا تسكن ولا تطمئن ولا تأنس إلا بالرجل. وألف عمل وألف كسب لا تغني المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية ؛ سواء في ذلك مطالب الجسد والغريزة، ومطالب الروح والعقل، من السكن والأنس بالعشير. والرجل يجد العمل ويجد الكسب، ولكن هذا لا يكفيه، فيروح يسعى للحصول على العشيرة. والمرأة كالرجل في هذا، فهما من نفس واحدة.

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام النظيف، وضد قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف الخالي من الأمراض الجسمية والنفسية والاجتماعية، وضدّ كرامة المرأة الإنسانية أيضاً. فالمرأة لم تخلق ليعبث بها الرجال، وتكون مصب قاذوراتهم وناقلةً للأمراض بينهم، ومعدومة الحقوق الفطرية الإنسانية التي خلقت لها. والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة في المجتمع هم أنفسهم الذين يتعالمون على الله ويتطاولون على شريعته، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام. يختاره رخصة مقيدة لمواجهة الواقع الذي لا ينفع فيه هز الكتفين، ولا تنفع فيه الحذلقة والادعاء. يختاره متمشياً مع واقعيته الإيجابية في مواجهة الإنسان كما هو - بفطرته وظروف حياته - ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر، ومع منهجه في التقاط الإنسان من السفح، والرقي به في الدرج الصاعد إلى القمة

السامقة. ولكن في يسر ولين وواقعية!

إن أحداً يدرك روح الإسلام واتجاهه لا يقول: إن التعدد مطلوب لذاته، مستحب بلا مبرر من ضرورة فطرية أو اجتماعية، وبلا دافع إلا التلذذ الحيواني، وإلا التنقل بين الزوجات كما يتنقل الخليل بين الخليلات. إنما هو ضرورة تواجه ضرورة، وحلّ يواجه مشكلة. وهو ليس متروكاً للهوى بلا قيد ولا حد في النظام الإسلامي الذي يواجه كل واقعيات الحياة [(1)].

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: « وقد شرع الله تعدد النساء للقادر العادل لمصالح جمة ؛ منها أن في ذلك وسيلة إلى تكثير عدد الأمة بازدياد المواليد فيها. ومنها أن ذلك يعين كفالة النساء اللاتي هن أكثر من الرجال في كل أمة ؛ لأن الأنوثة في المواليد أكثر من الذكورة ولأن الرجال يعرض لهم من أسباب الهلاك في الحروب والشدائد ما لا يعرض للنساء، ولأن النساء أطول أعماراً من الرجال، بما فطرهن الله عليه. ومنها أن الشريعة حرمت الزنا وضيقت في تحريمه لما يجر إليه من الفساد في الأخلاق والأنساب ونظام العائلات، فناسب أن يوسع على الناس في تعدد النساء لمن كان من الرجال ميالاً للتعدد مجبولاً عليه. ومنها قصد الابتعاد عن الطلاق إلا لضرورة » [(2)].

أما الإماء ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ فالتسري بالأمة طريق من طرق إعطائها كرامتها ثم تحريرها. وقد وضع الإسلام طرقاً كثيرة لتحرير العبيد، كالعتق في الكفارات وغيرها. والتسري بالأمة إحدى هذه الطرق، لإنها إن حملت من سيدها وولدت له تكون أم ولد، تعتق بعد وفاة سيدها ؛ فالإسلام وجه رغبة الإنسان الغريزية لتحرير الإماء.

وبعد الحديث عن نكاح النساء مثنى وثلاث ورباع بشرط العدل يستطرد السياق في تقرير حقوق الزوجات من النساء قبل أن يستكمل الكلام عن رعاية اليتامى التي بدأ بها:

---

(١) الظلال، سيد قطب (٤/ ٢٢٧-٢٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٢٦).



﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ ﴾[١].

ظاهر الآية أن الخطاب فيها للأزواج ؛ لأن الضمائر واحدة، وهي بجملتها للأزواج لأنه قال: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ ﴾. وذلك يوجب تناسق الضمائر، وأن يكون الأول فيها هو الآخر.

ولا يمنع ظاهر الآية أن يدخل في الخطاب من يصلح له من الأولياء، فقد كان الولي يأخذ مهر المرأة ولا يعطيها شيئاً، فنهوا عن ذلك وأمروا أن يدفعوا مهورهن إليهن[٢].

وهذه الآية تثبت للمرأة حقاً صريحاً وحقاً شخصياً في صداقها، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق. ومضمون كلام المفسرين أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك ؛ كما يمنح المنيحة ويعطي العطية طيباً بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك[٣].

﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾. فإن طابت الزوجات لأزواجهن بعد تسمية المهر أو بعد قبضه عن شيء من الصداق متجافياً عنه نفوسهن، طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى البذل، من شكاسة أخلاقكم وسوء معاملتكم. وإنما أوثر في النظم الكريم دون « فإن وهبن لكم شيئاً عن طيب نفس » إيذاناً بأن العمدة في الأمر طيب النفس، وتجافياً عن الموهوب بالمرة، حيث جعل ذلك مبتدأ وركناً في الكلام، لا فضلة كما في التركيب المفروض[٤]. وعلى هذه الصفة كلوه هنيئاً مريئاً، والمراد بالأكل الاستباحة، فليس المقصود صورة الأكل، إلا

---

(١) ﴿ وآتوا النساء ﴾ : أعطوا النساء، ﴿ صَدُقاتهن ﴾ : بفتح الصاد وسكون الدال جمع صَدُقة ؛ وهي كالصداق بمعنى المهر. ﴿ نحلة ﴾ : فريضة من الله أو هبة وعطية من الله، وقيل : من الأزواج. وانتصاب ﴿ نحلة ﴾ على الحالية من الصدقات. انظر روح المعاني (٢/ ١٧-١٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٣، ٢٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥١).

(٤) روح المعاني (٢/ ١٩).

أن الأكل لما كان أوفى أنواع التمتع بالمال عُبِّر عن التصرفات بالأكل كما في قوله تعالى بعد قليل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ [النساء: ١٠] (١).

وبهذا الإجراء استبعد الإسلام ذلك الراسب من رواسب الجاهلية في شأن المرأة وصداقها، وحقها في نفسها ومالها وكرامتها ومنزلتها. وفي الوقت ذاته لم يجفف ما بين المرأة وزوجها من صلات، ولم يقمها على مجرد الصرامة في القانون؛ بل ترك للسماحة والتراضي والمودة أن تأخذ مجراها في هذه الحياة المشتركة، وأن تبلل بنداوتها جو هذه الحياة (٢).

ويرجع السياق بعد هذا الاستطراد إلى الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى، وتفصيل ما أجمل فيما سبق من شروط إيتائها وكيفيته:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ (٣) أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (٤).

المراد بالسفهاء كل من لم يكن له عقل يفي بحفظ المال، ويدخل فيه الرجال والنساء والصبيان والأيتام، وكل من كان موصوفاً بهذه الصفة. وهذا أصح الأقوال، وقد اختاره

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٦)، و﴿ هنيئاً مريئاً ﴾ صفتان من هنؤ الطعام يهنؤ هناءة، ومرؤ يمرؤ مراءة؛ إذا لم يثقل على المعدة، وانحدر عنها طيباً، وفي الصحاح نقلاً عن الأخفش يقال: هنؤ وهنيء، ومرؤ ومريء، كما يقال فقُه وفقِه - بكسر القاف وضمها - وقيل: ما ينساغ في مجراه الذي هو المريء. وقال الزمخشري: إنهما صفتان للمصدر. أي: أكلاً هنيئاً مريئاً. روح المعاني (٢/ ١٩)، والكشاف، الزمخشري (١/ ٢٤٦).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٣٧).

(٣) السفهاء: الجهال والخرقاء، وذلك باعتبار خفة أحلامهم، واضطراب آرائهم. وأصل السفه في كلام العرب: الخفة والرقة، يقال: ثوب سفيه إذا كان رديء النسيج خفيفه، أو كان بالياً رقيقاً. وتسفهت الريح الشجر: مالت به. والسفه ضد الحلم. انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٢٠٥)، وروح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٠).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٠).



الطبري لعموم اللفظ في الآية، والتخصيص بغير دليل لا يجوز. قال أبو جعفر الطبري بعد أن عرض أقوالاً في أن السفهاء هم الصبيان والنساء: « والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه عمّ بقوله: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾. فلم يخصص سفيهاً دون سفيه، فغير جائز لأحد أن يؤتي سفيهاً ماله ؛ صبياً صغيراً كان أو رجلاً كبيراً، ذكراً كان أو أنثى. والسفيه الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله هو المستحق الحجر [1] بتضييعه ماله، وفساده وإفساده، وسوء تدبيره ذلك. وإنما قلنا ما قلنا من أن المعني بقوله: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ ﴾ هو من وصفناه دون غيره ؛ لأن الله عز وجل ثناؤه قال في الآية التي تتلوها: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾. فأمر أولياء اليتامى بدفع أموالهم إليهم إذا بلغوا النكاح وأونس منهم الرشد ؛ وقد يدخل في اليتامى الذكور والإناث، فلم يخصص بالأمر بدفع ما لهم من الأموال الذكور دون الإناث، ولا الإناث دون الذكور » [2].

ولعل من قال إن السفهاء النساء أراد النساء المبذرات، فإنهن يدخلن في معنى السفه مثل الرجال. وأما قول من قال: عنى بالسفهاء النساء خاصة، فإنه جعل اللغة على غير وجهها ؛ وذلك أن العرب لا تكاد تجمع فعلاً على فُعَلاء إلا في جمع الذكور، أو الذكور مع الإناث، وأما إذا أرادوا جمع الإناث خاصة جمعوه على فعائل وفعيلات، فيقولون سفائه وسفيهات [3].

والحجر على أنواع بالنسبة لأسبابه:

فتارة يكون للصغر، فإن الصغير قاصر النظر مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، لأن المجنون لا يعقل، وتارة يكون الحجر للسفه، كالذي يبذر ماله، أو يسيء التصرف في ماله لنقص عقله ودينه.

---

(١) الحجر : هو المنع من التصرف المالي.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (٤/ ١٦٥-١٦٦).

(٣) انظر المرجع السابق (٤/ ١٦٦)، وانظر قول النحاس في الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٨)، والمحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي (٢/ ٩).

وتارة يكون الحجر للإفلاس، كالذي تحيط به الديون ويضيق ماله عن وفائها، فإذا سال الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه [١].

والآية دليل في وجوب الحجر على السفهاء إذا ثبت تبذيرهم وإسرافهم وعدم حفظهم للمال، سواء كانوا كباراً أو صغاراً، ذكوراً أو إناثاً ؛ لأن الصبي إنما منع من ماله لفقد العقل الهادي إلى حفظ المال وكيفية الانتفاع به، فإذا كان هذا المعنى قائماً بالشاب والشيخ كانا في حكم الصبي، فوجب أن يمنع دفع المال إليه ما لم يؤنس منه الرشد، لظاهر الآية الكريمة.

ونعود إلى أول الآية: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ ، والخطاب لكل أحد كائناً من كان، والمراد نهيه عن إيتاء ماله من لا رشد له من السفهاء، وإنما أضيفت إلى ضمير الأولياء المخاطبين تنزيلاً لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصهم بها، فكأن أموالهم عين أموالهم، لما بينهم وبينهم من الاتحاد الجنسي والنسبي، مبالغة في حملهم على المحافظة عليها. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩]، فإن المراد لا يقتل بعضكم بعضاً.

ووصف الأموال بأنها تقوم بمعاشهم وصلاح دينهم، وأضافها إلى المخاطبين أيضاً فقال: ﴿ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ ، والقيام والقوام: ما يقيمك، يقال: فلان قيام أهله وقوام بيته، وهو الذي يقيم شأنه، أي يصلحه [٢].

وقيل: إنما أضيف المال إلى ضمير المخاطبين لأن المراد بالمال جنسه مما يتعيش به الناس ونسبته إلى كل أحد كنسبته إلى الآخر لعموم النسبة [٣].

نقول: السفيه هو الذي لا يحسن التصرف بالمال فيبدده ويضيعه بغير فائدة تعود عليه أو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣١).
(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٠).



على الجماعة المسلمة. والحجر على السفيه منعه من التصرف في ماله، ويقوم وليه بتثمير ماله نيابة عنه، وينفق على السفيه من ماله إلى أن يثبت رشده وحسن تصرفه بالمال فيرفع عنه الحجر.

ولم يكن أحد قبل نزول التشريع الرباني ينظر إلى المال أكثر من أنه محبوب إلى النفس يستميت الإنسان في طلبه وجمعه ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨]، وربما عمّت الفوضى في التملك والتصرفات المالية في المجتمعات البشرية قبل الإسلام، فيكون التطاول من الجماعة على حق الملكية للأفراد، فتنزع الملكية، وتسلب الأموال كلها أو بعضها من الأفراد. وربما يسرف الأفراد في حق التملك ؛ فيتجاوز الفرد مصالح الجماعة بحجة الحرية المطلقة التي لا تقيدها قيود تحمي الجماعة من شطط الأفراد. كان هذا قبل الإسلام، ولا زال موجوداً إلى اليوم في المجتمعات التي لا تدين بنظام الإسلام ؛ فنرى في بعض المجتمعات المعاصرة طغيان حقوق الأفراد على مصالح الجماعة، كما نرى في بعض المجتمعات طغيان الجماعة على حقوق التملك للأفراد ؛ فيؤدي نزع ملكية الأفراد إلى تدمير الاقتصاد بسبب الفوضى وعدم الاستقرار المالي وضعف الإنتاج ؛ لأن الإنسان يعمل لغيره لا لنفسه، ويسيطر فرد أو أفراد على هذه الجماعة التي تُنزع فيها ملكيات الأفراد كلاً أو جزءاً، فتصبح الجماعة وأملاكها وإرادة أفرادها تحت سيطرة هذا الفرد أو الأفراد الحاكمين، ويكون البلاء أعظم، والاستعباد أكثر ذلاً وإهداراً للكرامة الإنسانية.

وقد نزل القرآن كتاب التحرير والحرية، وكان من تشريعاته تحرير الاقتصاد على الوجه الأكمل، وبيان فوائد المال الاجتماعية والفردية، وعلاقة مال الأفراد باقتصاد الجماعة وعزتها. قال الألوسي: « في الآية إشارة إلى مدح الأموال، وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن ولأن أترك مالاً يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: الدراهم والدنانير خواتيم الله في الأرض، لا تؤكل ولا تشرب، حيث قصدت بها قضيت حاجتك »[1].

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢١).



والتشريع القرآني قيد الملكية بقيود تمنعها من إفساد المصلحة المالية للجماعة، ومن هذه القيود تحريم الإسراف والتبذير، والحجر على من لا يحسن التصرف الماليّ الذي تشرعه هذه الآية الكريمة للحفاظ على مصلحة الجماعة وقوة اقتصادها، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾. فأسند الأموال إلى الجماعة، وذكر بأن قيام مصالح الجماعة تكون بهذه الأموال، فإذا أتلفها الفرد فإنه يتلف مال الجماعة، وحق الفرد يكون في تثميرها والانتفاع بها لا إتلافها، وأمر القرآن بالإنفاق عليه من ماله، وحسن معاملته ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾.

فالمال وإن كان مال اليتامى أو السفهاء، إلا أنه لابدّ وأن يكون استعماله بما يحقق مصلحة الفرد والجماعة ؛ والجماعة متكافلة في الانتفاع بهذا المال على أحسن الوجوه. والناس إنما يملكون المال لاستثماره، ويظلون ينتفعون وينفعون الجماعة معهم ما داموا قادرين على تكثيره وتثميره؛ راشدين في تصريفه وتدبيره، فإذا بددوا المال ولم يحسنوا التصرف فيه بقيت الملكية لهم ولم تنزع منهم، ومنعوا من إدارة أموالهم والتصرف فيها حتى يُختبروا ويثبت رشدهم، فتدفع إليهم أموالهم ويكون لهم حرية التصرف فيها كاملاً ؛ وذلك حفظاً للاقتصاد – كما ذكرت – وحماية لمصلحة الجماعة في الأموال. فلا تنزع الملكية من الفرد للجماعة، ولا يترك المجال للفرد المبدد للأموال أن يفسد مصلحة الجماعة.

ولنوضح مصلحة الجماعة في مال الفرد نذكر المثال التالي: لو أن أحداً يملك مصنعاً يعمل فيه ثلاثون عاملاً، فلو زعم هذا المالك أن له الحرية في ملكه، ويريد أن يتلف هذا المعمل كلاً أو جزءاً، أو يعطّله ويغلقه لا لمصلحة، فإنه إن فعل ذلك يعطل رزق العمال بلا سبب يبيح له ذلك، ويعطل دخل المعمل الذي ينتفع الجماعة كلها بإنتاجه.

ويتبين السفه والرشد – بعد البلوغ – بالابتلاء والاختبار:

﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ

إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾.

شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، وبيان شرطه [١]. فيأمر الله سبحانه أولياء الأيتام أن يختبروهم قبيل بلوغهم سن التكليف، ليعلموا رشدهم وحسن تصرفهم المالي، فإن ثبت رشدهم يدفع لهم الولي أموالهم عند البلوغ ؛ فقد ذكر الله سبحانه شرطين لابدّ من تحققهما حتى يستلم اليتيم ماله:

الشرط الأول: بلوغ سن النكاح، وهو سن التكليف بالأحكام الشرعية.

والشرط الثاني: ثبوت رشد اليتيم، ويكون ذلك باختباره وملاحظة تصرفاته المالية والدينية: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ﴾ [٢].

والرشد: الصلاح في الدين وحفظ المال. وهذا قول ابن عباس والحسن البصري [٣].

ومعنى: ﴿ ءَانَسۡتُم ﴾ أبصرتم ورأيتم، ومنه قوله تعالى: ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا ﴾ [القصص: ٢٩]، وقيل معناه تبصّر، وقيل: هو هنا بمعنى وجد وعلم. واليتيم إما أن يكون غلاماً أو جارية ؛ فإن كان غلاماً ردّ إليه في نفقة الدار شهراً، أو أعطاه شيئاً نذراً يتصرف فيه ليعرف كيف تدبيره وتصرفه، وهو مع ذلك يراعيه ويلاحظه لئلا يتلفه، فإن أتلفه فلا ضمان على الوصي. فإذا رآه متوخياً صلاح ماله سلم إليه ماله وأشهد عليه، لقوله تعالى: ﴿ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾. وإن كانت جارية ردّ إليها ما يُرَدّ إلى ربة البيت من تدبير بيتها والنظر فيه، فإن رآها رشيدة سلم أيضاً إليها مالها وأشهد عليها. وإن لم ير الوصي في اليتيم واليتيمة حسن التصرف المالي بقيا بعد البلوغ تحت الحجر حتى يؤنس رشدهما [٤].

(١) روح المعاني (٢/ ٢٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٨)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٥).
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٤).
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٤، ٣٦، ٣٧).

فإذا سلم المال لليتيم بعد البلوغ ووجود الرشد ثم عاد إلى السفه بظهور تبذير وقلة تدبير عاد إليه الحجر. ودليله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فورد النص مطلقاً ولم يفرق بين أن يكون الحجر مستمراً عليه من الصغر أو يطرأ عليه السفه بعد الإطلاق [١].

والبلوغ يكون بأحد خمسة أشياء ؛ ثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء، وهي: الاحتلام، واستكمال خمس عشرة سنة، والإنبات. وشيئان يختصان بالنساء، وهما: الحيض والحمل [٢].

ويبدو من خلال النص القرآني الدقة في الإجراءات التي يتسلم بها اليتامى أموالهم عند الرشد. كذلك يبدو التشديد في وجوب المسارعة بتسليم أموال اليتامى إليهم بمجرد تحقق الشرطين المذكورين، وتسليمها لهم كاملة سالمة، والمحافظة عليها في أثناء القيام عليها، وعدم المبادرة إلى أكلها بالإسراف قبل أن يكبر أصحابها فيتسلموها [٣]. ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ﴾، أي لا تأكلوا أموالهم مسرفين ومبادرين كبرهم ؛ بأن تفرطوا في إنفاقها، وتقولوا: ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى وينتزعوها من أيدينا. ويكبَرُوا بفتح الموحدة، من باب علم، يستعمل في السن. وأما بالضم فهو القدرة والشرف، وإذا تعدى الثاني بعلى كان للمشقة نحو كبر عليه كذا [٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٩-٤٠).
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٥).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٣٨).
(٤) والإسراف في الأصل: مجاوزة الحد المباح إلى ما لم يبح، وربما كان ذلك في الإفراط وربما كان في التقصير، غير أنه إذا كان في الإفراط منه يقال: أسرف يسرف إسرافاً، وإذا كان في التقصير يقال: سرف يسرف سرفاً. والمبادرة: المسارعة، وأصلها من البدار، وهو الامتلاء، ومنه البدر لامتلائه نوراً، والبدرة لامتلائها بالمال، والبيدر لامتلائه بالطعام. انظر روح المعاني (٢/ ٢٥).

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾.

بين الله تعالى ما يحل للأولياء والأوصياء من مال الأيتام، فأمر الغني بالإمساك وأباح للفقير أن يأكل بالمعروف. وقد روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني فقير ليس لي شيء ولي يتيم. قال: فقال: « كل من مال يتيمك غير مسرف، ولا مُبادِرٍ، ولا متأثل مالاً، ومن غير أن تقي مالك، أو قال: تفدي مالك بماله » شك حسين [(١)].

وفي صحيح مسلم عن عائشة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾. قالت: نزلت في ولي اليتيم الذي يقوم عليه ويُصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه [(٢)].

قال الفقهاء: له أن يأكل أقل الأمرين ؛ أجرة مثله أو قدر حاجته. واختلفوا: هل يردّ إذا أيسر؟ على قولين: أحدهما: لا ؛ لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً ؛ وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي ؛ لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل. والقول الثاني: نعم، يرد إذا أيسر لأن مال اليتيم على الحظر، وإنما أبيح للحاجة فيردّ بدله، كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة. وروى ابن أبي الدنيا وسعيد بن منصور بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم، إن احتجت أخذت منه، فإذا أيسرت رددته»[(٣)].

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾. وهذا الإشهاد على طريق الاحتياط لليتيم والولي ؛ فأما اليتيم فإنه إذا كانت عليه بينة كان أبعد من أن يدّعي عدم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٣)، وهو عند أحمد (٦٩٨٣). وانظر تفسير القرطبي (٥/ ٤١). وعف الرجل عن الشيء واستعف إذا أمسك، والاستعفاف عن الشيء تركه. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور: ٣٣]، والعفة: الامتناع عما لا يحل ولا يجب فعله. وانظر الحديث عند ابن ماجة (٢٧١٨)، وأبو داود (٢٨٧٢).

(٢) صحيح مسلم (٣٠١٩)، ورواه البخاري (٢٢١٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٣-٤٥٤).

القبض، وأما الولي فإنه تظهر أمانته، ويسقط عنه اليمين عند إنكار اليتيم للدفع [(١)]. وهذا الإشهاد على معنى الاستحباب لنفي التهمة عن نفسه، ولو لم يشهد على ذلك لجاز، كقوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] [(٢)]. ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾، أي كفى بالله محاسباً وشاهداً ورقيباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم لأموالهم؛ هل هي كاملة موفورة، أم منقوصة مبخوسة، مروج حسابها مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله. ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي؛ لا تأمرنّ على اثنين، ولا تَوَلَيَنَّ مال يتيم » [(٣)].

بعد بيان حقوق المستضعفين من اليتامى في أموالهم، والتأكيد على حفظها وتسليمها لهم عند نضجهم واكتمالهم كاملة غير منقوصة، تشرع الآيات في بيان حقوق المستضعفين الصغار والنساء بالميراث كحقوق الكبار:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

نزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري، توفي وترك امرأة يقال لها: أم كُجَّة وثلاث بنات له منها؛ فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما: سُوَيْد وعَرْفَجَة، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، ويقولون: لا يُعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة.

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٧).

(٢) بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٢٠٨).

(٣) ابن كثير (١/ ٤٥٤)، والحديث رواه مسلم (١٨٢٦).

فذكرت أم كُحَّة ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاهما فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كَلاًّ، ولا يَنْكأُ عدواً. فقال ﷺ: « انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن »، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾... الآية، رداً عليهم وإبطالاً لقولهم وتصرفهم بجهلهم ؛ فإن الورثة الصغار كان ينبغي أن يكونوا أحق بالمال من الكبار لعدم تصرفهم والنظر في مصالحهم، فعكسوا الحكم، وأبطلوا الحِكْمة فضلوا بأهوائهم، وأخطأوا في آرائهم وتصرفاتهم [1]. ونصت الآية على أن الكبار والصغار، ذكوراً وإناثاً، يستوون في أصل الميراث، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي إلى الميت ؛ من قرابة، أو زوجية أو ولاء ؛ فإنه لحمة كلحمة النسب [2].

وإيراد حكم النساء على الاستقلال، دون الدرج في تضاعيف أحكام السالفين، بأن يقال: « للرجال والنساء نصيب.. الخ » للاعتناء بأمرهن، والإيذان بأصالتهن في استحقاق الإرث، والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين، والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية في عدم توريثهن [3].

وقد جاء في الآية ثلاث فوائد:

إحداها: بيان علة الميراث، وهي القرابة.

الثانية: عموم القرابة كيفما تصرفت من قريب أو بعيد.

الثالثة: إجمال النصيب المفروض لتثبيت أصل الحق في الميراث، وبينت ذلك آية المواريث بعد ؛ فكان في الآية توطئة للحكم وإبطالاً لما كان من الفساد في التوارث [4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤٦)، وعند ابن كثير « أم كجة » بالجيم (١/ ٤٥٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٤).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤٦).

وإذا كانت الجاهلية تنظر إلى الأفراد حسب قيمتهم العملية في الحرب والإنتاج، فإن الإسلام بمنهجه الرباني ينظر إلى (الإنسان) - أولاً - حسب قيمته الإنسانية، وهي القيمة الأساسية التي لا تفارقه في حال من الأحوال ! ثم ينظر إليه - بعد ذلك - حسب تكاليفه الواقعية في محيط الأسرة وفي محيط الجماعة [(١)].

وقوله سبحانه: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، أي مقطوعاً واجباً لابد لهم من أن يحوزوه [(٢)]، وفائدة هذا القيد دفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال، وتحقيق أن لكل من الفريقين حقاً من كل ما جلّ ودقّ [(٣)].

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾.

وإذا حضر قسمة التركة أولوا القربى ممن لا يرث، لكونه عاصباً محجوباً، أو لكونه من ذوي الأرحام، أو حضر القسمة اليتامى والمساكين من غير القرابة، ﴿فَارْزُقُوهُم﴾ من مال التركة تطييباً لقلوبهم وتصدقاً عليهم. وقيل: إن هذا أمر وجوب، واختلف في نسخه. والذي يظهر أنه أمر ندب واستحباب؛ لأنه لو كان واجباً لحدده وبين مقداره. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، أي عدوهم عدة حسنة، وادعوا لهم، واستقلوا ما أعطيتموهم، واعتذروا منهم، ولا تمنّوا عليهم [(٤)]. قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين عند قسمة مواريثهم أن يصلوا أرحامهم، ويتاماهم ومساكينهم من الوصية، فإن لم تكن وصية وصل لهم من الميراث. قال النحاس: فهذا أحسن ما قيل في الآية، أن يكون على الندب والترغيب في فعل الخير والشكر لله عز وجل [(٥)].

---

(١) الظلال، سيد قطب (٤/ ٢٤١).
(٢) الكشاف (١/ ٢٤٩).
(٣) تفسير أبي السعود (٢/ ١٤٧)، وانظر روح المعاني (٢/ ٢٨).
(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٩).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤٩).

وقبل أن يأخذ السياق في تحديد أنصبة الورثة يعود ليحذر من أكل أموال اليتامى والضعفاء. يعود هذه المرة ليلمس القلوب لمستين قويتين:

أولاهما تمس مكمن الرحمة الأبوية والإشفاق الفطري على الذرية الضعاف، وتقوى الله الحسيب الرقيب. والثانية تمس مكان الرهبة من النار، والخوف من السعير في مشهد حسي مفزع:

﴿ وَلْيَخْشَ[1] ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠ ﴾.

وهكذا تمس اللمسة الأولى شغاف القلوب. قلوب الآباء تجاه ذريتهم الصغار، بتصور ذريتهم الضعاف مكسوري الجناح ؛ لا راحم لهم ولا عاصم ؛ كي يعطفهم هذا التصور على اليتامى الذين وكلت إليهم أقدارهم بعد أن فقدوا الآباء. فهم لا يدرون أن تكون ذريتهم غداً موكولة إلى من بعدهم من الأحياء كما وكلت إليهم هم أقدار هؤلاء. ومع هذا التحريك النفسي الغريزي بعطف الأبوة وحنانها يأتي الأمر بتقوى الله في حقوق الأيتام والضعفاء، وأمرهم بأن يقولوا قولاً سديداً[2] في حقوقهم وعند رعايتهم[3].

وإذا كان سياق الآيات في اليتامى، غير أن الخطاب عام، فيراد به جميع الناس ؛ فالمعنى أمرهم باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس، وإن لم يكونوا في حجورهم، وأن يسدّدوا لهم القول

---

(١) الخشية : خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها في قوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨]. المفردات في غريب القرآن ص ١٤٩.

(٢) السديد : العدل والصواب من القول. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٥٢)، وجامع البيان، الطبري (٣/ ١٨٤).

(٣) الظلال، سيد قطب (٤/ ٢٤١-٢٤٢).

كما يريد كل أحد أن يفعل بولده بعده [(١)].

واللمسة الثانية صورة مفزعة رهيبة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [(٢)]. روى الطبري بإسناد جيد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسري به قال: « نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم، قلت: يا جبريل من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً » [(٣)]. وإنما علق الأكل بكونه ظلماً ؛ لأنه قد يأكل مال اليتيم على وجه الاستحقاق، كالأجرة وغيرها مثلاً، فلا يكون ظلماً ولا الآكل ظالماً [(٤)]. فقد دل الكتاب والسنة على أن أكل مال اليتيم من الكبائر التي تدخل النار ؛ وقال النبي ﷺ: « اجتنبوا السبع الموبقات »، قيل: يا رسول الله، وما هن ؟ قال: « الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » [(٥)].

وبعد الإجمال الذي مرّ في قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ ﴾يشرع الله عز وجل في بيان هذا الإجمال فيقول سبحانه:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٤).

(٢) أصل الصلي لإيقاد النار، وصليت الشاة شويتها وهي مصلية. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٥. والسعرُ: التهاب النار، وقد سعرتها وسعّرتها وأسعرتها، والمِسْعَر: الخشب الذي يُسعر به. المفردات ص ٢٣٣.

(٣) جامع البيان، الطبري (٣/ ١٨٤).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٣١).

(٥) رواه الشيخان عن أبي هريرة: البخاري (٢٧٦٧، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩)، واللفظ له.

وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) ﴾.

هاتان الآيتان والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث التي تبينها وتفسرها.

وقد ورد في تعلم الفرائض عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: « العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة [(١)]، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة » [(٢)].

وروى في سبب النزول عن جابر رضي الله عنه قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ بابنتيها من سعد فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلا ولهما مال. قال: فقال: « يقضي الله في ذلك » قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك » [(٣)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة

---

(١) أي غير منسوخة.

(٢) رواه أبو داود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤).

(٣) الحديث رواه الترمذي (٢٠٩٢)، وابن ماجة (٢٧٢٠)، وأبو داود (٢٨٩١)، وإسناده قوي. جامع الأصول، ابن الأثير (٢/ ٨٣).

ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رش علي فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ »[١]. وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرواية هي سبب نزول الآية الأخيرة من سورة النساء[٢]. وقال ابن حجر في فتح الباري: « هكذا وقع في رواية ابن جريج، وقيل: إنه وهم في ذلك، وأن الصواب أن الآية التي نزلت في قصة جابر هذه الآية الأخيرة من النساء، وهي: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾، لأن جابراً يومئذ لم يكن له ولد ولا والد، والكلالة من لا ولد له ولا والد. وقد أخرجه مسلم عن عمرو الناقد، والنسائي عن محمد بن منصور، كلاهما عن ابن عيينة عن ابن المنكدر، فقال في هذا الحديث: حتى نزلت عليه آية الميراث: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾. ولمسلم أيضاً من طريق شعبة عن ابن المنكدر. قال في آخر هذا الحديث: « فنزلت آية الميراث، فقلت لمحمد بن المنكدر: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ ؟ قال: هكذا أنزلت »[٣].

ومن الاهتمام بهذه الأحكام تصدير تشريعها بقوله ﴿ يُوصِيكُمُ ﴾ ؛ لأن الوصاية هي الأمر بما فيه نفع المأمور، وفيه اهتمام الآمر لشدّة صلاحه، ولذلك سمّى ما يعهد به الإنسان فيما يصنع بأبنائه وبماله وبذاته بعد الموت، وصية[٤].

والفرائض التي فرضها الله في كتابه ستة: النصف، والربُع، والثُمُن، والثُلُثان، والثُلُث، والسدس.

والوارثون من الرجال عشرة: الابن، وابن الابن وإن سفل، والأب، وأب الأب وهو الجد وإن علا، والأخ، وابن الأخ، والعم، وابن العم، والزوج، ومولى النعمة، وهو المعتق.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٧٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٧).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر (١٠/ ١٣٩).

(٤) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٥٠).

والوارثات من النساء سبع: البنت، وبنت الابن وإن سفلت، والأم، والجدة وإن علت والأخت، والزوجة، ومولاة النعمة، وهي المعتقة [1].

ونوجز أحكام الآيتين فنقول:

أولاً: الأولاد (ذكوراً) أو (ذكوراً وإناثاً)، إذا انفردوا حازوا جميع التركة، ونصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى. وإذا كان معهم أصحاب فروض - كالأبوين أو أحد الزوجين - أخذوا الباقي من التركة بعد استيفاء أصحاب الفروض نصيبهم يقتسمونه للذكر ضعف نصيب الأنثى ؛ لقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾.

وفرض البنت النصف إن لم يكن معها أخ أو إخوة يعصبونها. وفرض البنتين فصاعداً إن لم يكن لهنّ أخ أو إخوة هو الثلثان، والباقي للعصبة، وهو أولى، أي أقرب الذكور إلى الميت لقوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ ﴾ وسكت عن الاثنتين، فدلّ على أن قوله: ﴿ فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾ يراد به: اثنتان فصاعداً، وقياساً على ميراث الأخوات الذي جاء في آخر سورة النساء: ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ [النساء: ١٧٦]، وأولاد الابن لهم حكم أولاد الصلب عند فقدهم، وتم بيان ميراث الفروع.

ثانياً: ميراث الأصول: الأبوان لهما في الإرث أحوال:

الحالة الأولى: أن ينفرد الأبوان بالميراث، حيث لم يترك الميت أولاداً ولا إخوة ولا زوجة أو زوجاً، فيفرض للأم الثلث والحالة هذه، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، فيكون قد أخذ ضعفي ما حصل للأم وهو الثلثان. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾.

الحالة الثانية: أن يجتمع الأبوان مع الأولاد، فيفرض لكل واحد منهما السدس.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٦٠-٦١).



فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞ ﴾.

الحالة الثالثة: أن يكون مع الأبوين زوج أو زوجة، فيأخذ أحد الزوجين فرضه ؛ إن كانت زوجة فلها الربع، وإن كان زوجاً فله النصف، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي، بعد أخذ أحد الزوجين نصيبه ؛ لأن الباقي بعد فرض أحد الزوجين كأنه جميع الميراث بالنسبة للأبوين فيكون للأم ثلثه، وللأب ضعف الأم تعصيباً. وهذا قول عمر وعثمان، وأصح الروايتين عن علي، وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور العلماء.

والحالة الرابعة من أحوال الأبوين: هو اجتماعهما مع الإخوة ؛ أي اثنان فصاعداً، سواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً ؛ لأنهم محجوبون به، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ﴾. وكان أهل العلم يرون أن الحكمة في حجبهم أمهم عن الثلث أن أباهم يلي نكاحهم، ونفقته عليهم دون أمهم [١].

ولا يدخل في قوله تعالى: ﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ ﴾ من علا من الآباء دخول من سفل من الأبناء في قوله: ﴿ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ ﴾ ؛ لأن قوله تعالى: ﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ ﴾ لفظ مثنًى لا يحتمل العموم، بخلاف قوله: ﴿ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ ﴾. والدليل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾، والأم العليا جَدَّة، ولا يفرض لها الثلث بإجماع، فخروج الجدة عن هذا اللفظ مقطوع به، وتناوله للجَدّ مختلف فيه ؛ فهناك من قال: هو أب، وحجب به الإخوة، واستدل بقوله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ٢٦، ٢٧، ٣١]

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جَزيّ الكلبي (١/ ١٣١-١٣٢)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٥٨) وانظر التفصيل في الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٦١) وما بعدها.

وقوله عز وجل: « يا بني إسماعيل ارموا فإن أباكم كان رامياً ».

وذهب آخرون إلى توريث الجد مع الإخوة؛ ولا ينقص من الثلث مع الإخوة للأب والأم، أو للأب، إلا مع ذوي الفروض، فإنه لا ينقص معهم من السدس شيئاً في قول زيد. وهو قول مالك والأوزاعيّ وأبي يوسف ومحمد والشافعي. وكان علي يشرك بين الإخوة والجد إلى السدس، ولا ينقصه من السدس شيئاً مع ذوي الفرائض وغيرهم [1].

ثالثاً: ميراث الزوجين:

يأخذ الرجل نصف ما تركت زوجته إذا ماتت ولم يكن لها ولد، فإن كان لها ولد فله الربع مما تركت. وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب، في حجب الزوج عن النصف إلى الربع ؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾.

وتأخذ المرأة ربع ما ترك زوجها، إذا مات ولم يكن له ولد، فإن كان له ولد فلها الثمن ممّا ترك. وسواء في الثمن أو الربع الزوجة أو الزوجات، والثلاث والأربع يشتركن فيه ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾ [2].

رابعاً: ميراث الإخوة الأشقاء أو الأب سيأتي في الآية الأخيرة من السورة.

خامساً: ميراث الإخوة لأم:

يقول سبحانه: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٠).



إذا مات المسلم وليس له والد ولا ولد فورثته كلالة [١]، والمراد بالإخوة هنا في قوله: ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ ﴾. الإخوة لأم ؛ لأن الإخوة الأشقاء، والإخوة لأب من العصبات، وليسوا من أصحاب الفروض.

فنصيب الواحد منهم ذكراً أو أنثى السدس، ونصيب الاثنين فصاعداً الثلث ؛ ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء، لقوله تعالى: ﴿ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ ﴾.

واختلف العلماء في المسألة المشتركة، ويقال لها أيضاً الحمارية، وهي زوج، وأم أو جدة، واثنان من ولد الأم، وواحد أو أكثر من ولد الأبوين. وقد وقعت هذه المسألة في زمان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم - الإخوة لأم - فقال أولاد الأبوين - أي الإخوة الأشقاء -: يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حماراً، ألسنا من أم واحدة ؟ فشرك بينهم، وإلى هذا ذهب الجمهور [٢].

وكرر في الآيتين قوله سبحانه: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾، وإنما قصد بذلك تقديم الوصية والدين على الميراث. وتقدمت الوصية في لفظ الآية، والدين مقدم عليها بإجماع. وروى أحمد والترمذي وابن ماجة وأصحاب التفاسير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إنكم تقرؤون ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾، إن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات ؛ يرث أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه [٣].

---

(١) الكلالة في أصل اللغة عبارة عن الإحاطة، ومنه الإكليل لإحاطته بما يدخل فيه، ويقال: تكلل السحاب إذا صار محيطاً بالجوانب. التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٦٢)؛ لأن الرجل إذا لم يترك والداً ولا ولداً فقد انقطع طرفاه، وبقي أن يرثه من يتكلله نسبه؛ أي يحيط به من نواحيه كالإكليل، وكالنبات إذا أحاط بالشيء، ومنه: روض مكلل بالزهر، والإكليل: منزل القمر يحيط به فيه كواكب. المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي (٢/ ١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٠)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٧٩).

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢١٢٣) في الوصايا : باب ما جاء يبدأ بالدين قبل الوصية وإسناده ضعيف بدون: وإن أعيان بني الأم... الخ. جامع الأصول (١١/ ٦٣٥). ثم قال الترمذي : لا نعرفه إلا من=

وقدمها في الآيتين اهتماماً بها وندباً إليها، إذ هي أقل لزوماً من الدين، ويقال أيضاً: قدمها لكثرة وجودها ووقوعها ؛ فصار كاللازم لكل ميت مع نص الشرع عليها، وأخر الدين لشذوذه ؛ فإنه قد يكون وقد لا يكون، فذكر الذي لابد منه، وعطف بالذي قد يقع أحياناً. ويقوّى هذا العطف بأو، ولو كان الدين راتباً لكان العطف بالواو. ثم إن الوصية قدمت لأنها حظ مساكين وضعفاء، وأخر الدين لأنه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان، وله فيه مقال [١].

وختمت الآية الأولى بلمسات منوعة المقاصد:

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

واللمسة الأولى لفتة قرآنية لتطييب النفوس تجاه هذه الفرائض ؛ فهناك من تدفعهم عاطفتهم الأبوية إلى إيثار الأبناء على الآباء ؛ لأن الضعف الفطري تجاه الأبناء أكبر، وفيهم من يغالب هذا الضعف بالمشاعر الأدبية والأخلاقية فيميل إلى إيثار الآباء، وفيهم من يحتار بين الضعف الفطري والشعور الأدبي الأخلاقي. وكذلك قد تفرض البيئة بأعرافها اتجاهات معينة، فسكبت الآية في القلوب كلها راحة الرضى والتسليم لأمر الله، ولما يفرضه الله، بإشعارها أن العلم كله لله، وأنهم لا يدرون أيّ الأقرباء أقرب نفعاً، ولا أيّ الأقسام أقرب لهم مصلحة [٢].

والسياق يشعر بأن النفع يكون بالإنفاق إذا احتيج إليه، ويحتمل أن يريد النفع بالميراث من ماله، وهو أليق بسياق الكلام، وقيل: بالشفاعة في الآخرة [٣]، وبالدعاء والصدقة، كما جاء في الحديث الصحيح: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة؛ صدقة جارية، أو علم

= حديث الحارث، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم. قال ابن كثير معلقاً على ذلك : لكن كان حافظاً للفرائض، معتنياً بها وبالحساب والله أعلم. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٩).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٧٤)، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٧).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٤٨).

(٣) كتاب التسهيل، الكلبي (١/ ١٣٢).

ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له »[1]، فهذا نفع في الدنيا للآخرة وجاء في النفع الأخروي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور:٢٢]، وروي عن ابن عباس أنه قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، وتلا هذه الآية. وروي مرفوعاً عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقر عينه » ثم قرأ ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[2]. قال الزمخشري: « فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم »[3].

ونستطيع أن نقول: إن النفع دنيوي وأخروي، وهو مجهول لنا معلوم لله العليم الخبير.

واللمسة الثانية لتقرير أصل القضية. فالمسألة ليست مسألة هوى أو مصلحة قريبة، إنما هي مسألة الدين والشريعة:

﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ فهذا الذي ذكره الله من تفصيل الميراث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض هو فرض من الله حكم به وقضاه.

واللمسة الثالثة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ولم يزل عليماً حكيماً ؛ فهو خالق الآباء والأبناء، وهو خالق كل شيء، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤] وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويعطي كلاً ما يستحقه بحسبه، وهو الذي يشرع لخلقه، وليس للبشر أن يشرعوا لأنفسهم، لأن الله أعلم بأنفسهم من أنفسهم، وأعلم بمصالحهم منهم. الله يحكم لأنه عليم - وهم لا يعلمون - والله يفرض لأنه حكيم - وهم

(١) رواه مسلم (١٦٣١) بلفظ « إذا مات الإنسان »، ورواه الترمذي كذلك (١٣٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٧٤-٧٥، ١٧/ ٦٦)، ولم أقع على الحديث، وبنحوه عند أحمد (١١٣٤).

(٣) الكشاف، الزمخشري (٤/ ٣٤).



يتبعون الهوى - [(١)].

وختمت الآية الثانية بعد قوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾ بقوله سبحانه: ﴿ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾، أي حال كونه غير مضار للورثة، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الإضرار في الوصية من الكبائر [(٢)].

ووجوه المضارّة كثيرة، وكلها ممنوعة، منها أن يقر بحق ليس عليه، ويوصي بأكثر من ثلث ماله، أو يوصي بالثلث فراراً من وارث محتاج [(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة» [(٤)].

﴿ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد، أي يوصيكم الله وصية منه، أي يأمركم بما فيه نفعكم وصلاحكم، كما مر معنا في قوله: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾، فهو ختم للأحكام بما بدئت به، وهذا من رد العجز على الصدر [(٥)].

ويأتي بعد ذلك التذييل بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾، أي والله عليم بالمضار لورثته وغيرهم، أو عليم بما دبره بخلقه من الفرائض، حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، عندما

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٩)، وانظر الظلال (٤/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) روي عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أثبت. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦١).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (٧٦٨٤)، وابن ماجه (٢٧٠٤)، والترمذي بنحوه (٢٨٦٧)، وسنده حسن. وانظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤٤).

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٦٦-٢٦٧).

يخالف أمره بشكل عام، أو يخالف ما بيّنه من الفرائض بشكل خاص [١].

و نرى أن الله سبحانه أورد أقسام الورثة في هذه الآيات على أحسن الترتيبات، والتي تلائم الفطرة الإنسانية السليمة ؛ وذلك لأن الوارث إما أن يكون متصلاً بالميت بغير واسطة أو بواسطة. فإن اتصل به بغير واسطة، فسبب الاتصال إما أن يكون هو النسب، أو الزوجية. فحصل ههنا ثلاثة أقسام:

أشرفها وأعلاها الاتصال الحاصل ابتداءً من جهة النسب، وذلك هو قرابة الأولاد والوالدين، فالله سبحانه قدم حكم هذا القسم.

وثانيها: الاتصال الحاصل ابتداءً من جهة الزوجية، وهذا القسم متأخر في الشرف عن القسم الأول ؛ لأن الأول ذاتي، وهذا الثاني عرضي، والذاتي أشرف وأقوى من العرضي.

وثالثها: الاتصال الحاصل بسبب الغير، وهو المسمَّى بالكلالة، وهذا القسم متأخر عن القسمين الآخرين لوجوه:

أحدها: أن الأولاد والوالدين والأزواج والزوجات لا يعرض لهم السقوط بالكلية، وأما الكلالة فقد يعرض لهم السقوط بالكلية.

وثانيها: أن القسمين الأولين ينسب كل واحد منهما إلى الميت بغير واسطة، والكلالة تنسب إلى الميت بواسطة. والثابت ابتداءً أشرف من الثابت بواسطة.

وثالثها: أن مخالطة الإنسان بالوالدين والأولاد والزوج والزوجة أكثر وأتم من مخالطته بالكلالة. وكثرة المخالطة مظنة الألفة والشفقة، وذلك يوجب شدة الاهتمام بأحوالهم. فلهذه الأسباب وأشباهها أخر الله تعالى ذكر ميراث الكلالة عن ذكر القسمين الأولين [٢].

ثم يأتي توكيد بعد توكيد للقاعدة الأساسية في هذه العقيدة، قاعدة التلقي من الله وحده

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤٥).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٩/ ١٧٨).



وإلا فهو الفسوق والعصيان، والخروج من منهج هذا الدين، وهذا ما تقرر الآيتان التاليتان في السورة، تعقيباً نهائياً على تلك الوصايا والفرائض، حيث يسميها الله تعالى بالحدود [(١)]:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

تلك الفرائض، وتلك التشريعات التي شرعها الله وفق علمه وحكمته هي أحكام الله التي بينها لكم لتعرفوها وتعملوا بها، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ في قسمة المواريث، فيقر بها، ويعمل بها كما أمره الله، ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فيما أمر من الأحكام، أو فيما فرض من الفرائض، ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ ﴾ التي شرعها الله ورسوله ﷺ، ومن جملتها ما ذكره الله في حقوق اليتامى والمستضعفين وقسمة الميراث ﴿ يُدْخِلْهُ نَارًا ﴾ عظيمة هائلة ؛ فالتنكير يفيد التهويل والتعظيم، ﴿ وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، أي مذل [(٢)]. والعصيان إن أريد به الكفر فالخلود في النار على بابه، وإن أريد به تجاوز أمر الله في الكبائر دون إنكار الأحكام التي أنزلها الله أو من غير اعتقاد عدم صلاحيتها، فالخلود مستعار لمدة ما، كما تقول: خلَّدَ الله ملكه [(٣)].

والفرائض التي بينها الله تنظم العلاقات الأسريّة، والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية بتفتيت الثروات المتجمعة على رأس كل جيل، وإعادة توزيعها من جديد ؛ فلا يدع مجالاً

---

(١) الظلال (٤/ ٢٥١)، وحدود الله شرائعه، أو طاعته، أو تفصيلاته، أو شروطه وأحكامه. وأطلق عليها الحدود لشبهها بها من حيث أن المكلف لا يجوز أن يتجاوزها إلى غيرها. روح المعاني (٢/ ٤٥). وأصل الحد : الحجز المانع لأمر ما أن يدخل على غيره أو يدخل عليه غيره. ومن هذا قولهم للبواب حداد، لأنه يمنع، ومنه إحداد المرأة، وهو امتناعها عن الزينة. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٠).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٨٢).

لتضخم الثروة وتكدسها في أيد قليلة ثابتة، ويتم توزيعها على الأقرب فالأقرب للميت مما يجعل الإنسان يثمّر ماله لآخر نَفَس في حياته، ولو علم أن ماله سيذهب إلى من لا يهمّه أمره لبدّد أمواله واستهلكها قبل موته. فنظام الإرث علاج اقتصادي، ومودّة أسرية، ورابطة اجتماعية[1].

وهكذا ترتبط الأحكام الشرعية دائماً بالعبودية لله وطاعته، ليتحقق الإخلاص في التزام أمر الله وطاعته ظاهراً وباطناً.

وعود على بدء ؛ فقد بدأت السورة ببيان أصل البشرية آدم وزوجه حواء، ثم انتقلت الآيات إلى حماية أموال اليتامى والمستضعفات من النساء بشكل عام واليتيمات بشكل خاص، وأوجب للمرأة حقها في المهر ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ ﴾ وأثبت حقها في الميراث، وفصّل بعد ذلك قسمة الميراث ؛ فحمى المجتمع من العدوان على أموال المستضعفين من الأيتام والنساء، عرّج بعد ذلك إلى حماية النسل من العدوان على الأنساب بالزنى:

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ ﴾ عطف هذا الحكم على ما تقدم، ومعنى يأتين الفاحشة: يفعلنها. يقال: أتيت أمراً قبيحاً، أي فعلته. وأما الفاحشة فهي الفعلة القبيحة، وأجمعوا على

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٥٤).



أن الفاحشة ههنا الزنا [١]، ولإثبات الزنا قال سبحانه: ﴿ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾، فلا تهمة بدون دليل، أي اطلبوا أن يشهد عليهن بإتيان الفاحشة أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم، ولا تقبل شهادة النساء في الحدود. دلّ على ذلك تأنيث العدد ﴿ أَرْبَعَةً ﴾ فالمعدود مذكر، وقوله ﴿ مِّنكُمْ ﴾ دليل على أن الشاهد ينبغي أن يكون من المؤمنين العدول [٢]. وعدم قبول شهادة المرأة لئلا تحرج في مثل هذه الفواحش، ولا ينقص هذا من قدرها، فالرجال لا تقبل شهادتهم في الأمور الخاصة بالنساء، كالولادة، والبكارة، حيث لا تقبل إلا شهادة النساء.

﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ ﴾ احبسوهن في البيوت، ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾، أي حتى تتوفاهن ملائكة الموت، كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النحل: ٢٨]، وقوله: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١].

واشتراط الأربعة، والإيمان، والعدالة، والذكورة في الشهود تغليظاً وستراً على العباد [٣] إذ مقصود الشرع بالعقوبة الردع عن هذا الفعل القبيح والتربية النفسية التي تبعد المؤمن عن الفواحش، وليس المقصود شيوع الفاحشة في الذين آمنوا، ولا كثرة إنزال العقاب الشديد بمن يقترف الذنب، إلا المستهترين الذين لا يبالون بمشاعر الجماعة، ولا يستترون في معاصيهم.

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ اللذان مثنى الذي، والضمير في قوله: ﴿ يَأْتِيَٰنِهَا ﴾

---

(١) وفي التعبير عن الإقدام على الفواحش بقوله ﴿ يأتين ﴾ لطيفة، وهي أن المكلف كأنه ذهب إليها من عند نفسه واختارها بمجرد طبعه. والفاحشة هي مصدر عند أهل اللغة، كالعاقبة. يقال: فحش الرجل يفحش فحشاً وفاحشة، وأفحش إذا جاء بالقبيح من القول أو الفعل. وإنما أطلق على الزنا اسم الفاحشة لزيادتها في القبح على كثير من الفواحش. التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٦٧).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤٦).

(٣) روح المعاني (٢/ ٤٦)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٨٣-٨٤).

يرجع إلى ﴿ ٱلْفَـٰحِشَـةَ ﴾ السابقة الذكر، فالمراد بيان حكم من يقترف الزنا من الرجال، وبيّن بلفظ التثنية ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ صنفي الرجال ممّن أحصن وممن لم يحصن. والآية الأولى: ﴿ وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَـةَ ﴾ في النساء عامة لهن ؛ محصنات وغير محصنات، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى، وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نص الكلام أصناف الزناة، ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأولى: ﴿ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾، وقوله في الثانية: ﴿ مِنكُمْ ﴾ [(١)]، فاستفيد التعميم في الحالتين ؛ إلا أن استفادته في الأولى من صيغة العموم، وفي الثانية من انحصار النوعين، وقد كان يغني أن يقال: ﴿ وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ﴾، (والذين يأتون)، إلا أنه سلك هذا الأسلوب ليحصل العموم بطريقين، مع التنصيص على شمول النوعين [(٢)]. ويضاف إلى ذلك ما ذكرته قبل قليل من عود الضمير في قوله: ﴿ يَأْتِيَـٰنِهَا ﴾ إلى الفاحشة التي أجمع العلماء على أن المراد بها الزنا، فلا وجه لمن قال: إن المراد باللذان اللواط أو غير ذلك.

وإيذاء الزاني هو النيل باللسان واليد، وضرب النعال، وما أشبهه [(٣)]. أما سبب اختلاف العقوبة بين الرجل والمرآة، حيث خص الله سبحانه الحبس في البيت بالمرأة، وخص الإيذاء بالرجل ؛ لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز، فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فلا يمكن حبسه في البيت ؛ لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه وترتيب مهامه، واكتساب قوت عياله [(٤)].

وقد نسخ الله هذا الحكم وبقيت تلاوته للتعبد واستشعار حِكَم الله في النسخ. والناسخ من القرآن الآية الثانية من سورة النور: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾، وآية الرجم التي نسخت تلاوتها وبقي حكمها، فقال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ:

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٢٢)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٨٦).
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٧٢).
(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤٨)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٢).
(٤) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٦٩).

إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم. قرأناها وَوَعيناها وعقلناها. فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده. فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله. فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أَحْصَنَ من الرجال والنساء إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف[1].

وليس قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ غاية لانتهاء الحكم ينفي وجود النسخ إنما هو إشعار بأن هذا الحكم سينسخه حكم آخر. وحديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: « خذوا عني، خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر، جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم »[2]، مبين للقرآن ومشير إلى النسخ، فلا يعترض عليه بجواز نسخ الكتاب بالسنة وعدم جوازه.

وتتناول آخر الآية وما بعدها موضوع التوبة: ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ ﴾. يأمر الله تعالى المؤمنين إذا تاب الزانيان وظهر في سلوكهما الصلاح أن يكف عنهما الأذى. وجاء الأمر بهذا الكف، الذي هو ﴿ فَأَعْرِضُواْ ﴾، وفي اللفظ غض من الزناة وإن تابوا؛ لأن تركهم هو إعراض، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وليس الإعراض في الآيتين أمراً بهجر، ولكن الإعراض متاركة معرض، وفي ذلك شيء من الاحتقار لهم بحسب المعصية المتقدمة، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى، والله تعالى تواب، أي راجع بعباده عن المعاصي إلى تركها ولزوم الطاعة، رحيم بعباده حيث يريد مصالحهم فيما حرّم عليهم.

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٢٠٦-٢٠٧)، الحديث رقم (١٦٩١)، كتاب الحدود: باب رجم الثيب في الزنى. وقد أراد بالآية آية الرجم: « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ». وهذا مما نسخ لفظه وبقي حكمه. شرح النووي على مسلم (٦/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في الحدود: باب حد الزنى (٦/ ٢٠٤ مسلم بشرح النووي) برقم (١٦٩٠)، وأخرجه أبو داود في الحدود: باب الرجم، والترمذي رقم (١٤٣٤).

ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور: ٣١]، فلا ينبغي للمؤمن أن يترك التوبة في كل حال، فإنه لا يخلو من سهو أو تقصير في حقوق الله تعالى[١]. وحد التوبة: الندم، وهي في عرف الشرع: الرجوع من شر إلى خير، وشرطها: الإقلاع عن المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها، أي عدم الإصرار على المعصية. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وينبغي أن يكون الندم على تفريطه في حق الله عز وجل وإقدامه على المعصية، وإن كان الندم من حيث أضر ذلك الفعل في بدن أو ملك فليس بتوبة.

وتصح التوبة وإن نقضها التائب في ثاني حال بمعاودة الذنب؛ فإن التوبة الأولى طاعة قد انقضت وصحت بشروطها، وهو محتاج بعد معاودة الذنب إلى توبة أخرى مستأنفة.

والتوبة لا يجب قبولها على الله عقلاً، لكن جاء إخباره تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢]، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٠٤]. وظاهر هذه النصوص قبول توبة التائب، وهي إنما تعطي غلبة ظن، لا قطعاً على الله بقبول التوبة. وقد ورد النص هنا: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾، ففيه حذف مضاف تقديره: إنما التوبة على فضل الله ورحمته لعباده. وهذا نحو قول النبي ﷺ لمعاذ: « يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سكت قليلاً ثم قال: يا معاذ، أتدري ما حق العباد على الله؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن لا يعذبهم »[٢]. فهذا كله إنما

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٩٠)، (١٢/ ٢٣٨).

(٢) البخاري (٥٩٦٧، ٦٢٦٧)، وفيه تكرار تربوي، ومسلم (٣٠).

معناه: ما حقهم على فضل الله تعالى ورحمته، والعقيدة أنه لا يجب على الله تعالى شيء عقلاً [١]؛ ولأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجَب عليه، والحق سبحانه خالق الخلق ومالكهم والمكلِّف لهم، فلا يصلح أن يوصف بوجوب شيء عليه سبحانه [٢].

وقد ذكرت الآية هنا لقبول التوبة قيدين: ﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾، و﴿ مِن قَرِيبٍ ﴾.

والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية، وهي مقابل الحلم؛ ولذلك تطلق الجهالة على الظلم، قال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلنْ أحـــــد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال الله تعالى حكاية عن يوسف: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]، والمراد هنا ظلم النفس [٣]. وعلى هذا فالجهالة: سفاهة وقلة تحصيل أدى إلى المعصية وارتكاب ما لا يليق بالعاقل، لا عدم العلم [٤]. وقد روي عن الصحابة والتابعين أخبار كثيرة يقوى بعضها بهذا المعنى ؛ روي عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به فهو جهالة. وروي عن مجاهد قال: كل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصية [٥].

وقوله تعالى: ﴿ مِن قَرِيبٍ ﴾ أي من زمان قريب، وهو ما قبل حضور الموت، كما ينبئ

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٣-٢٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٩٠).
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٧٨).
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٤).
(٥) روي هذا المعنى من طرق عن قتادة عن أبي العالية وعن مجاهد وعن ابن عباس وعن عطاء بن أبي رباح وعن ابن زيد وغيرهم. روى ذلك الطبري (٣/ ٢٠٢-٢٠٣)، وأخرجه عن مجاهد البيهقي في الشعب، وأخرج اجتماع أصحاب رسول الله ﷺ عن قتادة عبد الرزاق. انظر روح المعاني (٢/ ٤٩).

عنه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾[١]، وإنما صحت التوبة منه في هذا الوقت لأن الرجاء باقٍ، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل، وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[٢]. وعن ابن عباس رضي الله عنه: « ثم يتوبون من قريب »، والقريب فيما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت[٣].

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المتصفون بما ذكر ﴿ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ فيعلم بإخلاص من يتوب، ﴿ حَكِيمًا ﴾ فلا يعاقب التائب[٤]، ويمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر، ولا يطردهم وراء أسوار اليأس من رحمته، وهم راغبون رغبة حقيقية في الحمى الآمن والكنف الرحيم.

أما توبة المضطر الذي لجت به الغواية، وأحاطت به الخطيئة، فهذه لا يقبلها الله ؛ لأنها لا تنشئ صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه[٥]:

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾.

تنبيه على نفي قبول نوع من التوبة للذين يعملون المعاصي، حتى شاهد أحد هؤلاء العصاة الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا بحال، وعاين ملك الموت، وانقطع حبل الرجاء، ﴿ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾؛ أي في هذا الوقت الحاضر؛ وذكر لمزيد تعيين الوقت،

---

(١) روح المعاني (٢/ ٤٩).

(٢) الترمذي (٣٥٣٧)، وأحمد (٦٣٧٢)، ورواه الطبري عن عبادة بن الصامت مرفوعاً (٤/ ٢٠٥). انظر القرطبي (٥/ ٩٢).

(٣) رواه الطبري عن ابن عباس بسند حسن، وهو طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة (٤/ ٢٠٤).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٥٠).

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٦٤).

وإيثار ﴿ قَالَ ﴾ على (تاب) لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار، والتحاشي عن تسميته توبة، ولو أكّده ورغب فيه ؛ ولعل سبب ذلك كون تلك الحالة أشبه شيء بالآخرة، بل هي أول منزل من منازلها، والدنيا دار عمل ولا جزاء، والآخرة دار جزاء ولا عمل، والمعنى: وليست التوبة لقوم يعملون السيئات إلى حضور موتهم، وقولهم: كيت وكيت. ﴿ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ عطف على الموصول قبله، أي ليست التوبة لهؤلاء وهؤلاء [١]. وختمت الآية بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا ﴾، أي هيأنا وحضّرنا ﴿ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، أي مؤلماً موجعاً [٢]. والإشارة في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا ﴾ إن كانت إلى الذين يموتون وهم كفار فقط فالعذاب عذاب خلود، وإن كانت الإشارة إليهم وإلى من ينفذ عليه الوعيد ممن لا يتوب إلا مع حضور الموت من العصاة فهو من جهة هؤلاء عذاب ولا خلود. وظاهر الآية في قوله: ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ يدل على أن النار مخلوقة [٣].

وأخيراً نرى أن هذا المقطع قد وجه الإنسان إلى تقوى الله وتوحيده في مجموعة من الأمور:

١- معرفة الله ؛ فهو الرب الخالق المالك المتصرف.

٢- صلة الأرحام، فالبشرية تعود إلى أصل واحد تفرعت عنه القرابات.

٣- حفظ أموال اليتامى، وعدم الاعتداء عليها.

٤- إعطاء المرأة - وهي من المستضعفين - حقها من الإرث، فلها حق فيه كالرجل.

٥- توزيع تركة الميت على حسب الفرائض التي أوصى بها الله.

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٥٠).

(٢) آلَمَ إذا أوْجع، والإيلام: الإيجاع. والألم : الوجع. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٩٨)، (٥/ ٩٣).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٦).

٦ - وأد الفاحشة - التي تدمر الأسرة، وتضيّع الأنساب - بعقوبة فاعليها، والحض على التوبة، وبيان شروطها.

٧- كل ذلك مرتبط بتربية النفوس على طاعة الله وحده، والحذر من آثار المعصية عند الرجوع إليه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: الرب هو المربي، والخالق والمالك له العبودية والطاعة، ولا معبود سواه.

ب- الأحكام الشرعية: بيان حقوق الأيتام، وحكم الحجر على السفيه لحفظ أموال المجتمع مع المحافظة على الملكية الفردية. وأحكام الفرائض، وأحكام وأد الفاحشة، لإنقاذ الأسرة المسلمة من التفكك.

ج- الأخلاق الإسلامية: خلق المسلم أساسه العفّة والكرامة.

د - الجوانب التربوية: تربية النفوس على التوبة والرجوع إلى الله قبل ذهاب العمر وفوات الأوان.

المقطع الثاني: تكريم المرأة وحقها كزوجة (١٩-٢٨):

يتصل هذا المقطع بسابقه - المقطع الأول - بقاسم مشترك يجمع بينهما، وهو أن كليهما مرتبط بالآية الأولى التي صدرت بها السورة ؛ خلق الرجال والنساء من أصل واحد وصلة الرحم ؛ فذكر المقطع الأول ظلم الأيتام والزواج باليتيمات، والإرث، والعلاقة الجنسية المنحرفة عن فطرة الزواج، وغير ذلك. وهذا المقطع يقرر كرامة المرأة، واستقلالها الذاتي، فهي أحق بنفسها ومالها، ثم ينتقل إلى بيان المحرمات من النساء في الزواج وتنظيم الأسرة، مما يسمَّى اليوم بالأحوال الشخصية.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣) ۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾.

يمكن أن نقسم هذا المقطع إلى أربع فقرات:

الفقرة الأولى: كرامة المرأة واستقلالها بنفسها ومالها، من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ ﴾إلى قوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

والفقرة الثانية: المحرمات من النساء.

والفقرة الثالثة: نكاح الإماء.

والفقرة الرابعة والأخيرة: تعقيب ومواعظ.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾. قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت الآية [١]. وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان ذلك لهم في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ ﴾ [٢].

الإرث حقيقة مصير الكسب إلى شخص عقب شخص آخر، وأكثر ما يستعمل في مصير الأموال. وتعدية فعل ﴿ أَن تَرِثُواْ ﴾إلى ﴿ ٱلنِّسَآءَ ﴾، وتنزيل النساء منزلة الأموال الموروثة لإفادة تبشيع الحالة التي كانوا عليها في الجاهلية [٣]. وكانت هذه السيرة لازمة في الأنصار وكانت في قريش مباحة مع التراضي. ومعنى الآية: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالأموال

---

(١) البخاري (٤٥٧٩، ٦٩٤٨).

(٢) رواه ابن جرير من طريق محمد بن فضيل عن يحيى بن سعيد عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه سهل ؛ وهو طريق جيد. جامع البيان، الطبري (٤/ ٢٠٧).

(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٨٢-٢٨٣).



يورثن عن الرجال الموتى كما يورث المال [١]. وقد رجح الطبري رحمه الله هذا المعنى بعد أن أورد روايات كثيرة بطرق مختلفة عن التابعين أن هذا العمل كان في الجاهلية، فأنزلت الآية لتحريمه [٢].

وهكذا نلاحظ أن الجاهلية العربية -كغيرها من سائر الجاهليات حول العرب- كانت تعامل المرأة معاملة سيئة، لا تعرف لها حقوقها الإنسانية، فتنزل بها عن منزلة الرجل نزولاً شنيعاً، يدعها أشبه بالسلعة منها بالإنسان. وذلك في الوقت الذي تتخذ منها تسلية ومتعة بهيمية، وتطلقها فتنة للنفوس، وإغراء للغرائز، ومادة للتشهي والغزل العاري المكشوف. وكذلك الجاهلية الحديثة أعادت المرأة في كثير من الجوانب إلى ما كانت عليه في الجاهلية الأولى. وإذا تحدث الغرب اليوم – ومن يسير في ركابهم – عن حرية المرأة، فإنما يريدون حريتها في مقارفة الفاحشة ومقدماتها ؛ من إثارة للغرائز، وإبعاد الرجال عن تكوين الأسرة أو الإخلاص لها. وقد جاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله، ويردها إلى مكانها الطبيعي في كيان الأسرة، وإلى دورها الجدّي في نظام الجماعة البشرية. المكان الذي يتفق مع المبدأ العام الذي قرره في مفتتح هذه السورة: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [٣]. فالغرائز في الرجال والنساء يرفعها الإسلام إلى المشاعر الإنسانية في حياة زوجية ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، وترتبط بروابط الاحترام والمودة والتجمل والرحمة ؛ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]، وجعل سبحانه لهذه الغريزة هدفاً هو النسل القوي الصالح للبقاء، ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾.

فمن فكرة الإسلام عن الإنسان، ومن نظرته إلى الحياة الإنسانية بشقّيها (الذكر والأنثى) كان ذلك الارتفاع الذي لم تعرفه البشرية إلا من هذا المصدر العظيم.

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٦).

(٢) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢٠٩).

(٣) الظلال، سيد قطب (٤/ ٢٦٥).

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾. العضل: المنع والحبس والتضييق [(١)]. أي لا تحبسوهن، وتضيقوا عليهن، وتسيئوا عشرتهن ليفتدين منكم بأموالهن ويختلعن ببعض مهرهن، أو بحق من حقوقهن المالية الواجبة عليكم أو شيئاً من ذلك، على وجه القهر لهنّ والإضرار بهن [(٢)]. والخطاب هنا للأزواج، بدليل قوله: ﴿ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾، وقد روي بطريق حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ ﴾ يقول: لا تقهروهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن؛ يعني الرجل تكون له المرأة، وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر، فيضرّ بها لتفتدي [(٣)]. وأياً ما كان فإن تحريم إضرار الرجل بزوجته يقتضي من باب أولى تحريم الأولياء منع المرأة من الزواج وعضلها كما مرّ في البقرة: ﴿ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وإذا أتت الزوجة بفاحشة جاز لزوجها أن يعضلها ويضيّق عليها حتى تفتدي. وفي الفاحشة هنا قولان:

أحدهما أنها النشوز على الزوج. وروي عن ابن مسعود وابن عباس وقتادة في جماعة [(٤)].

والثاني الزنا. قاله الحسن وعطاء وعكرمة في جماعة.

والصحيح أنها إذا أتت بأي فاحشة كانت، من زنى الفرج، أو بذاءة اللسان جاز للزوج

---

(١) أصل العضل من قولهم : عضلت الناقة إذا نشِب ولدها فلم يسهل خروجه، وعضلت الدجاجة إذا نشِب بيضها. فالعضل الحبس والمنع، والتضييق راجع إلى معنى الحبس. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/ ١٥٩)، (٥/ ٩٥)، وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٣٣٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٥).

(٣) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢١٠). انظر ترجيح الطبري ودليله، والرواية عن ابن عباس وردت بطريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهي طريق جيدة.

(٤) أخرج ابن جرير عن ابن عباس بإسناد حسن، وهو طريق عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾. وهو البغض والنشوز، فإذا فعلت ذلك فقد حل له منها الفدية. الطبري (٤/ ٢١١-٢١٢).

أن يضيق عليها حتى تفتدي. واختار ابن جرير الطبري رحمه الله التعميم واستحسنه ابن كثير وقد جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] [1].

وبعد نهيه سبحانه عن التضييق على الزوجات والإضرار بهن، أمر بحسن صحبتهن والإحسان لهن في المعاشرة والنفقة فقال سبحانه: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [2]، أي طيّبوا أقوالكم لهنّ، وحسنوا أفعالكم وهيآتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال رسول الله ﷺ: « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي » [3]، وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر ؛ يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقة، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، يتودد إليها بذلك. قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني فقال: « هذه بتلك »، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك، وقد قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] [4].

وإذا كانت الحياة الزوجية سكناً وأمناً وسلاماً، وجعل الله بين الزوجين مودة ورحمة، فلا يعني أن لا يكون بين الزوجين شيء من الخلاف أو الكره لبعض التصرفات والأخلاق والعادات التي لا تصل إلى الفاحشة المبينة التي مرّ ذكرها قبل قليل، فلا تفصم عرى الزوجية

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٤١)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٦)، وجامع البيان، الطبري (٤/ ٢١٢).

(٢) لكل أحدٍ عشرة، زوجاً كان أو ولياً، ولكن المتلبس بهذا الأمر الأزواج. والعشرة : المخالطة والممازحة. يقال عاشر معاشرة، وتعاشر القوم واعتشروا. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٨).

(٣) رواه الترمذي عن هشام بن عروة عن أبيه برقم (٣٨٣٠)، وابن ماجة عن ابن عباس رفعه برقم (١٩٦٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٤٦).

لأول خاطر، ولا ينبغي أن تنفك لأول نزوة من العواطف المتقلبة، وحماقة الميل الطائر هنا وهناك، ولهذا يقول الله سبحانه بعد أن أمر بحسن العشرة: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾. ندبت الآية إلى إمساك المرأة مع الكراهة لها، ونبهت على معنيين:

أحدهما: أن الإنسان لا يعلم وجوه الصلاح، فرب مكروه عاد محموداً، ومحمود عاد مكروهاً.

والثاني: أن الإنسان لا يكاد يجد محبوباً ليس فيه ما يكره، فليصبر على ما يكره لما يحب [(١)].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « المرأة كالضِّلَع، إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عِوَج » [(٢)].

وقال النبي ﷺ: « لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر » [(٣)]. ولعل ما يوجد في المرأة من العوج بسبب غلبة عاطفتها، التي هي ضرورية في الحياة الزوجية، وفي تربية الأولاد والعطف عليهم، أو بسبب إفرازات الغدد الصماء التي لها علاقة في الدورة الشهرية والمبايض، والله أعلم.

ومن فصاحة القرآن العموم الذي في لفظة « شيء » في قوله سبحانه: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا ﴾، لأنه يطرد هذا النظر في كل ما يكرهه المرء ممّا يجمل الصبر عليه، فيحسن الصبر، إذ عاقبته إلى خير إذا أريد به وجه الله [(٤)].

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٤٢).

(٢) رواه البخاري (٥١٨٤)، ومسلم (١٤٦٨)، وعند أحمد في مسنده: « لا تستقيم لك المرأة على خليقة واحدة، إنما هي كالضلع...» الحديث، برقم (٩٥٠٣، ١٠٠٧١، ١٠٤٧٥).

(٣) صحيح مسلم (١٤٦٩). ويَفْرك - بفتح الياء والراء وإسكان الفاء بينهما - يبغض. فَرِكه يفرَكه إذا أبغضه، والفَرْك: البغض. صحيح البخاري بشرح النووي (٥/ ٣١٥).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٨).



وهذه حكمة عظيمة ؛ إذ قد تكره النفوس ما في عاقبته خير. فبعضه يمكن التوصل إلى معرفة ما فيه من الخير عند غوص الرأي، وبعضه قد علم الله أن فيه خيراً، لكنه لم يظهر للناس. والمقصود من هذا: الإرشاد إلى إعماق النظر وتغلغل الرأي في عواقب الأشياء، وعدم الاغترار بالبوارق الظاهرة، ولا بميل الشهوات إلى ما في الأفعال من ملائم، حتى يسبره بمسبار الرأي، فيتحقق سلامة حسن الظاهر من سوء خفايا الباطن [1].

ولا جرم أن الكراهية تعقبها إرادة استبدال المكروه بضدّه، فلذلك عطف الشرط على الذي قبله استطراداً واستيفاءً للأحكام، فقال سبحانه:

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾.

مضى في الآية المتقدمة حكم الفراق الذي سببه المرأة، وأن للزوج أخذ المال منها، وهنا يبين سبحانه ذكر الفراق الذي سببه الزوج، فإذا كره الرجل زوجته ولم يستطع الصبر عليها بعد التجمل والمحاولة، وأراد فراقها بالطلاق، واستبدال زوجة أخرى مكانها، فلا يأخذن مما كان أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قد أصدقها مالاً كثيراً [2]. وإنما خصّ النهي عن أخذ شيء مما أعطى بحال الاستبدال وإن كان المنع عاماً لئلا يظن ظان أنه لما عاد البضع إلى ملكها وجب أن يسقط حقها من المهر، أو يظن ظان أن الثانية أولى بالمهر منها لقيامها مقامها [3].

وينبغي أن نعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا ﴾ لا يدل على جواز إيتاء القنطار، كما أن قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولا يدل على حصول الآلهة ؛ والحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٨٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٦).

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٤٣).



شرطاً لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع [١].

أما ما رواه الحافظ أبو يعلى بسنده عن مسروق قال: « ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ، ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها، فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم، قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم ؟ قال: نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ؟ قال: وأي ذلك ؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾. قال: فقال: اللهم غفراً، كل الناس أفقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس، إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. قال أبو يعلى: وأظنه قال: « فمن طابت نفسه فليفعل » [٢].

فإن كان البعض يرى أن هذه الرواية تدل على جواز المغالاة في المهور، فالذي يظهر أنها تدل على أنه لا يجوز مصادرة شيء من حق المرأة في المهر كثيراً كان أو قليلاً، وتراجع عمر عن تحجير المباح لئلا يتدخل أولياء الأمور في حقوق النساء بحجة تحجير المباح. ولعل من الأغنياء من يحب أن يمنح زوجته مهراً كبيراً لا يساوي هذا المهر شيئاً بالنسبة إلى نفقاته بشكل عام وبالنسبة إلى ثروته وأرباحه. فإذا أعطى عن طيب نفس فقد ملكته الزوجة، ولا يجوز لأحد أن يأخذه منها؛ لا زوجها ولا غيره ممن يدعي تحجير المباح لمصلحة عامة. وتحريم المغالاة

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٧٥-١٧٦).

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٦٧). وقال : إسناده جيد قوي. وقد روى الشطر الأول منه مع ذكر عمر لما يسببه كثرة المهر من العداوة في نفس الزوج. الإمام أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة عن أبي العجفاء السلمي، برقم (٢٧٢). ورواه أصحاب السنن من طرق عن محمد بن سيرين عن أبي العجفاء.

في المهور دليله تحريم المفسدة الكبيرة التي تعارض أهداف الإسلام في تكوين الأسرة، عندما يتباهى الناس في كثرة مهور النساء، ويعسر على كثير من الشباب الزواج لغلاء المهور، ويسهل عليهم الزنا ليسره وسهولته، وخصوصاً عند وجود المثيرات الجنسية الداعية إليه، حينئذ تحصل المفسدة الكبرى بالنسبة للشباب والشابات، وهذا ما يريده أعداء الإسلام. ولذلك نقول لمن يغالي في مهور النساء ويظنها سلعة إنك قد أفسدت سعادة من توليت أمر نكاحها، فربما لا يوجد من يدفع فيها هذا الثمن، إلا من أهل الفساد والدخل المحرم، والرسول ﷺ يقول: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[1]، وقال رسول الله ﷺ: « إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة »[2]، وقال ﷺ: « يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها »[3].

وخلاصة هذا الموضوع أن كثرة المهر وقلته مباح يتفق عليه بين الطرفين، وللزوج الذي وسع الله عليه أن يزيد مهر زوجته ما طابت به نفسه، على أن لا يكون ذلك مفاخرة يقلد الناس فيها بعضهم، فيؤدي ذلك إلى صعوبة النكاح، ويترتب عليه كارثة اجتماعية للشباب والشابات. والأفضل على كل حال - ولو كان الزوج غنياً - تيسير المهور وعدم المغالاة فيها.

وجعل الله سبحانه أخذ شيء من مهر الزوجة بهتاناً وإثماً مبيناً واضحاً فقال: ﴿ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾. والبهتان: كذب يحير الإنسان لعظمته، ثم جعل كل باطل يتحير منه بهتاناً. وكان دأبهم قبل الإسلام إذا أرادوا تطليق الزوجة رموها بالفاحشة حتى تخاف وتشتري نفسها من زوجها بذلك المهر. والظاهر من حال المسلم أنه لا يخالف أمر الله، لكنه إذا أخذ من زوجته شيئاً فقد طعن في ذاتها ؛ لأن أخذ المال عند الطلاق مظِنَّة بأنها أتت ما لا يرضي الزوج، فقد يصد ذلك الراغبين في التزوج عن خطبتها ؛ ولذلك جعل الله ذلك الأخذ بهتاناً، ثم إن أخذ

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٤، ١٠٨٥)، وابن ماجه (١٩٦٧).

(٢) مسند أحمد (٢٤٠٠٨).

(٣) مسند أحمد عن عائشة (٢٤٠٨٦).

المال بغير حق ظلم فهو إثم مبين [١].

وينكر الله في ختام الآية على من يأخذ مهر زوجته بغير حق إذا أراد طلاقها، ويذكّر سبحانه بالعلاقة بين الزوجين وروابطها القوية:

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾.

تعليل لمنع الأخذ بعد الإفضاء [٢]:

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ ﴾ استفهام تعجبي بعد الإنكار، أي ليس من المروءة أن تطمعوا في أخذ عوض عن الفراق بعد معاشرة امتزاج وعهد متين.

وجاء لفظ الإفضاء ﴿ أَفْضَىٰ ﴾ مطلقاً، يشعّ كل معانيه، ويلقي كل ظلاله، ويسكب كل إيحاءاته. ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل يشمل العواطف والمشاعر، والوجدانات والتصورات، والأسرار والهموم، والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب. يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتها فترة من الزمان؛ وفي كل اختلاجة حب إفضاء، وفي كل نظرة ود إفضاء، وفي كل لمسة جسم إفضاء، وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء، وفي كل تفكر في حاضر أو مستقبل إفضاء، وفي كل شوق إلى خلف إفضاء، وفي كل التقاء في وليد إفضاء.

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحي العجيب: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾، فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادي الصغير ويستحيي الرجل أن يطلب بعض ما دفع، وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٠٢).



من صور الماضي، وذكريات العشرة في لحظة الفراق الأسيف [1] !

ولا يخرج ما ذكرناه من الظلال الواسعة لمعنى الافضاء عن ما روي عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغير واحد: إن الإفضاء يعني الجماع، فالجماع لطلب النسل شيء أساسي في الحياة الزوجية لكن الجماع في الحياة الزوجية الإنسانية ليس غريزة حيوانية تنتهي بزمن يسير إنما يتبع ذلك ويسبقه مشاعر وعواطف وآمال وسعادة وحب، قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

ثم يضم إلى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر عاملاً آخر من لون آخر: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾، أي عهداً شديداً، وهو عقد الزواج الذي أحل الله به النكاح، ويدخل فيه أنه: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والذي جاء في الآية الأخرى أيضاً: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها: « فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله... » [2].

وخلاصة الموضوع في شأن الزوجات أن سوء العشرة إما أن يكون من قبل الزوج، وإما أن يكون من قبل الزوجة ؛ فإن كان من قبل الزوج حرم عليه أن يأخذ شيئاً من مهر زوجته، وإذا كان النشوز من قبل المرأة، فههنا يحل أخذ بدل الخلع لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ [3].

الفقرة الثانية من هذا المقطع: المحرمات من النساء:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾، إلى قوله تعالى:

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٢) صحيح مسلم (١٢١٨)، وأبو داود في سننه (١٩٠٥).

(٣) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٧٦).



﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

عقب الحديث عن الأسرة وكرامة المرأة فيها، يأتي تنظيم جانب من جوانبها ببيان المحرمات (من يحرم زواجها) من النساء في الشريعة الإسلامية، ومن لا يحرم، فبدأ بتحريم نكاح زوجة الأب، لأن بعضهم كان يفعل ذلك، فقد نزلت هذه الآية في قوم كانوا يخلفون على حلائل آبائهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فحرم الله تبارك وتعالى عليهم المقام عليهن وعفا لهم عما كان سلف منهم في جاهليتهم وشركهم إذا هم اتقوا الله وأطاعوه في ذلك. روى ابن أبي حاتم بسنده عن عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار [والصحابة عدول] قال: لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - وكان من صالحي الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته، فقالت: إنما أعدك ولداً، وأنت من صالحي قومك، ولكني آتي رسول الله ﷺ، فقالت: إن أبا قيس توفي، فقال: « خيراً »، ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبني، وهو من صالحي قومه، وإنما كنت أعده ولداً، فما ترى ؟ فقال لها: « ارجعي إلى بيتك ». قال: فنزلت: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ الآية [1].

وروى ابن جرير بسنده عن عكرمة في قوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾. قال: نزلت في أبي قيس بن الأسلت، خلف على أم عبيد الله ضمرة، وكانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خلفُ على ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد كانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها صفوان بن أمية، وفي منظور بن رباب، وكان خلف على مليكة ابنة خارجة، وكانت عند أبيه رباب بن سيار [2].

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله، إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٨).

(٢) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢١٧-٢١٨).

﴿ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾[1].

فحرم الله تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها. وهذا أمر مجمع عليه. ولم يكتف الله سبحانه بالنهي عنه بل وصفه بأبشع الأوصاف فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فزاد ههنا: ﴿ وَمَقْتًا ﴾، أي بغضاً؛ فهو أمر كبير في نفسه، ويؤدّي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من يتزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله، ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو عليه الصلاة والسلام كالأب؛ بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه[2].

فسمّى الله تعالى هذا النكاح مقتاً، إذ هو ذا مقت يلحق فاعله، وكانت العرب تسمي الولد الذي يجيء من زوج الوالد: « المقتي »، وقوله: ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾، أي بئس الطريق والمنهج لمن يسلكه، إذ عاقبته إلى عذاب الله[3]. ويظهر من الآية بشكل واضح أنه يحرم تحريماً باتاً - مع التفظيع والتبشيع - أن ينكح الأبناء ما نكح آباؤهم من النساء.

ويبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات:

الأول أن امرأة الأب في مكانة الأم.

---

(١) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٨).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣١).

والثاني أن لا يخلف الابن أباه، فيصبح في خياله نداً له. وكثيراً ما يكره الزوج زوج امرأته فطرة وطبعاً، فيكره أباه ويمقته، وقد أشرنا إلى هذا من قبل.

والثالث: أن لا تكون هناك شبهة الإرث لزوجة الأب. الأمر الذي كان سائداً في الجاهلية وهو معنىً كريه يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء، وهما من نفس واحدة، ومهانة أحدهما مهانة الآخر بلا مراء [١].

ثم تذكر الآيات بقية من يحرم نكاحهنّ من النساء: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾.

والحرمة نوعان: حرمة مؤبدة، وحرمة غير مؤبدة.

النوع الأول: الحرمة المؤبدة ؛ فالحرمة المؤبدة ثلاثة أقسام: المحرمات بسبب النسب، والمحرمات بسبب الرضاع، والمحرمات بسبب المصاهرة.

القسم الأول: المحرمات بسبب النسب سبع:

١- يحرم على الرجل أصوله مهما علوا؛ فيحرم عليه التزوج من أمه وجداته من جهة أبيه أو من جهة أمه مهما علون، لقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾، والأم اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، فيدخل في ذلك الأم الدنيا، وأمهاتها وجداتها، وأم الأب وجداته وإن علون.

٢- ويحرم على الرجل نكاح فروعه مهما نزلوا، فيحرم عليه التزوج ببناته، وبنات أولاده ذكورهم وإناثهم مهما نزلوا، قال تعالى: ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾. والبنت اسم لكل أنثى لك عليها ولادة، وإن شئت قلت: كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو درجات ؛ فيدخل في ذلك بنت الصلب وبناتها، وبنات الأبناء وإن نزلن [٢].

٣- ويحرم على الرجل فروع أبويه مهما نزلوا ؛ فيحرم على الرجل الزواج من أخته، والأخت

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٦٩-٢٧٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٠٨).



كل من جمعه وإياها صلب أو بطن، فيدخل في ذلك الأخت الشقيقة، والأخت لأب والأخت لأم، قال تعالى: ﴿ وَأَخَوَٰتُكُمۡ ﴾.

٤- وقولنا فروع أبويه يدخل فيه أولاد الإخوة مهما نزلوا، لقوله تعالى: ﴿ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ ﴾.

٥- ويدخل في فروع الأبوين أولاد الأخوات مهما نزلوا، لقوله تعالى: ﴿ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ ﴾.

٦- الفروع المباشرة فقط لأجداد الرجل، ولا يحرم عليه فروعهم غير المباشرة للأجداد، فيحل الزواج بهم؛ ولذلك يباح التزاوج بين أولاد الأعمام والعمات، وأولاد الأخوال والخالات.

ويحرم على الرجل الزواج من عمته أخت أبيه، وكذلك عمة أبيه، وعمة أمه، وكذلك عمة العمة، لقوله تعالى: ﴿ وَعَمَّٰتُكُمۡ ﴾.

٧- ويحرم على الرجل الزواج من خالته، والخالة أخت الأم، قال تعالى: ﴿ وَخَٰلَٰتُكُمۡ ﴾ وكذلك يحرم عليه خالة أبيه، وخالة أمه. وأما خالة العمة ؛ فينظر، فإن كانت العمة أخت أب لأم، أو لأب وأم، فلا تحل خالتها ؛ لأنها أخت الجدة. وإن كانت العمة إنما هي أخت أب لأب فقط، فخالتها أجنبية من بني أخيها، تحل للرجال، ويجمع بينها وبين النساء [(١)]. فالأخت لأب فقط هي عمة من جهة الأب، وخالتها لا صلة قرابة بها لا من جهة الأم ولا من جهة الأب، وليست أخت جد ولا أخت جدة.

قال السمعاني: « الخالة أخت كل امرأة تنسب إليها بالولادة، قربت أم بعدت » [(٢)].
وكذلك عمة الخالة، ينظر فإن كانت الخالة أخت أم لأب فعمتها حرام، لأنها أخت جد، وإن كانت الخالة أخت أم لأم فقط فعمتها أجنبية من بني أختها [(٣)].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣١).
(٢) تفسير السمعاني (١/ ٤١١).
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٢).

والقسم الثاني: **المحرمات بسبب الرضاع: نصت الآية على صنفين من المحرمات بسبب الرضاع في قوله سبحانه:** ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ وألحقت السنة ببيانها إنزال الرضاعة منزلة النسب، ألا ترى أن الله سمّى المرضعة أماً للرضيع والتي رضعت معه أختاً [1]. قال النبي ﷺ: « إن الرضاعةَ تُحَرِّم ما يَحْرُمُ من الولادة » [2]. فالأب من الرضاعة أب، وأخوه عم. روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن أفلحَ أخا أبي القُعَيْس جاء يستأذن عليها وهو عمها من الرضاعة بعد أن نزل الحجاب، فأبيت أن آذن له، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته بالذي صنعتُ، فأمرني أن آذن له [3]. وكان أبو القعيس زوج المرأة التي أرضعت عائشة رضي الله عنها [4].

وقالوا: تحريم الرضاع كتحريم النسب إلا في مسألتين:

إحداهما: أنه لا يجوز أن يتزوج أخت ابنه من النسب، ويجوز أن يتزوج أخت ابنه من الرضاع؛ لأن المانع في النسب وطؤه لأمها، وهذا المعنى غير موجود في الرضاع.

والثانية: أنه لا يجوز أن يتزوج أم أخيه من النسب، ويجوز في الرضاع (فيما لو أرضعتهما أخرى)؛ لأن المانع في النسب وطء الأب إياها، وهذا المعنى غير موجود في الرضاع [5].

والقسم الثالث: التحريم بالمصاهرة أربع:

١- أصول الزوجة مهما علون، فيحرم على الرجل الزواج بأم زوجته، وجدات زوجته من جهة أبيها، أو من جهة أمها مهما علون. وتتحقق الحرمة بمجرد العقد على المرأة، دخل بها أو لم يدخل، لقوله تعالى: ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ ﴾.

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٦٠).

(٢) رواه البخاري عن عائشة، برقم (٢٦٤٦)، ومسلم (١٤٤٤).

(٣) رواه البخاري (٥١٠٣، ٢٦٤٤)، ومسلم (١٤٤٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١١١).

(٥) الكشاف، الزمخشري (١/ ٥٢٦).

٢- فروع الزوجة مهما نزلن، فيحرم على الرجل الزواج ببنت زوجته، وبنات أولادها؛ ذكوراً كانوا أم إناثاً، ويشترط في هذا التحريم الدخول بالزوجة حتى تحرم البنت، لقوله تعالى: ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾. والربيبة: بنت الزوجة من زوج آخر، سميت بذلك لأنه يربيها في حجره، فهي مربوبته، وربيبة « فعيلة » بمعنى « مفعولة ». والقيد في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ لا مفهوم له ؛ لأن الأغلب أن بنت المرأة تعيش مع أمها في بيت زوج أمها، فالقيد خرج مخرج الغالب وتقرير الواقع، وهي محرمة وإن كانت في غير الحجر [١].

٣- زوجات الأب والأجداد من الجهتين مهما علوا، فيحرم على الرجل الزواج بزوجة أبيه وزوجة أحد أجداده من جهة أبيه أو من جهة أمه مهما علوا، لما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ الآية.

٤- زوجات الأبناء وأبناء الأولاد مهما نزلوا، فيحرم على الرجل التزوج بزوجة ابنه من صلبه، وامرأة ابن ابنه، أو ابن ابنته وإن نزلوا، لقوله تعالى: ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾. والتخصيص بالأولاد الذين من الأصلاب ليخرج عنه كل من كانت العرب تتبناه ممن ليس للصلب. ولما تزوج النبي ﷺ امرأة زيد بن حارثة قال المشركون: تزوج امرأة ابنه، وقد أمره الله بهذا الزواج ليبطل عادات الجاهلية عملياً، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وتحرم زوجة الابن من الرضاع وإن لم يكن للصلب بالإجماع المستند إلى قوله ﷺ: «إن الرضاعة تُحرِّم ما يَحْرُم من الولادة» [٢].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٢).

(٢) مرّ الحديث قبل قليل. رواه البخاري (٢٦٤٦)، ومسلم. وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٢- ٣٣)،=

النوع الثاني من تحريم نكاح النساء: الحرمة غير المؤبدة ؛ وهذه الحرمة لسبب، فإذا زال السبب جاز الزواج من هذه المرأة.

١- تحريم أخت الزوجة ما دامت زوجته على قيد الحياة وفي عصمته. فإذا توفيت زوجته أو طلقها وانقضت عدتها جاز له أن يتزوج أختها؛ لأنه قد زال سبب الحرمة، وهو الجمع بينها وبين أختها، لقوله سبحانه: ﴿ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾، وعن فيروز الديلمي قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني أسلمت وتحتي أختان، فقال رسول الله ﷺ: « اختر أيتهما شئت »[١]. وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما لا يحل ذلك في النكاح، وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » إلى آخر الآية، أن النكاح في هؤلاء وملك اليمين سواء. وكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب. وكذلك هو عند جمهورهم، وهو الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها[٢].

٢- وألحقت السنة التي وردت بطرق كثيرة اعتبرها البعض متواترة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، وبين المرأة وابنة أخيها، والمرأة وابنة أختها، لقوله ﷺ: « لا يُجْمَع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها »[٣]. وعند الترمذي: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها، أو العمة على ابنة أخيها، أو المرأة على خالتها، أو الخالة على بنت أختها

= وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٠-٤٧٢).

(١) الترمذي (١١٢٩). وقال الترمذي : حديث حسن، ورواه ابن ماجة أيضاً بإسناد آخر (١٩٥٠) بلفظ : « إذا رجعت فطلق إحداهما »، وأبو داود بمثل رواية الترمذي (٢٢٤٣)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٣).

(٣) البخاري (٥١٠٩، ٥١١١) بلفظ: « لا يجمع »، وبلفظ: نهى رسول الله ﷺ، ومسلم (١٤٠٨)، وغيرهما.

ولا تنكح الصغرى على الكبرى، ولا الكبرى على الصغرى »[١]. وروي عن الشعبي أنه قال: كل امرأتين إذا جعلت موضع إحداهما ذكراً لم يجز له أن يتزوج الأخرى، فالجمع بينهما باطل، فقيل له: عمّن هذا ؟ قال: عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال سفيان الثوري: تفسيره عندنا أن يكون من النسب، ولا يكون بمنزلة امرأة وابنة زوجها يجمع بينهما إن شاء.

وقد ورد في بعض الأخبار التنبيه على العلّة في منع الجمع بين ما ذُكر، وذلك ما يفضي إليه الجمع من قطع الأرحام القريبة، مما يقع بين الضرائر من الشنآن والشرور بسبب الغيرة فروى ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج الرجل المرأة على العمة أو على الخالة وقال: إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم [٢].

٣- النساء المتزوجات: لأنهن في عصمة رجال آخرين، فلا يجوز الزواج من امرأة متزوجة، ولا معتدة عدة طلاق أو وفاة، لأنها في حكم المتزوجة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، فعطف المحصنات على المحرمات، والمحصنة هنا المتزوجة، وأصله من الحِصن، وتحصَّن إذا اتخذ الحصنَ مسكناً، ثم يتجوز به في كل تحرز، ومنه درع حصينة لكونها حصناً للبدن. وامرأة حصان وحاصن، ويقال: حَصَان للعفيفة ولذات حرمة. ويقال: امرأة محصَن ومحصِن، فالمحصِن يقال إذا تُصُوِّرَ حِصنها من نفسها، والمحصَن يقال إذا تصور حِصنها من غيرها. فقوله سبحانه: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ بعد قوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ المزوَّجات، بفتح الصاد لا غير، لأن اللواتي حرم التزوج بهن المزوجات، وفي سائر المواضع بالفتح والكسر ؛ لأن العفيفات غير محرمات [٣].

وعلى هذا فمعاني « الإحصان » في الشريعة الإسلامية أربعة:

١- **العفة**: قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾

(١) سنن الترمذي (١١٢٦)، وأبو داود (٢٠٦٥)، ومسند أحمد (٩٢١٦).
(٢) انظر القرطبي (٥/ ١٢٦).
(٣) المفردات في غريب القرآن ص ١٢١.



[المائدة: ٥]، بمعنى العفيفات من المؤمنات والعفيفات من الكتابيات. وقال: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ﴾ [الأنبياء: ٩١]، أي أعفته. وقال: ﴿ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ [المائدة: ٥].

٢- **الحرية**: قال تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [النساء: ٢٥]، أي عقوبة الأمة المملوكة نصف عقوبة الحرة. وكذلك قوله: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾، أي الحرائر.

٣- **التزوج**: قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، أي المتزوجات [1].

٤- **الإسلام**: من ذلك قوله: ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ ﴾ قيل في تفسيره: إذا أسلمن [2].

والوجوه الأربعة مشتركة في المعنى الأصلي اللغوي، وهو المنع. فالحرية سبب لتحصين الإنسان من نفاذ حكم الغير فيه، والعفة أيضاً مانعة للإنسان عن الشروع فيما لا ينبغي، وكذلك الإسلام مانع من كثير مما تدعو إليه النفس والشهوة، والزوج أيضاً مانع للزوجة من كثير من الأمور، والزوجة مانعة للزوج من الوقوع في الزنا [3].

واستثنى الله سبحانه المسبيَّات في القتال مع المشركين، فإنها وإن كان لها زوج من الكفار قبل السبي، فإذا ملكها المسلم بعد السبي استبرأ رحمها بحيضة ثم غشيها إن شاء. وسبب نزول الآية ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أصبنا سبياً من سبي أوطاس ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾. قال: فاستحللنا فروجهن [4].

---

(١) انظر المحرر الوجيز (٢/ ٣٤).

(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٨٩).

(٣) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٨٩-١٩٠).

(٤) مسند أحمد (١١٢٩٤، ١١٣٨٨)، وبنحوه عند مسلم (١٤٥٦)، وبمثل رواية مسلم عند النسائي وأبي داود.

ويدل على الاستبراء بحيضة قول النبي ﷺ في سبي أوطاس: « لا يقع على حامل حتى تضع، وغير حامل حتى تحيض حيضة »[١].

وقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾، أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، وقوله: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ ﴾، أي ما عدا من ذكرن من المحارم هن لكم حلال. على أن تحصلوا بأموالكم من الزوجات ما شئتم بالطريق الشرعي، ولهذا قال: ﴿ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ ﴾، أي متعففين عن الزنا غير زانين[٢]. وفي قوله تعالى: ﴿ بِأَمۡوَٰلِكُم ﴾ دليل على وجوب المهر دون بيان قلة أو كثرة. ويؤكد الله سبحانه حق المرأة بالمهر بعد الدخول فيقول: ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ ﴾، وهذا نصّ على أن المهر يُسمّى أجراً؛ لأن ما يقابل المنفعة يسمّى أجراً، فالزوج لا يملك زوجته بالمهر، إنما المعقود عليه في النكاح منفعة البضع وحل التمتع ببدن المرأة[٣]. وأشار الله سبحانه إلى جواز ما يتراضى به الزوجان من حط أو تأخير بعد استقرار الفريضة، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ ﴾، وناسب ختم الآية بذكر الوصفين العلم والحكمة بعد شرع المحرمات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[٤].

وليس المراد بقوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ ﴾ نكاح المتعة. وما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يحلها للضرورة فقد رجع عن ذلك. روى

---

(١) رواه أحمد (١٠٨٤٤) عن أبي سعيد الخدري، ورواه أبو داود في النكاح (٢١٥٧)، والدارمي (٢٢٩٥).

(٢) ابن كثير (١/ ٤٧٣-٤٧٤). والسفاح : الزنا، وهو مأخوذ من سفح الماء، أي صبه وسيلانه. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٢٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٥)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٦، ٣٧)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٥).

الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « إنما كانت المتعة في أول الإسلام، كان الرجل يَقْدُم البلدة ليس له بها معرفة، فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أنه يقيم، فتحفظ له متاعه وتصلح له شيئه، حتى إذا نزلت الآية: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ [المؤمنون: ٦] قال ابن عباس: « فكل فرج سوى هذين فهو حرام » [١]. وقال الخطابي: تحريم المتعة كالإجماع، إلا عن بعض الشيعة، ولا يصح في الرجوع في المخالفات إلى علي وآل بيته، فقد صح أنها نسخت. ونقل البيهقي عن جعفر بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال: « هي الزنا بعينه » [٢].

ثم إن الأحاديث الشريفة جاءت مصرحة بتحريم المتعة، منها ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمُر الإنسية [٣]. وجاء النص على التحريم الأبدي عند مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال: « يا أيها الناس ؛ إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخلِّ سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » [٤].

وقال ابن الجوزي في تفسيره: « وقد تكلف قوم من المفسرين فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلف لا يحتاج إليه؛ لأن النبي ﷺ أجاز المتعة ثم منع منها، فكان قوله منسوخاً بقوله (يعني بالسنة). وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة، وإنما المراد بها الاستمتاع في النكاح، لأنه تعالى قال فيها: ﴿ أَن

---

(١) سنن الترمذي (١١٢٢).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (١١/ ٤٤٦)، وقال ابن حجر في فتح الباري أيضاً : وقد روي عن ابن عباس روايات عديدة في الرجوع عن فتواه - أي في حل المتعة للضرورة - يقوي بعضها بعضاً.

(٣) البخاري (٤٢١٦)، وفي رواية أن علياً قال لابن عباس : نهى رسول الله ﷺ... الحديث ». ورواه مسلم (١٤٠٧)، وأخرج الرواية الترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد والدارمي.

(٤) مسلم (١٤٠٦)، وابن ماجة (١٩٦٢)، وسنن الدارمي (٢١٩٥).

تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ ﴾، فدلّ ذلك على النكاح الصحيح »[١].

ثم إن القاعدة الأولى في المجتمع الإسلامي تقوم على قاعدة الأسرة، وصيانة هذه الأسرة من كل شائبة ومن كل اختلاط في الأنساب.

والأسرة القائمة على الزواج العلني الذي تتخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه، ويتم به الإحصان -وهو الحفظ والصيانة- هي أكمل نظام يتفق مع فطرة الإنسان وحاجته الحقيقية والناشئة من كونه إنساناً، لحياته غاية أكبر من غاية الحياة الحيوانية - وإن كانت تتضمن هذه الغاية في ثناياها - ويحقق أهداف المجتمع الإنساني، كما يضمن لهذا المجتمع سلم الضمير، وسلم البيت، وسلم المجتمع في نهاية المطاف.

والملاحظ بصفة ظاهرة أن الطفل الإنساني يحتاج إلى رعاية أطول من الفترة التي يحتاج إليها طفل أي حيوان آخر. كما أن التربية التي يحتاج إليها ليصبح قادراً على إدراك مقتضيات الحياة الإنسانية الاجتماعية المترقِّية - التي يتميز بها الإنسان - تمتد إلى فترة طويلة أخرى.

وإذا كانت غاية الميل الجنسي في الحيوان تنتهي عند تحقيق الاتصال الجنسي والتناسل والتكاثر، فإنها في الإنسان لا تنتهي عند تحقيق هذا الهدف، إنما هي تمتد إلى هدف أبعد، هو الارتباط الدائم بين الذكر والأنثى - بين الرجل والمرأة - ليتم إعداد الطفل الإنساني لحماية نفسه وحفظ حياته، وجلب طعامه وضرورياته، كما يتم - وهذا هو الأهم بالنسبة لمقتضيات الحياة الإنسانية - تربية هذا الطفل وتزويده برصيد من التجارب الإنسانية والمعرفة الإنسانية يؤهله للمساهمة في حياة المجتمع الإنساني، والمشاركة في حمل تبعته من اطراد الترقي الإنساني عن طريق الأجيال المتتابعة.

ومن ثم لم تعد اللذة الجنسية هي المقوم الأول في حياة الجنسين في عالم الإنسان ؛ إنما هي مجرد وسيلة ركبتها الفطرة الربانية فيها ليتم الالتقاء بينهما، ويطول بعد الالتقاء الجنسي للقيام

(١) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٣، ٥٤).



بواجب المشاركة في اطراد نمو النوع. ولم يعد الهوى الشخصي هو الحكم في بقاء الارتباط بين الذكر والأنثى، إنما الحكم هو واجب النسل الضعيف الذي يجيء ثمرة للالتقاء بينهما وواجب المجتمع الإنساني الذي يحتم عليهما تربية هذا النسل إلى الحد الذي يصبح معه قادراً على النهوض بالتبعة الإنسانية، وتحقيق غاية الوجود الإنساني.

وكل هذه الاعتبارات تجعل الارتباط بين الجنسين على قاعدة الأسرة، هو النظام الوحيد الصحيح. كما تجعل تخصيص امرأة لرجل هو الوضع الصحيح الذي تستمر معه هذه العلاقة والذي يجعل «الواجب» لا مجرد اللذة ولا مجرد الهوى هو الحكم في قيامها، ثم في استمرارها ثم في معالجة كل مشكلة تقع في أثنائها، ثم عند فصم عقدتها عند الضرورة القصوى [1].

ومن حِكَم تحريم النساء أن الله جل ثناؤه جعل بين الناس ضروباً من الصلة يتراحمون بها ويتعاونون على جلب المنافع ودفع المضار، وأقوى هذه الصلات صلة القرابة، واقتضت طبيعة الوجود والتكاثر تكوين الأسرة، والأسرة محتاجة إلى الاختلاط بين أفرادها بسبب صلة النسب وبعض القرابة المتفرعة عن النسب، فلو أبيح الزواج من المحارم لتطلعت النفوس إليهن وكان فيهن مطمع، والنفوس بطبعها مجبولة على الغيرة، فيغار الرجل من ابنه على أمه وأخته، وذلك يدعو إلى النفرة الشديدة، والإيذاء من الأقارب أشد إيلاماً، أما إذا حصلت المحرمية انقطعت الأطماع، وانحبست الشهوة، فلا يحصل ذلك الضرر [2].

ثم إن هناك حكمة وراثية حيوية، وهي أن تزوج الأقارب بعضهم ببعض يكون سبباً لضعف النسل، حيث يخلق الولد ضاوياً (أي نحيفاً) لتجمع العلل الوراثية فيه، حيث تتركز استعدادات الضعف الوراثية وتتأصل في الذرية، على عكس ما إذا تركت الفرصة للتلقيح الدائم بدماء أجنبية جديدة (أي من خارج الأقارب) تضاف استعداداتها الممتازة، فتجدد حيوية الأجيال واستعداداتها. وأشار الإمام الغزالي إلى ذلك وعلله بأن الشهوة إنما تنبعث بقوة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٠-١١).
(٢) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٨٠-١٨١).



الإحساس بالنظر أو اللمس، وإنما يقوى الإحساس بالأمر الغريب الجديد، فأما المعهود فإنه يضعف الحس ولا تنبعث به الشهوة [١].

الفقرة الثالثة من المقطع: نكاح الإماء:

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

بمناسبة الحديث عن ما يحل وما يحرم من النساء يبين الله سبحانه حكم تزوج الحر من الأمة؛ فهو جائز بشروط:

الشرط الأول: عدم القدرة على نكاح الحرة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾. والطَوْل هنا: السعة والقدرة. والمحصنات: الحرائر العفيفات، يدل عليه التقسيم بينهن وبين الإماء في قوله: ﴿ مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [٢].

ويلاحظ هنا تكريم الإسلام للمرأة ولو كانت في الرق، فأطلق عليها اسم فتاة، والإسلام لا يفرق بين الأحرار وغير الأحرار تفرقة عنصرية تتناول الأصل الإنساني -كما كانت الاعتقادات والاعتبارات السائدة في الأرض كلها يومذاك- إنما يذكر بالأصل الواحد، ويجعل الآصرة الإنسانية والآصرة الإيمانية هما محور الارتباط، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي (٢/ ٤١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٣٩)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٧).

﴿ مِّنۢ بَعۡضٍ ﴾[١].

الشرط الثاني: الإيمان ؛ فلا يجوز نكاح الأمة الكتابية في قول الجمهور، لقوله تعالى: ﴿ مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾، فشرط سبحانه الإيمان في الأمة لئلا تجتمع علتان الكفر والرق. وأما قوله سبحانه: ﴿ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فإنما ذلك لبيان فضل الإيمان. وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ﴾، فاعملوا على ظاهركم في الإيمان، فإنكم متعبدون بما ظهر من بعضكم لبعض، ﴿ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾ في النسب، فكلكم لآدم. ويجوز أن يكون معناه: دينكم واحد، وذكر الإيمان هنا لأن العرب كانت تطعن في الأنساب وتفخر بالأحساب، وتسمي ابن الأمة الهجين، فأعلم الله عز وجل أن أمر العبيد وغيرهم مستوٍ في باب الإيمان.

وإنما كره التزويج بالأمة، وحرم إذا وجد إلى الحرة سبيلاً ؛ لأن أولاد الأمة من الحر يصيرون رقيقاً، ولأن الأمة ممتهنة في عشرة الرجال، وذلك يشق على الزوج[٢].

الشرط الثالث: أن يكون الزواج بإذن السيد، فهو الولي، ولا يصح نكاحها إلا بإذنه لقوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ ﴾.

ويلاحظ أيضاً التكريم الإنساني للإماء، فقد أطلق على الأسياد اسم الأهل، وليس هذا في جاهلية قديمة أو حديثة[٣].

الشرط الرابع: المهر، لقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾، أي وادفعوا مهورهن بالمعروف عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢١).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٦-٥٧).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢١).

الشرط الخامس: العفة الظاهرة، لقوله تعالى: ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾. والمسافحات: الزواني اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بالفاحشة، و﴿ مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ أي لهن أخلاء، والخدن الخليل الواحد المقرّ به، فقد نهى الله عن التزوج بالأمة ما دامت كذلك [١]. وكان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنى ويستحلون ما خفي [٢]. فنهى عن المسافحات المعلنات بالزنى، وعن المتخذات أخدان، ذات الخليل الواحد، فربما كانت المرأة تتخذ صديقاً تزني معه ولا تزني مع غيره [٣].

والشرط السادس والأخير: خوف الوقوع في الزنا. أي إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع بالزنا وشق عليه الصبر عن الجماع، لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ﴾، والعنت: الزنا في أصح الأقوال [٤].

وعلى هذا فشرط التزوج بالأمة في حق من يريد الزواج اثنان:

الأول عدم طَوْل الحرة، والثاني خوف الوقوع في الزنا. وبقية الشروط ؛ من العفة، وإذن الولي، والمهر، والإيمان، فهي شروط لصحة النكاح وجوازه ؛ منها في الأمة، ومنها حق للأمة كالمهر.

ثم ندب الله إلى الصبر عن مثل هذا النكاح لاسترقاق الأولاد، فقال تعالى: ﴿ وأن تصبروا خير لكم، والله غفور رحيم ﴾ لمن فعل وتزوج بهذه الشروط [٥].

وبمناسبة الحديث عن العفة يبين الله حد الأمة إذا زنت فيقول: ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾، أي تزوجن، ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾، والفاحشة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٥).
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٧).
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٨).
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي (٢/ ٣٩).

هنا الزنا، بقرينة إلزام الحد، و﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ هنا الحرائر، إذْ هي الصفة المشروطة في الحد الكامل، والرجم لا يتنصف فليس مراداً في الآية بإجماع، والمراد عند الجمهور نصف المائة، فحدها خمسون جلدة[١].

ويلاحظ أن الإسلام لم يجعل من انحطاط درجة الرقيق سبباً في مضاعفة العقوبة كما كانت قوانين الجاهلية السائدة في الأرض كلها تصنع مع الطبقات المنحطة والطبقات الراقية أو مع الوضعاء والأشراف ؛ تخفف عن الأشراف، وتقسوا على الضعفاء.

وكان اليهود إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد[٢].

وجاء الإسلام ليضع الحق في نصابه، وليأخذ الجاني بالعقوبة مراعياً جميع اعتبارات «الواقع»، وليجعل حد الأمة - بعد الإحصان - نصف حد الحرة قبل الإحصان، فلا يترخص فيعفيها من العقوبة، ويجعل إرادتها ملغاة كلية من ارتكاب الفعل تحت وطأة الظروف، ولا يغفل واقعها كذلك فيعاقبها عقاب الحرة، وواقعها يختلف عن واقع الحرة[٣].

الفقرة الرابعة والأخيرة من المقطع: تعقيب وتحذير من اتباع الشهوات:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

يجيء التعقيب الشامل على تلك الأحكام والتنظيمات التي شرعها الله للأسرة في المنهج

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٩).

(٢) انظر حديث البخاري (٣٤٧٥)، وفيه : « والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »، ومسلم (١٦٨٨)، وغيرهما.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٣-٢٤).

الرباني الحكيم، فيخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها -وما ورد من الأحكام في الآيات الأخيرة من باب أولى- ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾، يعني طرائقهم الحميدة، واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها [١]، وإن اختلفت أحكامنا وأحكامهم حسب علم الله بمصالح السابقين واللاحقين من الأمم [٢].

فهذا المنهج هو منهج الله سنَّه للمؤمنين جميعاً. وهو منهج ثابت في أصوله، موحد في مبادئه، مطّرد في غاياته وأهدافه. هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد، ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون.

بذلك يجمع الله بين المهتدين إلى الله في كل زمان ومكان، ويكشف عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان، ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيماني الموصول في الطريق الرباني المستمرّ الطويل. وهي لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله ومنهجه وطريقه [٣].

﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ من الإثم والمحارم، وتوبة الله على عبده هي رجوعه به عن المعاصي إلى الطاعات وتوفيقه له. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بحسب ما تقدم من سنن الشرائع وموقف المصالح، و﴿ حَكِيمٌ ﴾ ؛ مصيب بالأمور مواقعها بحسب الحكمة والإتقان.

وكرر سبحانه إرادته التوبة على عباده فقال: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ تقوية للإخبار الأول، وليس المقصد في هذه الآية إلا الإخبار عن الذين يتبعون الشهوات، تحذيراً منهم، فقُدمت إرادة الله توطئة مظهرة لفساد إرادة متبعي الشهوات [٤].

وكل عاقل يعلم أن الميل عن الحق إلى الشهوات الجنسية مفسد للمجتمع، ومفسد للنسل

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٩).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٠).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٥).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٠).

كما يسبب العقد النفسية والأمراض الجنسية الخطيرة.

وأتباع الشهوات الذين يريدون أن يميل المؤمنون عن الحق هم أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة وغيرهم ممن أشربت قلوبهم حب الباطل من أهل النفاق والفساد [١].

واللمسة الأخيرة في هذا التعقيب تبين رحمة الله بضعف الإنسان فيما شرع له الله من منهج وأحكام، وقد خفف الله عنه وهو يعلم ضعفه، فراعى اليسر فيما يشرع له، ونفى الحرج والمشقة والضرر، مع تحقيق الخير والسعادة في هذا التشريع المثالي الواقعي:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

والظاهر من هذه الآية أنها في تخفيف الله تعالى بإباحة نكاح الإماء عند العنت والمشقة وخوف الوقوع في الزنا. قال طاووس: ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء.

وتخرج الآية في عمومها مخرج التفصيل ؛ لأنها تتناول كل ما خفف الله تعالى على عباده وجعله الدين يسراً يحقق الله فيه للفرد المسلم وللمجتمع الإسلامي كل خير، ويُبعد عنه كل شر وضرر. ويقع الإخبار عن ضعف الإنسان عاماً، حسبما هو في نفسه ضعيف، يستميله هواه في الأغلب [٢]. ومع الإيمان والتحرر من العبودية لغير الله؛ من الأهواء والشهوات، ثم مع العقل القويم الراجح للمؤمن الذي يبصر الحق بهداية الله ونوره يقوى الإنسان على الأهواء والشهوات، ويسير في طريق الخير الذي رسمه له مولاه سبحانه، وهنا يظهر دور العبادة المخلصة في كسر حدة الشهوة، وإعانة الإنسان على الصبر عن المحرمات، قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء » [٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٩).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤١).

(٣) صحيح البخاري (٥٠٦٥)، وفي رواية : « فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج... »، ومسلم (١٤٠٠).

وأخيراً فالصلة واضحة بين محور السورة (التوحيد الصحيح ومقوماته) وهذا المقطع حيث يظهر فيه مقومات التوحيد في طاعة الله وحده فيما شرع من أحكام، ومنها هذه الأحكام التي ربطها سبحانه بإرادته وحكمه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - القضايا العقدية: ربط الأحكام الشرعية بإرادة الله وحكمه وحكمته بالفقرة الأخيرة من المقطع: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾.

ب- الأحكام الشرعية: ما يحل ويحرم في قضايا نسائية ؛ من حرمة إرث المرأة وجعلها كالمتاع والمحرمات من النساء...

وما أحل بعد المحارم.

وحل زواج الأمة في حالة تعذر طول الحرة.

جـ- الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية: توسيع دائرة الأسرة بالمحرمات، وإبعاد القرابة القريبة عن الغرائز البهيمية تكريماً للقرابة، وتحقيقاً للفطرة الإنسانية، وتيسيراً على الأقارب في الاختلاط الذي يحتاجون إليه ضمن خلق إنساني كريم.

د- وتربوياً: فإن الإسلام يربي أتباعه على صيانة كرامة المرأة واستقلالها الذاتي، واحترامها وتكريمها أماً وبنتاً وأختاً وعمة وخالة وزوجة أب... وفي كل حالاتها الاجتماعية [1].

---

(١) راجع الفظائع الصحية والعقلية والاجتماعية الناتجة عن اتباع الشهوات في الظلال، سيد قطب (٥/ ٢٨-٣٥).



المقطع الثالث: حرمة الأموال، والقوامة المالية والتنظيمية في الأسرة (٢٩-٤٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ

حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

صلة المقطع بسابقه:

يتصل هذا المقطع بسابقة في التصرفات السلوكية والمالية ؛ وذلك أن الله تعالى لما شرح كيفية التصرف في النفوس بسبب النكاح، ذكر بعده كيفية التصرف في الأموال. وبما أنه ذكر ابتغاء النكاح بالأموال، وأمر بإيفاء المهور، وأحكام المواريث التي تقدمت تتعلق بالأموال، فبين بعد ذلك كيف يحصل التصرف بالأموال فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾[1].

المعنى الإجمالي:

والخطاب بهذه الآية للمؤمنين جميعاً، ينهى الله تبارك وتعالى عباده عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل[2]. وقد سبق في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [١٨٨]، أي لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق، فيدخل فيه جميع أنواع المكاسب التي حرمتها الشريعة، كأنواع الربا، والقمار، والخداع، والغصوب، وجحد الحقوق، وما لا تطيب به نفس مالكه، أو حرمته الشريعة، وإن طابت به نفس مالكه، كمهر البغيّ، وحلوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير، وغير ذلك[3].

ثم بين الله عز وجل طريق الحلّ في التعامل، وهو طريق التبادل القائم على الرضا من

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ٢٠٥).

(٢) والباطل في اللغة : الذاهب الزائل، يقال : بَطَل يَبْطُل بُطولاً وبطلاناً، وأبطل فلان إذا جاء بالباطل، وقوله : ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ يعني الشرك. والبطلة : السَّحَرَة. تفسير القرطبي (٢/ ٢٣٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٢٣٨).

البائع والمشتري، ضمن ما أباحه الله وشرعه؛﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾. ثم نهانا جل جلاله أن نقتل أنفسنا ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾، وذلك بأن يقتل بعضنا بعضاً، أو يقتل الواحد منا نفسه، أو لا تقتلوا أنفسكم بارتكاب محارم الله، وتعاطي معاصيه، وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه. وفي قتل المؤمن غيره قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١٥١، والإسراء: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ [النساء: ٩٢، ٩٣]، وقال رسول الله ﷺ: « من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسَّى سُمّاً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً »[1].

وأكل أموال الناس بالباطل قتل للمصالح الاجتماعية والاقتصادية في الجماعة الإسلامية وهو أشبه بقتل نفوسها؛ فما تروج وسائل أكل الأموال بالباطل في جماعة: بالربا، والغش والقمار والاحتكار، والتدليس، والاختلاس، والاحتيال، والرشوة والسرقة، وبيع ما ليس يباع: كالعرض، والذمة، والضمير، والدين، والخلق ! -مهما تعج به الجاهليات القديمة والحديثة سواء- ما تروج هذه الوسائل في جماعة، إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها، وتتردى هاوية في الدمار!

والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة الفردية والاجتماعية، المردية للنفوس.

ويلي ذلك التهديد بعذاب الآخرة، تهديد الذين يأكلون الأموال بينهم بالباطل، معتدين ظالمين[2].

---

(١) البخاري (٥٧٧٨)، مسلم (١٠٩)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٩-٤٨٠).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٣٨).



﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه ؛ بأن كان عالماً بتحريمه، متجاسراً على انتهاكه [١]، فالعدوان: الإفراط في التجاوز عن الحد، والظلم: ظلم النفس بتعريضها للعقاب. ورجح الطبري رحمه الله أن الإشارة في قوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا ﴾ إلى المذكور، بأن يقال: معناه ومن يفعل ما حرم الله عليه من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾، لأن ذلك كله لم يرد بعده وعيد، وورد وعيد قبله [٢]. ﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾، أي ندخله إياها ونحرقه بها، والجملة جواب الشرط ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾. وكان ذلك الإحراق بالنار يوم القيامة. ﴿ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ هيناً، لا يمنعه منه مانع، ولا يدفع عنه دافع، ولا يشفع فيه إلا بإذنه شافع [٣].

ويأتي اعتراض ناسب ذكره بعد ذكر ذنبين كبيرين، وهما: قتل النفس وأكل المال بالباطل. على عادة القرآن في التفنن من أسلوب إلى أسلوب، وفي انتهاز الفرص في إلقاء التشريع عقب المواعظ وعكسه [٤].

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾، وهذه الآية قاعدة رسمها الله سبحانه لنا، وهي أننا إذا اجتنبنا الكبائر غفر الله لنا الصغائر، وأدخلنا باجتناب الكبائر جنته.

وسمع صهيب أبا هريرة وأبا سعيد الخدري -رضى الله عنهم جميعاً- يقولان: خطبنا رسول الله يوماً فقال: « والذي نفسي بيده » - ثلاث مرات - ثم أكبّ فأكبّ كل رجل منا يبكي لا ندري على ماذا حلف، ثم رفع رأسه في وجهه البشرى، فكانت أحب إلينا من حمر النعم، ثم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٠).

(٢) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢٤).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٧٨).

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٢٦).

قال: « ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة، فقيل له: ادخل بسلام »[(١)].

وقد ذكرت أحاديث كثيرة الكبائر، أو بالأحرى ذكرت بعضها، قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات »، قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ ؟ قال: « الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »[(٢)]. وذكر هذه السبع لا يعني الحصر، فالنص على هذه السبع لا ينفي ما عداهنّ، إلا عند من يقول بمفهوم اللقب، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولاسيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم، كما ورد من الأحاديث غير هذه السبع[(٣)]، فقد روي في أحاديث أخرى غير هذه السبع، فقد سئل النبي ﷺ عن الكبائر قال: « الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور »[(٤)]. وقال النبي ﷺ: « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » - ثلاثاً - قالوا: بلى يا رسول الله، قال: « الإشراك بالله، وعقوق الوالدين » وجلس وكان متكئاً، فقال: «ألا وقول الزور ». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[(٥)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أيّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال: « أن تجعل لله نداً وهو خلقك »، قلت: إن ذلك لعظيم ! قلت: ثم أيُّ ؟ قال: « وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك »، قلت: ثم أيُّ ؟ قال: « أن تزاني حليلة جارك »[(٦)].

---

(١) النسائي (٢٤٣٨)، وقال ابن كثير : ورواه الحاكم أيضاً، وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال به، ثم قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨١).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٧، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨١).

(٤) البخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (٨٨).

(٥) البخاري (٢٦٥٤).

(٦) البخاري (٤٤٧٧، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٧٥٢٠)، ومسلم (٨٦).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « من الكبائر شتم الرجل والديه »، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال: « نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمّه فيسب أمه » (١).

وقال ابن عباس وغيره: الكبائر كل ما ورد عليه وعيد بنار، أو عذاب، أو لعنة، أو ما أشبه ذلك. وقال رجل لابن عباس: أخبرني عن الكبائر السبع، فقال: هي إلى السبعين أقرب (٢). وفي رواية عن ابن عباس أنه أجاب فقال: هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار (٣). وهذا يعني أن الإصرار على الصغيرة كبيرة؛ لأن ذلك استهانة بأمر الله ونهيه.

وهذه الآية من آيات الرجاء، فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «خمس آيات من سورة النساء هي أحب إليَّ من الدنيا جميعاً، قوله: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [٣١]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [٤٨]، وقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [١١٠]، وقوله أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [٤٠]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [١٥٢] (٤). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: « ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ

---

(١) مسلم (٩٠)، وعند البخاري : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ؛ يسب...» الحديث (٥٩٧٣)، والترمذي بنحو حديث مسلم (١٩٠٢).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٣-٤٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٦).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٤).

سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [٢٦]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ ﴾[٢٨]، ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾ [٣١]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [٤٨]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾ [٤٠]، ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ ﴾ [١١٠]، ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَٰكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [١٤٧] »[1].

وفي سياق الحديث عن الأموال وتداولها في الجماعة تجيء تكملة فيما بين الرجال والنساء من ارتباطات ومعاملات:

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ ﴾.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: يا رسول الله ؛ يغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾[2].

وقال قتادة: كان أهل الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الصبيان، فلما وُرّثوا وجُعل للذكر مثل حظ الأنثيين تمنى النساء لو جُعل أنصباؤهن كأنصباء الرجال، وقال الرجال: إنا لنرجوا أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث، فنزلت: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾. والتمني نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل. فنهى الله المؤمنين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٦١-١٦٢).

(٢) سنن الترمذي (٣٠٢٢)، ومسند أحمد (٢٦١٩٦)، ورواه ابن جرير في تفسيره أيضاً عن مجاهد عن أم سلمة. جامع البيان (٥/ ٣٠)، وقال ابن كثير : ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير والحاكم في مستدركه. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٨).

عن التمني ؛ لأن فيه تعلق البال ونسيان الأجل [١].

وفي هذه الآية نهي عن كل تمنٍ لخلاف حكم شرعي، ويدخل فيه النهي أن يتمنى الرجل حال الآخرين من دين أو دنيا، على أن يذهب ما عند الآخر، إذ هذا هو الحسد بعينه. وقد كره بعض العلماء أن يتمنى أحد حال رجل ينصبه في فكره، وإن لم يتمن زوال حاله. وهذا في نعم الدنيا، وأما في الأعمال الصالحة فذلك هو الحسن.

وإذا تمنى المرء على الله من غير أن يقرن أمنيته بشيء مما قدمناه فذلك جائز، وذلك موجود في حديث الرسول ﷺ: « وددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل » [٢].

ومعنى الآية: لا تتمنوا في أمر خلاف ما حكم الله به لاختيار ترونه أنتم ؛ فإن الله قد جعل لكل أحد نصيباً من الأجر والفضل بحسب اكتسابه فيما شرع له. حيث جعل لكل أحد مكاسب تختص به وتلائم فطرته التي فطره الله عليها، وتحقق مصلحة الجماعة ؛ فجعل الجهاد والإنفاق، وسعي المعيشة، وحمل التكاليف، كالأحكام والإمارة والحسبة، وغير ذلك للرجال وجعل الحمل ومشقته، وحسن التبعل، وحفظ غيب الزوج، وتدبير البيوت للنساء.

وفي تعليق النصيب بالاكتساب حضّ على العمل، وتنبيه على كسب الخير [٣].

ولا تمنع الآية من تمني مثل ما عند الغير ؛ لأنه ليس تمنٍ لما عنده مما فضله الله به، وهذا حسد الغبطة، وليس حسداً في حقيقته. قال النبي ﷺ: « لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٦٢).

(٢) والحديث بتمامه : « أنتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل » أخرجه البخاري (٣٦، ٢٧٨٧، ٢٧٩٧)، ومسلم (١٨٧٦)، وغيرهما.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٤-٤٥).

»[١]. فالحديث حض على تمني مثل نعمة الغير، والآية تنهى عن تمني عين نعمة الغير. ثم أرشد الله عباده إلى ما يصلحهم فقال: ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾، فإنه سبحانه يحب أن يُسأل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾، فهو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقضيه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه[٢].

وعلى هذا فلا وجود، ولا ظل للمعركة في المجتمع الإسلامي بين الجنسين، إنما يقوم الأمر على التنويع والتوزيع، والتكامل، والعدل بعد ذلك كامل في منهج الله. فلا معنى للتنافس على أعراض الدنيا، ولا طعم للحملة على المرأة أو الحملة على الرجل ؛ ومحاولة النيل من أحدهما، وثلبه، وتتبع نقائصه! ولا مكان كذلك للظن بأن هذا التنوع في التكوين والخصائص لا مقابل له من التنوع في التكليف والوظائف، ولا آثار له في التنوع في الاختصاصات والمراكز. فكل ذلك عبث وسوء فهم للمنهج الإسلامي، ولحقيقة وظيفة الجنسين[٣]. ولذلك نرى المعارك محتدمة في جاهلية الغرب، والمرأة هي الخاسرة، وإن صوروا لها أنها تتحرر، وليس هذا التحرر إلا انفلات من الوظائف الطبيعية التي خلقت المرأة لتحقيقها، وأضحت مستعبدة للرجل، لا ضمان لها في المجتمع، فلا تعيش إن لم تعمل، ويصل الرجل إلى ما يريد منها مالاً وجنساً، ثم يتركها تتحمل مشقة الحمل والولادة، ثم الإنفاق على الأولاد في كثير من الأحيان.

وعدم تكليف المرأة بالقتال في شرع الله إلا حين الضرورة القصوى ؛ لأن الحرب حين تحصد الرجال وتستبقي الإناث تدع للأمة مراكز إنتاج للذرية تعوض الفراغ، والأمر ليس كذالك حين تحصد النساء والرجال، أو النساء فقط ؛ لأن المرأة لو عاشرها جمع من الرجال لا تلد إلا مولوداً واحداً أو توأماً، بينما لو تزوج الرجل أربع نسوة عند الحاجة لأنجبت كل منهن

---

(١) البخاري (٥٠٢٥، ٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥). وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٦٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٨).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٤٤).

مولوداً أو توأماً. وكذلك قاعدة: ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ في الميراث ؛ فالمرأة المسلمة مضمونة اجتماعياً ومالياً، فالزوج يجب عليه الإنفاق على زوجته وإن كانت غنية، والرجل يجب عليه الإنفاق على المرأة أماً أو أختاً أو بنتاً إذا كانت محتاجة للنفقة. فهل من منهج في الجاهليات القديمة والحديثة كرَّم المرأة، وصانها، وأبعدها عن ذل الحاجة الذي قد تبذل فيه نفسها للرجل أو كرامتها - إن صانت نفسها فلم تستسلم لشهوات الرجل - لتكون موظفة في المراحيض العامة أو غير ذلك.

والآن يأتي ذكر التصرف في عقود الولاء التي سبقت أحكام الميراث في سياق الحديث عن الأموال وتداولها في الجماعة المسلمة:

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [٣٣].

المولى: لفظ مشترك يطلق على وجوه ؛ فيسمى المعتِق مولى، والمعتَق مولى. ويقال: المولى الأسفل والأعلى أيضاً. ويسمى الناصر المولى، ومنه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد: ١١]، ويسمى ابن العم مولى، والجار مولى[(١)]. والموالي في الآية هنا الورثة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ قال: الورثة، ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾، قال: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاريّ دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ نَسَخَت، ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ إلا النَّصرَ والرِّفادَةَ والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له[(٢)].

والمعنى: ولكل أحد من الرجال والنساء ﴿ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾، أي ورثة أو عصبة يرثون.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) صحيح البخاري (٢٢٩٢، ٤٥٨٠).

﴿ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر »[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ روى الطبري من طريق علي بن أبي طلحة [وهي طريق جيدة] عن ابن عباس قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾، فكان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ﴾[الأحزاب: ٦]. يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية، فهو لهم جائز من ثلث مال الميت[2].

فالأحلاف التي تحالفوا عليها في الجاهلية توفى لأصحابها في الإسلام بالوصية من الثلث بعد الإسلام، ولا حلف في الإسلام إلا على النصرة وما أشبهها؛ وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ولا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة »[3].

والآيتان التاليتان تضع قاعدة وضع الرجال والنساء في المجتمع المسلم، وتنظيم مؤسسة الأسرة، وضبط الأمور فيها، وبيان الإجراءات التي تتخذ لضبطها، والمحافظة عليها من زعازع الأهواء والخلافات، واجتناب عناصر التهديم فيها والتدمير، وقد ذُكر عقب ما قبله لمناسبة الأحكام الراجعة إلى نظام العائلة، لاسيما أحكام النساء:

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ[4] عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ

(١) البخاري (٦٧٣٢، ٦٧٣٥، ٦٧٣٧)، ومسلم (١٦١٥).

(٢) جامع البيان، الطبري (٥/ ٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٩٣٠)، وأبو داود (٢٩٢٥)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٩-٤٩٠)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٦).

(٤) القوّام: الذي يقوم على شأن شيء ويُصلحه. يقال: قوَّام وقيّام وقيّوم وقيّم. وكلها مشتقة من القيام المجازي الذي هو مجاز مرسل، أو استعارة تمثيلية. تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٣٨). وقال ابن عطية: قوام فعّال بناء مبالغة، وهو من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه وحفظه بالاجتهاد (٢/ ٤٧).



أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

روى الطبري بسند جيد عن الحسن البصري أن رجلاً لطم امرأته فأتت النبي ﷺ، فأراد أن يقصّها منه، فأنزل الله: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾، فدعاه النبي ﷺ فتلاها عليه، وقال: « أردت أمراً وأراد الله غيره»، وروى الطبري أيضاً بسند حسن [1] عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾، يعني أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله، حافظة لماله. وفضله عليها بنفقته وسعيه [2].

فشأن الرجال القيام على أمور النساء قيام الولاة على الرعية بالأمر والنهي والرعاية ونحو ذلك، واختيار الجملة الاسمية مع صيغة المبالغة ﴿ قَوَّٰمُونَ ﴾ للإيذان بعراقتهم ورسوخهم في الاتصاف بما أُسند إليهم. وفي الكلام إشارة إلى سبب استحقاق الرجال الزيادة في الميراث في قوله: ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾، كما أن فيما تقدم رمزاً إلى تفاوت مراتب الاستحقاق الذي أشار إليه قوله: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾. وعلل سبحانه الحكم بأمرين: وهبي، وكسبي، فقال جل شأنه: ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، فالباء للسببية، ﴿ ومَا ﴾ مصدرية ؛ أي قوامون عليهن بسبب تفضيل الله تعالى إياهم عليهن. والتعليل الكسبي قوله: ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾.

ونستطيع أن نقول: إن التعريف في ﴿ ٱلرِّجَالُ ﴾ ﴿ ٱلنِّسَآءِ ﴾ للاستغراق. وهو استغراق عرفي مبني على النظر إلى الحقيقة، كالتعريف في قول الناس: « الرجل أقوى من المرأة »، فقوله

(١) هو طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة.

(٢) جامع البيان، الطبري (٥/ ٣٧).



سبحانه ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أصل تشريعي كليٌّ تتفرع عنه الأحكام التي في الآيات الأخرى، ولم يقل الله: الأزواج قوامون على أزواجهم، ليكون هذا الحكم في الأسرة فرعاً من الحكم العام، وداخلاً فيه دخولاً أولياً ؛ ولذا خص الرجال بالرسالة والنبوة، وبالإمامة الكبرى والصغرى، وإقامة الشعائر كالأذان والإقامة، والخطبة والجمعة، والقتال، وبالنكاح عند الشافعية، وبالشهادة في أمهات القضايا، وزيادة السهم في الميراث والتعصيب، إلى غير ذلك [1].

وخصّت المرأة بالاستجابة للرجل وبالسعادة، إذا هي أدخلت السرور على قلبه، ونالت استحسانه ورضاه، كيف لا وقد خلقت منه كما مرّ معنا في أول السورة: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، وخصّت المرأة بالأمومة، وزوّدت بالاستعدادات النفسية والعضوية لأداء هذه الوظيفة الهامّة، التي يتم بها تَكَوُّن الجيل الجديد وتنشئته التنشئة الصحيحة من الناحية العضوية والنفسية والاجتماعية. وهذه مهمة جداً في المجتمع الإنساني، لا يستغني عنها لإقامة مجتمع صحيح، بعيد عن الخلل والعقد النفسية المدمرة.

المجتمع الإنساني يختلف اختلافاً كبيراً عن التجمعات الحيوانية؛ فالتجمعات الحيوانية تحركها الغرائز، وإن كان تكاثرها من ذكر وأنثى كالإنسان وسائر الكائنات الحية، من النباتات وغيره، كما قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الذاريات: ٤٩]، وطفولة الحيوان قصيرة، ويسعى إلى ثدي أمه بنفسه، ويستغني عنها بعد أيام أو أسابيع أو شهور، بينما تطول طفولة الإنسان كثيراً، وتحتاج طفولته إلى تعاون أبويه، فليس من العدل، ولا من مصلحة التربية الاجتماعية والنفسية للطفل أن ينال الرجل من المرأة، ثم يتركها تتحمل كلّ الأعباء المادية والمعنوية بمفردها، فليس للمرأة ضمانٌ اجتماعيٌ في جاهلية القرن العشرين [2]،

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٣)، وانظر تفضيل الرجل على المرأة في زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٧٤).

(٢) نقول جاهلية القرن العشرين ؛ لأن المرأة في المجتمع الجاهلي العربي القديم كانت أفضل حالاً من المرأة عند غير المسلمين اليوم.

فشرع الله سبحانه وجوب الإنفاق على المرأة أماً أو أختاً أو بنتاً، إن كانت محتاجة للإنفاق عليها وأوجب على الزوج الإنفاق على زوجته، وإن كانت غنية؛ لئلا تحتاج إلى أن تريق ماء وجهها في العمل الاضطراري من أجل أن تعيش؛ وإذا كانت المرأة مضمونة اجتماعياً، والرجل مكلف بالإنفاق كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾، إلى قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾[البقرة: ٢٣٣]، فلو فرض الله على المرأة الكسب لحُرمت السكن النفسي والاستقرار وضاعت مهمة التربية في الأسرة. فقد جعل الله من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل، وهي وظائف ضخمة أولاً، وخطيرة ثانياً. وليست هينة ولا يسيرة بحيث تؤدى بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثى! فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشطر الثاني «الرجل» توفير الحاجات الضرورية، وتوفير الحماية كذلك للأنثى؛ كي تطمئن نفسياً، وتتفرغ لوظيفتها الخطيرة، ولا يجب عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل... ثم تعمل وتكدّ وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آنٍ واحد، وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها على أداء وظيفتها تلك.

ومن ثم زودت المرأة -فيما زودت به من الخصائص- بالرقة، والعطف، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفل - بغير وعي ولا سابق تفكير - لأن الضرورات الإنسانية العميقة كلها لم تُترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطئه، بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية! لتسهل تلبيتها فوراً، وفيما يشبه أن يكون قسراً. ولكنه قسر داخلي غير مفروض من الخارج ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان كذلك، لتكون الاستجابة سريعة من جهة، ومريحة من جهة أخرى، مهما يكن فيها من المشقة والتضحية! ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[النمل: ٨٨].

وهذه الخصائص ليست سطحية، بل غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة. بل يقول كبار العلماء المختصين: إنها غائرة في تكوين كل خلية؛ لأنها عميقة في تكوين الخلية الأولى، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين، بل كل خصائصه الأساسية!

وكذلك زود الرجل - فيما زود به من الخصائص - بالخشونة والصلابة، وبطء الانفعال

والاستجابة، واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة ؛ لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يمارسه دائماً لحماية الزوجة والأطفال، إلى تدبير المعاش، إلى سائر تكاليفه في الحياة ؛ لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروي قبل الإقدام، وإعمال الفكر، والبطء في الاستجابة بوجه عام. وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها.

وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامة، وأفضل في مجالها. كما أن تكليفه بالإنفاق -وهو فرع من توزيع الاختصاصات- يجعله بدوره أولى بالقوامة؛ لأن تدبير المعاش للأسرة ومن فيها داخل في هذه القوامة، والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها.

وهذان هما العنصران اللذان أبرزهما النص القرآني، وهو يقرر قوامة الرجال على النساء في المجتمع الإسلامي: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾.

قوامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد، ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات؛ ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية، وتكليف كل واحد من الزوجين في هذا التوزيع بالجانب الميسر له، والذي هو مُعَان عليه بالفطرة التي فطِرَ عليها[1]. وأشار القرآن إلى التناسب في الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء بحيث تحقق العدل والمساواة، لا التماثل فقال سبحانه: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أي: منزلة، وهي تكليفه بالإنفاق والجهاد ورعاية المرأة وحمايتها، ولو لم يكن إلا أن المرأة خلقت من الرجل فهو أصلها، وروي عن ابن عباس: الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة، والتوسع للنساء في المال والخلق ؛ أي أن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه[2]. قال ابن عطية: وهذا قول حسن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٥٣-٥٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/ ١٢٥).

بارع [١]. وقال رسول الله ﷺ: « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » [٢].

وبعد بيان واجب الرجل وحقه والتزاماته وتكاليفه في القوامة يجيء بيان طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة وسلوكها وتصرفها الإيماني في محيط الأسرة:

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾.

الصلاح هو صلاح الدين، والقنوت: الطاعة. فالصالحات مطيعات لأزواجهن ؛ لأن من طبيعة المؤمنة الصالحة ومن صفتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها، وفطرتها الأنوثية أن تكون مطيعة لزوجها عن إرادة ورغبة ومحبة، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومماطلة. ومن ثم قال: ﴿ قَٰنِتَٰتٌ ﴾، ولم يقل: مطيعات ؛ لأن مدلول اللفظ الأول نفسي، وظلاله رخية ندية، وهذا هو الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين الزوجين، في المحضن الذي يرعى الناشئة، ويطبعهم بجوّه وأنفاسه وإيقاعاته.

ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ومن صفاتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها كذلك أن تكون حافظة كل ما استرعته مما يتعلق بالحياة الزوجية في نفسها وأولادها وبيتها، في غيبته - وبالأولى في حضوره - فلا تبيح من بيتها أو نفسها في نظرة أو نبرة - بله العرض والحرمات - ما لا يباح إلا له هو، بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ [الروم: ٢١]، ومر معنا في أول السورة: ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾.

قيل لرسول الله ﷺ: أي النساء خير ؟ قال: « التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ٣٠٦).

(٢) الترمذي (١١٥٩)، وعند أبي داود (٢١٤٠) : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن، لما جعل الله لهم عليهن من الحق ».



تخالفه في نفسها ومالها بما يكره »[١].

وما لا يباح لا تقرره هي ولا يقرره هو، إنما يقرره الله سبحانه: ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾[٢] فهي حافظة للغيب بطاعة وبر ودين، وحفظ الله في أوامره حين امتثلتها[٣]. فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجته - في غيبته أو في حضوره - ما يغضب هوَ له، أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع إذا انحرف المجتمع عن منهج الله.

وعندئذ تتهاوى كل أعذار المهزومين والمهزومات من المسلمين والمسلمات أمام ضغط المجتمع المنحرف. وتبرز حدود ما تحفظه الصالحات بالغيب: ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾، مع القنوت الطائع الراضي الودود[٤].

والغريب في الأمر أن المرأة إذا كانت عاملة في مؤسسة أقل شأناً وأرخص سعراً من مؤسسة الأسرة فإنها تسمع وتطيع كأي عامل في تلك المؤسسات، فأولى أن تنقاد في الأسرة للزوج لإنشاء أثمن عناصر الكون، ألا وهو العنصر الإنساني.

وحتى تعلم النساء أن الله كرم المرأة ولم يكلفها من العمل إلا ما يناسب فطرتها دون مشقة، فلتقرأ قول النبي ﷺ: « إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت »[٥].

---

(١) رواه أحمد (٩٣٠٤، ٩٣٦٧)، وعند ابن ماجة: عن النبي ﷺ أنه كان يقول: « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة؛ إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله ». ابن ماجه (١٨٥٧).

(٢) انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٧)، وفي ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٥٦).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٧).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٥٦).

(٥) تفرد به أحمد (١٦٦٤).

فأما غير الصالحات فهن الناشزات [1]، المستعليات على طاعة أزواجهن، فلا ينبغي أن يُترك الأمر حتى تنقسم الأسرة إلى معسكرين، يتجاذب الرجل والمرأة السلطة التنظيمية فيها فيضيع الأولاد ويتمردون على أبويهم كما تمردت أمهم ؛ لذلك ينبغي أن يسلك الزوج مع المرأة الناشز التعليمات الربانية بالتدرج والحكمة:

﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾.

الإجراء الأول: الموعظة ؛ هذا أول واجبات قيم الأسرة لمعالجة النشوز. يحاورها زوجها ويخوفها عقاب الله في عصيانه، ويذكرها بأن التمرد وعدم الطاعة يفسد الأسرة، ويفككها ويتسبب في العقد النفسية للأولاد ثمرة الأسرة، ويتمردون على أمهم قبل أبيهم. ويذكرها بقول النبي ﷺ في بيان ما للزوج من الحق والفضل ؛ فقد قال: « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » [2]، وخصوصاً إذا كانت المعصية عدم إجابة الزوج إلى فراشه، قال رسول الله ﷺ: « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح » [3].

الإجراء الثاني: الهجر في المضجع، وذلك بأن يوليها ظهره في المضجع، ولا يكلمها، ولا يجامعها، أو يهجر فراشها، دون أن يردّ نكاحها، ودون أن يترك البيت الذي هي فيـه، لقول النبي ﷺ جواباً لسؤال أحد الصحابة قال فيه: يا رسول الله ؛ ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال ﷺ: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا

(١) والنشوز: العصيان، مأخوذ من النَّشز، وهو ما ارتفع من الأرض. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٧٠).

(٢) مرّ الحديث قبل قليل، وقد أخرجه الترمذي (١١٥٩)، وأبو داود (٢١٤٠).

(٣) البخاري (٣٢٣٧، ٥١٩٣)، ومسلم (١٧٣٦).



في البيت »[١].

إن الهجر حركة استعلاء نفسية من الرجل على ما تُدلّ به المرأة من جمال وجاذبية أو قيم أخرى ترفع به ذاتها عن ذاته، أو عن مكان الشريك في مؤسسة زوجية عليها قوامة ولها نظام.

والمضجع موضع الإغراء والجاذبية، التي تبلغ فيها المرأة الناشز المتعالية قمة سلطانها. فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التي تعتز بها، وكانت - في الغالب - أميل إلى التراجع والملاينة أمام هذا الصمود من رجلها، وأمام بروز خاصية قوة الإرادة والشخصية فيه، في أحرج مواضعها ! على أن هناك أدباً معيناً في هذا الهجر، وهو أن لا يكون في غير مكان خلوة الزوجين ؛ فلا يكون هجراً أمام الأطفال يورث في نفوسهم شراً وفساداً، ولا هجراً أمام الغرباء يُذل الزوجة أو يستثير كرامتها، فتزداد نشوزاً. فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة، ولا إفساد الأطفال.

ولكن هذه الخطوة قد لا تفلح، فهل تترك المؤسسة تتحطم ؟ إن هناك إجراء - ولو أنه أعنف - ولكنه أهون وأصغر من تحطيم الحياة الزوجية كلها بالنشوز[٢]. فقد أذن الله بضرب الزوجة الناشز إن لم تنفع معها الموعظة ثم الهجر، فيضربها ضرباً غير مبرح. واستصحاب الهدف من هذه الإجراءات، وهدف الإسلام في إسعاد الزوجين وتأمين التربية الصحيحة للأطفال كل هذا يمنع أن يكون هذا الضرب للانتقام والتشفي، أو إهانة للإذلال والتحقير، ويمنع أن يكون أيضاً للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاها. إنما يكون الضرب ضرب تأديب، مصحوب بعاطفة المربي. وقد أكد النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع على أن يكون الضرب غير مبرح فقال: « واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح

---

(١) سنن أبي داود (٢١٤٢)، قال أبو داود : ولا تقبح أن تقول : قبحك الله. وهو بنحوه عند ابن ماجه (١٨٥٠). انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٥٨).

ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف »[١].

وقد يظن بعض المتأثرين والمتأثرات بإيحاءات شياطين الإنس والجن أن كل امرأة ستضرب، فليعلم كل مسلم أن ذلك حالة خاصة، نادرة في المجتمع الإسلامي، والذي يلجأ إلى ضرب زوجته دون ضرورة تربوية فهو من الشرار لا من الخيار، فقد قال النبي ﷺ: « لا تضربوا إماء الله »، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: « ذئرت النساء على أزواجهن، فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله نساء كثير يشتكين أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن، ليس أولئك بخياركم »[٢]، فحالة المرأة التي تحتاج إلى ضرب هي حالة نفسية نادرة، لكنها موجودة، فهناك صنف من النساء - وإن كان قليلاً - فيه من لا تحس بقوة الرجل الذي تحب نفسها أن تجعله قيماً لها وترضى به زوجاً إلا حين يقهرها عضلياً، وليست قوة الرجل هذه طبيعة كل امرأة.

وهذه الإجراءات يقررها الذي خلق، وهو أعلم بمن خلق، وقد وضع الله ملابسات حدد صفتها، وحدد النية المصاحبة لها، شأن كل سلوك في الإسلام يبتغي به امتثال منهج الله لتحقيق الغاية التربوية من ورائها، بحيث لا يحسب على منهج الله تلك التصرفات الخاطئة للناس في عهود الجهل بدين الله، حين يتحول الرجل جلاداً - باسم الدين - وتتحول المرأة رقيقاً - باسم الدين - أو حين يتحول الرجل امرأة، وتتحول المرأة رجلاً، أو يتحول كلاهما إلى صنف ثالث مائع بين الرجل والمرأة - باسم التطور في فهم الدين - فهذه كلها أوضاع لا يصعب تمييزها عن الإسلام الصحيح في نفوس المؤمنين[٣]. قال رسول الله ﷺ: « لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم »[٤].

---

(١) صحيح مسلم (١٢١٨).

(٢) أبو داود (٢١٤٦)، وابن ماجه بنحوه (١٩٨٥). وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٢).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٥٩).

(٤) البخاري (٦٤٢، ٥٢٠٤)، أحمد (١٥٧٨٨).

وهذا العلاج مراتب لتحقيق هدف كما رأينا، فإذا وقعت الطاعة عند إحداها لم يتعد إلى ما يليها، ولذا ختمت الآية بالتهديد ضمن الحدود الهادفة فقال سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ ؛ لا تطلبوا سبيلاً إلى الأذى، وهو التعنيت والتعسف بقول أو فعل. وهذا نهي عن ظلمهن بغير واجب، بعد تقدير الفضل عليهن والتمكين من أدبهن إن احتاج الأمر ذلك. وحسن اتصاف الله سبحانه بالعلو والكبر ليعلم أن قدره فوق كل قدر، ويده في القدرة فوق كل يد، فلا يَسْتَعْلِ أحد على امرأته، فالله بالمرصاد، قادر على الانتقام، غير راض بظلم أحد [١].

وفي ختام هذا العلاج نذكر بتوجيه النبي ﷺ الأزواج إلى عدم كراهية زوجاتهم، وأن يتذكروا محاسن الزوجة التي يحبونها في زوجاتهم، حتى يتم الانسجام والمودة التي جعلها الله بين الزوجين، لتحقيق السعادة والعشرة الطيبة، قال النبي ﷺ: « لا يفرك [٢] مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر » [٣]، وقال ﷺ: « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي » [٤].

وإذا استعملت هذه الإجراءات، ولم تُجْدِ، بل زادت الشقة بعداً، والنشوز استعلاناً، فإن القرآن الحكيم يدفع إلى إجراء آخر لإنقاذ الأسرة من الانهيار:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [٥].

إن الإسلام لا يدعو إلى الاستسلام لبوادر النشوز والكراهية، ولا إلى المسارعة بفصم

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٨).
(٢) لا يبغض. النووي (٥/ ٣١٥).
(٣) مسلم (١٤٦٩)، وأحمد (٨١٦٣).
(٤) سنن الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، وسنن الدارمي (٢٢٦٠).
(٥) الشقاق: المنازعة. وقيل: الشقاق المجادلة والمخالفة والتعادي. وأصله من الشِّق وهو الجانب؛ فكأن كل واحد من الفريقين في شِقّ غير شِقّ صاحبه. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ١٤٣).

عقدة النكاح، وتحطيم مؤسسة الأسرة على رؤوس من فيها من الكبار والصغار، الذين لا ذنب لهم ولا يد ولا حيلة، فالأسرة عزيزة على الإسلام بقدر خطورتها في بناء المجتمع، وفي إمداده باللبنات الجديدة اللازمة لنموه ورقيه وامتداده [١]. فإذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما، ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وامتدت خصومتهما بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة وثقة من قوم الزوج ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة، مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوّف الشارع إلى التوفيق حيث قال الله سبحانه: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [٢].

وجمهور العلماء على أن الحكمين لهما الجمع والتفريق؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾، وهذا نص من الله سبحانه بأنهما قاضيان، لا وكيلان ولا شاهدان. وللوكيل اسم في الشريعة ومعنىً، وللحكم اسم في الشريعة ومعنى، ومن شأن الحكم أن يحكم.

فإن اختلف الحكمان لم ينفذ قولهما، ولم يلزم من ذلك شيء إلا ما اجتمعا عليه. وإن حكما بالفرقة فرقا بطلقة بائنة [٣].

وخصّ الأهل في التحكيم لأنهم أعلم بباطن الحال، وتسكن إليهم النفس، فيطلعون على ما في ضمير كل من حب وبغض، وإرادة صحبة أو فراق، وهذا وجه الاستحباب، وإن نصبا من الأجانب فجائز، وذلك لأن الأهل قد يكونوا على غير علم ودراية، فيزيدوا الشقاق، وينحاز كل حكم إلى صاحبه دون حكمة وعدالة. فعند ذلك يكون اختيار الحكمين من غير أهل الزوجين إذا كانا من أهل العلم والخبرة والحكمة، فتتحقق بهما مصلحة الزوجين والأسرة. ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾، إن يريد الزوجان أو الحكمان الإصلاح والخير يوفق

---

(١) الظلال، سيد قطب (٥/ ٦١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٧٦-١٧٧).

الله بينهما، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ٣٥﴾ بالظواهر والبواطن، فيعلم إرادة العباد ومصالحهم وسائر أحوالهم. وكيف لا يعلم وهو الذي خلق [(١)].

ويأتي الكلام عن القاعدة الأساسية التي تربط الأسرة الصغيرة مع الأسرة الكبيرة في المجتمع المسلم، من الزوجين، والوالدين، والأقربين، والجار القريب وغيره. كل ذلك يقوم على أصل واحد هو العبودية لله وحده والتحرر عن الخضوع لسواه:

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ٣٦﴾.

تبدأ هذه الآية بالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن إشراك شيء به، أي التحرر من العبودية لغيره، وتبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر وهذا النهي، وبين الأوامر السابقة الخاصة بتنظيم الأسرة. فيدل هذا الربط على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة في هذا الدين فليس هو مجرد عقيدة جامدة تستكن في الضمير كفكرة ثقافية، ولا مجرد شعائر تقام وعبادات ولا مجرد تنظيم دنيوي منقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية ؛ إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله، ويربط بين جوانبه، ويشدها جميعاً إلى الأصل الأصيل، وهو توحيد الله، والتلقي منه وحده – في هذا النشاط كله – دون سواه. توحيده إلهاً معبوداً، وتوحيده مصدراً للتوجيه والتشريع لكل النشاط الإنساني أيضاً. لا ينفك هذا التوحيد عن ذاك في دين الله الصحيح على الإطلاق [(٢)].

وجاء النهي ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ بعد الأمر بالتوحيد إشارة إلى الأمر بالإخلاص فكأنه قيل: واعبدوا الله مخلصين له. فهو سبحانه أمر أولاً بما يشمل التوحيد وغيره من أعمال

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٦).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٦٥).



القلب والجوارح، ثم أردفه بما يفهم منه التوحيد الذي لا يقبل الله تعالى عملاً بدونه، فالعطف من قبيل عطف الخاص على العام[١]. فالآية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى، وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بينما أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه إلا أَخِرَة الرحل فقال: « يا معاذ »، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: « يا معاذ »، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ »، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على عباده؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً »، ثم سار ساعة ثم قال: « يا معاذ بن جبل »، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: « هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟ »، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم»[٢]. وقال رسول الله ﷺ: « قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه »[٣]، ولذلك قال بعض العلماء: إن من تطهّر تبرداً أو صام حمية لمعدته، ونوى مع ذلك التقرب لم يُجْزه ؛ لأنه مزج في نيته التقرب نية دنيوية، وليس لله إلا العمل الخالص، قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزُّمَر: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، وكذلك إذا أحسّ الإمام بداخل وهو في الركوع لم ينتظر الداخل ؛ لأنه يُخرج ركوعه بانتظاره عن كونه خالصاً لله تعالى[٤].

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾، أي أحسنوا بهما إحساناً، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٧).
(٢) البخاري (٥٩٦٧، ٦٥٠٠)، ومسلم (٣٠)، ويلاحظ التكرار، وهو أسلوب تربوي للفت الانتباه والاهتمام.
(٣) صحيح مسلم (٢٩٨٥)، وعند ابن ماجه (٤٢٠٢): « أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك».
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٨٠).

والإحسان إلى الوالدين، كقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[لقمان: ١٤] وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، و« أحسن » يتعدّى بالياء وإلى واللام، وقيل: إنما يتعدى بالباء إذا تضمن معنى العطف والإحسان المأمور به أن يقوم بخدمتهما، ولا يرفع صوته عليهما، ولا يخشن في الكلام معهما، ويسعى في تحصيل مطالبهما، والإنفاق عليهما بقدر القدرة. ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي بصاحب القرابة المتفرعة عن الأبوين؛ من أخ وعم وخال، وأولاد كل، ونحو ذلك[1]، قال النبي ﷺ: « الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة »[2].

ثم انتقل من الأسرة الصغيرة إلى الأسرة الاجتماعية الكبيرة، فأمر بالإحسان فقال: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، وهو فاقد الأب قبل البلوغ، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: الفقراء الذين لا يجدون كفايتهم، فأمر بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم[3]. ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، والمجاورة مراتب بعضها ألصق من بعض، أدناها الزوج، ثم إنه من نظر قرابة النسب قال: الجار ذو القربى هو الجار القريب النسب، والجار الجنب هو الجار الأجنبي الذي ليس بينك وبينه قرابة. ومن نظر إلى الدين قال: الجار ذو القربى هو الجار المسلم، والجار الجنب هو الجار اليهودي أو النصراني، فهي عنده قرابة الإسلام وأجنبية الكفر. ومن نظر إلى المسافة قال: الجار ذو القربى هو الجار القريب المسكن منك، والجار الجنب هو البعيد المسكن منك. وكأن هذا المعنى مأخوذ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: « إلى أقربهما منك باباً »[4]. والكل داخل في معنى المجاورة.

وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها، مندوب إليها، مسلماً كان الجار أو كافراً، رحماً كان أو

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٧).

(٢) سنن الترمذي (٦٥٨)، والنسائي (٢٥٨٢)، وسنن ابن ماجه (١٨٤٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٤).

(٤) البخاري (٢٢٥٩، ٢٥٣٥، ٦٠٢٠)، وأحمد (٢٤٨٩٥). وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٥٠).

من غير الأرحام، بعيداً عنا في المسكن أو قريباً ؛ لأن الكل داخل في المجاورة. والإحسان يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حُسن العشرة وكف الأذى، والمحاماة دونه، قال النبي ﷺ: « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[١]، وقال النبي ﷺ: « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه »[٢]، وهذا عام في كل جار[٣].

وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾، فقد روي عن السلف أنه يدخل في معناه الزوجة، والضيف، والرفيق في السفر. ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ هو الضيف، أو من يمر عليك مجتازاً في السفر، وهذا أظهر. وإن كان مراد القائل بالضيف المار في الطريق فهما سواء. ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس؛ ولهذا كثرت وصية النبي ﷺ بالأرقاء، من ذلك قوله ﷺ: « للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق »[٤]، وقال النبي ﷺ: « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة »[٥]، وكان من آخر وصية رسول الله ﷺ في مرض موته: « الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم »، حتى جعل نبي الله ﷺ يُلجْلِجُها في صدره وما يفيض بها لسانه[٦]. وعن المعرور بن سويد قال: لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلّة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك فقال: إني ساببت رجلاً فعيّرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: «يا أبا ذر؛ أعيرته بأمه ؟! إنك امرؤٌ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يَغْلبهم، فإن

---

(١) البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).
(٢) مسلم (٤٦). والبوائق: جمع بائقة، وهي الغائلة والداهية والفتك. صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٢٩٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٨٤).
(٤) رواه مسلم (١٦٦٢)، وأحمد (٨٣٠٥).
(٥) أحمد (١٦٧٢٧).
(٦) مسند أحمد (٢٥٩٤٤)، وابن ماجه (١٦٢٥).

كلفتموهم فأعينوهم »[١]. فهل في العالم كله غير المسلمين الأتقياء من يعامل العامل الحر - لا العبد - هذه المعاملة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ في نفسه، معجباً بها، متكبراً. ﴿ فَخُورًا ﴾ يفخر على الناس، ويتكبر عليهم بما أعطاه الله من نعمة، وهو قليل الشكر لله على ذلك[٢]. قال النبي ﷺ: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان »، قال: فقال له رجل: إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسنة، قال: « إن الله يحب الجمال، ولكن الكبر مَنْ بَطَرَ الحقَّ وغَمَصَ الناس »[٣].

ويُتْبِع تقبيحَ الاختيال والفخر بالبخل والتبخيل، وكتمان نعمة الله وفضله، والرياء في الإنفاق؛ والكشف عن سبب هذا كله، وهو عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، واتباع الشيطان وصحبته:

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

وهكذا تتضح مرة أخرى تلك السمة الأساسية في المنهج الإسلامي، وهي ربط كل مظاهر السلوك، وكل دوافع الشعور، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة. فإفراد الله سبحانه بالعبادة، والتلقي منه، يتبعه الإحسان إلى البشر، ابتغاء وجه الله ورضاه، والتعلق بثوابه في الآخرة ؛ في أدب ورفق، ومعرفة أن العبد لا ينفق إلا من رزق الله ؛ فهو لا يخلق رزقه، ولا ينال إلا من عطاء الله. والكفر بالله واليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر، والبخل والأمر بالبخل، وكتمان فضل الله ونعمته، بحيث لا تظهر آثارها في إحسان أو عطاء، قال رسول الله ﷺ: « إن الله

(١) البخاري (٣٠، ٢٥٤٥)، ومسلم (١٦٦١).
(٢) التفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٥).
(٣) مسلم (٩١)، وسنن الترمذي (١٩٩٩).



عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »[١]، والإنفاق تظاهراً طلباً للمفخرة عند الناس ؛ إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخيلاء بين العباد !

وهكذا تتحد الأخلاق ؛ أخلاق الإيمان، وأخلاق الكفر. فالباعث على العمل الطيب والخلق الطيب، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، والتطلع إلى رضاء الله، وجزائه في الآخرة. فهو باعث رفيع لا ينتظر صاحبه جزاء من الناس، ولا يتلقاه ابتداءً من عرف الناس وثنائهم !

فإذا لم يكن هناك إيمان بإله يبتغي وجهه، وتتحدد بواعث العمل بالرغبة في رضاه. وإذا لم يكن هناك اعتقاد بيوم آخر يتم فيه الجزاء، اتّجه همّ الناس إلى نيل القيم الأرضية المستمدة من عرف الناس، وهذه لا ضابط لها في جيل واحد في رقعة واحدة، فضلاً عن أن يكون لها ضابط ثابت في كل زمان وفي كل مكان! وكانت هذه هي بواعثهم للعمل. وكان هناك التأرجح المستمر كتأرجح أهواء الناس وقيمهم التي لا تثبت على حال، وكان معها تلك الصفات الذميمة من الفخر والخيلاء، والبخل والتبخيل، ومراعاة الناس لا التجرد والإخلاص ![٢].

والبخل المذموم في الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله تعالى عليه، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠][٣].

والبخلاء لا يكتفون بالبخل، بل يأمرون غيرهم بالبخل، وأي داء أدوأ من البخل قال النبي ﷺ: « إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم ؛ أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا »[٤]، فالبخلاء ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ جحوداً بنعمة الله لئلا تظهر في مأكله وملبسه وإعطائه وبذله. والكتمان في الآية كتمان المال، وهذا ما يقتضيه السياق

---

(١) سنن الترمذي (٢٨١٩)، ومسند أحمد (٨٠٤٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٦٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٩٣).

(٤) سنن أبي داود (١٦٩٨)، ومسند أحمد (٦٧٥٣).

وإن كان عموم فضل الله ﴿ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ يدخل فيه كتمان العلم دخولاً أولياً، ولذلك حمل بعض السلف الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ، وكتمانهم ذلك[١]. ويدخل في من يبخل ويأمر غيره بالبخل المنافقون الذين ورد الحديث عنهم في الآية التالية لهذه الآية، وقال الله فيهم: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾[المنافقون: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾[٢]، أي عذاباً ذا إهانة. وروي في سبب نزول الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان كردم بن زيد حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحرى بن عمرو، وحيي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحون لهم فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون، فأنزل الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمٗا ﴾[٣]. والعبرة بعموم النص.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ الموصول عطف على نظيره ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ ﴾. قال الجمهور: نزلت في المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾، والرئاء من النفاق، ولقوله سبحانه: ﴿ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ الذي يثاب فيه المطيع ويعاقب العاصي[٤]، فقرينهم الشيطان (شيطان الإنس والجن) ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾. والمقصود بيان سوء حال من كان الشيطان له قريناً بإثبات سوء قرينه، إذ المرء يعرف بقرينه.

وحين ينتهي من عرض سوءات نفوسهم، وسوءات سلوكهم، ومن عرض أسبابها من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٦).

(٢) أصل ﴿ أعتدنا ﴾ أعددنا، أبدلت التاء الأولى تاءً لثقل الدالين عند فك الإدغام باتصال ضمير الرفع. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٥٣).

(٣) أخرجه ابن إسحاق وابن المنذر وابن جرير الطبري بسند صحيح عن ابن عباس. انظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٨)، وجامع البيان، الطبري (٥/ ٥٥).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٨-٨٩).

الكفر بالله واليوم الآخر، وصحبة الشيطان واتّباعه، ومن الجزاء المعد المهيأ لأصحاب هذه السوءات، وهو العذاب المهين ؛ عندئذ يسأل في استنكار:

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

الإنسان العاقل إذا دعي إلى أمر لا ضرر فيه، ينبغي أن يجيب احتياطاً، ولو كانت المنفعة فيه محتملة، فكيف إذا كانت ظاهرة واضحة ؟! وهذا أسلوب بديع، كثيراً ما استعملته العرب في كلامها، ومن ذلك قول من قال:

ما كان ضرك لو مننت وربما   منّ الفتى وهو المغيظ المحنق [1]

وأيّ شيء يضرهم لو آمنوا بالله - وهم يعلمون، لو أطلقوا عقولهم من الأهواء والشهوات، أنه الخالق المالك المتصرف- وسلكوا الطريق الحميد، وعدلوا عن الرياء والنفاق إلى الإخلاص لله، رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله، وينفق مما رزقه الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾؛ فهو عليم بنيتهم الصالحة والفاسدة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم، فيوفقه ويلهمه رشده، ويقيّضه لعمل صالح يرضى به عنه، وهو سبحانه عليم أيضاً بمن يستحق الخذلان والطرد، ومن طرد عن باب الله، فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة [2]. ثم إن الذي ينفقونه هو من رزق الله، إنه ليس من شيء خلقوه لأنفسهم. إنهم ينفقون من رزق الله، ومع ذلك فإن الله يضاعف لهم الحسنة ولا يظلمهم مثقال ذرة:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

قد يظن البعض أن الدينار والدرهم هما الرزق ! لا، إنهما وسيلة لتبادل الأرزاق، مع أن الذهب والفضة من خلق الله أيضاً، والرزق الذي ينتفع به الإنسان ؛ غذاءً، أو كساءً، أو استخداماً، إنما هو ما خلقه الله في هذه الأرض من نبات وحيوان ومادة. فإن الذي ينفق ينفق

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٧).

في حقيقة الأمر من رزق الله ؛ ومع ذلك فإن الله يضاعف حسناته ويعطيه أجراً عظيماً في الآخرة فيا له من كرم ! ويا له من فيض إلهي ! ويا لها من صفقة لا يقعد عنها إلا جاهل خسران ؛ فعدل الله متحقق، وكرمه ظاهر في الدنيا قبل الآخرة، ورحمته واسعة. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ كقوله سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٦-٨]، وقال النبي ﷺ: « يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيُخْرَجون منها قد اسودّوا، فيلقون في نهر الحيا، أو الحياة، فينبتون كما تَنْبت الحِبَّة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية »[(١)].

وبعد الأوامر والنواهي، والتحضيض والترغيب يأتي مشهد من مشاهد يوم القيامة، عندما يشهد كل نبي على أمته:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: « اقرأ عليَّ »، قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل، قال: « نعم »، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ قال: « حسبك الآن ». فالتفت فإذا عيناه تذرفان[(٢)]، وكما قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [الزمر: ٦٩].

إنه يمهد لمشهد القيامة، يوم يحل بالذين كفروا المهانة والخزي والندامة، مع الاعتراف

---

(١) البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤).

(٢) صحيح البخاري (٥٠٥٠، ٤٥٨٢)، وصحيح مسلم (٨٠٠).

حيث لا جدوى من الإنكار:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

يوم يشهد الأنبياء على أممهم، ونجيء بك يا محمد شهيداً على أمتك، يتمنى الذين كفروا بالله وعصوا رسوله لو سوّاهم الله والأرض، فصاروا تراباً مثلها، كما يفعل بالبهائم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النبأ: ٤٠].

وبمناسبة الأمر بعباده الله والنهي عن إشراك شيء به في قوله: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ يختم المقطع بالبعد عن السكر في وقت الصلاة، ليعقل المصلي صلاته، ويعلم ما يقوله في صلاته كما تتعرض الآية للطهارة قبل الصلاة، والصلاة أمس الشعائر بمعنى العبادة، بل هي أصل الدين وعموده:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

روي في سبب نزولها عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صنع لنا ابن عوف طعاماً، فدعانا، فأكلنا، وسقانا خمراً قبل أن تُحرَّم، فأخذت منا، وحضرت الصلاة، فقدّموني، فقرأت: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾، ونحن نعبد ما تعبدون، قال: فخلطت، فنزلت: ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾[1].

---

(١) سنن الترمذي (٣٠٢٦)، وأبو داود (٣٦٧١)، والطبري في تفسيره (٥/ ٦١) وإسناده صحيح، فإن الراوي عند أبي داود والطبري عن عطاء بن السائب هو سفيان، وقد سمع من عطاء قبل الاختلاط. انظر هامش جامع الأصول (٢/ ٩٢)، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح.

في الآية إرشاد لإخلاص الصلاة، التي هي رأس العبادة من شوائب الكدر، ليجمعوا بين إخلاص عبادة الحق، ومكارم الأخلاق التي بينهم وبين الخلق المبينة فيما تقدم. وهو نهي عن القيام إلى الصلاة والشروع فيها قبل أن يكون المصلي صاحياً من السكر، ويعلم ما يقول. فكأنه يقول: لا تصلّوا في حالة السكر حتى تعلموا قبل الشروع ما تقولونه، إذ بذلك يظهر أنكم ستعلمون ما ستقرؤونه في صلاتكم، أو بتعبير موجز: حتى تكونوا بحيث تعلمون ما تقرؤونه [١].

وبهذا يتحكم الشارب بوقت الشرب وكميته، ولا يتحكم الشرب فيه ؛ فقد كان المسلمون بعد نزول هذه الآية يشربون ويقللون بعد الصبح، وبعد العتمة (العشاء)، ولا تدخل عليهم صلاة إلا وهم صاحون [٢]. حتى نزل تحريمحها في سورة المائدة [٣]. لقد كانت الخمر متحكمة في الناس قبل الإسلام، فهي إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصيلة الشاملة، وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع ؛ كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث أيضاً من المجتمع الروماني في أوج جاهلية والمجتمع الفارسي أيضاً، إلى المجتمع الأوروبي والأمريكي والأفريقي المتخلف. وثبت ضرر الخمر على الفرد والمجتمع، وحاولت الحكومة الأمريكية مرةً القضاء على هذه الظاهرة، فسنت قانوناً في سنة (١٩١٩م) سمي: قانون الجفاف، من باب التهكم عليه ؛ لأنه يمنع الري بالخمر ! وقد ظل هذا القانون قائماً مدة أربعة عشر عاماً، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة (١٩٣٣). وكانت قد استخدمت العقوبات، وجميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر. ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر ما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات. وفشلت كل هذه الإجراءات وألغي القانون فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي ببضع آيات من القرآن. وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية، وفي علاج المجتمع الإنساني، بين منهج

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٩٤-٩٥).
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٥٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٠٣).

الله ومناهج الجاهلية، قديماً وحديثاً على السواء [١]. إن المنهج التربوي الذي جاء به الإسلام هو منهج رباني، نزل من عند خالق الإنسان، فهو سبحانه أدرى بما يصلح الإنسان. إنه منهج يعتمد أولاً، وقبل كل شيء على تحرير النفس البشرية من كل سلطان، وربطها بخالقها العليم بدائها ودوائها، ومن ثم يوجهها خالقها بالتدريج لتقتلع من ذاتها، وبأمر خالقها الذي تؤمن به، كل أمر وفعل يُضرّ بها. فالسلطان سلطان القرآن، والأسلوب أسلوب تربوي رباني.

لقد جاءت الإشارة في التقابل بين السكر والرزق الحسن في القرآن المكي كمجرد لمسة توحي بأن السكر غير حسن في قوله تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [النحل: ٦٧]، وكانت مجرد لمسة من بعيد للضمير المسلم الوليد.

وفي المدينة المنورة حيث قامت للإسلام دولة، وكان له سلطان، لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان، إنما كان سلطان القرآن المنزل من عند الخبير بالنفس البشرية، والأوضاع الاجتماعية. بدأ القرآن عمله في رفق وسهولة، يلفت النظر في الضمير البشري إلى أن مدار الحل والحرمة، أو الكراهة على رجحان الإثم أو رجحان الخير والمصلحة، فنزل أول ما نزل آية تدل على فجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر [٢]: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩] وبعد فترة من الزمن نزلت آية النساء هذه ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾، ثم لما تمكنوا من ضبط أنفسهم للمحافظة على الصلاة التي هي عماد الدين نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٧١-٧٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٧٤-٧٥).

﴿ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: ٩٠-٩١][1].

وكما منعت الآية الذين آمنوا أن يقربوا الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون، كذلك منعتهم من الصلاة وهم جنب حتى يغتسلوا باستثناء حالة العبور، والمعنى لا تصلوا في حال الجنابة حتى تغتسلوا. والجنب: من أصابته الجنابة، يستوي فيه - على اللغة الفصيحة - المذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع، لجريانه مجرى المصدر، وإن لم يكنه، واشتقاقه من المجانبة، وهي المباعدة ؛ فالجنب المباعد للعبادة من الصلاة حتى يغتسل[2]. و﴿عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ هو من العبور ؛ أي الخطور والجواز، ومنه عبر السفينة النهر ؛ وعابر السبيل هنا الذي يمر في المسجد. ولا نحتاج لأن نقول: إن المراد بالصلاة في قوله سبحانه: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المسجد؛ لأن النهي عن القرب من الصلاة، فيدخل في القرب موضع الصلاة، وليس النهي عن الصلاة فقط، إذْ النهي عن قرب الصلاة أبلغ من النهي عن الصلاة، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة، وهي الجنابة المباعدة للصلاة، ولمحلها أيضاً[3]. فدخول المسجد (موضع الصلاة) حرام على الجنب إلا في حال العبور، والآية رخصة في مرور الجنب في المسجد إذا كان قصده المرور لا المكث. وروى بعضهم أن سبب الآية أن قوماً من الأنصار كانت أبواب دورهم شارعة في المسجد، فإذا أصابت أحدهم الجنابة اضطر إلى المرور في المسجد، فنزلت الآية في ذلك[4] ويشهد لصحة ذلك ما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: « سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر »[5]، علماً منه ﷺ أن أبا بكر رضي الله عنه سيلي الأمر من بعده

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٠٠)، وانظر حديث عمر وقوله : « اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً... الحديث » أخرجه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٩٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٢).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٥٧).

(٥) وهذا ما قاله في آخر حياته. البخاري (٤٦٧)، وأحمد (٢٤٢٨).

ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمور المهمة فيما يصح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه رضي الله عنه. وعن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناه. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: « ناوليني الخُمْرة من المسجد »، قالت: فقلت: إني حائض، فقال: إن حيضتك ليست في يدك »[١]، وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها[٢].

وقوله: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ ذكر حالة الرخصة في ترك الاغتسال، وترك الوضوء الذي لم يذكر في هذه السورة وذُكر في سورة المائدة.

والمرض المبيح للتيمم هو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو، أو شينه، أو تطويل البرء. عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ؛ فتيممت ثم صليتُ بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: « يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب »، فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً[٣].

والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير[٤] ؛ أي سواء كان مما تقصر فيه الصلاة أو لا تقصر. وهذا مذهب جمهور الفقهاء.

والأسباب التي لا يجد بها المسافر الماء هي: إما عدمه جملة، وإما خوف فوات الرفيق بسبب

---

(١) مسلم (٢٩٨)، والترمذي (١٣٤)، والنسائي (٢٧١، ٣٨٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠١).
(٣) سنن أبي داود (٣٣٤)، ومسند أحمد (١٧٣٥٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٢).

طلبه، وإما خوف على الرجل بسبب طلبه، وإما خوف سباع، أو إذاية عليه أو عطش [١].

فعدم الماء ليس بشرط في جواز التيمم للمريض، وإنما الشرط حصول الضرر ؛ وأما السفر، فعدم الماء شرط في إباحة التيمم، وليس السفر بشرط، وإنما ذكر السفر لأن الماء يعدم فيه غالباً [٢].

ويباح التيمم عند المرض أو فقد الماء من الحدث الأصغر والأكبر لقوله تعالى: ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾، والغائط هو المكان المطمئن من الأرض، وكانوا يقضون حاجتهم في المكان المنخفض، فكنَّى عن الحدث بمكانه.

وأما قوله: ﴿ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾، فقرئ لمستم، ولامستم. وفي المراد (بالملامسة) قولان:

أحدهما: أنها الملامسة باليد، أو بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه، فالواجب الوضوء.

والثاني: أنها الجماع. وهو الأرجح - والله أعلم - لقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الملامسة الجماع، ولكن الله كريم يكني بما شاء، وصح ذلك عن ابن عباس من غير وجه [٣]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقبل بعض أزواجه ثم يصلي ولا يتوضأ [٤].

وقوله سبحانه: ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾. والتيمم في اللغة هو القصد،

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٥٨).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٩١).

(٣) جامع البيان، الطبري (٥/ ٦٥-٦٦)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٢).

(٤) النسائي (١٧٠)، والترمذي (٨٦)، وأبو داود (١٧٨)، وابن ماجه (٥٠٢)، وأحمد (٢٥٢٣٨). وانظر روايات الطبري عن عائشة وترجيحه في تفسيره (٥/ ٦٧).

والصعيد هو كل ما يصعد على وجه الأرض، فيدخل فيه الرمل والشجر والحجر والنبات، وهو قول الإمام مالك رحمه الله، وقيل ما كان من جنس التراب كالرمل والزنيخ والنورة، وهذا مذهب أبي حنيفة. وقيل: هو التراب فقط، وهو قول الشافعي وأحمد وأصحابهما. ودليلهم ما رواه حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: « فضلنا على الناس بثلاث ؛ جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء »[1] ؛ ولعل كلمة التراب في الحديث لا يقصد منها إلا ما كان من جنس التراب، فالصخور بأنواعها تتفتت وتكون تراباً ؛ ولهذا كانت الأمة الإسلامية مخصوصة بمشروعية التيمم من الأرض دون سائر الأمم، قال رسول الله ﷺ: « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس كافة »[2]، وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل مع القوم، فقال: يا فلان، ما منعك أن تصليَ مع القوم ؟ فقال: يا رسول الله ؛ أصابتني جنابة ولا ماء. فقال: « عليك بالصعيد، فإنه يكفيك »[3].

وأرشد الله سبحانه إلى كيفية التيمم فقال: ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ ﴾ ؛ فالتيمم ضربتان: ضربة يمسح المتيمم فيها وجهه، وضربة يمسح فيها يديه إلى المرفقين ؛ وذلك لأن الله سبحانه قال في التيمم هنا: ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ ﴾، وقال في الوضوء: ﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾ [المائدة: ٦]، وقال سبحانه في حد السّرقة: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٧]، وكانت السنة في القطع الكفين ؛ قالوا: وحمل ما أطلق هنا على ما قُيِّد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية[4].

---

(١) مسلم (٥٢٢)، وعند أحمد (٧٦٥) : « وجعل التراب لي طهوراً... الحديث ».

(٢) البخاري (٣٣٥، ٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

(٣) سنن النسائي (٣٢١)، وقد أخرجه البخاري في حديث طويل (٣٤٤، ٣٥٧١)، ومسلم أيضاً (٦٨٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٣-٥٠٤).

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ تذييل فيه تعليل لما يُفْهِمُه الكلام من الترخيص والتيسير، وتقرير لهما ؛ فإنه سبحانه الذي من صفاته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين ويغفر للمذنبين، لابدّ أنْ يكون ميسراً لا معسراً[1].

وعبادة الله وحده، أو التوحيد الصحيح لا يتحقق إلا في طاعة الله وحده طاعة تامة، مع الإخلاص في الطاعة له سبحانه، وهذا ما يبينه المقطع، كالامتناع عن أكل أموال الناس بالباطل، واجتناب الكبائر، وترك الحسد، والسلوك الأسري الصحيح، والإحسان والتوجه إلى الله في كل شيء وطاعته في كل أمر ونهي، يستوي في ذلك أمور الطهارة وغيرها. كل ذلك يحقق العبادة الصحيحة التي ينال المؤمن بها الجزاء الوافر والأجر الجزيل.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- قضايا العقيدة: في فتنة العصر - وكل عصر - تظهر قضيتان رئيسيتان هما: الأموال، والمرأة. والآيات تقيم المؤمنين حيث ينبغي أن يكونوا في هاتين القضيتين، وغيرهما، وتربط ذلك كله بالله وطاعته وجزائه في الآخرة.

ب- الأحكام الشرعية: ذكرت الآيات أحكاماً تتعلق بتنظيم الأسرة وربطها بروابط قوية ومعالجة المشكلات التي يمكن أن تقوّض الأسرة وتهدمها.

ج- الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية: ذكرت الآيات آداب سلوك الزوج مع زوجته، وآداب الزوجة في سلوكها مع زوجها. وانتقلت من ذلك إلى أدب الإحسان بالمال والسلوك في الأسرة الاجتماعية الكبيرة.

د- الجوانب التربوية: تربية النفوس وترويضها على بذل الخير والمال، وتطهير القلب والعقل والأعضاء، وربط ذلك كله بالله العفوّ الغفور.

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٩٩-١٠٠).

المقطع الرابع: دور اليهود التخريبي في المجتمع الإسلامي، وأمر الله يقوم على العدل (٤٤-٥٨):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾.

صلة المقطع بسابقه:

بعد الحديث عن حرمة الأموال، والقوامة المالية والتنظيمية في الأسرة، وربط ذلك كله بطاعة الله وعبادته وحده، والتحرر من العبودية لسواه؛ تأتي مجموعة من الآيات في هذا المقطع

ذات شقّين: الشق الأول توضّح الآيات فيه الرؤية في أمر أهل الكتاب، وتكشف دورهم ليأخذ المسلمون حذرهم. ثم تأتي مجموعة من الآيات تتحدث عن الكافرين والمؤمنين، ثم تأمر بأداء الأمانة، والحكم بالعدل. وكل ذلك متصل بمحور السورة: الأمر بالعبادة لتحقيق التوحيد الصحيح والتقوى.

وهكذا يضيف السياق إلى ماهية العبادة الصحيحة قضيتين رئيسيتين هما: أداء الأمانة إلى أهلها، والحكم بالعدل.

المعنى الإجمالي:

من هذه الآيات في السورة تبدأ المعركة التي يخوضها القرآن الكريم بالجماعة المسلمة في مواجهة الجاهلية المحيطة بها - واليهود من أهل الكتاب خاصة - تلك المعركة التي شهدنا مواقعها ومجالاتها في سورتي البقرة وآل عمران من قبل.

وفي الحقيقة إن كل ما سبق في السورة من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والعائلية والأخلاقية، ومحو الملامح الجاهلية في المجتمع المسلم ؛ كل ذلك لم يكن بعيداً عن المعركة الخارجية مع أعداء الجماعة المسلمة في المدينة خاصة، وفي الجزيرة عامة. ما سبق من السورة كان معركة البناء للمجتمع الجديد على أسس المنهج الإسلامي الجديد ؛ كي يستطيع أن يواجه المجتمعات المعادية من حوله ويتفوق عليها.

وكما رأينا في سورتي البقرة وآل عمران العناية تتجه أولاً إلى بناء هذا المجتمع من داخله؛ لبناء عقيدته وتصوراته، وأخلاقه ومشاعره، وتشريعاته وأوضاعه، إلى جانب تعليم الجماعة المسلمة كل شيء عن طبيعة أعدائها ووسائلهم، وتحذيرها من كيدهم ومكرهم، وتوجيهها إلى المعركة معهم بقلوب مطمئنة، وعيون مفتوحة، وإرادات محشودة، ومعرفة بطبيعة المعركة وطبيعة الأعداء. كذلك نجد الأمر هنا في هذه السورة، سواء بسواء. وهي بذاتها معركة الأمة الإسلامية اليوم وغداً في أساسها وحقيقتها [1].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٨٤، ٨٥، ٨٧).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

استئناف لتعجيب المؤمنين من سوء حال أهل الكتاب، والتحذير عن موالاتهم إثر ذكر التكاليف والأحكام الشرعية. والخطاب لكل من يأتي منه الرؤية من المؤمنين، وفيه إيذان بكمال شهرة حالهم [(١)].

والرؤية هنا رؤية القلب، وهي علم بالشيء ؛ لذلك قال قوم: معناه ألم تعلم.

وروى الطبري بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظمائهم - يعني من عظماء اليهود - إذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه وقال: راعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله: ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [(٢)].

يخبرنا الله تعالى عن اليهود أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ؛ فيتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ، ليستبدلوا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، ولا يكتفون بذلك بل يريدون أن تضلوا السبيل، فتكفرون بما أنزل عليكم، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ﴾ وهو يحذركم منهم ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا ﴾ لمن لجأ إليه ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ لمن استنصره. والالتجاء إلى الله والاستنصار به يكون باتباع تعاليمه وتوجيهاته سبحانه، ومنها عدم تولي الأعداء ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ﴾، فقوله سبحانه: ﴿ والله أعلم بأعدائكم ﴾ خبر في ضمنه التحذير منهم. ثم بين الجنس الخطير

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٠٠).

(٢) جامع البيان، الطبري (٥/ ٧٤).



من أهل الكتاب وهم الأكثر عداوة فقال: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾، وذكر تصرفاتهم الخطيرة في أساليبهم الملتوية في معركتهم مع أهل الإيمان: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾، فيغيرون نصّه، أو يتأولونه على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل، قصداً منهم وافتراءً على الله، ويقولون سمعنا ما قلته يا محمد، ولا نطيعك فيه. وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم من الإثم والعقوبة. ويقولون للنبي ﷺ: اسمع ما نقول لا سمعت؛ وهذا استهزاء منهم واستهتار بسيد المرسلين وقائد المؤمنين، فغير مُسْمَع - الذي لا يتصرف إلا من أَسْمَع - يتخرج فيه معنيان:

أحدهما: غير مأمور وغير صاغر؛ كأنه قال: غير أن تسمع مأموراً بذلك.

والآخر: على جهة الدعاء؛ أي لا سمعتَ، كما تقول: امض غير مصيب، فكانت اليهود إذا خاطبت النبي ﷺ بـ﴿ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أرت ظاهراً أنها تريد تعظيمه، وأرادت في الباطن الدعاء عليه [1]، كما يقولون أيضاً: ﴿ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ ؛ فيوهمون أنهم يقولون راعنا سمعك بقولهم ﴿ رَٰعِنَا ﴾، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي ﷺ. وقد تقدم الكلام في هذا عند قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٤]، فهم يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه ﴿ لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ بسبهم النبي ﷺ [2]. و﴿ لَيًّۢا ﴾ أصله لوياً قلبت الواو ياءً وأدغمت [3]. ﴿ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾، أي توهيناً له، وإظهاراً للاستخفاف به.

وهذا اللي باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتى الآن في بني إسرائيل، ويحفظ منه في عصرنا الكثير، إلا أنه لا يليق ذكره هنا [4].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٦١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٧).

(٣) وهو مفعول مطلق، أي قولاً لياً.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٦٢-٦٣).

وبعد أن يحكي القرآن عنهم ؛ يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب، والأدب الجدير بهم ويطمعهم بعد ذلك كله في الهداية والجزاء الحسن، والفضل والخير من الله لو ثابوا إلى الطريق القويم. وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم، وأنها هكذا كانت، وهكذا تكون [1]:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ عوضاً من قولهم: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾، ﴿ وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا ﴾ عوضاً من قولهم: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا ﴾، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ معناه: أعدل وأصوب، ولكن لقسوة قلوبهم وإصرارهم على الكفر ﴿ لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أبعدهم عن الهدى، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، لا يستحقون به اسم الإيمان؛ حيث يزعمون أنهم موحدون، ويكفرون بمحمد ﷺ، وبجميع أوامر شريعته ونواهيها [2].

وصدق الله. فكتلة اليهود ظلت قروناً طويلة، حرباً على الإسلام والمسلمين، منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة المنورة إلى اللحظة الحاضرة. وكيدهم للإسلام هو الكيد الواصب الذي لا ينقطع، العنيد الذي لا يكف، المنوع الأشكال والألوان والفنون منذ ذلك الحين ! وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله - من غزوة الأحزاب قديماً، إلى كيد الصليبية والاستعمار بشتى أشكاله حديثاً - إلا كان من ورائه اليهود، أو كان لليهود فيه نصيب !

وعقّب الله سبحانه بالأمر بالمبادرة إلى سلوك محجة الهدى، مشفوعاً بالتحذير والتخويف والوعيد الشديد على المخالفة فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

روي عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود ؛ منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم: « يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٩٠).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٦٣).



أن الذي جئتكم به لحق »، فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا، وأصرّوا على الكفر، فأنزل الله فيهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ (١)، والعبرة بعموم النص لا بخصوص السبب.

إن القرآن لا يترك فرصة من فرص الموعظة والهدى إلا سلكها، فبعد أن ذكر من عجائب ضلال اليهود، وأقام الحجة عليهم، وهم أهل كتاب، وعندهم العلم والدليل ؛ أمرهم بالإيمان بما أنزل على محمد ﷺ. إنهم يعلمون أن هذا الكتاب المنزل فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ ودينه، فينبغي أن يكونوا أول من يؤمن به. غير أن اليهود لهم أحقاد وعناد، وطباعهم منحرفة، وقلوبهم قاسية ؛ لذلك يجيئهم التهديد العنيف من الله ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ (٢). إنه تهديد ووعيد على أبلغ وجه، بإزالة الخلقة وطمس أثر الحواس في الوجوه، وتتغير معالمها، وتصير منابت للشعر. وأيّاً ما كان الطمس، فهو تهديد مرعب، معادل لما وقع لأصحاب السبت، وهم أهل أيلة، الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مسخوا قردة وخنازير، وقد بسط الله قصتهم في سورة الأعراف: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [١٦٣-١٦٦]، لذا عطف هنا على طمس الوجوه بـ﴿ أَوْ ﴾ فقال: ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ ؛ فإذا أمر بأمر، فإنه لا يُخالف ولا يمانع (٣).

---

(١) رواه ابن جرير الطبري من طريق ابن إسحاق، وهو طريق حسن. الطبري (٥/ ٧٩).

(٢) الطمس: إزالة الأثر بالمحْو، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ ﴾ [المرسلات : ٨]، وقال : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [يونس: ٨٨]، أي أزل صورتها، ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ [يس: ٦٦]، أي أزلنا ضوْأها وصورتها كما يُطمَسُ الأثر. انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٧-٥٠٨)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٤٤-٢٤٥).

ثم يأتي تهديد آخر في الآخرة. إنه تهديد بعدم المغفرة لجريمة الشرك، مع فتح أبواب الرحمة الإلهية لما دون ذلك من الذنوب:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

سياق الآية يتضمن الحكم على اليهود بالشرك ؛ لأنهم مع زعمهم طاعة الله فيما أنزل عليهم من التوراة، مع أنهم حرفوها، وعبدوا الأهواء والشهوات، واشتروا الدنيا بالدين، كما وضحت آيات كثيرة ذلك ؛ مع زعمهم هذا، فإنهم لم يطيعوا الله فيما أنزل على رسوله، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، حيث كانوا يقرون للأحبار والرهبان بحق التشريع، أي حق التحليل والتحريم، وهو الحق الخاص بالله الخالق، والذي هو من خصائص الألوهية، فهم مشركون مع الله طاعة وعبادة غيره، والآية تدعوهم إلى التوحيد الخالص بالطاعة والعبودية لله وحده والتحرر من العبودية لسواه [١].

وهذه الآية وإن وردت في سياق تهديد اليهود، إلا أنها عامة في كل العباد ؛ فإنه تعالى لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب لمن يشاء من عباده [٢].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله ؛ فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه ؛ من صوم يتركه، أو صلاة تركها ؛ فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضِهم بعضاً، القصاص لا محالة » [٣].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٩٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٨).

(٣) مسند أحمد (٢٥٥٠٠).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار »، وقلت أنا: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة [١]. وعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ كلمة وقلت أخرى ؛ قال النبي ﷺ: من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار »، وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو من دون الله نداً دخل الجنة [٢].

ويشنع الله الشرك: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [٣]. والآية كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وعن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله ؛ أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال: « أن تجعل لله نداً وهو خلقك... الحديث » [٤]، وهذا الاستئناف في آخر الآية مشعر بتعليل عدم غفران الشرك [٥].

ويمضي السياق بذكر المعركة التي يخوضها القرآن بالمسلمين مع أهل الكتاب عامة، ومع اليهود في المدينة خاصة، الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار، ويثنون على أنفسهم وهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويتطاولون على الله ورسوله، ويعملون على إضلال الناس وإبعادهم عن الحق، فيبين الله كذبهم وكفرهم بإيمانهم بالجبت والطاغوت ؛ فهل هم مقربون من الله بما عملوا من السوء !

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ

---

(١) البخاري (١٢٣٨)، ومسلم (٩٢).

(٢) البخاري (٤٤٩٧، ٦٦٨٣)، وعند مسلم (٩٣) عن جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله ؛ ما الموجبتان فقال: « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار »، وروى مسلم عن أنس بمثله.

(٣) الافتراء: الكذب الذي لا شبهة للكاذب فيه ؛ لأنه مشتق من الفري، وهو قطع الجلد، والإثم العظيم: الفاحشة الشديدة. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٨٤).

(٤) البخاري (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١)، ومسلم (٨٦)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١١).

(٥) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٠٧).

يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

لا شك أن ظاهر لفظ الآية الأولى العموم، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]، يدل على أنّ الإنسان لا يزكي نفسه بلسانه، بل الزاكي من حسنت أفعاله وزكّاه الله عز وجل، ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد بالآية اليهود. واختلفوا في المعنى الذي زكّوا به أنفسهم على أقوال:

قال البعض: ذلك قولهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨]، وقولهم: ﴿ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال آخرون: هو قولهم: لا ذنوب لنا، وما فعلناه نهاراً غُفِر لنا ليلاً، وما فعلناه ليلاً غفر لنا نهاراً، ونحن كالأطفال في عدم الذنوب [1]، ولعلهم كانوا يزكون أنفسهم بكل ذلك، ويكفي ما يزعمون أنهم شعب الله المختار. وفي الواقع هم بلاء على شعوب الأرض كلها في العصر الحاضر.

وقد ذم النبي ﷺ الإكثار من المدح لئلا يؤدي بالممدوح إلى الكبر، فعن أبي معمر قال: قام رجل يثني على أمير من الأمراء، فجعل المقداد بن عمرو يَحثِي عليه التراب، وقال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثيَ في وجوه المداحين التراب [2]، وعن أبي بكرة أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ، فأثنى عليه رجل خيراً، فقال النبي ﷺ: « ويحك قطعت عنق صاحبك - يقوله مراراً - إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك، وحسيبه الله، ولا يزكي على الله أحداً » [3].

ولهذا قال الله تعالى هنا: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ ؛ فالمرجع في التزكية إلى الله عز وجل ؛ لأنه العالم بحقائق الأمور وغوامضها، فهو سبحانه لا يظلم أحداً حقه، ولا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٤٦).
(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٢)، والترمذي (٢٣٩٣)، وغيرهما.
(٣) البخاري (٦٠٦١، ٦٠٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠).



يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل، وهو ما يكون في شق النواة.

والله سبحانه يشهد على اليهود أنهم ﴿ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ في تزكيتهم أنفسهم، ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠]، واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزئ عن الأبناء شيئاً في قوله: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]، وكفى بصنيع هؤلاء اليهود كذباً وافتراءً ظاهراً.

وينبغي هنا أن نلتفت إلى أنفسنا نحن المسلمين، فإذا فسدت أعمالنا وأقوالنا، وتركنا الاحتكام إلى شرع الله في كل أمورنا، ثم تفاخرنا بأننا مسلمون، والإسلام بريء من الظلم والفساد في الأرض. إذا فعلنا ذلك نكون قد اتبعنا سنن اليهود والعياذ بالله تعالى.

ويمضي السياق في التعجيب من أمر أولئك الذين يزكون أنفسهم، بينما هم يؤمنون بالباطل ويشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويوحدونه ويؤمنون بكتابه المنزل، ورسوله المرسل بالبينات التي يعلمونها أكثر من غيرهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

الجبت كلمة تقع على الصنم والساحر والكاهن ونحو ذلك، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: « إن العيافة والطرق والطِيرَة من الجبت »[1]، والطاغوت مشتق من الطغيان، قال الإمام مالك: هو كل ما يُعبد من دون الله عز وجل.

(١) قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يُخط في الأرض، والجبت: قال الحسن: إنه الشيطان. مسند أحمد (٢٠٠٨١، ١٥٤٨٥).



فهؤلاء اليهود يعتنقون عبادة الأهواء والمصالح، ويكفرون بالله ليصلوا إلى غايتهم في تأليب المشركين على أهل الإيمان، فدينهم: الغاية تبرر الوسيلة ؛ لذلك نرى اليهود يعظمون غير الله، ويقولون لأهل الشرك وعبّاد الأصنام: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ من أجل أن يحرضوا أهل الشرك على أهل التوحيد، ويصلوا إلى غايتهم في تدمير المسلمين ودينهم [١] ؛ وفعلاً إنهم بعملهم هذا وإغراءاتهم المادية للمشركين دفعوهم لحرب المسلمين، حيث وعد اليهود أهل الشرك أن يمدوهم بالمال لحرب محمد ﷺ، وطاف وفدهم في الجزيرة العربية، وكان لهم ما أرادوا فحزبوا الأحزاب. ولأول مرة في تاريخ العرب يتحدون تحت قيادة أبي سفيان، وبتوجيه وتمويل يهودي لحرب الإسلام والمسلمين، وكانت غزوة الأحزاب، وكانت أشق وأكبر وآخر غزوة على المؤمنين، غير أن أهل الشرك واليهود خذلوا وخسروا أموالهم التي أنفقوها ليصدوا عن سبيل الله؛ ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقًا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

وسبب النزول يوضح ذلك ؛ فعن ابن عباس قال: كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وأبو رافع، والربيع بن أبي الحقيق، وأبو عامر، ووحوح بن عامر، وهودة بن قيس، فأما وحوح وأبو عامر وهودة فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير ؛ فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول، فاسألوا أدينكم خير أم دين محمد، فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، فأنزل الله فيهم: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا ﴾ [٢].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٢-٥١٣).

(٢) رواه ابن جرير من طريق محمد ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، وهو طريق حسن، وكذا روى ابن=

ولهذا لَعَن الله اليهود، وأخبر بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة ؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، ويستجيشونهم على حرب محمد ﷺ [١]. وها هم الآن في هذا الزمان، وفي كل عصر يستنصرون بالناس من أهل الكفر ويستجيشونهم لحرب الإسلام والمسلمين بأساليب كثيرة ومتعددة.

وتشرع الآيات بعد ذلك في تفصيل بعض آخر من قبائحهم، فتستنكر موقفهم من النبي ﷺ، وحسدهم إياه على ما آتاهم الله من فضله:

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

استفهام إنكاري، أي ليس لهم نصيب من الملك، ولئن كان لهم نصيب لا يؤتون الناس نقيراً، وهي النقطة التي في النواة، وذلك لشدة بخلهم وإمساكهم [٢]. وهو كناية عن الغاية في الحقارة والقلة على مجاز العرب واستعارتها، بل يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة، وهو محمد ﷺ، لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل. فلمَ يحسدونه ولا يحسدون آل إبراهيم عز وجل في جميع ما آتيناهم مما أوتي موسى وداود وعيسى، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ كملك سليمان وداود عليهما السلام، وآتيناهم مع ذلك الحكمة ؛ وهي الفهم في الدين، وما يكون من الهدى مما لم تنص عليه الكتب المنزلة.

فمنهم من آمن بالقرآن المنزل على محمد ﷺ. والجمهور على أن الضمير ﴿ به ﴾ عائد على القرآن الذي مرّ في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾، فأعلم الله سبحانه أنّ منهم من آمن كما أمر الله؛ فلذلك ارتفع الوعيد بالطمس

= جرير من طرق بنحوه عن كعب بن الأشرف وغيره. جامع البيان، الطبري (٥/ ٨٥).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٣).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٠٩).

ولم يقع، وصدَّ قوم ثبت الوعيد عليهم في الآخرة بقوله سبحانه: ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾.

وعقب ذكر الإيمان من بعض بني إسرائيل، والصد عن الإيمان تأتي القاعدة الشاملة للجزاء. جزاء المكذبين وجزاء المؤمنين، في كل دين، وفي كل حين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

تهديد ووعيد لجميع الكافرين، فهي أعم مما قبلها، فلها حكم التذييل. والإصلاء: مصدر أصلاه، ويقال: صلاهُ صلياً، ومعناه شيّ اللحم على النار [1]، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾، أي كلما احترقت جلودهم وتلاشت، من نضج اللحم نضجاً، إذا أدرك [2].

إنه مشهد لا يكاد ينتهي. مشهد شاخص متكرر، يشخص له الخيال ولا ينصرف عنه! إنه الهول، وللهول جاذبية آسرة قاهرة ! والسياق يرسم ذلك المشهد ويكرره بلفظ واحد ﴿كُلَّمَا ﴾، ويرسمه كذلك عنيفاً مفزعاً بشطر جملة: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾، ويرسمه عجيباً خارقاً للمألوف بتكملة الجملة: ﴿ بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾، فجعل الهول الرهيب المفزع العنيف كله في جملة شرطية واحدة لا تزيد ! [3]

وعلل ذلك بقوله: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾، فالجلد هو الذي يوصل إحساس العذاب إلى النفس، والتعليل مشعر أيضاً بدوام العذاب وعدم انقطاعه، ولأن التعبير عن إدراك العذاب بالذوق، من حيث إنه لا يدخله نقصان بدوام الملامسة، أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه فالقوة الذائقة أشد الحواس تأثيراً. وختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٥٣).
(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٤٠).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٠٠).

حَكِيمًا ﴾؛ وهذا واقع موقع التعليل لما قبله ؛ فالعزّة يتأتى بها تمام القدرة على عقوبة من يجترئ على الله سبحانه، والحكمة يتأتى بها تلك الكيفية في إصلائهم النار.

وفي مقابل بيان سوء حال الكفرة يأتي بيان حال المؤمنين لزيادة الغيظ للكافرين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾. وفي اختيار السين ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ ﴾ تأكيد للوعد، وفي اختيار سوف في آية الكفر ﴿ سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ﴾ من تأكيد الوعيد ما لا يخفى.

ونجد في المشهد ثباتاً وخلوداً مطمئناً ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾، واقتصر من نعيم الآخرة على لذة الجنات والأزواج المطهرة من الحيض والنفاس، وسائر المعايب والأدناس، والأخلاق الدنيئة، والطباع الرديئة ؛ لأن الجنات والزوجات الصالحات أحب اللذات المتعارفة للسامعين، وعطف على ذلك روح الظلال النديّة ؛ يرف على مشهد النعيم ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ دائماً لا تنسخه الشمس، ندياً لا حرّ فيه ولا قر [1].

ويختم المقطع بأمر المؤمنين بأداء الأمانات إلى أهلها، وأن يحكموا بين الناس بالعدل ؛ فهذا هو أمر الله وشرعه الذي يعارضه الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، فهم لا يريدون العدل، ولا يحبون من يردهم عن غيّهم وطغيانهم:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

إن ما استطرد من ذكر أحوال أهل الكتاب في تحريفهم الكلم عن مواضعه، وليّهم ألسنتهم بكلمات فيها توجيه من السبّ، وافترائهم على الله الكذب، وحسدهم بإنكار فضل الله إذ آتاه الرسول والمؤمنين ؛ كل ذلك يشتمل على خيانة أمانة الدين، والعلم، والحق، والنعمة، وهي أمانات معنوية،

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١١١-١١٢).



فناسب أن يعقب ذلك بالأمر بأداء الأمانة الحسية إلى أهلها [١]، بالإضافة إلى وظيفة الأمة المسلمة في الأرض، من إقرار مبادئ العدل والخلق على أساس منهج الله القويم السليم.

وإذا كان أكثر المفسرين ذكروا أن سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ قبض من عثمان بن طلحة مفتاح الكعبة، فدخل في البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾، فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح. وطرق الرواية كلها إلى التابعين [٢]، والعبرة بعموم النص ؛ وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه، ولا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع، وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » [٣]، وأكد النبي ﷺ الأمر بأداء الأمانة فقال: « أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك » [٤].

والحكم بالعدل الذي يأمر الله به المسلمين إنما هو عدل مطلق شامل، وهو بين الناس جميعاً، لا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا هو عدل بين أهل الكتاب، إنما هو المنهج الرباني الذي يقرر الحكم بالعدل بين الناس جميعاً ؛ المؤمن والكافر، والصديق والعدو، والأسود والأبيض ؛ لأنهم جميعاً « ناس »، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

وجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ واقعة موقع التحريض على امتثال الأمر، فكانت بمنزلة

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٩٠).

(٢) وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن مردويه، فهو من طريق الكلبي، وهي طريق ضعيفة.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٢)، والترمذي (٢٤٢٠).

(٤) رواه الترمذي (١٢٦٤)، وأبو داود (٣٥٣٥)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٥).

التعليل[1]. والتعبير يقدم لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾، ويجعله اسم ﴿ إنّ ﴾، لتربية المهابة في النفوس وليوحي بشدة الصلة بين الله وهذا الذي يعظهم به. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ بجميع المسموعات ومنها أقوالكم، ﴿ بَصِيرٗا ﴾ بكل شيء، ومن ذلك أفعالكم، ففي الجملة وعد ووعيد[2].

ويبرز في هذا المقطع ارتباطه بمحور السورة بأن التوحيد الصحيح إنما يكون بنبذ الشرك والتحرر من العبودية لغير الله تعالى.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: سبيل النجاة العبودية والطاعة لله وحده والتحرر عن العبودية لسواه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾.

ب- الأحكام الشرعية: وجوب أداء الأمانة، والحكم بين الناس بالعدل.

ج- الأخلاق الإسلامية تقتضي أداء الأمانة لأهلها، والعدل المطلق في الحكم بين العدو والصديق ؛ فالقرآن ينشئ خير أمة أخرجت للناس.

د - الجوانب التربوية: تظهر التربية الإسلامية في هذا المقطع بالعلم بالواقع على حقيقته، وذلك بتعريف الجماعة المسلمة كل شيء عن طبيعة أعدائها، ووسائلهم، وتحذيرها من كيدهم ومكرهم، وتوجيهها إلى المعركة الباردة حالياً، والساخنة فيها بعد، بقلوب مطمئنة، وعيون مفتوحة، وإرادات محشودة. ولهذا وردت آيات كثيرة في هذا المقطع توضح الرؤية في أمر أهل الكتاب، وتربي نفوس المسلمين، بتعريفهم طبيعة المعركة، وطبيعة الأعداء في الداخل والخارج من اليهود، ويأتي الحديث عن الأعداء في الداخل من المنافقين بعدُ.

(١) و﴿ نعما ﴾ أصله : نِعْمَ ما، بعد طرح حركة الميم الأولى وتنزيلها منزلة الكلمة الواحدة، وأدغم الميمان، وحركت العين الساكنة بالكسر لالتقاء الساكنين. والوعظ : التذكير والنصح، وقد يكون فيه زجر وتخويف. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٩٦).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١١٥).



المقطع الخامس: أساس الدين وحقيقة الإيمان طاعة الله ورسوله (٥٩-٧٠):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

صلة المقطع بسابقه:

إذا كان المقطع السابق قد عرّف الجماعة المسلمة طبيعة الأعداء في داخل المجتمع المسلم من اليهود، فهذا المقطع يبين طبيعة نوع آخر من الأعداء في الداخل وهم المنافقون؛ مبتدئاً ببيان أنّ حقيقة الإيمان تكون في طاعة الله ورسوله ظاهراً وباطناً.

المعنى الإجمالي:

إذا اشترى أحد سيارة أو جهازاً ميكانيكياً أو كهربائياً، فإنه لا يتصرف في الجهاز إلا تبعاً للتعليمات التي يضعها صانع الجهاز (الكتلوك)، وإلاّ فإنه يفسد الجهاز، ولا يتمكن من الاستفادة منه، فكذلك من يعقل (يستعمل عقله) يدرك أنه لابد من اتباع التعليمات التي ينزلها خالق الإنسان والكون والحياة، فهو العالم بمن خلق، وبمصلحة من خلق ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]، وهل تُستنبط تلك التعاليم مما تحكم به عقول الناس أو أهواؤهم ؟!

إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان. هذا حق، ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات، في بيئة من البيئات، متأثراً بشتى المؤثرات. ليس هناك ما يسمَّى « العقل البشري » كمدلول مطلق ! إنما هناك عقلي وعقلك وعقل فلان وعلان، وعقول هذه المجموعة من البشر، في مكان ما، وفي زمان ما. وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى ؛ تميل بها من هنا، وتميل بها من هناك.

ولابدّ من ميزان ثابت ترجع إليه هذه العقول الكثيرة، فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها، ومدى الشطط والغلوّ، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات. وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للإنسان، ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان الثابت، الذي لا يميل مع الهوى، ولا يتأثر بشتى المؤثرات.

ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين، فقد يكون الخلل في هذه الموازين ذاتها فتختل جميع القيم، ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم.

والله يضع هذا الميزان للبشر، لسائر القيم، وسائر الأحكام، وسائر أوجه النشاط، في كل حقل من حقول الحياة[1]:

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٠٩-١١٠).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

طاعة الله سبحانه وحده لا شريك له، والتحرر عن العبودية لسواه، أساس الدين فالله خالق الإنسان، والحياة، والكون الذي يعيش فيه الإنسان، وهو سبحانه العليم بما يصلح الإنسان والكون، والعليم بما يُسعد الإنسان، وطاعة الرسول ﷺ هي من طاعة الله ؛ لأنّه المبلغ أمر الله وشرعه. فلا إيمان بالقرآن، ولا إيمان بالرسول ﷺ، ولا إيمان بالله، إلا بالطاعة لله والرسول. وطاعة الرسول بعد وفاته اتباع سنته.

وعطف سبحانه طاعة أولي الأمر على طاعة الله والرسول، ولم يقل: ﴿ وأطيعوا أولي الأمر﴾ ؛ لأن طاعة أولي الأمر طاعة تنظيم لا طاعة عبوديّة، بخلاف طاعة الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يخطئ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٣-٤]، وظاهر قوله: ﴿ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ ﴾ عام في كل أولي أمر من الأمراء والعلماء. ومن المعلوم أن من يقيم أحكام الله على من يتولى أمرهم لابد أن يكون عالماً بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يكون على جانب كبير من التقوى والإيمان، فلا يكون من المنافقين أو الكافرين ؛ لأن الله قيد ﴿ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ ﴾ بقوله: ﴿ مِنكُمْ ﴾ ؛ فلا ولاية لغيركم عليكم [1].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية [2]. وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني، قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمّوا، وجعل بعضهم يمسك بعضاً، ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٨)، وروح المعاني، الألوسي (٢/ ١١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨٤)، ومسلم (١٨٣٤)، وأخرجه أصحاب السنن إلا ابن ماجه.

فقال: « لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف » [١].

فطاعة الأمير واجبة بنص القرآن، وبأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام في غير معصية الله عز وجل: لأنها طاعة تنظيم - كما ذكرت قبل قليل - لا طاعة عبادة، وقال النبي ﷺ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة » [٢]. وإذا وصل الأمر بالأمير إلى الكفر الواضح انقطعت بيعته، فلا طاعة له، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان » [٣].

وهذه الطاعة التنظيمية للأمير لابدّ منها من أجل جمع كلمة المسلمين، وإقامة شرع الله فيهم، كما أن اجتماعهم على أميرهم يحقق وحدتهم وقوتهم، لهذا أكد النبي ﷺ على الطاعة، كما أكدّ البيعة ووحدة الجماعة؛ قال رسول الله ﷺ: « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية »[٤]، وقال النبي ﷺ: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » [٥].

وإن اختلف المسلمون فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين أميرهم فعليهم أن يرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، ومن لم يرض بالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله اختلّ إيمانه، لقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾. ويكون الرد إلى الكتاب والسنة بأخذ الحكم منهما أو من أحدهما إن ورد الحكم صريحاً فيهما، أو يكون الرد باستنباط الحكم منهما بالقياس العام أو الخاص عليهما، كما قال

---

(١) البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).
(٢) رواه البخاري (٧١٤٤، ٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩).
(٣) البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).
(٤) البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).
(٥) رواه مسلم (١٨٥٤).

تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] وهذا يؤكد أن أولي الأمر هم العلماء، أو ينبغي أن يكونوا من العلماء. وردكم ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خير لكم في العاجل، وأحسن عاقبة في الآجل، ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١). فليست المسألة أن اتباع حكم الله وأمره يؤدي إلى رضاء الله وثواب الآخرة - وهو أمر عظيم مطلوب لذاته - ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا، وحسن مآل الفرد في الجماعة في هذه الحياة القريبة.

وحين ينتهي السياق من تقرير هذه القاعدة الكلية في شرط الإيمان وحدّ الإسلام، وفي النظام الأساسيّ للأمة المسلمة، وفي منهج تشريعها وأصوله، يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هذه القاعدة، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم مؤمنون ! وهم ينقضون شرط الإيمان وحدّ الإسلام حين يتركون طاعة الله ورسوله، ويريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله، ويرضون بحكم طاغوت من الطواغيت التي أمروا أن يكفروا بها (٢):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما ورد في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار، ورجل من اليهود

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٦١-٢٦٣)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٨).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١١٢، ١١٣).

تخاصما فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. والآية عامة، فإنها ذامة لكل من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت في قوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾[1]، وكيف يتحاكمون إلى الطاغوت ﴿ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾، فهؤلاء الذين يتحاكمون إلى الطاغوت بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١ ﴾ [النور: ٥١]، ثم قال سبحانه مبيناً إضلال الشيطان لهم؛ لأنهم أطاعوه فاستعبدهم: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾، أي بعيداً عن الحق. ثم قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾، أي تعالوا إلى حكم الله وحكم رسوله ﴿ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴾، أي يُعرضون عنك إعراضاً[2]. ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ۝٦٢ ﴾، أي كيف يصنعون ويحتالون إن أصابتهم عقوبة من الله بسبب ردهم حكم الله ورسوله، أو بسبب معاصيهم المتقدمة، ثم جاءوك يا محمد، ويا من تحكم بالحق الذي أنزله الله بعد محمد ﷺ، جاءوك يعتذرون إليك في احتكامهم إلى غير الله ورسوله، ويقولون ما أردنا في عدولنا عنك إلا إحساناً بالتقريب في الحكم وتوفيقاً بين الخصوم، وقد تكون المصيبة التي تصيبهم ظلم يقع عليهم؛ نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل، ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت، في قضية من قضاياهم.

وقد تكون المصيبة التي تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة حيث يصبحون معرضين للنبذ والازدراء في الوسط المسلم. وأياً ما كان سبب المصيبة، فإنهم يبررون

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٩)، والطاغوت الكاهن والشيطان، وكل رأس في الضلال. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/ ٢٨٢)، وقد أورد الطبري بأسانيد كثيرة يقوي بعضها بعضاً روايات سبب النزول، مفادها ما ذكر ابن كثير من الخصومة بين يهودي ومنافق. انظر جامع البيان، الطبري (٥/ ٩٦-٩٨).

(٢) بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٣٩).

تصرفاتهم بتبريرات كاذبة، ليخفوا ما في قلوبهم من كرههم لما أنزل الله وحبهم للطاغوت [١] ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [محمد: ٩]. ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق والزيغ عن الحق، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾، ولا تعاقبهم، ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾، انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم، فيه من الترغيب والترهيب ما يصلح نفوسهم إذا شاء الله لهم الهداية [٢].

فالقرآن يرغبهم في العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله، بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت، ومن الصدود عن الرسول وسنته حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول. فالتوبة بابها مفتوح، والعودة إلى الله لم يفت أوانها بعد، واستغفارهم الله من الذنب، واستغفار الرسول لهم فيه القبول. ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية، وهي أن الله قد أرسل رسله ليطاعوا بإذنه، لا يخالف أمرهم [٣]:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

هذه حقيقة لها وزنها. إن الرسول ليس واعظاً أو ناصحاً يلقي كلمته ويمضي ؛ إنما هو مرسل من قبل الله الخالق ليبلغ الناس أوامر خالقهم وتعاليمه، التي تحررهم من العبودية للمخلوق، وترسم لهم المنهج الذي يصلح أمورهم، ويحقق لهم السعادة في الدنيا قبل الآخرة.

إن الدين الذي أرسل الله به الرسل هو منهج حياة واقعية بتشكيلاتها وتنظيماتها وأوضاعها، وقيمها، وأخلاقها وآدابها، وشعائرها. وهذا كله يقضي أن يكون للرسالة سلطان يحقق المنهج، وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ [٤].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١١٦).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٢٠-١٢٢).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١١٧).

(٤) المرجع السابق.

وأمام الذين ﴿ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بميلهم عن منهج الله الفرصة التي دعا الله المنافقين إليها على عهد رسول الله ﷺ، ورغبهم فيها. وهي أن يأتوا رسول الله ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويستغفر لهم الرسول. والله تواب في كل وقت على من يتوب، رحيم في كل وقت بعباده، فالذين يتناولهم هذا النص ابتداء، كان لديهم فرصة استغفار الرسول ﷺ، وبقي باب التوبة مفتوحاً لا يغلق، ووعد الله قائماً لا يُنقض، لمن ثاب إلى رشده، وأقبل على هدي رسول الله ومنهجه الذي أنزله الله.

ثم يأتي الإيقاع الحاسم الجازم، فيقرر الله سبحانه شرط الإيمان وحدّ الإسلام، يقرره سبحانه بنفسه، ويقسم عليه بذاته:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

هذه حقيقة كليّة من حقائق الإسلام، جاءت في صورة قسم مؤكد؛ مطلقة من كل قيد، وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام، بأن تحكيم الرسول هو تحكيم شخصه، إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه، وهو صلوات الله وسلامه عليه، مبلغ شرع الله سبحانه - بقرآنه المتلو وبسنته القولية والعملية- وكل ذلك وحي من الله، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم:٣-٤].

وقد روي عن عبد الله بن الزبير أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شِراج الحَرَّة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سَرِّح الماءَ يمرّ، فأبى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري فقال: أن كان ابنَ عمتك، فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَذْرِ، فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى

يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ [١].

يقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به هو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [٢]، أي يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً، من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة [٣].

ثم بين سبحانه أن شرعه ودينه لا يكلف الناس ما يخرج عن حدود الطاقة:

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

ولو أنا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، المحتكمين إلى الطاغوت أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم مهاجرين منها إلى دار أخرى سواها، ما فعلوا ذلك؛ ما قتلوا أنفسهم، ولا خرجوا من ديارهم طاعة لله ورسوله، إلا قليل منهم [٤]. وقد أطاع المهاجرون أمر ربهم وأمر رسوله، فتركوا ديارهم وأموالهم، وخرجوا إلى الله ورسوله، وهم

---

(١) البخاري (٢٣٦٠-٢٣٦٣، ٢٧٠٨، ٤٥٨٥)، ومسلم (٢٣٥٧)، وأصحاب السنن. والشِراج : جمع شَرْج - بسكون الراء - وقيل : شَرج - بفتحها -، والمراد بها هنا مسيل الماء. والجَدْر - بفتح الجيم وسكون الدال - هو المسناة، وهو ما وضع بين شربات النخل كالجدار، وقيل : الحواجز التي تحبس الماء. قال القرطبي : والمعنى أن يرجع الماء إلى أصول النخل. انظر فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٤٦٠، ٤٦٢).

(٢) شجر : اختلط والتفّ من أمورهم، وهو من الشجر شبيه بالتفاف الأغصان. والحرج : الضيق والتكلف والمشقة. انظر : المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٠).

(٤) جامع البيان، ابن جرير الطبري (٥/ ١٠١).

قليل بالنسبة لأهل الكفر والنفاق، وقد كتب الله على قوم موسى أن يقتلوا أنفسهم، ولم يكن هذا شرعاً ومنهجاً، إنما كان عقوبة لشركهم وعبادتهم العجل، فهو وضع خاص لقوم قست قلوبهم كما قال تعالى فيهم: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤]، إن هذا المنهج الرباني لينهض به كل ذي فطرة سوية، إنه لا يحتاج للعزائم الخارقة الفائقة التي لا توجد عادة إلا في القلة من البشر، وهذا الدين لم يجئ لهذه القلة القليلة، إنه جاء للناس جميعاً، والناس معادن وألوان وطبقات من ناحية القدرة على النهوض بالتكاليف. وهذا الدين يسر لهم جميعاً أن يؤدوا الطاعات المطلوبة فيه، وأن يكفّوا عن المعاصي التي نهى عنها ؛ حتى تتحقق لهم السعادة جميعاً في هذه الحياة الدنيا، فالله أدرى بمصالح مخلوقاته، وبما يسعدهم، فهو سبحانه يريد خيرهم، ولا يريد أن يشق عليهم.

ما هي إلا عزيمة الفرد العادي، وإخلاص النية لله، والبدء بالعمل، وعندئذ يكون ما يعد الله به العاملين[1]: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾، لو أن المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا وهم يتحاكمون إلى الطاغوت فعلوا ما يذكّرون به من طاعة الله، والوقوف مع أمره، وهم يزعمون أنهم يؤمنون به، لكان خيراً لهم من مخالفة أمره سبحانه، وأشد تصديقاً[2] فمجرد البدء بالعمل يتبعه العون من الله، ويتبعه التثبيت على المضي في سلوك الطاعة والبعد عن العصيان، ويتبعه الأجر العظيم من الله في الجنة، ومعه الهداية إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾[3].

وفي نهاية المقطع يعود السياق ليرغب النفوس، ويستجيش القلوب للمتعة بصحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة، ويقرر أن ذلك يكون بطاعة الله والرسول ﷺ:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٢٠-١٢١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٢)، وانظر زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٢٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٢).

﴿ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠ ﴾.

لما ذكر الله سبحانه الأمر الذي لو فعلوه لأنعم عليهم، ذكر بعد ذلك ثواب من يفعله. وهذه الآية تفسير قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾[(١)].

فمن عمل بما أمره الله به ورسوله، وترك ما نهاه عنه الله ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصدّيقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم. ثم أثنى سبحانه عليهم فقال: ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾. عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: « إنه لم يُقبض نبي قطّ حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُحيّا أو يُخيّرُ »، فلما اشتكى وحضره القبض، ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصرُهُ نحو سقف البيت، ثم قال: « في الرفيق الأعلى »، فقلت: إذاً لا يجاورنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح »[(٢)]. ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، فهو سبحانه أهلهم لذلك لا بأعمالهم، وهو سبحانه عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق[(٣)].

وروي عن التابعين آثار في سبب نزول هذه الآية، فعن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: « يا فلان، مالي أراك محزوناً؟ »، قال: يا نبي الله، شيء فكّرت فيه، فقال: « ما هو ؟ »، قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر في وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد النبي ﷺ شيئاً، فأتاه جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٦).

(٢) البخاري (٤٤٣٧)، وفي أخرى (٤٤٣٨): «في الرفيق الأعلى» ثلاثاً، وعند مسلم (٢٤٤٤): إذاً لا يختارنا.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٢، ٥٢٤).

﴿ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾، قال: فبعث إليه النبي ﷺ فبشره، وعن الربيع بن أنس: قوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ قال: إن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة، ممن اتبعه وصدقه، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً، فأنزل الله في ذلك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: « إن الأعلين ينحدرون إلى من هم أسفل منهم، فيجتمعون في رياضها، فيذكرون ما أنعم عليهم ويثنون عليه، وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به، فهم في روضة يحبرون ويتنعمون فيه »[1].

وقال رسول الله ﷺ: « إن أهل الجنة يتراءون أهلَ الغُرَفِ من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدّرّي الغابرَ في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم »، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: « بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[2]، وطاعة الله والرسول صلوات الله عليه وسلامه في منهج الله كله، قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء »[3].

والمقطع بمجمله هو محور السورة، إذ يبيّن أن أساس الدين وحقيقة الإيمان والعبودية الطاعة لله ورسوله.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- **قضايا العقيدة:** حقيقة الإيمان تكون بطاعة الله ورسوله. وطاعة أولي الأمر من المسلمين طاعة تنظيم، إنما هي في غير معصية الله ورسوله، ولا ولاية لغير المسلم على المسلم.

ب- **الأحكام الشرعية** تستنبط من الكتاب والسنة، وإذا جدّ أمر أو حصل خلاف فعلى المسلمين

---

(١) روي الأثر الأول مرسلاً عن مسروق وعكرمة وعامر الشعبي وقتادة، وأحسنها سنداً الرواية عن الربيع بن أنس. تفسير ابن جرير (٥/ ١٠٤).

(٢) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

(٣) رواه الترمذي (١٢٠٩)، وقال : هذا حديث حسن، ورواه الدارمي (٢٥٣٩).

أن يرجعوا إلى حكم الله ورسوله.

ج- **الأخلاق الإسلامية والآداب:** تستقر أخلاق المسلم على الصدق في القول والعمل، فلا يحتكمون لغير ما أنزل الله على رسوله، لأنهم تحرروا ظاهراً وباطناً من العبودية لغير الله تبارك وتعالى.

د - **الجوانب التربوية:** تربية النفوس وترويضها على التحرر من النفاق، وأن تكون الطاعة خالصة لله ورسوله.

المقطع السادس: قتال أعداء الحق ضروري لتحرير المستضعفين وحماية الحق، وهدف الجهاد تحرير الإنسان (٧١-٩٤):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا

﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا
يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ
اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ
إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى
اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً
يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾
وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ
فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا
﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ
فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ
يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ
شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ
أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا
خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ۚ
فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ
يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن
يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ
لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ

إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

وجه اتصال المقطع بما قبله:

إنه لما ذكر طاعة الله وطاعة رسوله أمر أهل الطاعة بإحياء دينه وإعلاء دعوته في الخارج[1]، لتحرير الناس من تسلط الطواغيت، كما أمر من قبل بطاعته وتحرير النفس من العبودية لغيره.

المعنى الإجمالي:

القرآن يخوض المعركة بالجماعة المسلمة في ميادين كثيرة. وكان أولها ميدان النفس ضد الهواجس والوساوس وسوء التصور ورواسب الجاهلية القديمة والحديثة، كما يخوض المعركة بالجماعة المسلمة ضد الضعف البشري؛ حتى ولو لم يكن صادراً عن نفاق أو انحراف. وكان -وما زال- القرآن يسوسها بمنهجه الرباني لتصل إلى مرتبة القوة، ثم إلى مرتبة التناسق في الصف المسلم لتصدّ أعداءها في الداخل والخارج [2]، فالمقطع يبين محل القتال في التقوى، بعد أن بيّن أن التقوى في طاعة الله والرسول. كما يوضح للمسلمين معالم القتال وهدفه ؛ فهو في سبيل الله، لا في سبيل الطاغوت، وهدفه النبيل تحرير المستضعفين، لا التسلط على العباد.

تشير الآية الأولى إلى تهيئة غزوة من غزوات المسلمين، وليس في كلام السلف ذكر سبب نزولها، ولا شك أنها لم تكن أول غزوة ؛ لأن غزوة بدر وقعت قبل هذه السورة، وكذلك غزوة أحد التي نزلت فيها سورة آل عمران ؛ وليست نازلة في غزوة الأحزاب ؛ لأن قوله: ﴿ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ ﴾ يقتضي أنهم غازون لا مغزوّون، ولعلها نزلت لمجرد التنبيه إلى قواعد الاستعداد لغزو

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٧٣).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٣٠).

العدوّ، والتحذير من العدوّ الكاشح، ومن العدوّ الكائد، ولعلها إعداد لغزوة الفتح، فإن هذه السورة نزلت في سنة ستّ، وكان فتح مكة سنة ثمان، ويدلّ لذلك قوله: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾، وقوله: ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

وابتداء الأمر بأخذ الحذر من العدوّ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله. وأخذ الحذر أكبر قواعد القتال لاتقاء خدع الأعداء[1]. ﴿ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾، اخرجوا مُجدّين مصممين [2]، سرية بعد سرية، أو نفيراً عاماً ينفر به الجميع إذا لزم الأمر [3].

ثم بين سبحانه أن ممن يخالطون المؤمنين ويتظاهرون بالإيمان، أناساً يتخلفون عن القتال في سبيل الله، فيتباطؤون عنه، ويبطئون غيرهم، ﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ من قتل أو استشهاد وإنما هي مصيبة بحسب اعتقاد المنافقين ونظرهم الفاسد، أو على أن الموت كله مصيبة كما شاءه الله تعالى: ﴿ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وإنما الشهادة في الحقيقة نعمة لحسن مآلها؛ ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ سرّه عدم حضور القتال مع المؤمنين وعدّه نعمة من نعم الله عليه. إنهم ينظرون إلى القتال من خلال المصلحة المادية، فإذا رأوا المسلمين أصيبوا فرحوا، وإن رأوهم غلبوا وغنموا تمنوا أن يكونوا معهم ليصيبوا من الغنائم، ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾[4]، وقوله سبحانه: ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ أي لم تكن بينكم وبينه معرفة ووداً؛ فلا مودة في الدين والولاء. وهذا الاعتراض من كلام الله تعالى، لئلا يتوهم

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ١١٧).

(٢) يقال: نَفَر الرجل ينفِر - بكسر الفاء - نفيراً، ونفرت الدابة تنفُر - بضم الفاء - نفوراً، والمعنى انهضوا لقتال العدو، وثبات: معناه جماعات متفرقات، كناية عن السرايا، وجميعاً: الجيش الكثيف. انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٧)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٧٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٤).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٧).

من مطلع كلامه: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ ﴾ أن تمنيه المعية للنصرة والمظاهرة حسبما يقتضيه ما في البين من المودة، بل هو للحرص على حطام الدنيا، كما ينطق به آخره، فإن الفوز العظيم الذي عناه هو ذلك، وليس إثبات المودة بطريق التحقيق، بل بطريق التهكم [(١)]. ويظهر التعبير القرآني أن المنافق يعتبر نفسه صنفاً آخر منفصلاً عن المؤمنين في المودة والولاء والأهداف.

ومن وراء التحذير والاستنهاض للجماعة المسلمة في ذلك الزمان، يرتسم نموذج إنساني متكرر في بني الإنسان في كل زمان ومكان في هذه الكلمات المعدودة من كلمات القرآن !

ثم تبقى هذه الحقيقة تتملاها الجماعة المسلمة أبداً ؛ وهي أن الصفّ قد يوجد فيه أمثال هؤلاء، فلا ييئس من نفسه، ولكن يأخذ حذره ويمضي، ويحاول بالتربية والتوجيه والجهد أن يكمل النقص، ويعالج الضعف، وينسق الخطى والمشاعر والحركات.

ثم يمضي السياق يحاول أن يرفع ويطلق هؤلاء المبطئين المثقلين بالطين ! وأن يوقظ في حسهم التطلع إلى الآخرة التي هي خير وأبقى، وأن يدفعهم إلى بيع الدنيا وشراء الآخرة ويعدهم على ذلك فضل الله في الحالتين، وإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة [(٢)]:

﴿ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤ ﴾.

﴿ يَشۡرُونَ ﴾ [(٣)] يصلح أن يكون الأمر للمنافقين وللمؤمنين؛ لأن شرى من الأضداد؛ فهو أمر للمنافقين أن يقاتلوا في طاعة الله، بدل أن يختاروا الدنيا على الآخرة. ويمكن أن يقال أيضاً إنه خطاب للمؤمنين ؛ فليقاتل المؤمنون الكفارَ، الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة [(٤)].

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٢٧)، وتفسير السمرقندي (١/ ٢٤٢-٢٤٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) شرى يشري شراءً من الأضداد ؛ إذا باعه، وإذا اشتراه أيضاً. والعرب تقول لكل من تمسّك بشيء وترك غيره اشتراه. لسان العرب (١٤/ ٤٢٧).

(٤) تفسير السمرقندي (١/ ٣٤٣).



وتؤكد الآية على أن يكون القتال في سبيل الله. إن المؤمن لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ولا للاستيلاء على الناس ؛ ليجد الخامات للصناعات، والأسواق للمنتجات، أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات.

والمؤمن أيضاً لا يقاتل لمجد شخص، ولا لمجد بيت، ولا لمجد طبقة، ولا لمجد دولة ولا لمجد جنس؛ إنما يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله في الأرض [١]، وبتعبير أوضح: يقاتل لتحرير الناس من الخضوع والعبودية للطواغيت. جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه، فمن في سبيل الله ؟ قال: « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » [٢]. وإذا قاتل الرجل بقصد آخر غير إعلاء كلمة الله وتمكين منهجه في الحياة، ثم قتل لا يكون شهيداً، ولو سمّاه بعض الناس شهيداً، فهو افتراء على الله، والنصوص تدل على أنه ليس بشهيد، وليس له أجر الشهداء، بخلاف من قصد إعلاء كلمة الله، فله الأجر العظيم (عظيم ؛ هكذا بدون تحديد)، أيٍّ من الحالين: إن قتل شهيداً، أو إن عاد غانماً: ﴿ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤ ﴾ وقال رسول الله ﷺ: « تضمّن الله لمن خرج في سبيله - لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي وتصديقاً برسلي - فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أَرْجِعَهُ إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده ما من كَلْم يُكلَم في سبيل الله إلا جاءَ يومَ القيامة كهيئته حين كلم ؛ لونه لون دم، وريحه مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سريّة تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سَعَة فأحملهم، ولا يجدون سَعَة، ويشقّ عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوَدِدْت أني أغزو في سبيل الله فأُقْتَلُ، ثم أغزو فأُقْتَل، ثم أغزو فأقتل » [٣].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٣٤).

(٢) البخاري (٢٨١٠، ٣١٢٦)، ومسلم (١٩٠٤).

(٣) مسلم (١٨٧٦)، وعند البخاري (٣١٢٣): « تكفل الله لمن جاهد في سبيله... إلى : من أجر أو غنيمة».

ثم يلتفت السياق إلى المسلمين ؛ وينتقل من أسلوب الحكاية والتصوير عن أولئك المبطئين إلى أسلوب الخطاب للجماعة المسلمة كلها، ليبين لهم هدف القتال، وأنه تحرير المستضعفين من تسلط الطواغيت المتسلطين:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

يحرض الله المؤمنين على الجهاد في سبيله لاستنقاذ المستضعفين بمكة المكرمة؛ من الرجال والنساء والأطفال، المتبرمين من المقام بها لتسلط أهلها وظلمهم، بمنعهم المؤمنين من أخذهم حريتهم في عبادتهم لربهم. هؤلاء المستضعفين الذين يتوجهون إلى ربهم بالدعاء: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ يتولى أمر استنقاذنا وتحريرنا، ﴿ وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ ينصرنا على هؤلاء المتسلطين [١]. وليس لهؤلاء المستضعفين حيلة إلا الدعاء[٢]. قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [النساء: ٩٨]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: « كنت أنا وأمي من المستضعفين، أنا من الولدان وأمي من النساء » [٣].

فالآية تبين بشكل واضح أن القتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وهدفه تحرير الناس من ظلم الظالمين وتسلط المتسلطين ؛ لأن الآية تتناول المؤمنين والأسرى وحواضر الشرك إلى يوم القيامة [٤].

وإذ تقرر بهذا الأمر القتال وضرورته للتحرير، بيّن اللهُ بعد ذلك الفارق بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٧٩)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٥).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٩).

(٣) البخاري (١٣٥٧، ٤٥٨٧).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٩).



﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

فالمؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه لتحرير الإنسانية من الطاغوت، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان ومقاصده ؛ شيطان الإنس والجن، ثم هيّج الله المؤمنين على قتال أعدائه أولياء الشيطان [1]، مبيناً سبحانه أن مكر الشيطان وكيده، وكيد حزبه وأنصاره، كل ذلك ضعيف إذا وُجِد الجهاد في سبيل الله. وهذا تقوية من الله لقلوب المؤمنين، وتجرئة لهم على مقارعة الكيد الضعيف ؛ فإن الحزم والعزم الذي يكون على حقائق الإيمان يكسره ويهده ودخلت كان ﴿ كان ضعيفاً ﴾ لتدل على لزوم صفة الضعف [2].

أما إذا لم يقم المسلمون بواجب الجهاد فياخسارتهم في الدنيا والآخرة ؛ في الدنيا تسلط الأعداء، وفي الآخرة عقاب الله لمن ترك طاعته وامتثال أمره. وربما أدّى ذلك إلى النفاق، كما ورد في الحديث: « من مات ولم يَغْزُ ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق » [3].

ثم يلفت الله عز وجل نظر رسوله ﷺ، ونظر المؤمنين إلى تصوّر خاطئ عند بعض الناسالذين يظنون أن الإسلام صلاة وزكاة فقط دون قتال، تصور الذين هم مستعدون لطاعة الله في قضايا العبادة، لا في قضية بذل الدم في سبيل الله، وذلك خلال عرض حال بعض المؤمنين، بعد أن كُتِب عليهم القتال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٥).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٩).

(٣) مسلم (١٩١٠)، وعند النسائي (٣٠٩٧) وأبي داود (٢٥٠٢) وأحمد (٨٦٤٨) : « من لم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة نفاق ».

إن شريعة الله سبحانه نزلت بالتدريج لحكم تربوية، وقضايا واقعية تحقق الأهداف التي ينزل الله من أجلها الأحكام الشرعية. وإن فريضة القتال في سبيل الله لم يأمر بها الله في مكة؛ فقد أمرهم الله بمكة بالصلاة والزكاة - دون تحديد أنصبة الزكاة - وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين. وكانوا يتحرقون، ويودّون لو أمروا بالقتال ليردوا العدوان عنهم، وينالوا عزتهم وحريتهم في دينهم وسلوكهم. ولم يكن الحال إذْ ذاك مناسباً لرفع السلاح في وجوه الطغاة والمتسلطين لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدوهم ؛ فإذا رفعوا السلاح استأصلهم عدوهم. ومنها كونهم كانوا في بلد حرام، وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء. ومنها أن كل أسرة في مكة كان منها مؤمنون ومنها مشركون، فإذا أمر المؤمنون بالقتال سالت الدماء في كل أسرة، فلهذا وغيره من الحكم التي يعلمها الله لم يأمرهم سبحانه بالقتال إلا بالمدينة لما صارت لهم دار منعة وأنصار. ومع هذا لمّا أمروا بها كانوا يودّونه ربّما جزع بعضهم منه، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً، ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾، وحالهم كمن يخشى الناس كخشية الله أو أشد خشية.

عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: « إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا »، فلما حوّلنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفّوا، فأنزل الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ ﴾[1].

ولعل أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تنبيهاً على أن الجهاد مع النفس مقدم، وما لم يتمكن المسلم في الانقياد لأمر الله تعالى بالإخلاص لله تعالى في الصلاة، والجود بالمال، لا يتأتّى منه الجود بالنفس، والجود بالنفس أقصى غاية الجود[2].

---

(١) رواه النسائي (٣٠٨٦)، ورواه الحاكم وابن مردويه وابن أبي حاتم. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٦).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٣١).

وقالت فرقة: المراد بالآية المنافقون من أهل المدينة ؛ وذلك أنهم سكنوا على الكره إلى فرائض الإسلام، مع الدعة وعدم القتال، فلما نزل القتال شق وصعب عليهم صعوبة شديدة، إذ كانوا مكذبين بالثواب ؛ ويحسن هذا القول أن ذكر المنافقين يطرد فيما بعدها من الآيات [(١)].

والذي يظهر من الآيات أن المراد عموم المجتمع المسلم بما فيه من المنافقين وضعفاء الإيمان، والجاهلين بأهداف الدين المنزل لسعادة البشرية، وذلك لتربية هذا المجتمع وتوجيهه إلى ما فيه سعادة الدارين؛ من الحرية الحقيقية في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة، ولذا جاء في ختام الآية: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾. متاع الدنيا ومنافعها والاستمتاع بلذاتها قليلة ؛ لأنها زائلة لا بقاء لها، ومن اتقى الله بطاعته مخلصاً له في الطاعة، فقد ضمن لنفسه بفضل الله الآخرة بنعيمها الأبدي الدائم ؛ قال النبي ﷺ: « ما لي وللدنيا ؛ إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف، ثم راح وتركها » [(٢)].

ثم زادهم في التربية بياناً وبصيرة ليرغبوا في الجهاد في سبيل الله، عندما بين لهم أنهم صائرون إلى الموت لا محالة، وإن الموت لا ينجو منه أحد:

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

الخطاب عام، وإن كان المراد وعظ المنافقين، وتربية ضَعَفَة المؤمنين، الذين قالوا: ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾، فنموت بآجالنا، والمنافقين الذين قالوا لما أصيب أهل أحد: ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، فردّ الله عليهم: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٩).

(٢) مسند أحمد (٣٧٠١، ٤١٩٦)، والترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، والقيلولة : النوم في الظهيرة، وقيل : الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر، وإن لم يكن في ذلك نوم. القرطبي (٥/ ٢٨٢).

﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾[١]، فالحصون العالية الرفيعة لا تنجي من الموت إذا جاء الأجل، الذي هو مرتبط بأمر الله وقدره، سواء جاهد المرء أم لم يجاهد، فلا يغني حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم[٢]

ثم سفّه الله سبحانه تصوراً آخر عند من يدَّعون الإسلام، ويتظاهرون أنهم من أهله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ﴾، وإن تصب المنافقين حسنة؛ من غنيمة أو رزق، أو هزيمة عدو، أو سلامة وأمن، أو غير ذلك يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة ؛ من جَدْب ومحل، أو هزيمة أو جوع، أو غير ذلك يقولوا هذه من عندك يا محمد، بسببك ؛ لسوء تدبيرك، أو بشؤمك علينا. فصحح الله هذا المفهوم الصادر عن قلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم، مبيناً أن الحسنة والسيئة من عند الله، وأن الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في جميع خلقه ؛ البر منهم والفاجر، والمؤمن والكافر؛ وليست هناك قدرة غير قدرة الله تنشيء الأشياء والأحداث، وتحقق ما يقع في هذا الكون من وقائع ؛ هذه القدرة تنشئ وتحقق وفق الحكمة الإلهية للحكيم الخبير، ولهذا وبخهم سبحانه بالاستفهام عن علة جهلهم وقلة فهمهم، وتحصيلهم لما يخبرون به من الحقائق فقال: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾[٣].

وبهذه اللمسة يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر، وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف وذعر[٤].

---

(١) قاله ابن عباس من طريق أبي صالح، وهي طريق حسنة، وواحد البروج برج، وهو البناء المرتفع والقصر العظيم. انظر تفسير القرطبي (٥/ ٢٨٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٦).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨١)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٧).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٤٧).

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

الخطاب للنبي ﷺ، والمقصود به أمته، ويدخل فيه المذكورون دخولاً أولياً. وفي إجراء الجواب أولاً على لسان النبي ﷺ ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، وسوق البيان ثانياً من جهته تعالى بطريق تلوين الخطاب والالتفات، إيذان بمزيد الاعتناء به والاهتمام برد اعتقادهم الباطل وزعمهم الفاسد ؛ والإشعار بأنَّ مضمونه مبني على حكمة دقيقة، حَرِيَّة بأن يتولى بيانها علام الغيوب عز وجل. والعدول عن خطاب الجميع كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠]، للمبالغة في التحقيق بقطع احتمال سببية بعضهم لعقوبة الآخرين. فما أصابك أيها الإنسان من نعمة من النعم، فهي من الله تعالى بالذات، تفضلاً وإحساناً من غير استيجاب لها من قِبَلِكَ، كيف لا وكل ما يفعله العبد من الطاعات التي يرجى كونها ذريعة إلى إصابة نعمةٍ ما، فهي بحيث لا تكاد تكافئ نعمة الوجود، أو نعمة إعطاء القدرة على أدائها مثلاً، فضلاً عن أن تستوجب نعمة أخرى، ولذلك قال النبي ﷺ: « لن يُدْخِلَ أحداً عملُه الجنةَ »، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: « ولا أنا، إلاَّ أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسدّدوا وقاربوا... الحديث »[1]. وما أصابك أيها الإنسان من بلية ما من البلايا فهي بسبب اقتراف نفسك المعاصي والهفوات المقتضية لها، وإن كانت من حيث الخلق والإيجاد منتسبة إليه تعالى، نازلة من عنده عقوبة، قال رسول الله ﷺ: « لا يصيب عبداً نكبةٌ فما فوقها، أو ما دونها إلا بذنب، وما يعفو الله تعالى عنه أكثر »، وقرأ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠][2].

ولا تعارض بين الآيتين لظهور اختلاف جهتي النفي والإثبات، فكل شيء فعله سبحانه، إن أصاب بالسيئة من قحط أو هزيمة، فذلك عدله، وإن أصاب بالحسنة فذلك فضله ؛ لكنه

---

(١) البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) الترمذي (٣٢٥٢).

إن أصاب الإنسان بسيّئة فما ذلك إلا بذنب، وإن أصاب المجموع فقد يكون بذنب بعضهم، والله الذي قدّر لحكمة حسب السنن التي وضعها الله سبحانه في هذا الكون [(١)]، ومنها أن مخالفة تعاليمه التي أنزلها تسبب الفساد في الأرض، وتعود بالضرر على الناس. عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: « لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه »، وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون ؟! قال: « نعم، إذا كثر الخبث » [(٢)]، ورسول الله ﷺ لا يملك شيئاً من إنزال الضر بهم حتى يتشاءموا منه، إنما هو مرسل من عند الله، ليبلغهم شرائع الله، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وإذا استقر منهج الله سبحانه قادهم وساسهم به رسول الله ﷺ بشهادة الله ووحيه وأمره [(٣)]، والمعنى أن الرسول ﷺ إنما يأمر وينهى بياناً من الله وتبليغاً، فإنما هي أوامر الله ونواهيه، وفيه توعد للكفرة وتهديد [(٤)].

والذين ينسبون ما يصيبهم من الخير إلى الله، وما يصيبهم من الضر إلى النبي ﷺ، إنما كان ذلك منهم بسبب سوء تصورهم لحقيقة ما يجري لهم وللناس في هذه الحياة، وعلاقته بمشيئة الله، وطبيعة أوامر الرسول ﷺ لهم ؛ وحقيقة صلة الرسول بالله سبحانه، وهذا بالنسبة للضالين الذين يقرون بأن الطاعة لله، لكنهم يجهلون أن طاعة الله لا تكون إلا بطاعة ما يبلغه رسوله ﷺ من كتاب وسنة، وهذا ما بينته خاتمة الآية: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

وهناك صنف آخر يتظاهرون بطاعة الله لكنهم لا يريدون أن يطيعوه في حقيقة أمرهم، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ [محمد: ٢٨]، هؤلاء قلوبهم

---

(١) روح المعاني، الألوسي (١/ ١٣٤).

(٢) البخاري (٣٣٤٦، ٣٥٩٨)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٨).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٢).

معلقة بحب الكفر وأهل الكفر ؛ لأنهم بذلك يحققون مصالحهم وأهواءهم، ولا يهمهم أن تفسد مصالح الجماعة كلها بتسلط أهل الكفر والظلم عليها، إنهم لا يفهمون الحرية الحقيقية التي جاء بها الدين بأن لا عبودية إلا لله، إنما يفهمون حريتهم هم في الوصول إلى مصالحهم وتحقيق أهوائهم وشهواتهم. لذا فإن هذا الصنف عندما يتشاءمون من قيادة النبي أو قيادة من بعده من القيادات الإسلامية، إنما يريدون بقولهم لقيادتهم إذا أصابتهم سيئة: « هذه من عندك» إنهم يريدون عامدين بقولهم هذا تجريح قيادة الرسول ﷺ تخلصاً من التكاليف التي يأمر بها وهم يعنون بالخير أو السوء النفع أو الضر القريب الظاهر الذي يقع عليهم [1].

ويظهر أمر هؤلاء الصنف واضحاً جلياً في عصرنا الحالي، فهناك أناس يسمونهم أو يسمون أنفسهم بالمسلمين المعتدلين - إن رضوا لأنفسهم اسم الإسلام - والمقصود من إسلامهم المعتدل، أو من اعتدالهم في هذا الذي يسمونه إسلام هو ترك الاحتكام إلى الله في كل ما أنزل، أو في بعضه، أو في الجهاد - على الأغلب - لئلا يقاوم المسلمون من يعتدي عليهم من الكفرة المتسلطين. وهؤلاء الصنف يكرهون ما أنزل الله، ويحبون الخضوع لأهل الكفر والظلم؛ لأنهم بطاعتهم لغير الله يغدق عليهم أسيادهم ما يصلون به إلى أهوائهم وشهواتهم. فإذا كانت الديموقراطية التي يدّعونها، في وقت من الأوقات، وفي جزء من أرض الله ؛ ديموقراطية حقيقية صحيحة، بسبب عدم تمكنهم من التلاعب، أو لأن الناس لم يعودوا يطيقون فسادهم وظلمهم وتسلطهم على العباد، وتمكين الأعداء من البلاد ؛ إذا كان الأمر كذلك وظهر على السطح في القيادة أناس مؤمنون مجاهدون شرفاء، ووقف عالم الكفر بملله المختلفة ضد الإسلام والمسلمين يحاربهم اقتصادياً مع حربهم المستمرة بكل سلاح متطور، قام هؤلاء المنافقون يقولون: هذه المصائب التي تصيبنا هي من عند هؤلاء القادة الشرفاء الذين وقفوا في وجه الظلم والتسلط، فتوقفت مصالح المنافقين من أذنابهم، فلا غرو أن يساهموا في الضغط على الناس مادياً ومعنوياً ليعيدوهم إلى نبذ قيادتهم الحكيمة والعودة إلى ما يسمونه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٤٨-١٤٩).

الاعتدال، بترك جهاد العدو ؛ ليعيث في الأرض فساداً، وتعود الأمة إلى ما يسمونه السلام وهو في الحقيقة الاستسلام إلى الذل والخضوع للطواغيت أهل الفساد.

وهؤلاء الصنف، ومن كان قريباً منهم من ضعاف الإيمان إن زعموا أنهم مسلمون فعليهم أن يطيعوا الرسول الذي أرسله الله، وإلاّ فليسوا بمسلمين، ومن لم يطع القيادة الإسلامية فليس بمطيع لله:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾.

هذا كالتكملة لقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ ﴾، باعتبار ما تضمنّه من ردّ اعتقادهم أن الرسول ﷺ مصدرُ السيئات التي تصيبهم؛ فالآمر والناهي في الحقيقة هو الله تعالى، والرسول مبلغ أمر الله الذي أنزله عليه وحياً يُتلى في الكتاب، أو سنة تبيّن وتفصّل الكتاب ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٣-٤] [١]، وقال رسول الله ﷺ: « من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى أميري فقد عصاني » [٢]. فالواجب على الناس طاعة الرسول فيما بلغهم عن ربهم، ومن تولى وأعرض عن طاعة الله، فالرسول ﷺ ليس مكلفاً أن يحدث الهدى للمعرضين المتولين، ولا أن يحفظهم من الإعراض والتولي حتى لا يقعوا في الكفر. وهذا على معنى ﴿ حَفِيظًا ﴾ من المحافظة، وإذا كان لفظ ﴿ حَفِيظًا ﴾من حفظ المساوئ فالمعنى: ليس الرسول مكلفاً بحفظ مساوئهم وذنوبهم ليحاسبهم عليها ؛ والله هو الذي يهديهم، إذا شاء، ويحفظ عليهم كفرهم ومخازيهم ليحاسبهم عليها. فالأمور إذاً بيد الله، ومحمد ﷺ مهمته الدعوة والبلاغ [٣].

وإذا قال بعض المفسرين: إن هذا منسوخ بآيات القتال، فنقول: لا نسخ ؛ لأنه لا تعارض بين القتال وتبليغ الدعوة، حيث إن القتال لتحرير الناس من الطواغيت التي تُرهبهم

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٣٥).

(٢) البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٣).

وتستعبدهم، لا لإكراه الناس على الإسلام، إذ القتال في الإسلام شرع لإزالة العقبات التي يضعها الطغاة المستكبرون لمنع الناس من التعرف على الحق والدخول في كنفه.

وبعد أن بين الله سبحانه أن الطاعة لرسول الله ﷺ طاعة لله، وبالتالي فالطاعة للرسول سبب الحسنات والخيرات والنصر، والمعصية سبب الفشل والمصائب، بيّن حالة من حالات المنافقين، وسفّهها، ووجّه رسوله إلى ما يفعله معهم مقابلة لها:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

نزلت في المنافقين باتفاق المفسرين، والمنافقون يتظاهرون بالطاعة لرسول الله، ولا يتحققون بها، لأن من لم يعتقد الطاعة ليس بمطيع حقيقة، ولو قالوا لرسول الله ﷺ: أمرك طاعة، فإنهم عازمون على عدم الطاعة، ولذلك قال: فإذا خرجوا من عندك ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾[1]. ويحتمل أن يكون المعنى: غير الذي تقوله أنت يا محمد، فيما أمرتهم به من أمر الله، ويحتمل غير الذي تقوله تلك الطائفة، التي قالت: « أمرك طاعة »، وهي تبيّت غير ما تقول. ويأتي التهديد بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ ؛ يكتبها عليهم في صحفهم للحساب، وربما كتبها في كتابه المنزل ليفضحهم، ويبين كذبهم في ادعائهم الطاعة. ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ يا محمد، ولا تخبر بأسمائهم، ولا تعاقبهم الآن، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وثق به، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾، وسيجزيهم الله على هذا العصيان[2]. والإعراض عن المنافقين، والتوكل على الله، هما سلاحا النبي ﷺ لمواجهة عدم انضباط بعض المتظاهرين أنهم من صف المسلمين وفيه. وسبب مجيء هذه المعاني في سياق الأمر بالقتال، وفي سياق نفي أن تكون المصائب بسبب اتباع

---

(١) بيت الرجل الأمر، إذا دبره ليلاً، قال تعالى: ﴿ إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ﴾ [النساء: ١٠٨]. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٨٩-٢٩٠)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٣).

القيادة الإسلامية ؛ لأن الطاعة والانضباط أساس في القتال لتحقيق النصر. وهؤلاء المنافقون لا يريدون النصر على الكفرة ؛ فقلوبهم مع الكفرة، وتحقيق أهوائهم ومصالحهم لا يتم إلا بالولاء لهم وتنفيذ مخططاتهم في الكفر والفساد.

ثم أنكر الله حالهم مبيناً أن سبب هذا الحال هو عدم تدبر القرآن وفهمه والإيمان به. إن الدليل على أن هذا القرآن من عند الله قائم بالقرآن نفسه، فهو معجزة النبي ﷺ الباقية إلى قيام الساعة، وقد تحدى القرآن نفسه العرب وغيرهم من الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، إن زعموا أن القرآن افتراه بشر: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود: ١٣]، وتحداهم أن يأتوا بسورة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال سبحانه في محكم تنزيله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤] ؛ ولا نريد أن نذكر هنا إعجاز القرآن اللغوي والبياني، ولا إعجازه العلمي ؛ حيث تعرّض القرآن في معرض بيان الحق والدعوة إليه، إلى بعض الظواهر العلمية التي كشفها الواقع التجريبي والاطلاع العلمي بعد سنين، أو بعد قرون، فلو لم يكن هذا القرآن من عند خالق هذا الكون لاختلف الواقع العلمي التجريبي عن ما أخبر به القرآن، ولا نريد أن نتوسع في بيان الإعجاز التشريعي للقرآن؛ فالعالم المتحضر كلما تقدم في الحضارة وارتقى في أخلاقه الإنسانية، قارب أو ارتقى إلى بعض التشريعات التي شرعها القرآن؛ أيّاً كان هذا التشريع في الحقوق الدستورية، أو الاقتصادية، أو السياسية، أو المدنية، أو الدولية، أو غيرها. أم نريد أن نذكّر بالإعجاز التاريخي في أخبار القرآن عن ما غاب في بطون التاريخ، أو إخباره عن المستقبل، أو إخباره عن ما يدور

في نفوس الناس من المؤمنين والمنافقين ؛ ممّا لا يعلمه إلا الله. وقد أخبر القرآن عما يدور في النفوس في عصر التنزيل وبعده، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وحلل نفوس البشر وكشف نواياهم، ووجههم إلى ما فيه صلاحهم واستقامة أمورهم.

وكيف يصل الإنسان إلى الإيمان الجازم بأن الله الخالق وحده الذي له الطاعة والعبودية، والعبودية لغيره ذلٌّ ينبغي التحرر منها، ولا يكون ذلك إلا بطاعة الله فيما أنزل، وكيف يصل الإنسان إلى الإيمان بأن هذا القرآن معجز، فيه الدلالة على أنه كلام الله وليس كلام بشر ؟! يصل الإنسان إلى ذلك قطعاً بفهم القرآن وتدبر معانيه، وهؤلاء المنافقون لو أنهم تدبروا القرآن وفهموا معانيه لاعتقدوا أنه من عند الله، فأطاعوا الله فيما أنزل، وأطاعوا رسوله فيما بلّغ.

إن واقع كفرهم ونفاقهم، وبعدهم عن طاعة الله، وطاعة القيادة المسلمة ؛ يدل على أنهم لا يفهمون القرآن، ولم يكلفوا أنفسهم تحرير عقولهم وفتح قلوبهم، فاستمروا في كفرهم، بل ازدادوا كفراً ؛ لأن كفر المنافق أشد خطراً على الإسلام والمسلمين من المشركين المعلنين لكفرهم. فاستحقَّوا التوبيخ من الله، والانكار عليهم لعدم الفهم والتدبر: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾. إن القرآن – مع إنكاره عليهم – يلفت نظرهم إلى إعجازه الذي يدركه كل من يفهم القرآن، ولو فهماً إجمالياً، فيرى فيه التناسق، والصدق، والكمال، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه الاختلاف، والكذب والتناقض، والنقص والقصور [1]. وأنكر الله على المنافقين في موضع آخر عدم التدبر، وبيّن السبب، وهو إغلاق قلوبهم لئلا تفهم الحق: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤]، وبين الله سبحانه للجميع أن الغرض الأساسي لإنزال القرآن هو تدبر آياته، والاتعاظ بها: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩]. ومن الآية وسياقها نعلم أنه لا طاعة، ولا انضباط، ولا إيمان، إلا بتدبر هذا القرآن.

---

(١) بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٤٧)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٤٤).

ويمضي السياق في الآية التالية لبيان جناية أخرى من جنايات المنافقين، وبيان جناية ضعفاء الإيمان، الذين ينشرون الشائعات دون فهم وتثبت:

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

الآية نازلة في سرايا رسول الله ﷺ وبعوثه ؛ وكان المنافقون يشرهون إلى سماع ما يسوء النبي ﷺ في سراياه ؛ فإذا طرأت لهم شبهة أمن للمسلمين، أو فُتح عليهم حقروها وصغروا شأنها، وأذاعوا بذلك التحقير والتصغير، وإذا طرأت لهم شبهة خوف المسلمين، أو مصيبة نزلت بهم عظّموها، وأذاعوا ذلك التعظيم، فأفشوه بين الناس، وربما ساعدهم في نشره بعض جهلة المسلمين وضعفاء الإيمان، ممّن قلّت خبرتهم وفهمهم لحقيقة الدين وأهدافه [١].

ونحن نعرف في عصرنا الحالي أهمية الحرب النفسية، وأهمية حرب الإشاعات، وتأثيرها على نفسية الأمة بشكل عام، وعلى نفسية المقاتل على وجه الخصوص ؛ ولهذا ينكر الله عز وجل على من يبادر بنشر خبر قبل أن يتحقق، أو قبل أن يعرف محتوى الخبر ودلالاته. قال رسول الله ﷺ: « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » [٢]، وقال ﷺ: « إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال » [٣]، ويطالب الله المؤمنين أن يردّوا أمثال هذه القضايا إلى رسول الله ﷺ وإلى قياداتهم المؤهلة لمعرفة الأمور وحقائقها، فيستنبطوا حكمها [٤]، ويعرفوا أثرها ودلالتها، من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والقيادة المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة.

والأمر بهذا في الحقيقة هو أمر بالثقة، وأمر بالتروي، وأمر بالتقيد بالسياسة الرسمية

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٣٧)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٤).

(٢) رواه مسلم (٥)، وعند أبي داود (٤٩٩٢) : « إثماً » بدل « كذباً ».

(٣) البخاري (١٤٧٧، ٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣).

(٤) يستنبطونه أي يستخرجونه من معادنه. يقال : استنبط الرجل العين، إذا حفرها واستخرجها من قعورها. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٥٣٠).

للدولة المسلمة.

ثم يربط الله سبحانه القلوب به: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. وهذا الخطاب لجميع المؤمنين، باتفاق من المتأولين، فلولا هداية الله لكم، وإرشاده إياكم باتباع منهجه في سلوككم، لضللتم، واتبعتم شياطين الإنس والجن. وفي ذلك بشارة من الله لحفظ أهل الإيمان المتبعين لأمر الله، والموالين لقيادتهم الإسلامية، وفيه أيضاً إشارة إلى أن السير وراء الشائعات ونشرها، وعدم إرجاعها إلى المختصين بها اتباع للشيطان [١].

وهكذا كان القرآن يربي الأمة الإسلامية ؛ فيغرس الإيمان والولاء للقيادة المؤمنة، ويعلم نظام الانضباط في جهاد الأعداء في الداخل والخارج، في آية واحدة، بل في بعض آية ؛ فصدر الآية يرسم صورة منفرة للجندي وهو يتلقى نبأ الأمن أو الخوف، فيحمله ويجري متنقلاً مذيعاً له، من غير تثبت، ومن غير تمحيص، ومن غير رجعة إلى القيادة، ووسط هذه الآية يعلم ذلك التعليم، ويشير إلى أهمية وسائل الإعلام في نشر الأخبار، وآخرها يربط القلوب بالله، ويحذرها من اتباع الشيطان في الأخبار الكاذبة المضللة [٢].

إن هذا المقطع ابتدأ بتوجيه المسلمين إلى أن ينفروا إلى القتال سرايا أو جيوشاً لتحرير الناس، وإذا كان الأمر كما ذكر من عدم طاعة المنافقين، وتقصير الآخرين في مراعاة أحكام الإسلام، عندئذ يصل الأمر إلى قمة التكليف الشخصي، حيث يوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بأن يقاتل - ولو كان وحيداً - فإنه لا يحمل في الجهاد إلا تبعة شخصه، وفي الوقت ذاته يحرض المؤمنين:

﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٤).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٥٨).

والآية متصلة بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ؛ فإن أردت الأجر العظيم ﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أو متصلة بقوله عز وجل: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ ؛ فإن لم يقاتلوا في سبيل الله فقاتل أنت وحدك، لا تكلف إلا نفسك [1].

وهذا الأمر في ظاهر لفظه للنبي ﷺ وحده، لكن لم نجد قط في خبر أن القتال فرض على النبي ﷺ دون الأمة ؛ والمعنى والله أعلم أنه خطاب للنبي ﷺ في اللفظ، وهو مثال ما يُقال لكل واحد في خاصة نفسه ؛ أي أنت يا محمد، وكل واحد من أمتك القول له: قاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك، ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يستشعر الجهاد، ولو لوحده، ومن ذلك قول النبي ﷺ: « والله لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي » [2]، وقول أبي بكر وقت الردة: ولو خالفتني يميني لجاهدتها بشمالي [3].

وفي قوله تعالى: ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ حقيقة أساسية في التصور الإسلامي، والمسؤولية الفردية، وعموم التبعة، وهي أن لا ينتظر أحد أن يقوم معه الآخرون حتى يقوم بما وجب، بل عليه أن يبادر كل بنفسه. وروي عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء بن عازب: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة ؟ قال: لا، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾، إنما ذلك في النفقة [4].

وفي الآية دلالة على أن ما يفعله المنافقون وضعاف الإيمان من التثبيط والتقاعد لا يضر

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٣٩).

(٢) رواه البخاري في حديث طويل (٢٧٣٤)، وأحمد (١٨٤٤٩).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٦)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٩٣).

(٤) مسند أحمد (١٨٠٠٩)، وكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي إسحاق عن البراء. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٠).

النبي ﷺ، ولا يضر المؤمنين المتبعين للنبي ﷺ في عهده ومن بعده [١].

والأمر بالتحريض وحث المؤمنين على القيام بالفرض الواجب عليهم خاص بالنبي ﷺ، حيث أمر المسلمين بقتال المشركين، وبين أجر المقاتل في سبيل الله بأحاديث كثيرة منه ﷺ، بأقواله وأفعاله. من ذلك قول النبي ﷺ يوم بدر وهو يسوي الصفوف: ﴿ قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض ﴾ [٢]. وبعد رسول الله ﷺ يكون التحريض بالآيات والأحاديث التي تدعو إلى الجهاد وتحث عليه. و﴿ عَسَى ﴾ في قوله سبحانه: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ واجبة التحقيق، بينما هي من البشر متوقعة مرجوّة. وقد تحقق وعد الله للمؤمنين بغلبتهم للكفرة، ثم قوى الله قلوبهم بأن عرّفهم شدة بأس الله، بأنه أقدر على الكفرة وأشد تنكيلاً لهم [٣]. ودلت الآية على أنه لا ينكفّ بأس الذين كفروا إلا بقتال، لا كما يتوهم بعض المتخاذلين. وكذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية، وهي تدفع إلى التكاليف التي تشق عليها إلى شدة الارتباط بالله ؛ وشدة الطمأنينة إليه، وشدة الاستعانة به، وشدة الثقة بقدرته وقوته فكل وسائل التقوية غير هذه لا تجدي حين يبلغ الخطر قمته. والله سبحانه هو الذي خلق هذه النفوس، وهو الذي يعلم كيف تربَّى، وكيف تستجاش، وكيف تستجيب.

وبمناسبة تحريض الرسول ﷺ المؤمنين على القتال، وذكر المبطئين المثبطين قبله يقرر قاعدة عامة في الشفاعة، ويدخل فيها من باب أولى التوجيه والنصح والتعاون على الجهاد، وهو في أولويات الخير الذي أمر به الله لتحرير البشرية من الطغاة [٤]:

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٤٠).

(٢) مسلم في حديث طويل (١٩٠١)، وأحمد (١١٩٩٠).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٦). والتنكيل : العقوبة بالأخذ بأنواع العذاب، وترديده عليهم في الدنيا والآخرة. وأصله : التعذيب بالنكل، وهو القيد فعمم. والمقصود من الجملة التهديد والتشجيع. روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٤٠).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٥٩-١٦٠).

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

يقول الإمام الطبري: « من يَصرْ يا محمد شفعاً لوتر أصحابك، فيشفعهم في جهاد عدوهم، وقتالهم في سبيل الله، وهو الشفاعة الحسنة، يكن له نصيب منها، يقول: يكن له من شفاعته تلك نصيب، وهو الحظ من ثواب الله وجزيل كرامته، ومن يشفع شفاعة سيئة، يقول: ومن يشفع وتر أهل الكفر بالله على المؤمنين، فيقاتلهم معهم، وذلك هو الشفاعة السيئة، يكن له كفل منها يعني بالكفل النصيب والحظ من الوزر والإثم »[1]. وذهب الطبري إلى هذا التأويل بسبب ما تقدم في السياق من أمر القتال. والقاعدة عامة، تشمل التوجيه والنصح والتعاون، والمبدأ عام في كل شفاعة خير أو شفاعة سوء، وقد ذكر المبدأ العام بمناسبة الملابسة الخاصة، على طريقة المنهج القرآني في إعطاء القاعدة الكلية من خلال القاعدة الجزئية، وربط الواقعة المفردة بالمبدأ العام، ثم ربط الأمر كله بالله، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ ؛ مقتدراً ويمنح القدرة على كل شيء.

ويدخل في أولويات هذا العموم سياق النص الذي أشار إليه الطبري رحمه الله، فالذي يشجع ويحرّض ويعاون على القتال في سبيل الله، يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها والذي يبطئ ويثبط تكون له التبعة فيها وفي آثارها[2]. ومن هذا العموم جاء النصيب من الدعاء لمن يدعو لأخيه بظهر الغيب، فقد قال النبي ﷺ: «من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثله »[3].

ثم رغب الله بعد ذلك في فرد شائع من الشفاعة الحسنة، إثر ما رغب فيها على الإطلاق،

---

(١) وهو مأخوذ من كفل البعير والمركب، وهو الكساء أو الشيء يهيأ عليه شبيه بالسرج. ولا يستنكر الطبري التعميم في هذا المعنى كما ذهب إليه بعض المفسرين. انظر جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٥/ ١١٧).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٦٠).

(٣) مسلم (٢٧٣٢).



وحذّر عمّا يقابلها من الشفاعة السيئة، فإن تحية الإسلام شفاعة من المسلم لأخيه المسلم عند الله عز وجل [١]، والتحية في المجتمع توجد العلاقة المتينة بين المسلمين المبنية على المحبة وإرادة الخير، قال رسول الله ﷺ: « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؛ أفشوا السلام بينكم » [٢]، وهنا يقول الله عز وجل:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

جعل الإسلام تحيته: « السلام عليكم »، أو « السلام عليكم ورحمة الله »، أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته »، فإذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل ممّا سلم، أو ردّوا عليه بمثل ما سلم ؛ فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة ؛ لأن الله أمر بالرد في أقل الواجب، وخَيَّر في الزيادة [٣]. وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم يا رسول الله، فرد عليه السلام، ثم جلس فقال: « عشر »، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله، فرد عليه، ثم جلس فقال: « عشرون »، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه السلام، ثم جلس فقال: « ثلاثون » [٤].

والمراد بقوله «عشر»، و«عشرون»: عشر حسنات وعشرون وثلاثون حسنة لمن سلم وكذلك لمن ردّ، ولهذا قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾، أي حفيظاً [٥] فيحاسبكم على كل شيء من أعمالكم [٦].

والسلام من شعائر الإسلام، وهو من أهم الروابط الاجتماعية بين المسلمين التي تجعلهم

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٤١).
(٢) مسلم (٥٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣١-٥٣٢).
(٤) رواه أحمد (١٩٤٤٦)، والترمذي (٢٦٨٩).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٠٥).
(٦) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٤٥).

صفاً واحداً أمام أعدائهم، جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله: أي الإسلام خير ؟ قال: « تطعمُ الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »[(١)].

ومن الروابط بين السلام « تحية الإسلام »، وبين القتال أن الإسلام دين السلام. السلام المبني على تحرير الإنسان من كل ظلم وتسلط، لا السلام الذي تريده الدول القوية من الدول المستعبَدَة، فهذا استسلام للظلم والقهر.

ولما تقدم الإنذار والتحذير الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ تلاه مقوياً له الإعلام بصفة الربوبية، وحال الوحدانية، والإعلام بالحشر والبعث من القبور للثواب والعقاب[(٢)]:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾.

التذكير بكلمة التحرير « لا إله إلا الله » ؛ أي لا عبودية ولا طاعة ولا خضوع إلا له والتذكير بالحشر، والمسؤولية بين يدي الله يوم القيامة، ضمن الحديث عن القتال، واضح في بيان أن قتال المسلمين أعداء الله وأعداء الإنسانية؛ إنما هو قتال لله وفي سبيل الله، الذي أمَرَ جُنده أن يقاتلوا الطواغيت وأعوانهم لتحرير البشرية من ذل العبودية والخضوع لغير الله تعالى.

فلا ينبغي للمؤمن المجاهد في سبيل الله أن ينسى أن جهاده لتحرير الناس من عبودية غير الله الخالق المالك، ولا ينبغي أن ينسى المسؤولية بين يديه سبحانه ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: ٦]، هذا ما أخبر به الله سبحانه، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ ؛ فلا أحد أصدق منه سبحانه في حديثه، وخبره، ووعده ووعيده، لا إله إلا هو، ولا رب سواه[(٣)].

وبعد الحديث عن الشفاعة الحسنة والمساعدة في الخير، وعن السلام الذي يستقر في

(١) البخاري (١٢، ٢٨)، ومسلم (٣٩).
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٢).



المجتمع عند وجود الإيمان والحب في الله، وبعد الحديث عن التوحيد والمسؤولية بين يدي الله يوم القيامة يعود السياق إلى الموضوع الرئيسي. فالقتال يقتضي صفاً واحداً، وموقفاً موحداً ومن ثم تأتي الآيات في السياق تنكر على المؤمنين انقسامهم في أمر المنافقين إلى قسمين: قسم يريد قتلهم، وقسم يرى مسالمتهم بعد أن أظهر الله ضلالهم:

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: لما خرج النبي ﷺ إلى أحد رجع ناس من أصحابه، فقالت فرقة: نقتلهم، وقالت فرقة: لا نقتلهم، فنزلت: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾، وقال النبي ﷺ: « إنها تنفي الرجال كما تنفي النار خَبَث الحديد »[١].

وقوله تعالى في الآية التالية: ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يؤيد الروايات التي وردت في أن هذه الآية في أناس نافقوا، وهم في مكة أو خارج المدينة. غير أن رواية سبب النزول عن زيد رضي الله عنه صحيحة وقوية، والهجرة أنواع:

منها: الهجرة إلى المدينة لنصرة النبي ﷺ، وكانت هذه واجبة أول الإسلام إلى أن فتحت مكة، فقال النبي ﷺ: « لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا »[٢].

والنوع الثاني: هجرة المنافقين مع النبي ﷺ في الغزوات.

والثالث: هجرة من أسلم في دار الحرب، فإنها واجبة؛ إلا إذا كان بقاؤه فيه عون ومصلحة ظاهرة للمسلمين.

والرابع: هجرة المسلم ما حرم الله عليه، كما قال النبي ﷺ: « المسلم من سلم المسلمون من

---

(١) البخاري (١٨٨٤)، وفي رواية (٤٥٨٩) قال: « إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة »، ومسلم (٢٧٧٦).

(٢) البخاري (٢٧٨٣، ٢٨٢٥)، ومسلم (١٨٦٤).



لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »[١]. وهاتان الهجرتان ثابتتان الآن. وأقول: إن هجرة المنافقين إلى القيادة الإسلامية للجهاد معها موجودة بعد رسول الله ﷺ[٢].

لذلك نرجح ما ورد في سبب النزول، ونخرّج الهجرة الواردة بهجرة المنافقين إلى الجهاد في سبيل الله مع قيادتهم عندما يعلن القائد النفير، ويكون الجهاد فرض عين.

ونقول أيضاً لبيان ذلك، والتأكيد على تناسق الآيات وارتباط معانيها: إن الآيات في هذا المقطع من أوله ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ﴾ إلى آخره تتحدث عن قتال الكافرين، وبيان التعامل مع المعسكرات المعادية للإسلام والمسلمين، مما يُسمَّى اليوم بالحقوق والعلاقات الدولية، والتي بيّنت هذه الآيات بعضها، وجاء تتمة بيانها في آيات أخرى؛ وفي بداية الحديث عن المعسكرات المعادية جاءت هذه الآية لتنبه إلى معسكر للكفر هو معسكر النفاق، يعيش بين المسلمين، أو قريباً من المدينة المنورة، وتستنكر على المسلمين اختلافهم في إيمانهم وكفرهم، وتؤكد الحكم بكفرهم، غير أن النبي ﷺ لم يقتلهم جرياً على القاعدة الإسلامية العامة في معاملتهم على ظواهرهم، ولا يمنع عدم قتلهم من أن يعلم المسلمون والمنافقون أنفسهم أنهم كافرون، كارهون لما أنزل الله، وأكّد الله كفرهم وبُعدهم عن الإيمان بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾، فالله أضلهم بسبب اتباعهم الباطل، ومخالفتهم الرسول ﷺ، ولا يستطيع إنسان أن يهدي من أضله الله: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ إلى الهدى[٣].

ثم يخبرنا الله سبحانه بما في ضمائر تلك الطائفة، طائفة النفاق، لئلا نحسن الظن بهم، ولا نجادل عنهم، ولنعتقد عداوتهم، ونمتنع عن ولايتهم[٤]:

---

(١) البخاري (١٠، ٦٤٨٤)، ورواه النسائي (٤٩٩٦)، وغيره.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٠٨).
(٣) انظر الأقوال والروايات عند ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٢٢-٥٢٣).
(٤) زاد المسير ابن الجوزي (٢/ ١٥٥).

﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ ﴾.

تتحدث هذه الآيات عن جانب من جوانب معاملة المجتمع المسلم مع المعسكرات الأخرى المختلفة من معسكرات الكفر، وهو ما يسمى اليوم بالقانون الدولي.

إن القانون الدولي أخذته أوربا من الفقه الإسلامي عندما ترجم عدد من الحقوقيين في ألمانيا « كتاب السِّيَر » في الجامع الصغير لأحد تلامذة أبي حنيفة النعمان (محمد بن الحسن الشيباني) إلى عدة لغات، وتشكلت جمعية الشيباني للحقوق الدولية. وكانت هذه هي النواة لتشكيل عصبة الأمم المتحدة التي فشلت، وخَلفتها هيئة الأمم المتحدة ؛ وسبب فشل عصبة الأمم أنها أصبحت مجموعة من الدول المستعمرة (المستعبدة) للدول الضعيفة، تسرق خيراتها، وتعبث بأفكارها ومعتقداتها، وتولّي عليها عملاء لها، ينفذون مخططاتها في التسلط والظلم بعد خروج الدول العظمى المستعمرة. وهيئة الأمم المتحدة، ممثلةً بمجلس الأمن تسيطر عليه الدول العظمى الخمس، وتتنازع أحياناً، وتتفق أحياناً على اقتسام مناطق النفوذ، وهو تسلط واستعباد لشعوب ودول ضعيفة. هذا الاستعباد والتسلط يتميز عن الاستعباد في عهد عصبة الأمم بأنه قلّما يعتمد على التدخل العسكري من دولة على دولة، إنما هو تدخل من مجموعة عسكرية من دول متعددة، تشكل ضغوطاً إرهابية على الدول الضعيفة التي غالباً ما يكون نظام الحكم فيها نظام تسلط وقهر للشعوب ؛ يدور في فلك إحدى الدول العظمى. فالقضية تسلط واستعباد جديد بأسلوب جديد، حتى إذا وجد شيء من التذمر والقوة عند بعض الدول والشعوب نتيجة التسلط والكيل بمكيالين الذي يمارسه مجلس الأمن، ومن يسيطر عليه من الدول العظمى وإذا كان من المتوقع تحرر بعض الشعوب من السيطرة أنزلت الجيوش وبالألوف المؤلفة في العدد،

وبأحدث الأسلحة الحديثة المسموح بها والمحرمة، فعاثت بين الشعوب فساداً وقتلاً، بزعم تحريرهم وتحقيق الديموقراطية لهم، وهم يصرحون - ولا يستحون - أنهم يريدون تحقيق مصالحهم، ويصرحون بالحرب الاستباقية، والحرب الاقتصادية، وتجويع الشعوب، مما أوجد أنواعاً من التسلط والفساد تحت غطاء الحقوق الدولية والقانون الدولي.

ومن أوضح ما يظهر واقع الهيئة الدولية الفاسدة: دخول اليهود إلى فلسطين من كل بقاع الأرض، لا رابط بينهم إلا اليهودية، فقتلوا الفلسطينيين، وشرّدوا الكثير منهم في بقاع الأرض واغتصبوا مساكنهم وأراضيهم، كل هذا تحت سمع الهيئة الدولية وبصرها، ثم عادوا إلى احتلال بقية أراضي فلسطين، وسماهم مجلس الأمن محتلين حسب قوانينه وأنظمته، ثم هو يعتبر اليوم اليهود الذين يدكّون بيوت الفلسطينيين في الضفة والقطاع بالطائرات، وما من يوم إلا ويقتلون ويأسرون، ثم ينادي مجلس الأمن أن اليهود يريدون السلام، والمقاومون الفلسطينيون جماعات إرهابية ؛ هكذا حكم الطاغوت الأكبر الذي يسيطر على قرارات وأحكام المؤسسة الدولية وهكذا يموت الآلاف من الأبرياء العزل جوعاً، أو تحت نيران وقنابل الدول المتجمعة تحت غطاء الأمن والسلام في كل يوم، وبمنتهى القسوة والظلم.

هذا هو حال العلاقات الدولية في العصر الحاضر ؛ لا هدف لها إلا الظلم، والطغيان والتسلط، وفرض الفساد الأخلاقي والعقدي بأساليب خبيثة، ليتمّ للطغاة السيطرة النفسية، ويستقر ظلمهم وفسادهم واقعاً في نفوس المستْعَبِدين من بني آدم.

أما العلاقات الدولية في الإسلام فقد أنزلها الله في القرآن منذ أن استقر حكم الله وشرعه في المدينة المنورة.

هدف العلاقات الدولية والقتال -إن دعت الحاجة إليه- هو تحرير الإنسان؛ فرداً أو شعوباً من تسلط الطغاة، ليدين الإنسان بعد ذلك بما شاء، ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، بشرط أن لا يصدر منه عدوان مادي أو معنوي على آخر. فحقق النظام الدولي في الإسلام السلم الحقيقي ؛ لا سلم الظلم والقهر والتسلط، وسياسة الأمر

الواقع ؛ حيث تُسْلب بيوت الضعفاء وأموالهم، ثم يقال لهم: دعونا، لا تقاومونا، ولا تعتدوا علينا، نحن نريد السلام، نحن نريد لكم الديموقراطية، والأمن[1]. الأمن الكاذب الخادع أمن الظالم لا أمن المظلوم.

وقد جاءت أسس وقواعد العلاقات الدولية موزعة في سور القرآن، وقد بَحَثَ فيها وكتب بعض المتخصصين، وهي آية في الإعجاز، تدل على أن هذه القواعد والأحكام العادلة لا يمكن أن يأتي بها إنسان أميّ، في بلد لا يعرف القانون والنظام ؛ لا يمكن أن تكون هذه الأحكام إلا من عند الله خالق الإنسان والعليم بنفسه وأحواله وتجمعاته والعليم بكيفية تحريره من الظلم والتسلط، وتحقيق الأمن والسعادة له.

وهذه المجموعة من الآيات التي بين أيدينا تتعلق بالتعامل مع الطوائف والمعسكرات التالية:

أ- التعامل مع المنافقين في المدينة وخارجها.

ب- التعامل مع الذين يرتبطون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق.

ج- التعامل مع المحايدين الذين تضيق صدورهم بحرب المسلمين، أو حرب قومهم كذلك وهم على دينهم.

د- التعامل مع المتلاعبين بالعقيدة الذين يظهرون الإسلام إذا قدموا المدينة، ويظهرون الكفر إذا عادوا إلى مكة (دار الكفر آنذاك).

هـ- حالات القتل الخطأ بين المسلمين، والقتل العمد، على اختلاف المواطن والأقوام. وسنجد أحكاماً صريحة واضحة في جميع الحالات ؛ التي تكون جانباً من مبادئ التعامل في المحيط الدولي، شأنها شأن بقية الأحكام التي تتناول شتى العلاقات الأخرى[2].

(١) الأمن إذا لم تقاوموا التسلط ومكنّتمونا من كل ما نريد.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٦٣-١٦٤).



فبيّن الله سبحانه أن المنافقين كفار، ولا ينبغي الاختلاف في الحكم عليهم بالكفر، ثم بيّن أن الله أوقعهم في الضلال والكفر بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول ﷺ واتباعهم الباطل وعلى هذا فلن تجدوا سبيلاً في هداية من أضله الله بسبب إغلاق قلبه وإصراره على الباطل. ثم عرّفنا الله بدخائل نفوسهم، فهم يرغبون ويعملون على تكفير المسلمين: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ ﴾ في الكفر، أنتم وهم ؛ وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم ولدينكم الحق[1]. ولأن الذي يكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجود المؤمنين، ولابد له من عمل وسعي، ولابدّ له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر، ليكونوا كلهم سواء[2].

إذا كانوا كذلك فهم إذن معسكر من معسكرات الأعداء، سواء كانوا خارج حدود الدولة الإسلامية أو داخلها. بل ربما كانوا أشد الأعداء خطراً إذا كانت الأمة المسلمة في حالة ضعف.

وأول ما يجب على المسلمين البراءة منهم، لعدم النصرة بينهم وبين المسلمين: ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾. يهاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام مع إخلاصهم في الإيمان، والنصرة للمسلمين والجهاد معهم، أو هجرة المنافقين مع النبي ﷺ في الغزوات، بعد هجر نفاقهم وضعف يقينهم. ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ وأعرضوا عن الإيمان والالتحاق بركب المؤمنين فأسروهم واقتلوهم[3]. لأن كلمة التوحيد التي تقال باللسان مع عمل واقعي في مساعدة عدو المسلمين الظاهرين، لا تكون الإنفاقاً، ولا موضع هذا للتسامح أو الإغضاء، ولا يجوز للمسلمين أن يدافعوا عن المنافقين[4].

فالتعامل مع هذا المعسكر المعادي، يبيّنه الله لنا، ويعرّفنا حكمه كالتالي:

خذوا المنافقين الكافرين، الذي أظهروا كفرهم بالتحاقهم بركب الكافرين، واقتلوهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٣).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٦٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٠٨).
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٦٧).

حيث وجدتموهم، ويُستثنى من دخل في عداد من بينكم وبينه ميثاق، والتزم مهادنتكم، كما يستثنى أيضاً من جاءكم، وقد كره قتالكم وقتال قومه. وهذا بفضل الله عليكم ودفاعه عنكم، حين جعل هؤلاء يتركون قتالكم، فتقل جبهات القتال ضدكم، ولو شاء الله لسلط هؤلاء عليكم فلقاتلوكم كما يقاتلكم غيرهم. فإن اعتزلوا قتالكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فلا سبيل لكم عليهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨] [(١)].

وإذا نُقل عن كثير من المفسرين أن هذه الأحكام منسوخة بالآيات في سورة « براءة ». فالصحيح عدم النسخ ؛ لأن السابقين يعبّرون بالنسخ على تقييد المطلق أو تخصيص العام فيظنه بعض المتأخرين إزالة الحكم بالكلية. وقد وضع الأصوليون الضوابط والتعاريف للنسخ، والتخصيص والتقييد للتفرقة بينها، وعدم اللبس بين إزالة الحكم بالكلية، وإزالة عمومه ولذلك جاء في سورة براءة الاستثناء بقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [التوبة: ٤] [(٢)]، وعلى هذا فالحكم يدور مع قوة المسلمين وضعفهم، ومع مصلحتهم في الدعوة إلى التحرير الذي هو هدف القتال في الإسلام ؛ إن كانت مصلحتهم وإمكاناتهم تقضي بقتال معسكرات كثيرة من معسكرات الكفر قاتلوا، وإلا هادنوا مَن يهادنهم لتخفيف عبء القتال عنهم ريثما يتمكنوا من تحقيق أغراضهم في التحرير، ومن لطف الله تعالى بنا أعطانا فرصة كي لا يقاتلنا الناس جميعاً، أو نُضطر لقتال الناس جميعاً.

وهناك طائفة أخرى لا يتسامح معها الإسلام هذا التسامح ؛ لأنها طائفة شريرة كالطائفة الأولى من المنافقين، وليست مرتبطة بميثاق، ولا متصلة بقوم لهم ميثاق. فالإسلام إزاءها إذن

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٩١).

(٢) وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٨/ ٧١) وما بعدها.

طليق، يأخذها بها أخذ به طائفة المنافقين الأولى [1]:

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾.

هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم في الآية السابقة، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم، ويصانعون الكفار في الباطن، فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم، وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤] [2]، وعن بعض المحققين: إن هذه الآية مقابلة للآية السابقة بالإيجاب والسلب ؛ لأن إحداهما عدمية، والأخرى وجودية. فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ ﴾ مقابل لقوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ ﴾ في الآية السابقة، وقوله جل وعلا: ﴿ وَيُلْقُوٓا۟ ﴾ المعطوف على المنفي، أي وإن لم يلقوا إليكم السلم، مقابل لقوله جل شأنه: ﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾، وقوله عز وجل: ﴿ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ ﴾ في حيّز النفي، أي وإن لم يكفوا أيديهم، مقابل لقوله عزّ من قائل: ﴿ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ ﴾. فالمقدم مركب من ثلاثة أجزاء في الآيتين، وهي في الآية الأولى: الاعتزال، وعدم القتال، وإلقاء السلم، فبهذه الأجزاء الثلاثة تمّ الشرط، وجزاؤه عدم التعرض لهم بالأخذ والقتل، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾، وفي الآية الثانية: عدم الاعتزال، وعدم إلقاء السلم، وعدم الكفّ عن القتال، فبهذه الأجزاء الثلاثة تمَّ الشرط، وجزاؤه الأخذ والقتل المصرح به بقوله سبحانه: ﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ﴾ بيان مزيد خبث هؤلاء الآخرين [3].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٣).

(٣) روح المعاني، الآلوسي (٢/ ١٥١).

وبعد أن بين الله سبحانه علاقات المسلمين مع المعسكرات الكافرة المحاربة والمسالمة، بين لنا حرمة دم المسلم عموماً، وبين حكم قتل المؤمن خطأ في شتى الديار المسالمة أو المحاربة، أما قتل المؤمن المؤمن عمداً فلا يقع بين المؤمنين، ولا كفارة له لعظم جرمه:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

روي في سبب نزول هذه الآية أن عياش بن أبي ربيعة أسلم بمكة قبل هجرة رسول الله ﷺ، ثم خاف أن يظهر إسلامه لقومه، فخرج إلى المدينة، فقالت أمه لابنيها؛ أبي جهل والحارث بن هشام، وهما أخوا عياش بن أبي ربيعة لأمه ؛ والله لا يظلني سقف، ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى تأتياني به. فخرجا في طلبه ومعهما الحارث بن زيد، حتى أتوا عياشاً وهو متحصن في أطم، فقالوا له: انزل فإن أمك لم يؤوها سقف، ولم تذق طعاماً ولا شراباً، ولك علينا أن لا نحول بينك وبين دينك، فنزل، فأوثقوه، وجلده كل واحد منهم مائة جلدة، فقدموا به على أمه، فقالت: والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر، فطرح موثقاً في الشمس حتى أعطاهم ما أرادوا، فقال له الحارث بن زيد: يا عياش، لئن كان ما كنت عليه هدى لقد تركته، وإن كان ضلالاً لقد ركبته، فغضب وقال: والله لا ألقاك خالياً إلا قتلتك، ثم أفلت عياش بعد ذلك، وهاجر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، ثم أسلم الحارث بعده وهاجر، ولم يعلم عياش، فلقيه يوماً فقتله، فقيل له: إنه قد أسلم، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بما كان، وقال: لم أشعر بإسلامه، فنزلت هذه الآية [1].

---

(١) عزاها ابن الجوزي إلى ابن عباس من طريق أبي صالح، وهذه الطريق جيدة. زاد المسير، ابن الجوزي=

والله سبحانه يقول: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[(١)]، ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد المسلمين أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه. لكن قد يقع قتل المؤمن خطأً. وإذا وقع من المؤمن قتل أخيه المؤمن خطأً فعليه واجبان:

أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأً. والكفارة هي عتق رقبة مؤمنة، فلا تجزئ الكافرة. ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر، من مرض أو حيض أو نفاس استأنف، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا على قولين. والعتق تحرير نفس مؤمنة بدل النفس المقتولة خطأً تعويضاً للمجتمع الإسلامي، عند وجود الرقبة المؤمنة.

والواجب الثاني في قتل الخطأ دية مُسَلَّمة إلى أهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم.

والديّة كما روي عن عبد الله بن مسعود قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، وعشرين بني مخاض ذكوراً، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذعة، وعشرين حقة»[(٢)]، وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل، لا في ماله. قال الشافعي رحمه الله: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة. عن أبي هريرة قال: اقتتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقضى أن دية جنينها

= (٢/ ١٦٢)، وأضاف ابن الجوزي أن هذا قول سعيد بن جبير والسدي والجمهور. ورواها الطبري بسنده من طريق ابن جريج عن مجاهد، وعن سعيد بن جبير. جامع البيان (٥/ ١٢٨).

(١) رواه مسلم (١٦٧٦)، وعند البخاري (٦٨٧٨) : «... والمارق من الدين التارك للجماعة».

(٢) رواه الترمذي (١٣٨٦)، والنسائي (٤٨٠٢)، وأبو داود (٤٥٤٥)، وابن ماجة (٢٦٣١)، وأحمد (٤٢٩١).

غُرَّة ؛ عبد أو وليدة، وقضى أن دية المرأة على عاقلتها »[1].

وإذا أبرأ الأولياء - ورثة المقتول - القاتل ممّا أوجب الله لهم من الدية عليه، تسقط الدية لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾[2].

هذا حكم قتل المؤمن خطأً، وهو من المسلمين داخل الدولة الإسلامية ؛ أما حين يكون المقتول مؤمناً وهو من قوم كافرين فهناك حالتان:

الحالة الأولى: أن يقع القتل على مؤمن، وأهلُه محاربون للإسلام في دار الحرب. فيجب في هذه الحالة تحرير رقبة مؤمنة فقط، لتعويض النفس المؤمنة التي قتلت، وفقدها المسلمون. وتسقط الدية ؛ لأن أولياء القتيل من الكفار المحاربين، فلا يصحّ أن تُدفع الدية إليهم يتقوّون بها علينا.

الحالة الثانية: أن يقع القتل على مؤمن من قوم معاهدين، فعهدهم يوجب أنهم أحق بدية صاحبهم، ويجب في هذه الحالة التحرير لرقبة مؤمنة، وأداء الدية إلى أهل القتيل[3].

ذلك القتل الخطأ. فأما القتل العمد، فهو الكبيرة التي لا ترتكب مع إيمان ؛ والتي لا تكفر عنها دية، ولا عتق رقبة ؛ وإنما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله[4]؛ ففي الآية تهديد شديد ووعيد أكيد لمن أقدم على هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية حيث يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ

(١) البخاري (٦٩١٠)، ومسلم (١٦٨١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٤-٥٣٥).
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٩٣).
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٧٥).

إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً من ذلك قول النبي ﷺ: « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (١)، وقال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس في الدماء » (٢)، وقال رسول الله ﷺ: « لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » (٣)، وقال رسول الله ﷺ: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً، أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً » (٤)، وقال النبي ﷺ: « يخرج عنق من النار يقول وُكِّلْتُ اليوم بثلاثة: بكل جبار، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبمن قتل نفساً بغير نفس؛ فينطوي عليهم فيقذفهم في غمرات جهنم » (٥)، وقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا » (٦)، وكان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً ؛ لأن آيات الفرقان: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، مكية نزلت بعدها في المدينة آية النساء: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾، نزلت بعدها في المدينة، في آخر ما نزل، ولم ينسخها شيء (٧). وقد روي هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة، وذهب من السلف إلى أنه

---

(١) رواه البخاري (١٢١).

(٢) البخاري (٦٥٣٣، ٦٨٦٤)، ومسلم (١٦٧٨) بزيادة : « يوم القيامة ».

(٣) البخاري (٦٨٦٢)، وأحمد (٥٦٤٨).

(٤) أبو داود (٤٢٧٠).

(٥) مسند أحمد (١٠٩٦١).

(٦) النسائي (٣٩٨٦، ٣٩٨٨، ٣٩٨٩)، والترمذي (١٣٩٥)، بلفظ : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم ».

(٧) البخاري (٤٥٩٠، ٤٧٦٢، ٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣).

لا توبة له: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبو سلمة بن عبد الرحمن [١].

والظاهر أن هذه الآية فيمن يستحل قتل المؤمن فهو خالد في النار، أو تُؤوّل بالنسبة لغير المستحل، كما أوله جماعة من السلف: بأن هذا جزاؤه إن جازاه الله. ومذهب أهل السنة أن هذه الآية مخصوصة، ودليل التخصيص آيات وأخبار. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وأخبر تعالى بأنه يغفر ما دون الشرك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ويحمل مطلق آية « النساء » على مقيَّد آية « الفرقان »، فيكون معناه: فجزاؤه كذا إلا من تاب ؛ لا سيّما وقد اتحد الموجِب وهو القتل، والموجَب وهو التوعد بالعقاب [٢]. ثم إنّ آيات الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [٦٨-٧٠] خبر والخبر لا يجوز نسخه. والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحاً، واستسلم لحكم الله بالقصاص، أو دفع الدية إن أسقط أولياء المقتول حقهم في الدية، وعمل عملاً صالحاً بدّل الله سيئاته حسنات، وعوّض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته [٣].

وعلى هذا فالذي لا يسقط بالتوبة مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة، فإنه حق من حقوق الآدميين، وهي لا تسقط بالتوبة، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمقذوف، وسائر حقوق الآدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة ؛ ولكن لابد من ردّها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلابدّ من المطالبة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٥-٥٣٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٧).

المجازاة ؛ إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة، كما جاء في حديث المفلس: « إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار » [١]، أو ربما يعوّض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها، ونحو ذلك كما ذكرت قبل قليل [٢].

ويؤكد ذلك الأحاديث الصحيحة الكثيرة ؛ منها حديث: « تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله إن شاء عفى عنه، وإن شاء عذبه » [٣]، وقال رسول الله ﷺ: « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة ؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتها كان أدنَى فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنى إلى

(١) مسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨)، وأحمد (٧٩٦٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٧).

(٣) رواه البخاري (١٨، ٣٨٩٢)، ومسلم (١٧٠٩).

الأرض الذي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة »[١].

واحتراساً من وقوع القتل، ولو كان خطأ، وتطهيراً لقلوب المجاهدين، حتى لا يكون فيها شيء إلا الله، وفي سبيل الله، يأمر الله المؤمنين إذا خرجوا غزاة، ألاّ يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا؛ وأن يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان (إذْ لا دليل هنا يناقض كلمة اللسان)[٢]:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

روي في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لقي ناس من المسلمين رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فأخذوه فقتلوه، وأخذوا تلك الغنيمة، فنزلت: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾[٣].

وقال المقداد بن عمرو الكندي، حليف بني زُهرة: يا رسول الله، إن لقيت كافراً فاقتتلنا، فضرب يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذَ مني بشجرة وقال: أسلمت لله، أقتله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله ﷺ: « لا تقتله »، قال: يا رسول الله، فإنه طرح إحدى يديّ ثم قال ذلك بعدما قطعها أقتله ؟ قال: « لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال »[٤]. وقال النبي ﷺ للمقداد: « إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلتَهُ، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل »[٥]. ولذا قال سبحانه في أول الآية:

(١) مسلم (٢٧٦٦)، وبنحوه مختصراً عند البخاري (٣٤٧٠).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٧٦).
(٣) البخاري (٤٥٩١)، ومسلم (٣٠٢٥).
(٤) رواه البخاري (٦٨٦٥، ٤٠١٩)، ومسلم (٩٥).
(٥) رواه البخاري معلقاً عن ابن عباس رضي الله عنه بعد حديث المقداد، رقم (٦٨٦٥)، باب أول كتاب=

﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ ﴾ ؛ لا تعجلوا حتى يتبين لكم الكافر من المسلم، وكرر الأمر بالتبيّن في آخر الآية لتأكيد ما قبله ؛ لكي لا يقتلوا مؤمناً، وصارت الآية عامة لجميع السرايا إذا دخلوا دار الحرب أن يتبينوا لكي لا يقتلوا مؤمناً، فهدف القتال كما قلت - من قبل - تحرير الناس، لا قتلهم، ولا الرغبة في أموالهم، لذلك رغّب الله المؤمنين بما عنده من الرزق الحلال في الدنيا والأجر العظيم في الآخرة فقال: ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾، وختم الآية بالتهديد والوعيد فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[(1)].

وتظهر العلاقة والارتباط بوضوح بين القتال لحماية المستضعفين وتحريرهم، وبين محور السورة: « التوحيد الصحيح » الذي هو تحرير للإنسان من التسلط والظلم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- قضايا العقيدة: القتال جزء من التقوى، وهو مرتبط بالإيمان بالله، الذي أمر عباده المؤمنين بالقتال لتحرير المجتمعات البشرية من العبودية للطواغيت.

ب- الأحكام الشرعية: صبر المسلمين على الأذى، إلى أن يتمكنوا في الأرض، فيقيموا مجتمعاً إسلامياً، عند ذلك يقومون بواجب القتال في سبيل الله. وبيان أن حكم النفاق هو الكفر، وبيان بعض أحكام القتل في العلاقات الدولية بالنسبة لقتل المسلم خطأً أو عمداً.

ج- الأخلاق الإسلامية: خلق المسلم مبني على التقوى والعبادة ؛ العبادة التي ترتكز عليها، وتنبثق منها كل قضايا المجتمع الإسلامي، ويترتب عليها أيضاً بذل الدم من أجل التحرير الجماعي (الدولي).

د- الجوانب التربوية: في الآيات توجيه تربوي نفسي وعقلاني في الدفع إلى القتال، ببيان

= الديات، وقد وصله البزار والدارقطني في « الأفراد »، والطبراني في « الكبير ». انظر فتح الباري، ابن حجر (١٥/ ٥٠٥)، وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير (٢/ ٩٩).

(١) بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٥٤-٣٥٥).



أن الإنسان صائر إلى الموت لا محالة، وموته وحياته بيد الله، لا بيد غيره، فليكن موته في سبيل الله، لا في سبيل غيره. كما تبين الآيات أهداف القتال، وتكشف دخيلة المنافقين وأفكارهم وأهدافهم، ومن ثَمَّ توجههم إلى التوبة، وتصحح مفاهيمهم، وتقرر بأسلوب علمي أن سبب المصائب المعاصي، لا الطاعات.

المقطع السابع: علاقة الهجرة بالتحرر والقتال (٩٥-١٠٤):

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

صلة المقطع بسابقه:

هذا استمرار للمقطع السابق، فبعد أن ذكر الله عاقبة القتل العمد، وأمرنا أن نتبين إذا قاتلنا وأن لا نقتل من يقول «لا إله إلا الله»، بين الله عز وجل أنه لا يستوي عنده من يقاتل مع من لا يقاتل، ثم بين وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، ليكون ولاء المؤمن للمؤمنين، ولا يكون تحت سلطة أعداء المؤمنين، وليقيم مع إخوته المؤمنين أرضاً صلبة للجهاد في سبيل الله، فيكون من المتحررين واقعياً ونفسياً من العبودية لغير الله تبارك وتعالى، ويعمل مع إخوانه المجاهدين في تحرير الناس من العبودية للمتسلطين والمتألهين من الطغاة المفسدين في الأرض.

المعنى الإجمالي:

إن الموضوع الأساسي لهذا المقطع هو الهجرة إلى دار الإسلام - كما ذكرنا في عنوان المقطع - والحث على انضمام المسلمين المتخلفين في دار الكفر والحرب إلى الصف المسلم المجاهد في سبيل الله بالنفس والمال، وترك الراحة النسبية والمصلحة الخاصة في البقاء بمكة، إلى جوار الأهل والمال. ولعلّ هذا هو المقصود في مطلع هذا المقطع: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾[1].

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾[2].

لقد وضع الله قاعدة عامة: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾، وأولوا الضرر الذين استثناهم الله سبحانه من أصابه مرض أو عرج أو عمى، أو أي علة لا يستطيع معها الجهاد في سبيل الله [3]، ثم فصّل الله سبحانه هذه

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٧٨-١٧٩).

(٢) رواه البخاري (٢٨٣١)، ومسلم (١٨٩٨).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٥٩).

القاعدة فقال: ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ والحسنى: الجنة [(١)]، وهذه الدرجة يمثلها النبي ﷺ في مقامهم في الجنة فيقول: « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»[(٢)] والتفضيل بالدرجات والأجر العظيم للمجاهدين على القاعدين بغير عذر: ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، وبين في الآية التالية الأجر العظيم بأنه الدرجات والمغفرة والرحمة فقال: ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

فالمجاهد بالمال والنفس يفضل على القاعد بعذر درجة. والأصل أن يكون أجر القاعد بعذر كأجر المجاهد، لأن العذر حبسه عن الجهاد ؛ كما قال النبي ﷺ: « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه »، قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟! قال: « وهم بالمدينة، حبسهم العذر » [(٣)]. وذلك لأنهم مع المؤمنين بنياتهم، فيعطى من حبسه العذر أجر المباشر للجهاد من غير تضعيف، ويزيد الله المجاهد بنفسه وماله « درجة التضعيف» فيفضله الغازي بالتضعيف للمباشرة [(٤)].

والمجاهد بالمال والنفس يفضل على القاعد بغير عذر درجات من الله ومغفرة ورحمة، إحساناً من الله وتكريماً [(٥)].

هذا كله عندما يكون الجهاد فرض كفاية، أما عندما تتعين فرضية الجهاد، فالقعود بغير عذر قد يكون سببه النفاق، وهو كفر، وقد يكون معصية وذنباً كبيراً، وذلك تحكمه نصوص

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٩٨)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٧٤).

(٢) رواه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣)، ومسلم (١٨٨٤).

(٣) رواه البخاري (٤٤٢٣)، وأبو داود (٢٥٠٨)، وابن ماجة (٢٧٦٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٤٢)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٩٨).

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٩٨)، وبحر العلوم، السمرقندي (١/ ٢٥٦)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٧٤).

أخرى من الكتاب والسنة.

وهذه الآيات وغيرها كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة وتعالجها. وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكاً لطبيعة النفس البشرية، ولطبيعة الجماعات البشرية، وأنها مهما بلغت من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائماً في حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس مع خلوص النفس لله، وفي سبيل الله. وظهور هذه الخصائص البشرية من الضعف والحرص والشح والتقصير لا يدعو لليأس من النفس والجماعة، طالما أن عناصر الإخلاص والجد والتعلق بالصف، والرغبة في التعامل مع الله موفورة فيها، ولكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على واقعها، بل لابد من استنهاضها لتسير في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة.

وتظهر الآية القرآنية قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان الله واعتبارات هذا الدين وأصالة هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام ؛ لما يعلمه الله - سبحانه - من طبيعة تحرير البشرية، بالنسبة لطبيعة الطريق، وطبيعة البشر، وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين [(١)] ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق » [(٢)]، وقال النبي ﷺ: « رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » [(٣)].

ثم بيّن الله حال القاعدين عن الهجرة إثر بيان حال القاعدين عن الجهاد، أو بيان لحال القاعدين عن نصرة رسول الله ﷺ والجهاد معه، من المنافقين، عقب بيان حال المؤمنين [(٤)]. فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٨٣).

(٢) مسلم (١٩١٠)، والنسائي (٣٠٩٧)، وأبو داود (٢٥٠٢).

(٣) الترمذي (٢٦١٦)، وأحمد (٢١٥١١).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٦١).

أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾.

قال محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود: قُطِعَ على أهل المدينة بعثٌ، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيُرْمَى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[1].

إن هؤلاء القاعدين في دار الكفر لا يهاجرون إلى رسول الله ﷺ في المدينة ليجاهدوا معه، ويكثروا سواد المسلمين في أرض الإسلام ؛ تمسك بهم أموالهم ومصالحهم، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق، وهم قادرون - لو أرادوا واعتزموا التضحية - أن يهاجروا، هؤلاء الصنف يصورهم القرآن بصورة مزرية منكرة تستنهض كل قاعد منهم للفرار بدينه وعقيدته[2].

إن هؤلاء القاعدين عن الهجرة تقول لهم ملائكة الموت عندما تقبض أرواحهم، وقد اكتسبوا غضب الله وسخطه فظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة إلى رسول الله ﷺ ؛ تقول لهم: في أي شيء كنتم ؟ أو أين كنتم عن الهجرة ؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، يستضعفنا أهل الشرك في أرضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم، فيفتنونا عن الإيمان واتباع رسول الله، فقد كنا مقهورين في أرض مكة، لا نقدر أن نظهر الإيمان، فترد عليهم الملائكة عليهم السلام: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ ﴾، ألم تكن أرض الله واسعة ؛ يعني هذه المدينة مطمئنة رحبة فتهاجروا إليها ؟! فيقول الله سبحانه: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾، أي

(١) البخاري (٤٥٩٦، ٧٠٨٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٨٥).

بئس المصير الذي يصيرون إليه.

ثم استثنى الله أهل العذر فقال: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾، يعني إلا المقهورين من الرجال والنساء والولدان، فليس مأواهم جهنم، وهم الذين ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾؛ لا يجدون سعة في الخروج عن أرضهم أرض الشرك إلى أرض الإسلام، ولا يعرفون طريقاً إلى المدينة، فأولئك عسى الله أن يتجاوز عنهم، وعسى من الله تعالى متحقق الوقوع، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾، فلا يعاقبهم للعذر الذي هم فيه، وهم مؤمنون، ولم يتركوا الهجرة اختياراً، ولا إيثاراً منهم لدار الكفر على دار الإسلام ولكن للعجز الذي هم فيه [١].

وكان النبي ﷺ يقنت في الصلاة ويدعو للمستضعفين فيقول إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة قبل أن يسجد: « اللهم أنْجِ عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنجِ سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف » [٢]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: « كنت أنا وأمي من المستضعفين، أنا من الولدان وأمي من النساء » [٣].

ويمضي السياق القرآني في معالجة النفوس البشرية التي تواجه مشاق الهجرة ومتاعبها ومخاوفها، فبعد أن عالجتها الآيات السابقة بذلك المشهد المثير للاشمئزاز والخوف معاً، فهو يعالجها بعد ذلك ببث عوامل الطمأنينة في حالة الهجرة في سبيل الله، وبضمانة الأجر للمهاجرين في سبيل الله منذ أن يخرج من بيته، سواء وصل إلى وجهته، أو مات في طريقه [٤]:

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

---

(١) جامع البيان، الطبري (٥/ ١٤٧-١٤٨)، وبحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٥٧).

(٢) البخاري (١٠٠٦، ٣٩٣٢)، ومسلم (٦٧٥).

(٣) البخاري (١٣٥٧).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٨٨).

تنوعت أقوال المفسرين في معنى « المراغم »[١]. وأقوالهم كلها تفسير بالمعنى، ولا تضاد بينها، فأما المعنى الخاص باللفظة ؛ فإن المراغم: موضع المراغمة، وهو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه، بأن يغلبه على مراده، فكفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة فلو هاجر منهم مهاجر في أرض الله لأرغم أنوف قريش بحصوله في منعة منهم، فتلك المنعة هي موضع المراغمة. والسعة: هي السعة في الأرض، وكثرة المعاقل، وبذلك تكون السعة في الرزق، واتساع الصدر لهمومه وفكره، وغير ذلك من وجوه الفرح والسرور ؛ وهذا المعنى ظاهر في قوله تعالى: ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة ﴾[٢].

وقد روي من طرق عن سعيد بن جبير، وعن قتادة، وعن عكرمة -وإن اختلفت الروايات في اسم من نزلت الآية فيه - لمّا نزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ قال رجل من المسلمين يومئذ وهو مريض: والله مالي من عذر، إني لدليل بالطريق، وإني لموسر، فاحملوني فحملوه، فأدركه الموت بالطريق، فنزلت فيه: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[٣].

و﴿ وَقَعَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ عبارة عن الثبوت وقوة اللزوم[٤].

---

(١) وأصله من الرَّغام، وهو التراب الرقيق، ورغم أنف فلان رغْماً : وقع في الرغام وأرغمه غيرُه، ويُعَبَّر بذلك عن السّخط، وعلى هذا قيل : أرغم الله أنفه، وأرغمه : أسخطه، وراغمه : ساخَطَهُ، وتجاهدا على أن يرغم أحدهما الآخر، ثم تستعار المراغمة للمنازعة. قال تعالى : ﴿ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا ﴾، أي مذهباً يذهب إليه إذا رأى منكراً يَلْزَمه أن يغضب منه. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ١٩٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٠١).

(٣) جامع البيان، الطبري (٥/ ١٥١-١٥٢)، وهذه الرواية يرويها الطبري بالتحديث عن الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرني معمر عن قتادة، والروايات الأخرى عن سعيد بن جبير وعكرمة بنحو هذه الرواية، وبأسانيد متعددة، مع الاختلاف في اسم من نزلت فيه، ولا يضر ذلك في الرواية، وقد روى ابن أبي حاتم هذه الروايات عن عكرمة عن ابن عباس، وعن سعيد بن جبير، انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٣).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٠٢).

ويبين الله عز وجل الرخصة التي يبيحها سبحانه للمهاجرين أو الضاربين في الأرض للجهاد أو التجارة، وهي رخصة القصر من الصلاة، كما يذكر حكم صلاة الخوف في أرض المعركة:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) ﴾.

إن الضارب في الأرض بحاجة ماسة للصلة الدائمة بربه تعينه على ما هو فيه، وتكون أساساً لعدته وسلاحه فيما هو مقدم عليه، وما هو مرصود له في الطريق. والصلاة أقرب الصِلات إلى الله، وهي العدة التي يُدعى المسلمون للاستعانة بها في الشدائد والملمات. فكلما كان هناك خوف أو مشقة قال لهم: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]، ومن ثم يجيء ذكرها هنا في إبانها المناسب، وفي وقت الحاجة إليها والاضطرار، فما أحوج الخائف في الطريق إلى أن يطمئن قلبه بذكر الله، وما أحوج المهاجر من أرضه أن يلتجئ إلى حمى الله. غير أن الصلاة الكاملة وما فيها من قيام وركوع وسجود، قد تلفت أنظار عدوه فيعرفوه، أو قد تمكن لهم منه، وتعوقه عن القتال في حال الاشتباك [١]. لذا فالقصر هنا أعم أن يكون قصر عدد الركعات كما يصلي المسافر الرباعية ركعتين، إنما يدخل تحته قصر الكيفية أيضاً، حيث يكبر ويصلي بالإيماء في حال الاشتباك مع العدو (المسايفة قديماً)، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وذهب ابن عباس إلى أن كل طائفة تصلي مع الإمام ركعة عند مواجهة العدو، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: فرضت الصلاة في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة [٢].

والمشروع قصر الصلاة الرباعية في كل سفر، ولو لم يكن خوف، وسواء أكانت مشروعيته بهذه الآية أو بالسنة، فإن القصر في السفر ثابت، فعن أنس رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٩٠-١٩١).

(٢) رواه مسلم (٦٨٧)، وانظر التسهيل، الكلبي (١/ ١٤٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٦).



الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. قال يحيى بن أبي إسحاق - الراوي عن أنس - قلت: أقمتم بمكة شيئاً ؟ قال: أقمنا بها عشراً[1]، وعن يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب قوله تعالى: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، فقد أمن الناس ؟! فقال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عجبت فيما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته »[2].

ولم يذكر حد السفر الذي يقع به القصر والفطر، لا في القرآن ولا في السنة، وإنما كان كذلك لأنها كانت لفظة عربية مستقرٌ علمها عند العرب الذين خاطبهم الله في القرآن، فنحن نعلم قطعاً أن من برز عن الدور لبعض الأمور أنه لا يكون مسافراً لغة ولا شرعاً، وإن مشى مسافراً ثلاثة أيام، فإنه مسافر قطعاً لقول النبي ﷺ: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة ثلاث ليال إلا ومعها ذو محرم »[3]، كما نحكم على أن من مشى يوماً وليلة كان مسافراً، لقوله ﷺ: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم منها »[4]، وروي: « مسيرة يومين »، وعند البخاري عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: « لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم »[5]. ولعل الآثار خرجت على أجوبة السائلين، فحدث كل واحد بمعنى ما سمع، كأنه قيل له ﷺ في وقت ما: هل تسافر المرأة مسيرة يوم بغير محرم ؟ فقال: لا. وقيل له في وقت آخر: هل تسافر المرأة يومين بغير محرم ؟ فقال: لا. وقيل له في وقت آخر:

---

(١) البخاري (١٠٨١)، ومسلم (٦٩٣)، ورواه بقية الجماعة من طرق عن يحيى بن أبي إسحاق الحضرمي به.

(٢) رواه مسلم (٦٨٦)، والترمذي (٣٠٣٤)، وبقية الجماعة، وانظر زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) مسلم (١٣٣٨).

(٤) مسلم (١٣٣٨).

(٥) البخاري (١٠٨٦).

هل تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام بغير محرم ؟ فقال: لا. وكذلك معنى الليلة والبريد، وقال أبو حنيفة: ثلاثة أيام بلياليها بسير الإبل ومشي الأقدام [١]، ومعلوم أن المسافر لا يسير طيلة اليوم، إنما يسير من بعد صلاة الفجر إلى ارتفاع الشمس قرب الزوال، فإذا اعتبرنا زمن السير في اليوم خمس ساعات في ثلاثة أيام، وراكب الإبل، والماشي على قدميه سرعته خمسة كيلومترات في الساعة، فتكون مسافة القصر خمسة وسبعين كيلومتراً.

وقدر الجمهور مسافة السفر بستة عشر فرسخاً ذهاباً، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ستة آلاف ذراع بذراع اليد، وهذا يساوي ثمانين كيلومتراً ونصف ومائة وأربعون متراً [٢]، وموضع ذلك كتب الفقه.

والجمهور على أنه لا قصر في سفر المعصية، ورُوي عن أبي حنيفة والأوزاعي إباحة القصر [٣] ؛ لأن القصر عام للمصلين، وهذا العاصي من جملة المصلين، ولا نرى أن قصر الصلاة يعينه على معصية الله، إنما نفسه الأمارة بالسوء، وعدم خشوعه في صلاته هو الذي يدفعه إلى المعصية والله أعلم.

وتختم الآية بالتنبيه والتأكيد على عداوة الكافرين للمؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾، فعلى المسلم أن يأخذ حذره منهم.

وبمناسبة الحديث عن صلاة الضارب في الأرض، الخائف من فتنة الذين كفروا يجيء حكم صلاة الخوف في أرض المعركة ؛ وتحتشد جنبات هذا الحكم الفقهي بلمسات نفسية وتربوية شتّى [٤]:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٥٣-٣٥٥).
(٢) الفقه على المذاهب الأربعة (١/ ٤٧٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٥٦).
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٩١).

سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها والصلاة تكون رباعية، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب؛ وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر. ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة، بل يصلون مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ورجالاً أو ركباناً. ولهم أن يمشوا والحالة هذه، ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة، كما مرّ في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٩] [(١)]، فالعبادة لا تسقط أبداً عن العبد، فمن ضايقه الخوف على نفسه، في حال المسايفة، أو من سبع يطلبه، أو من عدوٍ يتبعه، أو سَيْلٍ يحمله، فإنه يصلي إيماءً وإشارة بالرأس حيثما توجه [(٢)]. وقصر الصلاة إلى ركعة واحدة كما تقدم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما لا تقوم به حجة؛ لأن قصر الصلاة لا يثبت بخبر الآحاد، ولابد أن يكون النص قطعي الثبوت.

أما إذا استطاعوا أن يقيموا الصلاة جماعة فقد بينت هذه الآية أسسها: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقد حَدَّث أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نزل بين ضَجْنَانَ وعُسْفَانَ، فقال المشركون: إن لهؤلاء صلاةً هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، هي العصر فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة. وأن جبريل أتى النبي ﷺ فأمره أن يقسم أصحابه شطرين، فيصلي بهم، وتقوم طائفة أخرى وراءهم، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ثم يأتي الآخرون ويصلون معه ركعة واحدة، ثم يأخذ هؤلاء حذرهم وأسلحتهم فتكون لهم ركعة

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/ ٢٢٣).

ركعة، ولرسول الله ﷺ ركعتان [١]. ولم يذكر الله تعالى في الآية لكل طائفة إلا ركعة واحدة، كما في الحديث الذي ذكرته آنفاً، ولكن روي في الأحاديث أنهم أضافوا إليها أخرى [٢]، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: « غزوت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نجد، فوازينا العدوَّ، فصافقنا لهم، فقام رسول الله ﷺ يصلي لنا، فقامت طائفةٌ معه تصلي، وأقبلت طائفة على العدوّ، وركع رسول الله ﷺ بمن معه وسجد سجدتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصلّ، فجاءوا فركع رسول الله بهم ركعةً وسجد سجدتين، ثم سَلّم، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعةً وسجد سجدتين » [٣].

ذكرنا النوع الأول من صلاة الخوف عند الالتحام مع العدو، فيصلي كل واحد منفرداً بالإيماء، والنوع الثاني عندما يكون العدو في غير جهة القبلة، فيقسم الإمام أصحابه شطرين، ويؤم بأحدهما ركعة والأخرى في مقابلة العدو للحراسة، ثم يصلي الإمام بالآخرين ركعة، وتقوم الجماعة الأولى بالحراسة.

والنوع الثالث لصلاة الخوف (أو صلاة الحرب): عندما يكون العدو في جهة القبلة، ولا خطر على المسلمين من التجمّع، وهم في مكان يشرفون فيه على العدو، ويبصرون تحركاته فيصف القائد والإمام العسكر خلفه صفين، بدل أن يقسمهم شطرين، ثم يكبرون جميعاً تكبيرة الإحرام بعد تكبير الإمام، ثم يركع الإمام فيركعون معه جميعاً، إن كانوا يرون العدو في الركوع -وإلاّ فيركع مع الإمام الصف الأول- ثم يرفع من الركوع فيرفعون جميعاً، ثم يسجد بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، ثم يقوم الإمام مع الصف الذي يليه، ويسجد الآخرون في مكانهم، ثم يتقدم الصف المؤخر، ويتأخر الصف المقدم، ثم يركع بهم جميعاً، ثم يرفع الإمام من الركوع فيرفعون جميعاً، ثم يسجد فيسجد الصف الذي يليه، وعندما يرفع ويرفع الصف

---

(١) سنن الترمذي (٣٠٣٥)، ورواه النسائي (١٥٤٤)، وأحمد (١٠٣٨٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٦٥).

(٣) البخاري (٩٤٢)، ومسلم (٨٣٩)، والترمذي (٥٦٤)، وغيرهم.

الذي يليه من السجود يسجد الآخرون، ثم يقعدون القعود الأخير جميعاً، وهم يرقبون العدو ثم يسلم الإمام بهم جميعاً [١].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فصفنا صفين، صف خلف رسول الله ﷺ، والعدو بيننا وبين القبلة، فكبر النبي ﷺ وكبرنا جميعاً، ثم ركع وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصفُّ الذي يليه، وقام الصفّ المؤخر في نحر العدوّ، فلما قضى النبي ﷺ السجود، وقام الصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا، ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم، ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجودِ والصفُّ الذي يليه، الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، وقام الصف المؤخر في نحور العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه انحدر الصف بالسجود فسجدوا، ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعاً [٢].

ثم يبين الله للمؤمنين وجه الحكمة في الأمر بأخذ السلاح وأخذ الحذر؛ ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾، أي مستأصلة لا يُحتاج معها إلى ثانية [٣]، وهي رغبة نفوس الكفار تجاه المؤمنين دائمة. والسنون تتوالى، والقرون تمر فتؤكد هذه الحقيقة التي وضعها الله في قلوب المؤمنين، وهو يضع لها الخطط العامة للمعركة كما يضع لها الخطة الحركية أحياناً على النحو الذي رأينا في صلاة الخوف.

على أن هذا الحذر، وهذه التعبئة النفسية، وهذا الاستعداد بالسلاح المستمر، ليس من شأنه أن يوقع المسلمين في المشقة، فهم يأخذون منه بقدر الطاقة وحسب الظروف والأحوال: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ﴾،

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٠٥-١٠٦).

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٨٤٠)، والنسائي (١٥٤٧)، وأحمد (١٠٣٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٧٢).



فحمل السلاح في هذه الحالة يشق، ولا يفيد، ويكفي أخذ الحذر، وتوقع نصر الله وعونه: ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

ولعلّ هذا الاحتياط، وهذه اليقظة، وهذا الحذر يكون أداة ووسيلة لتحقيق العذاب المهين الذي أعده الله للكافرين؛ فيكون المؤمنون هم ستار قدرته، وأداة مشيئته. وهي الطمأنينة مع ذلك الحذر، والثقة في النصر على قوم أعد الله لهم عذاباً مهيناً في الدنيا والآخرة [١].

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ﴾، قال: عبد الرحمن بن عوف، وكان جريحاً [٢].

إن المتأمل في أسرار هذا القرآن، وفي أسرار المنهج الرباني للتربية، المتمثل فيه، يطلع على عجب من اللفتات النفسية، النافذة إلى أعماق الروح البشرية. ومنها هذه اللفتة في ساحة المعركة إلى الصلاة.

إن السياق القرآني لا يجيء بهذا النص هنا لمجرد بيان الحكم الفقهي في صفة صلاة الخوف، ولكنه يحشد هذا النص في حملة التربية والتوجيه والتعليم والإعداد للصف المسلم وللجماعة المسلمة.

وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة في ساحة المعركة، وبجماعة - إن أمكن ذلك لرصّ الصف وجمع القلوب - وهذا طبيعي، بل بديهي في الاعتبار الإيماني. إن هذه الصلاة سلاح مهم من أسلحة المعركة، بل إنها السلاح ! فلابدّ من تنظيم الاستفادة من هذا السلاح بما يتناسب مع طبيعة المعركة، وجوّ المعركة.

ولقد كان أولئك الرجال - الذين تربّوا بالقرآن وفق المنهج الرباني - يلقون عدوهم بهذا

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٩٣-١٩٤)، وانظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٧١).
(٢) أخرجه البخاري (٤٥٩٩).



السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح. لقد كانوا متفوقين في إيمانهم بإله واحد، يعرفونه حق المعرفة، ويشعرون أنه معهم في المعركة، متفوقين كذلك في إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله؛ ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعاً. متفوقين أيضاً في تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم الإنساني، تفوقهم في تنظيمهم الاجتماعي الناشئ عن منهجهم الرباني. وكانت الصلاة رمزاً لهذا كله، وتذكيراً بهذا كله. ومن ثم كانت سلاحاً في المعركة، بل كانت هي السلاح !

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في هذا النص هو هذه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو، وهذا الحذر الذي يوصَى المؤمنون به تجاه عدوهم الذي يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم، ليميل عليهم ميلة واحدة! ومع هذا التحذير والتخويف التطمين والتثبيت ؛ إذ يخبرهم أنهم يواجهون قوماً كتب عليهم الهوان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾. وهذا التقابل بين التحذير والتطمين ؛ وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة، هو طابع هذا المنهج في تربية النفس المؤمنة والصف المسلم في مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم !! [(١)]

ثم يوجه الله المؤمنين إلى ذكر الله والاتصال به في كل حال، وفي كل وضع إلى جانب الصلاة:

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾.

يأمر الله تعالى بكثرة ذكره عقيب صلاة الخوف، على حدّ ما أمروا عند قضاء المناسك في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فهو ذكر في اللسان والقلب، وليكن هذا الذكر في سائر أحوالكم، قائمين أو قاعدين، أو على جنوبكم ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، أي فأتموها وأقيموها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٩٢-١٩٣).



كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وركوعها، وسجودها، وجميع شؤونها ؛ ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾، أي فريضة مؤقتة [١]. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال عقب تفسيرها: لم يعذر الله أحداً في ترك ذكره إلا المغلوب على عقله [٢].

ويختم هذا المقطع بالتشجيع على المضي في الجهاد ؛ مع الألم والضنَى والكلال، ويلمس القلوب المؤمنة لمسة عميقة موحية، تمسّ أعماق هذه القلوب، وتلقي الضوء القوي على المصائر والغايات والاتجاهات [٣]:

﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب عدوكم، عدو الحق والحرية، جدّوا فيهم وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد، فكما يصيبكم الألم واللأواء بسبب الجراح والقتل كذلك يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فأنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله الأجر والنصر والتأييد، كما وعدكم إيّاه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ووعده حق، وخبره صدق، وأعداءكم لا يرجون شيئاً من ذلك، فهم ضائعون مضيّعون، لا يرجون عند الله شيئاً في الحياة ولا بعد الحياة، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشدّ رغبة فيه، وفي إقامة كلمة الله وإعلائها لتحرير الناس من الظلم والاستعباد [٤]، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾، فيعلم مصالحكم، وما يحقق لكم الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، ويعلم أعمالكم أيضاً، ما تظهرون منها وما تسرون. وهو سبحانه حكيم فيما

---

(١) والمعنى عند أهل اللغة: مفروض لوقت بعينه، يقال: وَقَتَه فهو موقوت، ووقته فيهو مؤقت. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٧٣-٣٧٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٩-٥٥٠).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٧١).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٩٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٠).

يأمر وينهى، فجدّوا في الامتثال لذلك، فإن فيه عواقب حميدة، وفوزاً بالمطلوب [(١)].

وفي ختام المقطع نقول: إن محور السورة هو التوحيد، الذي حقيقته التحرر والتحرير والهجرة هي الخروج من مجتمع الكفر للتحرر من ضغوطه وتبعاته، والالتحاق بالمجتمع المسلم، الذي يجاهد لتحرير البشرية من الطغيان والظلم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: تحرر المسلمين بالهجرة من أرض الكفر إلى دار الإسلام، والمشاركة مع إخوانهم المقيمين في دار الإسلام لتحرير المستضعفين، هو جزء مهم من التقوى، والعبودية لله والتحرر عن العبودية لغيره.

ب- الأحكام الشرعية: أهمية الصلاة وأحكامها في الحرب والسفر.

ج- الأخلاق الإسلامية: خلق المسلم مبني على البذل والتضحية ؛ وفي ترك الوطن لله، وفي القتال في سبيل الله للتحرير أعظم أنواع التضحية والبذل.

د- الجوانب التربوية: إن الأمر بالهجرة، وتهديد المتقاعسين عنها، وتسميتهم بـ﴿ ظالمي أنفسهم﴾ أسلوب تربوي لتحرير أنفسهم من الظلم والتسلط الواقع عليهم في دار الكفر. ثم إن بيان أحكام صلاة الخوف في هذا السياق، وختام المقطع بذكر الله في كل الأحوال والحض على القتال، ولفت النظر إلى الألم لكلا الفريقين ؛ فريق الكفر وفريق الإيمان وتميّز المؤمنين بسلاح الإيمان الذي يرجون فيه من الله ما ليس لأعدائهم ؛ كل ذلك حملة تربوية، فيها التوجيه والتعليم، والإعداد ليخوضوا معاركهم، وهم أقوياء في نفوسهم متصلين بالله على الدوام، يستمدون منه العون والقوة، مع وضوح هدفهم الذي يقاتلون من أجله.

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٧٢).

المقطع الثامن: حكم الله عدل مطلق، وجزاؤه حق وعدل (١٠٥-١٣٥):

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا (١٢٢) لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ

لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

صلة المقطع بسابقه:

قبل الحديث عن هذه الصلة نذكر بأن السورة مبدوءة بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ والمقاطع الثاني والثالث والرابع والخامس مبدوءة بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، والمقطع السادس مبدوء بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ومختوم بنفس الخطاب، والمقطع السابع ليس

فيه هذا الخطاب؛ لأنّه تابع ومتمم لما قبله، وقد ورد فيه الأمر بأخذ الحذر مرتين [الآية: ١٠٢] وبدأ المقطع السادس قبله بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾.

والمقطع الثامن هذا لا نجد في أوله الخطاب بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ولكننا نجد آخر آية منه مبدوءة بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، وفي هذه الآية إشعار بالمعنى الرئيسي، الذي ينتظم معاني المقطع، الذي يعرض لنا معاني من مظاهر العدل، ثم يختم المقطع بآية ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

وصلة هذا المقطع بسابقه تظهر الآن بوضوح ؛ فهذا المقطع يتناول العدل، وسابقه يتناول الجهاد والهجرة ؛ والهجرة تخلّص من الظلم، والجهاد هدفه تحرير الناس من التسلط والظلم وإقامة الحق والعدل.

المعنى الإجمالي:

في الآيات الأولى من المقطع تشريف للنبي ﷺ، وتكريم وتعظيم وتفويض إليه، وتقويم أيضاً على الجادة في الحكم، وتأنيب على ما رفع إليه من أمر بني أبيرق [١]، وفي الآيات ما يوجه ويقرر في المجتمع إقامة العدل، وترويض النفوس على الاستقامة على الحق، وتحقيقه في الجماعة بشكل ليس له نظير، مما يدل على إعجاز القرآن.

عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال: كان أهل بيت منّا يقال لهم: بنو أُبَيْرِق، بِشْر وبَشير ومُبَشِّر، وكان بشير رجلاً منافقاً، يقول الشعر [٢] يَهْجُو به أصحاب النبي ﷺ، ثم يَنْحَلُه بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر، قالوا:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٧٥)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٠٨).

(٢) ذكر بعض المفسرين أن بشير يكنى أبا طعمة ؛ فلعل ما ورد عند بعض المفسرين أن الذي سرق هو طعمة بن أبيرق هذا سببه والله أعلم.

والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيثُ، وقالوا: ابن الأبيرق قالها، قال: وكانوا أهلَ بيتِ حاجةٍ وفاقةٍ في الجاهلية والإسلام، وكان الناسُ إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يَسارٌ، فقدمت ضافِطةٌ من الدَّرْمَك [١]. ابتاع الرجل منها فخصّ بها نفسه وأما العيالُ؛ فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافِطَة من الشام، فابتاع عمي رِفاعَة بن زيد حِمْلاً من الدَّرْمك، فجعله في مَشْرَبةٍ له [٢]، وفي المشربة سلاح؛ درع وسيف، فعُدِيَ عليه من تحت البيت، فنُقِبَت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح، فلمّا أصبح أتاني عمي رِفاعةُ، فقال: يا ابن أخي، إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مَشْرَبَتُنا، وذُهِبَ بطعامنا وسلاحنا، قال: فتحَسَّسنا في الدار، وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بنو أُبَيْرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أبيرق قالوا -ونحن نسأل في الدار- والله ما نرى صاحبكم إلا لَبِيد بن سَهْلٍ، رجل منّا له صلاح وإسلام، فلما سمع لَبيد اخْتَرَط سيفَهُ وقال: أنا أسرق ؟ والله ليخالطنّكم هذا السيف، أو لتُبَيِّنُنَّ هذه السرقة، قالوا إليك عنا أيها الرجل، فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشكَّ أنهم أصحابها، فقال لي عمّي: يا ابن أخي، لو أتيتَ رسول الله ﷺ فذكرتَ ذلك له ؟ قال قتادة: فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: إن أهل بيت منّا، أهل جفاءٍ، عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مَشْرَبَةً له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردُّوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال النبي ﷺ: سآمُرُ في ذلك، فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أُسَيْرُ بن عروة [٣]، فكلّموه في ذلك، واجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمَّهُ عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بَيِّنَةٍ ولا ثَبَتٍ، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمتُه، فقال: عمدتَ إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاحٌ، ترميهم بالسرقة من غير ثَبَتٍ ولا بينة؟! قال: فرجعت

(١) الضافطة : ناس يجلبون الدقيق والزيت ونحوهما، والدَّرمَك : الدقيق الحوّاري. انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول (٢/ ١٠٩)، وروح المعاني، الألوسي (٢/ ١٧٢).

(٢) المَشْرَبَة - بضم الراء وفتحها : الغرفة. جامع الأصول (٢/ ١٠٩).

(٣) عند القرطبي (٥/ ٣٧٥) : أسير بن عروة ابن عَمّ لهم.

ولَودِدْتُ أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعةُ، فقال: يا ابن أخي، ما صنعتَ ؟ فأخبرته بما قال لي رسولُ الله ﷺ، فقال: الله المستعانُ، فلم نَلْبَث أن نزل القرآنُ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾، بني أبيرق، ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾، ممّا قلت لقتادة ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾، أي لو استغفروا الله لغفر لهم، ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾، قولهم للبيد: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

فلما نزل القرآن أُتي رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة، قال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح - وكان شيخاً قد عشا أو عسى - في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولاً[1]، فلما أتيته بالسلاح قال لي: يا ابن أخي، هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لَحِقَ بشير بالمشركين، فنزل على سُلافة بنت سعد بن سُمَيَّة[2]، فأنزل الله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا

(١) يعني: أنّ إيمانه متزلزلاً فيه نفاق والدَّخَل: العيب والغش. جامع الأصول (٢/ ١٠٩).

(٢) الصواب سلافة بنت سعد بن شهيد كما في الدر المنثور وديوان حسان بن ثابت. انظر الدر المنثور، السيوطي (٢/ ٦٧١).

بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾، فلمّا نزل على سُلافةَ رماها حَسَّان بن ثابت بأبيات من شعره، فأخذت رَحْلَه فوضعته على رأسها، ثم خرجت به فرمت به في الأبطح، ثم قالت: أهديتَ إليَّ شعرَ حسان، ما كنت تأتيني بخير [١].

ونلاحظ أن المقطع بدأ بتبيان الحكمة من إنزال الكتاب ؛ فهو حق من الله تعالى، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه وشرعه، وفي ذلك أبلغ رد على من يهمل الحكم بما أنزل الله[٢]، وقوله سبحانه: ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ معناه على قوانين الشرع؛ إما بوحي ونص، أو بنظر جارٍ على سنن الوحي، وهذا أصل في القياس والاجتهاد، والنبي ﷺ معصوم في اجتهاده عن الخطأ ؛ لأن الله تعالى يريه الحق ويسدّده، والأمة تعبدها الله بالاجتهاد، فلا عصمة [٣]. قال النبي ﷺ: « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » [٤]، وحكم الحاكم لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، إنما هو حكم مستند إلى ما يظهر من الدليل، لهذا قال رسول الله ﷺ: « إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار » [٥].

وقد وضح حديث قتادة بن النعمان عن بني الأبيرق الآيات، غير أننا نلفت النظر إلى أن

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٣٦)، وأخرجه الطبري (٥/ ١٧٠-١٧١)، وأخرج الطبري بسنده عن قتادة أن السارق طعمة بن أبيرق... وقذف الدرع على يهودي كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين، وأخرج عن ابن زيد :... وطرحه على يهودي، فقال اليهودي : والله ما سرقتها يا أبا القاسم، ولكن طرحت علي. جامع البيان في تأويل القرآن الطبري (٥/ ١٧١-١٧٢)، وأخرج الحاكم في المستدرك رواية الترمذي (٤/ ٤٢٨)، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٧٦).

(٤) رواه البخاري (٧٣٢٥)، ومسلم (١٧١٦)، وغيرهما.

(٥) رواه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ ﴾، هذا أول مظهر من مظاهر العدل، فلا يجوز التعصب لأهل الريب والمعاصي [١]، ثم يصدر الأمر بالاستغفار ؛ لدقة قضية أهل الحق ولدقة الموقف من أهل الباطل، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته، وفي ذلك دعوة للتوبة من الخوض في الباطل، والرجوع إلى الحق والعدل.

ويظهر بوضوح قضيتان: الحكم بالحق، وترك الدفاع عن أهل الباطل، وينفر الله من الدفاع عن أهل الباطل بذكر صفاتهم المنفرة: ﴿ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ ﴾، فكيف يدافع المؤمن عمّن يبغضه الله، ومن صفاتهم المنفرة استخفاؤهم من الناس، وإخفاء قبائحهم عنهم، لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بالمعاصي ؛ لأنهم منافقون، يبيتون الباطل والظلم، والله معهم ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾، وإذا افترض أحد أن هؤلاء الخائنين قد يستفيدون من مجادلة المؤمنين عنهم، فمن يستطيع الجدال عنهم يوم القيامة، أو من يتوكل لهم يومئذ في ترويج دعواهم ؟! فلا دفاع من مسلم عن خائن.

وفي عصرنا هذا -عصر القانون والمحاماة- تظهر أهمية هذا التوجيه، حيث تقرر الآيات بوضوح أن صيغة الحق هي ما أنزله الله، وأن الدفاع عن الذين يختانون أنفسهم لا يجوز.

ويستمر السياق مقرراً ثلاث حقائق رئيسية:

الأولى: أن المذنب المسيء إذا استغفر الله يغفر له: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ ﴾.

والثانية: إن كل إنسان مسؤول عن نفسه، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وأن إثم الآثم لا يتعداه، ويرجع جزاء جريرته على نفسه: ﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١١٠).

والثالثة: إن الذي يرتكب الخطيئة أو الإثم، ثم يرمي به الأبرياء، فقد اجتمع عليه ذنبان؛ ذنب البهتان، وإثمه الأصلي: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾، قال الطبري: وإنما فرق بين الخَطيئة والإثم؛ لأن الخطيئة قد تكون من قبل العمد وغير العمد، والإثم لا يكون إلا من العمد [١]، فرمي البريء بهت له، قال رسول الله ﷺ: « أتدرون ما الغيبة ؟ »، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « ذكرك أخاك بما يكره »، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟! قال: « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه » [٢].

ثم يبين الله سبحانه أن وصول الإنسان إلى الحقّ واستمراره عليه لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى، خاصّة مع وجود المضللين، الذين لا يُضلون إلا أنفسهم ولا يضرون غيرها: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾، فالكلام متصل؛ أي ما يضرونك من شيء مع إنزال الله عليك القرآن، ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ السنة أو القضاء بالوحي، ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ من الشرائع والأحكام [٣].

وفي هذا منة كبرى وفضل من الله على نبيه ﷺ في إنزال الكتاب والحكمة، وتعليمه ما لم يكن يعلم، وهي المنة الكبرى على البشرية كلها، ممثلة ابتداء في شخص أكرمها على الله، مع عصمته ﷺ؛ فهذا الكتاب المنزل منة وفضل على البشرية، لا يعلمها ويعرف قدرها إلا المسلم الذي عرف الإسلام وعرف القواعد والتعاليم التي وضعها هذا الكتاب المبارك مع السنة التي هي من وحي الله، تلك القواعد والتعاليم ضبطت الحقوق وأرست قواعد العدل، وأرشدت

---

(١) جامع البيان، الطبري (٥/ ١٧٦).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٩)، والترمذي (١٩٣٤)، وغيرهما. وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٨٠-٣٨١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٨٢).

البشرية إلى كل خير [١]، بما علم الله نبيه ﷺ وبما تفضل عليه من عظيم فضله ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

والصلة واضحة بين بداية المجموعة المطالبة بالحكم بالقرآن، والنهي عن الجدال عن الخائنين، وبين نهايتها المتحدثة عن نعمة الله على رسوله ﷺ بإنزال القرآن عليه، وتعليمه ما لم يكن يعلم.

وفي سياق هذا المقطع الذي يبين صوراً من العدل والحق، وفي إطار محور السورة عبادة الله وطاعته، يحدد الله عز وجل إطار الخير في أحاديث الناس بعضهم مع بعض ؛ هذه الأحاديث التي يكون منها حق وخير فيه صلاح المجتمع وسعادة أفراده، ومنها افتراء وبهتان وظلم: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ النجوى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه ؛ أي خلصته وأفردته، والنجوى: السرّ بين الاثنين، والمعروف لفظ يعم أعمال البر كلها [٢]. روى سفيان الثوري بسنده عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: « كلام ابن آدم كله عليه لا له، إلا ذكر الله عز وجل، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر »، فقال سفيان الثوري: أوَ ما سمعت الله في كتابه يقول: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فهذا هو بعينه، أوَ ما سمعت الله يقول: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النبأ: ٣٨]، فهو هذا بعينه، أوَ ما سمعت الله يقول في كتابه: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة العصر]، فهو هذا بعينه [٣]

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٠٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٤)، وقد روى هذا الحديث الترمذي (١٤١٢)، وابن ماجه (٣٩٧٤) بدون ذكر أقوال الثوري، وقد أثبتها لأنها توضح الآية.

وقال النبي ﷺ: « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً » [١]، وقال رسول الله ﷺ: « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة »، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة » [٢]، ويشترط لقبول ذلك والأجر عليه في الآخرة أن يخلص المؤمن فيه ويحتسب الأجر عند الله، ككل عبادة لا أجر عليها بدون الإخلاص، ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

والنص عام، ويندرج فيه أصحاب النازلة بني الأبيرق، وتناجيهم في دفع التهمة عنهم وهذا من الفصاحة والإيجاز المتضمن الماضي والغابر في عبارة واحدة [٣].

وقد ذكر في سبب نزول هذه المجموعة من الآيات أن بشير بن أبيرق قد ارتد والتحق بالمشركين، بعد أن كان في صفوف المؤمنين ثم اتبع غير سبيل المؤمنين، فأنزل الله بيان ذلك بنص عام ينطبق على كل حالة:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾.

يقرر الله سبحانه حقيقة مرتبطة بقضية الحق والعدل ؛ هذه القضية هي أن ما شرعه الله حق، وما أجمعت عليه الأمة الإسلامية حق أيضاً، ويستحق مخالف هذا الحق العذاب الأليم.

إن من سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، أو سلك غير الطريق الذي اجتمعت عليه أمة محمد ﷺ باتفاق أهل الحل والعقد منهم، فيما عُلم اتفاقهم عليه تحقيقاً فمن سلك طريق الشقاق لهذا أو لهذا يجازيه الله على ذلك باستدراجه في الدنيا ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ويجعل

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

(٢) رواه أبو داود (٢٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩)، وقال الترمذي : حسن صحيح.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١١٢).

النار مصيره في الآخرة ؛ لأن الله تضمن لأمة محمد ﷺ العصمة من الخطأ في اجتماعهم، تشريفاً لهم، وتعظيماً لنبيهم ﷺ [(١)].

ولما كان رأس الانحراف عن الحق سببه الشرك واتباع الشيطان جاءت الآيات اللاحقة تبين ذلك، وتقرر ما ذكر سابقاً في السورة: أن الذنب الذي لا يغفر هو الشرك، وأن ما دونه يمكن أن يغفره، وقد ذكرت الآية (٤٨) من هذه السورة في معرض الحديث عن شرك أهل الكتاب [(٢)]، غير أن الآية هناك ختمت بالتنفير من الشرك، والتشنيع على أهله: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾، وختمت هنا ببيان ضلال المشرك عن الهدى ؛ لأنه سلك غير طريق الحق وبعُد عن الصواب فخسر سعادة الدنيا والآخرة [(٣)].

ثم يبين الله حال هؤلاء المشركين، وأنهم ما يعبدون إلا إناثاً كالأحجار، ومظاهر هذا الكون والطبيعة:

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾.

كانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة؛ كاللات والعزى، وقيل المراد الملائكة وصوروهن جواري، وقالوا: الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٥).
(٢) ارجع إلى تفسير الآية (٤٨) من سورة النساء.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٥).

﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠] [(١)]. وهؤلاء العابدين للأصنام وغيرها من المعبودات، ويشركونها مع الله في التقديس والتعظيم والحب، ما يعبدون في حقيقة الأمر إلا الشيطان المتمرد على الله، الشديد العتو والإضلال، وإنما قال: إنهم يعبدونه؛ لأنهم يطيعونه في الكفر والضلال، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٞ مُّبِينٞ ٦٠ ﴾ [يس: ٦٠]، فالشيطان هو الذي يأمرهم بالكفر والشرك، ويزيّنه لهم وهو الملعون المطرود، المُبْعَدُ من رحمة الله وعن جواره، وهو الذي أخذ على عاتقه أن يُضِلَّ قسماً معيناً، مقدراً معلوماً من الناس ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴾، وهم أهل الضلال لأن عباد الله المخلصين ليس للشيطان عليهم سبيل. أما أتباع الشيطان وعَبّاده ؛ فإنه يضلهم عن الحق، ويزيّن لهم ترك التوبة، ويعدهم الأماني الكاذبة، ويأمرهم بالتسويف والتأخير، ويزين لهم تحريم ما أحل، مثل قطع آذان الأنعام، كالبحيرة، والسائبة، وتأتي في المائدة، وتغيير خلق الله بارتكاب ما حرّم، كالوشم والنمّص وخصي الإنسان، وغير ذلك. وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: « لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله عز وجل »؛ ثم قال: ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل ؛ يعني قوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧] [(٢)]، وقال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: « إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » [(٣)]. ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴾، أي من يطع الشيطان، ويَدَعْ أمر الله، فقد خسر الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها؛ لأن الشيطان ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾، إنه يخبرهم بالباطل، ويعدهم الوعود

---

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٥).

(٢) رواه البخاري (٥٩٣١)، ومسلم (٢١٢٥)، وفيه أن امرأة من بني أسد جاءت إلى ابن مسعود. وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٥-٥٥٦)، والتسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٥٨).

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (١٧٠٣٠).

الكاذبة، ويمنّيهم بالأماني الكاذبة ليغرر بهم، ويصور لهم أنهم يكونون من السعداء إذا حققوا شهواتهم بارتكاب الفواحش، ويخوفهم بالفقر، حتى لا يصلوا رَحِماً ولا ينفقوا في خير، كما قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالى مبيناً واقع الشيطان ووعوده الكاذبة: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، العذاب الأليم جزاء المستحسنين لإغواء الشيطان ووعوده الكاذبة، وهذا العذاب هو جهنم، فهي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة، ليس لهم عنها مندوحة، ولا مصرف، ولا خلاص، ولا مناص ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾[1].

فالشرك إذن يسبب الانحراف عن الحق، والشرك في حقيقته عبادة وطاعة للشيطان، ومجيء هذه المعاني في سياق الأمر بالحق والعدل واضح؛ إذْ لا حق ولا عدل مع الشرك واتباع الشيطان.

وإذ ذكر حال الأشقياء في الآخرة أتبع ذلك بذكر حال المؤمنين:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾.

أولئك الذين صدقت قلوبهم، وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نُهوا عنه من المنكرات، جزاؤهم الخلود الأبدي في جنات تجري من تحتها الأنهار ؛ هذا وعد من الله لهم، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة ؛ ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر وهو قوله ﴿ حَقًّا ﴾، ثم بعد التأكيد نفي الصدق عن غيره من شياطين الإنس والجن: ﴿ وَمَنْ

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٦)، وبحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٦٥).

﴿ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾، فلا أحد أصدق من الله قولاً وخبراً سبحانه لا إله إلا هو [1].

ثم يعقب السياق بقاعدة في العمل والجزاء. إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأماني. إنه يرجع إلى أصل ثابت، وسنة لا تتخلف، وقانون لا يحابي. قانون تستوي أمامه الأمم - فليس أحد يمتّ إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر - وليس أحد تخرق له القاعدة، وتخالف من أجله السنة، ويعطل لحسابه القانون:

﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ ﴾.

لقد كان اليهود والنصارى يقولون: ﴿ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾، وكانوا يقولون: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ ﴾، وكان اليهود ولا يزالون يقولون: إنهم شعب الله المختار!

ولعل بعض المسلمين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس، مع ترك عمل الخير والدعوة إلى الحق، ويزعمون أن الله متجاوز عنهم بما أنهم مسلمون. فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل، ويبين أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل؛ وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه على الحق سُمع قولُه بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، فليست النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه، واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام، ولهذا وضع القاعدة: ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾، كقوله: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٦).



﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فالله مجازي من يعمل السوء ولا يستطيع أحد أن يحول بين الله وبين مجازاته، فينصره أو يدفع عنه [١].

ولما ذكر الله الجزاء على السيئات، وأنه سيأخذ مستحقَّها من العبد ؛ إما في الدنيا وهو الأجود، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ شقّ ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ: « سدّدوا وقاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها » [٢]، وإما أن يأخذ جزاءها في الآخرة، شرع سبحانه في بيان إحسانه وكرمه في قبول الأعمال الصالحة من عباده، ذكورهم وإناثهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة، ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير، وهو النقرة في ظهر النواة [٣].

وشرط سبحانه الإيمان ؛ لأن المشركين أدلوا بخدمة الكعبة وإطعام الحجيج وقرى الأضياف، وأهل الكتاب بسبقهم، وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه، فبين سبحانه أن الإيمان هو الأساس الذي تنبثق منه الأعمال الصالحة التي أمر بها الله، وأن الأعمال الحسنة لا تقبل من غير إيمان [٤].

ثم خيّر سبحانه بين الأديان مبيناً دين الحق والعدل وشرطاه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ فلا أحسن ديناً ممن اجتمع له إخلاص العمل لربه؛ فعمل إيماناً واحتساباً، متّبعاً في العمل ما شرعه الله سبحانه، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق. وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما:

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٧)، وانظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢١٢-٢١٣).
(٢) رواه مسلم (٢٥٧٤) واللفظ له، والبخاري (٥٦٤٢)، والترمذي (٣٠٣٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٩٩).

الشرط الأول: أن يكون العمل خالصاً، والخالص أن يكون لله.

الشرط الثاني: أن يكون العمل صواباً، والصواب: أن يكون متبعاً للشريعة.

فيصح ظاهر العبد بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص ؛ ومتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ومتى فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً، ومن جمعهما كان من المؤمنين الذين لا أحسن ديناً منهم، فهم مخلصون محسنون، وهم متّبعون لملة إبراهيم، المائل عن كل شرك إلى التوحيد الخالص، ومن ثم اتخذه الله خليلاً، فهو أبو الأنبياء الذين بلّغوا الحق إلى الخلق، وقرروا عقيدة التوحيد في الأرض.

ثم بين الله عز وجل أن جميع ما في السماوات والأرض ملكه وعبيده وخلقه ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ فهو المتصرِّف في جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يُسأل عما يفعل ؛ لعظمته وقدرته وعدله وحكمته، ولطفه ورحمته. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾؛ فعلمه نافذ في جميع خلقه، لا تخفى عليه خافية من عباده، ولا يعزب عن علمه مثقال ذره في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو المحيط بكل شيء [(١)]. وفي ظل هذا التصور وهذا الاعتقاد يصلح الضمير، ويصلح السلوك، وتصلح الحياة ويتقرر الحق والعدل في اتباع كتاب الله [(٢)] ؛ فلا يكون دفاع عن المبطلين، ولا مناجاة بالشر؛ إنما بالخير والإصلاح، ولا طاعة للشيطان ؛ إنما الطاعة لله والاستسلام له باتباع رسوله.

فالمقطع يوضح جوانب من الحق والعدل، وكل ذلك في إطار السياق الكلي لمحور السورة الذي يُعمّق قضية العبادة لله وحده، والتزام التقوى.

ثم يكمل المقطع شرح جوانب من الحق والعدل في موضوع يتامى النساء والمستضعفين

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٩-٥٦٠).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢١٥).



واليتامى عامة، فيفتي بما هو حق وعدل:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾.

نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في المواريث وغير ذلك، فأمر الله نبيّه ﷺ أن يقول لهم: ﴿ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ ؛ أي يبين لكم حكم ما سألتم عنه.

والذي ذكر الله أنه يُتْلَى عليهم في يتامى النساء، هو ما تقدم في صدر السورة في أمر النساء وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [١] ؛ فقد سأل عروة بن الزبير عائشة رضي الله عنها عن قول الله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾، قالت: يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حَجْر وليها، تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يُقسِط في صداقها، فيعطيها مثلَ ما يُعطيها غيرُه، فنُهُوا أن ينكحوهن إلاّ أن يقسطوا لهنّ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصَّداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ، قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾، قالت: والذي ذكر الله تعالى أنه ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ رغْبَةَ أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حَجْره حين تكون قليلة المال والجمال، فنُهُوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن، إذا كن قليلات المال والجمال [٢].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١١٨).

(٢) رواه مسلم (٣٠١٨) واللفظ له، والبخاري (٢٤٩٤).

ويظهر من ذلك أن معنى قوله تعالى: ﴿ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ النهي عمّا كانت العرب تفعله، من ضم اليتيمة الجميلة الغنية بدون ما تستحقّه من المهر، ومن عضل الدميمة الفقيرة أبداً، والدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل، ونحو هذا ممّا يقصد به المولى منفعة نفسه، لا نفع اليتيمة، والذي ﴿كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ هو توفية ما تستحقه من مهر وإلحاقها بأقرانها.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ عطف على يتامى النساء، والذي تُلي في المستضعفين من الولدان هو قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ﴾ [النساء: ١١]، وذلك أن العرب كانت لا تورث الصبيّة ولا الصبي الصغير - كما مرَّ في صدر السورة - وكان الكبير ينفرد بالمال، وكانوا يقولون: إنما يرث المال من يحمي الحوزة، ويرد الغنيمة، ويقاتل عن الحريم، ففرض الله لكل أحد حقه. وقوله: ﴿ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾، عطف على ما تقدم، والذي تُلِيَ في هذا المعنى هو قوله تعالى في صدر السورة: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ إلى غير ذلك مما ذُكر في مال اليتيم، والقسط: العدل، وباقي الآية وعد على فعل الخير بالجزاء الجميل [(١)].

ثم بين الله عز وجل قضايا من الحق والعدل في الشؤون الزوجية، فذكر ثلاث حالات من العلاقة بين الزوجين، وبين حكمها:

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١١٨).

النشوز: الارتفاع بالنفس عن رتبة حسن العشرة ؛ وذلك بأن يتجافى عنها، بأن يمنعها نفسه ونفقته، والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة، وأن يؤذيها بسب أو ضرب. والإعراض أخف من النشوز ؛ وذلك بأن يقلل محادثتها ومؤانستها، لبعض الأسباب ؛ من طعن في سنّ أو دمامة، أو شيء في خَلْق أو خُلُق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك.

وقوله سبحانه: « والصلح خير » لفظ عام مطلق بمقتضى أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين خير من الفرقة [١].

وقد ذكرت الآيات حالات من العلاقة بين الزوجين:

الحالة الأولى: ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها، أو يُعرض عنها، فلها أن تسقط عنه حقها، أو بعضه من نفقة أو كسوة، أو مبيت، أو غير ذلك من حقوقها عليه، وله أن يقبل ذلك منها؛ إذ الصلح خير من الفراق، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾، ثم قال: ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾؛ أي خير من الفراق. ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾، أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق، ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة خشيت أن يفارقها رسول الله ﷺ، فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة، فقد روي عن عائشة أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، وكان النبي ﷺ يَقْسِمُ لعائشة بيومها ويوم سودة » [٢]، وعن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له: يا ابن أختي، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، وكان قلّ يوم إلا وهو يطوف علينا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت، وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله، يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ، قالت عائشة: ففي ذلك

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١١٩-١٢٠)، والكشاف، الزمخشري (١/ ٣٠٢).
(٢) رواه البخاري (٥٢١٢)، والإمام أحمد (٢٣٩٥٦).



أنزل الله: ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا ﴾[(١)].

فالصلح خير من الطلاق ؛ لأن الطلاق بغيض إلى الله تعالى، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾، وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، وتقسموا لهنّ أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء [(٣)]، والهتاف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى، والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل، هتاف مؤثر، ونداء مُسْتَجاب، بل هو وحده الهتاف المؤثر والنداء المستجاب [(٤)].

والحالة الثانية في الحياة الزوجية: حالة الوفاق، حين يكون للرجل أكثر من زوجه.

إن الله الذي فطر النفس البشرية، فطرها ذات ميول لا تملكها، ومن ثَمَّ أعطاها لهذه الميول خطاماً لينظم حركتها فقط، لا ليعدمها ويقتلها.

من هذه الميول أن يميل القلب البشري إلى إحدى الزوجات، ويؤثرها على الأخريات ؛ فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات، وهذا ميل لا حيلة له فيه، ولا يملك محوه أو قتله. إن الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه، ولا يجعل هذا إثماً يعاقبه عليه ؛ فيدعه موزعاً بين أمر لا يملكه وأمر لا يطيقهُ! بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء -ولو حرصوا- لأن الأمر خارج عن إرادتهم، ولكن هناك ما هو داخل في إرادتهم. هناك العدل في المعاملة. العدل في القسمة. العدل في النفقة. العدل في الحقوق الزوجية كلها، حتى الابتسامة في الوجه، والكلمة الطيبة باللسان، وقد مرّ معنا في أوائل السورة: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٦٢) : « وكذلك رواه أبو داود عن أحمد بن يونس (٢١٣٥)، والحاكم في مستدركه، ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد رواه ابن مردويه بنحوه مختصراً».

(٢) رواه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٣).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٢٣).

كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩]، وهذا ما هم مطالبون به، هذا هو الخطام الذي يقود ذلك الميل، لينظمه لا ليقتله ! ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾. قال ابن عباس وغيره: المعلقة ؛ لا ذات زوج، ولا مطلقة [١].

وكان النبي ﷺ، وهو الصورة الكاملة للإنسانية حين تبلغ أوجها من الكمال ؛ كان يقسم بين نسائه فيما يملك، ويعدل في هذه القسمة، ولا ينكر أنه يؤثر بعضهن بقلبه على بعض، وأن هذا خارج عمّا يملك، فكان يقول: « اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »، يعني: الحب والجماع [٢].

وفي حالة الإصلاح والتقوى، فإن الله سيغفر ما كان من تفريط عند عدم وجود العدل المطلق ؛ لأن القلب لا يملكه الإنسان: ﴿ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

والحالة الثالثة: حالة الفراق: حين تجفّ القلوب، فلا تطيق هذه الصلة، ولا يبقى في نفوس الزوجين ما تستقيم معه الحياة؛ فالتفريق إذن خير؛ لأن الإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال، ولا بالقيود والأغلال ؛ إنما يمسكهم بالمودة والرحمة، أو بالواجب والتجمّل. فإذا بلغ الحال أن لا تبلغ هذه الوسائل كلها علاج القلوب المتنافرة، فإنه لا يحكم عليها أن تقيم في سجن من الكراهية والنفرة، أو في رباط ظاهري وانفصام حقيقي: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾، إنّ منهج الله واقعية مثالية، أو مثالية واقعية [٣].

فقد وعد الله كلاً من الزوجين أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها، ويغنيها عنه بأن يعوضه الله من هي خير له منها، ويعوضها من هو خير لها منه. وكان الله ولا زال واسعاً ؛ عنده خزائن

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٤).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، والدارمي (٢٢٠٧) وغيرهم. وانظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٢٤-٢٢٥)، وانظر بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٢٧٠).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٢٥).

كل شيء، وهو سبحانه حكيم في جميع أفعاله وأقداره وشرعه [١].

ولأن هذه الأحكام الخاصّة بتنظيم الحياة الزوجية، قطاع من المنهج الرباني لتنظيم الحياة كلها، ولأن هذا المنهج بجملته قطاع من الناموس الكوني، الذي أراده الله للكون كله، فهو يتوافق مع فطرة الله للكون، وفطرة الله للإنسان، الذي يعيش في هذا الكون ؛ لأن هذه هي الحقيقة العميقة في هذا المنهج الشامل الكبير، يجيء في سياق السورة بعد الأحكام الخاصة بتنظيم الأسرة، ما يربطها بالنظام الكوني كله ؛ وسلطان الله في الكون كله، وملكية الله للكون كله. ووحدة الوصية التي وصّى الله بها الناس في كتبه كلها، وثواب الدنيا وثواب الآخرة. وهي القواعد التي يقوم عليها المنهج كله. قواعد الحق والعدل والتقوى:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾.

هذه الآيات كالتعليل لوجوب العمل بمنهج الحق والعدل الذي أنزله الله سبحانه [٢]؛ فأخبر أنه عز وجل مالك السماوات والأرض، وأنه الحاكم فيهما، وأنه وصانا بما وصّى به مَن قبلنا من تقواه، وعبادته وحده لا شريك له، وأنه في حالة كفرنا - والعياذ بالله - فإنه لا يضرّه ذلك، بل يضرنا نحن لابتعادنا عن منهج سعادتنا في الدنيا، وعن السعادة الأبديّة في الآخرة، وهذا كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه: ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال سبحانه: ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٦] ؛ وكيف يضره سبحانه كفرنا - والعياذ بالله - وهو مالك السماوات

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٤)، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢١).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٨٥).

والأرض، وهو الغني عن عباده، وهو المحمود في جميع ما يقدّره ويشرعه. وإذن فما دام الله مالك السماوات والأرض، الغني عن خلقه، المحمود في فعله وشرعه، فمن حقه على خلقه أن يطيعوه فلا يعصوه، وأن يشكروه فلا يكفروه، وأن يذكروه فلا ينسوه.

ثم ذكر سبحانه مرةً ثانية أنه مالك السماوات والأرض، وأنه القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب الشهيد على كل شيء؛ فكل شيء موكول إليه. وهذا مقدمة لتذكيره سبحانه بأنه هو القادر على إذهابنا وتبديلنا بغيرنا إن عصيناه، إذ هو القادر على كل شيء ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠، وسورة فاطر: ١٦-١٧].

وإذا كان الله هو المالك لكل شيء، الخالق لكل شيء، المحيط بكل شيء، والمتصرف بكل شيء، والقادر على إذهابنا وتبديلنا بغيرنا إن عصيناه، فلنصرف همتنا إلى طلب الدنيا والآخرة لا إلى الدنيا فقط؛ ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾، فإذا سأله السائل من هذه وهذه أعطاه وأغناه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢] [١] ؛ فالمؤمن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، أو يطلب الأشرف وهو ثواب الآخرة، فإن من جاهد مثلاً خالصاً لوجه الله تعالى، لم تخطئه المنافع الدنيوية، وله في الآخرة ما الدنيا في جنبه كلا شيء، وعن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من كان همّه الآخرة جمع الله تعالى شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله تعالى عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له » [٢] ؛ فمرجع الأمور كلها إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٤).

(٢) مسند أحمد (٢١٠٨٠)، وانظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٩٣).

إلا هو، الذي قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممّن يستحق هذه، وممن يستحق هذه، فهو السميع البصير ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[١].

والآن ينتهي المقطع بنداء المؤمنين أن يكونوا قوامين بالعدل:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالعدل؛ فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عن العدل صارف، وأن يكونوا متعاونين، متساعدين، متعاضدين، متناصرين فيه[٢]، ونبه سبحانه بلفظ ﴿ قَوَّٰمِينَ ﴾، وهو بناء مبالغة، ليدل على أن مراعاة العدالة مرةً أو مرتين لا تكفي، بل يجب أن تكون على الدوام، ومن عدل مرةً أو مرتين لا يكون في الحقيقة عادلاً[٣]. وبما أن الشهادة هي التي يُعتمد عليها في تقرير العدل، والوصول إلى الحقوق، أمر الله المؤمنين أن يؤدّوا الشهادة ابتغاء وجه الله، فتكون صحيحة عادلة حقاً خالية من التحريف والتبديل والكتمان، وأمر سبحانه أن تؤدى شهادة الحق، ولو عاد ضررها على صاحبها، فإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، ولو عادت مضرته عليك، فإنّ الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه[٤].

وشهادة المرء على نفسه إقراره بالحقائق، وقوله الحق في كل أمر، وقيامه بالقسط عليها كذلك. ثم ذكر الوالدين لوجوب برّهما وعظم قدرهما، ثم ثنّى بالأقربين، إذ هم مظنة المودة والتعصب ؛ فإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها، بل اشهد بالحق، وإن

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٥).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٩٣)، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٥).

عاد ضرره عليهم ؛ فإن الحق حاكم على كل أحد، وإن كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً فأدّ فيه شهادة الحق، لا تراع غنياً لغناه، ولا تشفق على فقير لفقره، فالله يتولّى الجميع، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما [(١)]. وما يتوهّمه بعض الناس أن الانحياز للفقير هو لمصلحة الفقير، إنما هو مضرة للفقير ؛ فإذا أردت مصلحة الفقير فتصدق عليه، واحكم عليه بأداء الحق الذي عليه، وفي إقرار الحق والعدل مساعدة الفقير.

ففي بعض البلدان التي زعمت أنها تنصر الضعيف والفقير، درجت بعض محاكمها على أن تعفيه من ديونه، ويقول القاضي للدائن: أنت غني لا يحق أن تأخذ منه شيئاً. فماذا كانت النتيجة ؟ إذا احتاج الفقير إلى مال يسد حاجته لفترة من الزمن فما عاد يجد أحداً يعطيه قرضاً حسناً ؛ وعلى هذا فالعدل والشهادة بالحق تحقق مصلحة الفقير قبل الغني ؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا ﴾.

ثم نهى سبحانه أن يحملنا الهوى والعصبية وبغض الناس عن ترك العدل في أي أمر وشأن، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]، وعن سليمان بن يسار أن رسول الله ﷺ كان يبعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر، فيخرُص بينه وبين يهودِ خيبر، قال: فجمعوا له من حلي نسائهم، فقالوا: هذا لك وخفّف عنا وتجاوز في القَسْم، فقال عبد الله بن رواحة: يا معشر اليهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، فأمّا ما عرضتم من الرشوة فإنها سُحت، وإنا لا نأكلها، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض [(٢)].

وحذر الله سبحانه - أخيراً - من تحريف الشهادة وتغييرها فقال: ﴿ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾. واللي: هو التحريف وتعمد الكذب ؛ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧٨]، والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها، ممّا يسبب ضياع الحقوق، قال تعالى: ﴿ وَمَن

(١) انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٢-١٢٣)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٥).
(٢) موطأ مالك (١٤١٣).



يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. وقال النبي ﷺ: « ألا أخبركم بخير الشهداء ؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسْأَلها »(١).

وقد بدأ المقطع بذكر الحق وانتهى بذكر العدل وإقامة الشهادة، وبين الحكم بالحق الذي هو القرآن، وتقرير العدل تلازم ؛ إذ الحق والعدل لا يكون إلا باتباع كتاب الله، فالحق والعدل في اتباع كتاب الله، وعدم الدفاع عن المبطلين، وترك الشرك وطاعة الشيطان، والاستسلام لله وحده، واتباع رسوله؛ وكل ذلك مرتبط بمحور السورة، إذ يحقق التوحيد الصحيح وتقوى الله سبحانه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: أنزل الله الكتاب بالحق ليحتكم الناس إليه ويأخذوا بهدي رسوله ﷺ، ويتحرروا عن طاعة غيره سبحانه ؛ من الأهواء، أو شياطين الإنس والجن، فذلك الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وحقيقة الشرك طاعة للشيطان، فلنحذر وعود الشيطان الكاذبة.

ب- الأحكام الشرعية: يجب الحكم بما أنزل الله، ولا يجوز للمؤمن أن يدافع عن الخائنين، ولا يجوز التناجي إلا بالخير، وكل الذنوب عسى أن يغفرها الله سبحانه إلا الشرك. ويجب مراعاة الحق والعدل في شؤون النساء واليتامى والمستضعفين، كما يجب إحقاق الحق والعدل بين الزوجين، وهما الخلية الأولى في المجتمع، ويجب على المسلم أن يقوم بالعدل دائماً، وأن يشهد بالحق ولا يكتم الشهادة.

ج- الأخلاق الإسلامية: بناء خلق المسلمين على الإحسان والإصلاح المنبثقين من التقوى.

د - عرض جوانب من الخيانة والظلم، وجوانب من العدل والحق، مع الترغيب والترهيب أسلوب تربوي ينفر من الظلم، ويقرر الحق والعدل في المجتمع المسلم.

---

(١) رواه مسلم (١٧١٩)، والترمذي (٢٢٩٥، ٢٢٩٧)، وغيرهما.

المقطع التاسع: تولي الكافرين نفاق، والإيمان الصحيح والتقوى تحرر من النفاق والكفر (١٣٦-١٤٩):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ۞ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩) ﴾.

صلة المقطع بسابقه:

بدأ المقطع السابق بذكر إنزال الكتاب من الله إلى رسوله بالحق ليحكم بين الناس بالحق والعدل، ولا يستقر الحق ولا يستقيم العدل إلاّ بطاعة الله وعبادته وحده، والتحرر عن اتّباع

الشيطان وطاعته.

وهذا المقطع يبيّن حقيقة الإيمان بالله ورسوله، والكتاب الذي نَزَّل على رسوله ؛ ولا يكون ذلك إلا بالتحرر من النفاق والكفر. وبما أن تولي الكافرين نفاق وكفر، فلا يصح إيمان مع طاعة أهل الكفر والسير في ركابهم.

المعنى الإجمالي:

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في شرائع الإيمان وشُعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٥] (١)، فقوله سبحانه: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ معناه: اثبتوا على الإيمان بذلك، وداوموا عليه، وازدادوا في الإيمان طمأنينة ويقيناً (٢). ثم بين سبحانه أن من يكفر بركن من أركان الإيمان فقد خرج عن طريق الهُدى، وبعد عن القصد كل البعد.

ثم أخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه، ثم رجع، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ۝١٣٧ ﴾.

رجح الإمام الطبري قول قتادة وأبي العالية أن الآية في اليهود والنصارى ؛ آمنت اليهود بحكم التوراة، ثم كذبوا بخلافهم إياه، ثم أقرّ من أقر منهم بعيسى والإنجيل، ثم كذّب به بخلافه إياه، ثم كذب بمحمد ﷺ والفرقان، فازدادوا بتكذيبه به كفراً على كفره. وسبب ترجيحه ذلك أن الآية قبلها في قصص أهل الكتابين يعني قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٦).
(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٩٥).



بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[1]. والذي نراه أن الآية السابقة لهذه الآية خطاب للمؤمنين، والسياق عام في الإيمان والكفر والنفاق، ويدخل في عمومه أهل الكفر بنوعيهم ؛ من كان كافراً ابتداءً ومن كفر بعد إيمان، إذا استمر على الكفر حتى الموت، ويدخل في العموم كفار أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ولم يؤمنوا بالكتاب الذي أنزل عليه، ويدخل تحت هذا العموم أيضاً المنافقون إذا استمروا على الكفر حتى الموت ولم يؤمنوا، وهم الذين يترددون بين الإيمان والكفر. وعلى هذا فالمترجّح قول مجاهد وابن زيد أن الآية في المنافقين، فإن منهم من كان يؤمن ثم يكفر، ثم يؤمن ثم يكفر ؛ يتردد في ذلك، فنزلت هذه الآية فيمن ازداد كفراً، بأن تمَّ على نفاقه حتى مات. وصفة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر، وبين المؤمنين والكفار هي صفة أهل النفاق حتى يوافي على الكفر ؛ ولذلك كانت العبارة: ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾، وهي أشد من قوله الذي مرّ في نفس السورة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، وأشد من قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ [محمد: ٣٤]، وهي عبارة تقتضي لسامعها أن يتنبّه ويراجع قبل نفوذ الحتم عليه، وأن يكون من هؤلاء. وكل من كفر كفراً واحداً ووافَى عليه، فقد قال تعالى إنه لا يغفر له، ولم يقل: لم يكن الله ليغفر له، فتأمل الفرق بين العبارتين، فإنه من دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله تعالى، كأنّ قوله: ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ ﴾ حكم تقرر عليهم في الدنيا وهم أحياء[2].

ويؤكد القول بأن الآية في المنافقين، ويدخل في عمومها أنواع الكفر أَمْرُ الله نبيّه ﷺ والمؤمنين بأن يبشروا المنافقين بالعذاب الأليم: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، يعني أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم؛ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المنافقون: ٣].

ثم نص سبحانه في صفة المنافقين، فذكر أشدها ضرراً على المؤمنين، وهي موالاتهم الكفار

---

(١) انظر جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٥/ ٢١١).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٤-١٢٥).



واطراحهم المؤمنين، ونبّه على فساد ذلك لأن لا يقع في بعض أنواعه، غفلةً أو جهالة أو مسامحة، فقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1]، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم، ويسرّون إليهم بالمودّة، وربّما إذا خلا بعضهم بالكفار من اليهود أو غيرهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة.

ثم أخبر سبحانه أن سبب موالاتهم للكافرين هو: طلبهم العزة، والنصر والجاه في الدنيا[2]، وقد أخطأ المنافقون الهدف، لجهلهم وعدم فقههم، ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾، وجعل الله العزة للمؤمنين أيضاً، لأنهم يعتزّون به، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، فالعزة كلها له وحده لا شريك له ؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]. والمقصود من هذا تهييج القلوب على طلب العزة من الله سبحانه، والإقبال على عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النُّصرة في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد [3]. إن العزة في العبودية لله والتحرر عن العبودية لغيره ؛ وإنها لعبودية لله كلها استعلاء وعزّة وانطلاق، وإمّا عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال [4].

وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن، فخاطب الله جميع من أظهر الإيمان من مُحِقٍّ ومنافق ؛ لأنه إذا أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل أوامر كتاب الله [5]:

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٥).

(٢) العزّة : الغَلَبة، والشدة، والقوة، ومنه : الأرض العَزَاز، أي الصلبة، ومنه عزَّني ؛ إذا غلبني بشدته. انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٥)، وتفسير بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٧٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٦).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٣٨).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤١٧).

مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

ما نَزَّلَه الله في القرآن على رسوله في مكة هو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٨]. كان المشركون يخوضون في مجالسهم في ذكر القرآن ويستهزئون به، فأنزل الله هذه الآية، وأمر المؤمنين بالإعراض عن المشركين، والبعد عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، ولمّا فعل أحبار اليهود ما فعله المشركون من الاستهزاء والكفر بآيات الله، وكان المنافقون يقعدون معهم، ويوافقونهم على هذا الكلام، فنهى الله المؤمنين أن يفعلوا فعل المنافقين، بل إن المنافقين إذا خاضوا في النيل من القرآن، أو من الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأننا إذا جالسناهم من غير أن ننكر عليهم الذي هم فيه، فقد أقررناهم على ذلك، وشاركناهم فيه، ومن شارك الكافرين في كفرهم فقد استحقّ أن يشركه الله معهم في نار جهنم أبداً، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال، والقيود والأغلال.

وهذا يدلّ على أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر يراه وخالط أهله، وإن لم يباشر، كان في الإثم بمنزلة المباشر، بدليل أنه تعالى ذكر لفظة « المثل » ههنا. هذا إذا كان الجالس راضياً بذلك الجلوس، أمّا إذا كان مكرهاً، أو خائفاً من ظلم لا يطيقه، فالأمر ليس كذلك ؛ والفرق أن المنافقين كانوا يجالسون اليهود مع الاختيار، والمسلمين كانوا يجالسون الكفار عند الضرورة [١].

ثم يبين الله سمات المنافقين، فيرسم لهم صورة زريّة منفرة، تبدأ بتقرير ما يكنّه المنافقون للجماعة المسلمة من الشرّ، وما يتربصون بها من الدوائر [٢]:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي (٣/ ٣٣٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٤٠).

نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾.

إن المنافقين يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى: أنهم ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفرة عليهم، وذهاب ملّتهم. ولكنهم لنفاقهم، إن رأوا نصراً وتأييداً من الله للمسلمين، يتوددون إليهم، ويدّعون أن لهم فيه نصيب، بحكم ما يُظهرونه من الإيمان [1]. وإن كان للكافرين إدالة على المؤمنين، كما يقع في بعض الأحيان، ابتلاء للرسل وللمؤمنين، ثم تكون العاقبة لهم، يقول المنافقون للكافرين: ﴿ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: لقد ساعدناكم في الباطن، وما ألونا المؤمنين خبالاً وتخذيلاً، حتى انتصرتم عليهم [2]. إنهم يصانعون المؤمنين إن كانت لهم غلبة، ويصانعون الكافرين إن كانت لهم غلبة ؛ ليحظوا عند الجميع، ويأمنوا الجميع ؛ وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلّة يقينهم. ثم هددهم سبحانه بحكمه الحق يوم القيامة، وهو الذي يعلم ما في الصدور ؛ وعليهم أن لا يغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليهم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما لله في ذلك من الحكمة ؛ فيوم القيامة لا تنفع الظواهر، ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [3].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [4]، ذهب كثير من المفسرين إلى أن المقصود بهذا النص يوم القيامة، حيث لا يكون للكافرين على المسلمين سبيل وحجة وضعّف هذا ابن العربي. وذهب البعض إلى أنّ ذلك في الدنيا [5].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٦).

(٢) يقال: استحوذ على كذا : أي غلب عليه، ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [المجادلة : ١٩]. وقيل : أصل الاستحواذ الحَوْط ؛ حاذه يحوذه حوذاً إذا حاطه. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤١٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥/ ٥٦٧).

(٤) السبيل : الحجة والغلبة. انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٧).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤١٩).

إنه وعد من الله قاطع، وحكم من الله جامع: أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين ؛ وتمثّلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة، ونظاماً للحكم، وتجرداً لله في كل خاطرة وحركة، وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة ؛ فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً.

وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها ! وما من شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين، ولم تلحق بهم في تاريخهم، إلا وهناك ثغرة ؛ إمّا في الشعور، وإمّا في العمل. وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية، ثم يعود النصر للمؤمنين، حين يعودون مؤمنين مسلمين.

ففي « أحد » مثلاً كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ، وفي الطمع في الغنيمة، وهي عرض دنيويّ ؛ وقد أعطى الله المؤمنين درساً عملياً في ذلك: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وفي « حنين » كانت الثغرة في الاغترار بالكثرة، والإعجاب بها، ونسيان السند الأصيل، وهو الله سبحانه: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. وأعطانا الله سبحانه درساً عملياً أيضاً من غزوة حنين: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦] ؛ ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلّف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذه الثغرات نعرف هذه الثغرة أو الثغرات، أوْ لا نعرفها. أمّا وعد الله فهو حق في كل حين.

كذلك حين يقرر النص القرآني: أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً؛ فإنما يشير

إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر، والفكرة المؤمنة هي التي تسود، وإنما يدعو الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصوراً وشعوراً، وفي حياتها واقعاً وعملاً [١].

ونستطيع أن نقول إن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً ؛ في الدنيا، ويوم القيامة[٢]. فيوم القيامة الأمر ظاهر، إذ الحكم لله الحق. وفي الدنيا؛ فقد ينال الكافرون من المؤمنين أحياناً نظراً لتقصير المؤمنين كما ذكرتُ، ابتلاء من الله لهم ليصلحوا أمرهم ويثوبوا إلى ربهم، ولكن لن يجعل الله للكافرين سبيلاً يمحو به دولة المؤمنين ويُذهب آثارهم ويستبيح بيضتهم، كما جاء في حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأُعطيت الكنزين ؛ الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يُهلكها بسَنَة عامةٍ، وأن لا يُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدّ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسَنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سِوَى أنفسِهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، أو قال: من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً» [٣]. فلن يسلط الله الكافرين على المؤمنين استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض المسلمين، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١]. وعلى هذا فيكون ردّاً على المنافقين فيما أمّلوه ورجوه وانتظروه، من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفاً على أنفسهم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٤١-٢٤٢).

(٢) ورجح ذلك الألوسي في تفسيره روح المعاني (٢/ ١٩٩).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩)، والترمذي (٢١٧٦)، وغيرهما. وقوله ﷺ: «زوى»، أي جمع، والمراد بالكنزين: الذهب والفضة، والمراد كنزي كسرى وقيصر ؛ العراق والشام. «يستبيح بيضتهم»: جماعتهم وأصلهم. والسَّنة العامّة: القحط، بل يكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٤١-٢٤٢).

منهم، إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة: ٥٢] [١].

ثم يمضي السياق فيرسم صوراً زرية أخرى للمنافقين، مصحوبة بالتهوين من شأنهم:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾.

قد تقدم في أول سورة البقرة: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [٩]، وقال ههنا: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾، ولا شك أن الله لا يُخادَع، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم بالله، وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمْرَهم كما راج على الناس، وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأنّ أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المجادلة: ١٨]. وقوله: ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾، أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويخذلهم عن الحق، والوصول إليه في الدنيا، وكذلك يوم القيامة هم مجزيّون على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد: ١٣-١٥]، وقال رسول الله ﷺ: « من سَمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به » [٢].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٧)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤١٩-٤٢٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٦).

ثم بين الله عز وجل صفة أخرى من صفات المنافقين. وكيف أنهم إذا عملوا أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة. قاموا إليها وهم كُسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية فيها ؛ لأنهم لا يعقلون معناها. وهذه صفة ظواهرهم في أدائها، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾[التوبة: ٥٤]. ثم ذكر الله صفة بواطنهم الفاسدة فقال: ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾، فلا إخلاص لهم، ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلّفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرَون فيها غالباً، كصلاة العشاء وقت صلاة العتمة، وصلاة الصبح في وقت الغلس، كما قال رسول الله ﷺ: « إنّ أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأُحَرِّقَ عليهم بيوتهم بالنار »[1].

ومن كان هذا حاله فلن يخشع في صلاته: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، فلا يتذكرون الله، إنما يتذكرون الناس، وهم لا يتوجهون إلى الله، إنما يتوجهون إلى الناس ؛ فلا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعمّا يُراد بهم من الخير معرضون. قال رسول الله ﷺ: « تلك صلاة المنافق ؛ يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً »[2].

ثم زادنا الله بصيرة في شأن المنافقين، فقال: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾، فوصفهم بالحيرة والتردد بين الإيمان والكفر، والمؤمنين والكافرين. فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا هم مع الكافرين ظاهراً وباطناً. بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتريه الشك ؛ فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك. وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لهذا التردد فقال: « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة،

(١) رواه البخاري (٦٥١)، ومسلم (٦٥٧) واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (٦٢٢) وغيره.

وإلى هذه مرة »[١].

وهذا حال من أضلّه الله، وصرفه عن طريق الحق، فلا هادي له إلى الطريق الواضح، ولا منقذ له مما هو فيه، ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وبعد أن اتضحت حال المنافقين، وأن أساس نفاقهم هو موالاتهم الكافرين، نهى الله عباده عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ؛ وبيّن جزاء المنافقين الرهيب، مع التوجيه إلى التوبة وإخلاص الإيمان:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ؛ وهو نهي عن مصاحبتهم، ومصادقتهم، ومناصحتهم، وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم[٢]. ثم يحذر الله الذين يفعلون ذلك بأنهم قد جعلوا الحجة قائمة عليهم من الله في استحقاقهم عقاب الله. وكل «سلطان» في القرآن حجة، كما قال ابن عباس وتلاميذه، وغيرهم. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨٤)، وزاد النسائي (٥٠٣٧)، وأحمد (٥٠٥٩) : « لا تدري أيها تتبع ».

(٢) الولاء والتوالي : أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبةُ، ومن حيث الدينُ، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولاية والنصرة. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٥٣٣.

[آل عمران: ٢٨] [(١)].

ثم بين الله عقاب المنافقين، فأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار، ولا ناصر لهم يخرجهم من أليم العذاب. والنار دَرَكات، كما أن الجنة درجات. وأعلى طبقات النار هي جهنم. فالمنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر هم في أسفل طبقة من النار ؛ لأنهم أسوأ غوائل من الكفار، وأشد تمكناً من أذى المسلمين. وروي عن أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم قالوا: المنافقون في الدرك الأسفل من النار، في توابيت من النار تقفل عليهم.

ثم استثنى الله عز وجل التائبين من المنافقين، وذكر شروط التائب ؛ وهي أن يصلح قوله وفعله، ويعتصم بالله ؛ فيجعله منعته وملجأه، ويخلص دينه لله تعالى؛ فيبدّل الرياء بالإخلاص [(٢)]. ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ من كان هذا حاله فهو في زمرة المؤمنين يوم القيامة، ينال ما نال المؤمنين من الأجر العظيم، وهو الجنة ؛ ﴿ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾.

ثم أخبر تعالى عن غِناه عن خلقه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم، وأنه سبحانه مُنزّه عن أن يعذب من أصلح العمل وآمن بالله ورسوله ؛ فهو سبحانه يشكر من شكر له، ومن آمن قلبه علمه الله، وجازاه على ذلك أوفر الجزاء: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [(٣)]، وفي قوله تعالى ﴿ عَلِيمًا ﴾: تحذير وندب إلى الإخلاص [(٤)].

في هذا السياق الذي علمنا فيه الله عز وجل أنه منزّه عن مقابلة الشكر والإيمان بالعذاب، وأنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب، يؤدبنا سبحانه أدباً فيه تطهير النفس والمجتمع، وإشاعة الثقة في جوّ الجماعة المسلمة، باستبعاد قالة السوء فيها، مع الانتصاف من الظلم، والحضّ على العفو والسماحة:

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٧٠).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٧٠).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٩).

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾.

لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء [١]، إلاّ من ظُلِم، فلا يُكره له الجهر به.

وجهر المظلوم بالسوء أن يدعو على من ظلمه، وقيل: أن يذكر ما فعل به من الظلم وقيل: أن يردّ عليه بمثل مظلمته، إن كان شتمه [٢].

إن الجهر بالسوء يبدأ في أوّل الأمر اتهامات فردية - سباً وقذفاً - وينتهي انحلالاً اجتماعياً وفوضى أخلاقية ؛ تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض أفراداً وجماعات، وتنعدم فيها الثقة بين بعض الناس وبعض ؛ وقد شاعت الاتهامات، ولاكتها الألسنة بلا تحرج.

لذلك كله حرَّم الله إشاعة قالة السوء في المجتمع المسلم. وقصر حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم؛ يدفعه بكلمة السوء يصف بها الظالم، في حدود ما يقع عليه منه من الظلم. ويُعتبر هذا رداً لسوء بذاته، قد وقع بالفعل على إنسان بذاته ؛ وتشهيراً بالظلم والظالم في المجتمع، لينتصف المجتمع للمظلوم، وليضرب على يد الظالم؛ وليخش الظالم عاقبة فعله فيتردد في تكراره. عندئذ يكون الخير الذي يتحقق بهذا الجهر مبرراً له، ويكون تحقيق العدل والنصفة هو الهدف لا مطلق التشهير [٣]. قال النبي ﷺ: «ليّ الواجد يُحِلّ عِرْضه وعقوبته» [٤]. وعن عائشة رضي الله عنها أنها

---

(١) الجهر : كشف الشيء وظهوره لحاسة البصر أو حاسة السمع، أما البصر فنحو رأيته جهاراً، قال تعالى: ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ [البقرة : ٥٥]. وأما السمع، فمنه قوله تعالى : ﴿ سواءٌ منكم من أسرّ القول ومن جهر به ﴾ [الرعد : ١٠]، وقوله : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى ﴾ [طه : ٧]. المفردات في غريب القرآن ص ١٠١، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٩).

(٢) انظر التسهيل، ابن جزي الكلبي (١/ ١٦٢)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٣٨).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٠).

(٤) ذكره البخاري تعليقاً في كتاب الاستقراض، باب لصاحب الحق مقال. ورواه النسائي (٤٦٨٩)، وأبو داود (٣٦٢٨)، وابن ماجة (٢٤٢٧)، وإسناده حسن. انظر فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٥٠١-٥٠٢). وفي صحيح مسلم : « مطل الغني ظلم »، واللّيّ : المطل، والواجد : القادر الغني، من الوجد=

سُرِق لها شيء، فجعلت تدعو على السارق، فقال النبي ﷺ: «لا تُسَبِّخي عنه»[(١)].

وآخر الآية: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ تحذير للظالم حتى لا يظلم، وللمظلوم حتى لا يتعدَّى الحد في الانتصار. ونَخْلُص من ذلك أن لا ندعو على أحد إلا إذا ظلمنا، وأن لا نتكلم على أحد إلا إذا ظلمنا.

ثم ندب الله إلى العفو في مثل هذا، ورغب فيه بقوله: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾، والعفو من صفة الله تعالى، مع القدرة على الانتقام؛ لذا فالعفو عن الناس أَجَلُّ ضروب فعل الخير ؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفو، وحيث يتَّجِه حقه[(٢)].

والمقطع يتحدث عن الإيمان الصحيح بالله وكتابه ورسوله ؛ ولا يكون ذلك إلا بتولي الله ورسوله، والذين آمنوا، وعدم تولي الكافرين ؛ أي بتقوى الله والعبودية له، والتحرر من العبودية لغيره، وهذا هو محور السورة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- **قضايا العقيدة:** أهم مقومات التوحيد الصحيح العبودية لله وحده، والتحرر من النفاق والكفر؛ وذلك بترك الولاء للكافرين، والبراءة من كفرهم ومخططاتهم؛ وعدم إلقاء المودة إليهم؛ بإخبارهم بأسرار المسلمين، واطلاعهم على عوراتهم المادية والمعنوية ؛ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال سبحانه: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

= بالضم بمعنى القدرة، انظر فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٥٠٢)، وجامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٦/ ٢).

(١) رواه أبو داود (١٤٩٧، ٤٩٠٩)، قال أبو داود : لا تُسَبِّخي، أي لا تخففي عنه.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ٢٠٧)، (٦/ ٤).



ب- الأحكام الشرعية:

١- يحرم الجلوس مع من يستهزئ بالحق إلا على سبيل الإنكار.

٢- توبة المنافق مقبولة بشروط: هي أن يصلح قوله وفعله، وأن يعتصم بالله، وأن يخلص دينه لله.

٣- لا يجوز للمؤمن أن يقول سوءاً، إلا إذا ظلم، فيدعو على ظالمه، أو يصف الظالم في حدود ما يقع عليه من الظلم. والعفو أفضل.

ج- الأخلاق الإسلامية:

١- الاعتزاز بالله، والتوكل عليه، والثقة به خلق أصيل من أخلاق المسلمين.

٢- من أخلاق المسلم عدم خوضه في أعراض المسلمين، وعدم إيذائهم بلسانه.

٣- من أخلاق المسلم العفو.

د- الجوانب التربوية:

١- تربية المؤمن على الاستقامة، وعدم الذبذبة ؛ ليكون ظاهره كباطنه.

٢- بيان قبول توبة المنافق بشروطها، بعد بيان الجزاء الكبير الأليم في الدرك الأسفل من النار، أسلوب تربوي ليحذر المؤمن من النفاق، وليدفع المنافق إلى الإيمان الصحيح، ويكون في صف المؤمنين.

٣- استبعاد قالة السوء من أفراد المجتمع المسلم، مع الانتصاف من الظلم، تطهير للنفس وتطهير للمجتمع، وإشاعة الثقة في جوّ الجماعة المسلمة.

المقطع العاشر: بيان انحرافات أهل الكتاب الاعتقادية والسلوكية، لتوضيح معالم الاعتقاد الحق والإيمان الصحيح (١٥٠-١٦٢):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾.

صلة المقطع بما قبله:

بما أن الله ذكر في المقطع السابق أن المنافقين يتولون الكافرين من أهل الكتاب، واليهود منهم خاصّة، ذكر في هذا المقطع انحرافات اليهود الاعتقادية والسلوكية، ليحذَرهم المؤمنون ويثبتوا على الاعتقاد الحق والسلوك الصحيح.

التفسير الإجمالي:

سبق الحديث في السورة عن الشرك والمشركين، ثم ذكر الله المنافقين، وهنا يذكر الله الكفار من أهل الكتاب ؛ اليهود والنصارى ؛ إذْ كفر اليهود بعيسى عليه السلام، وهم والنصارى كفروا بمحمد ﷺ، ومن كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بالكل ؛ لأن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى الأرض، فمن ردّ نبوة واحد منهم فقد ردّ نبوة الكلّ. وخاصة الإيمان بنبوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ؛ لأنه ما من نبي إلاّ وقد أمر قومه بالإيمان بمحمد ﷺ وبجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ومعنى: ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾، أي بين الإيمان بالله ورسله فنصّ سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر ؛ وإنما كان كفراً، لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم، ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها، وخلقوا لأجلها ؛ فكان كجحد الخالق سبحانه، وجحد الخالق كفر، لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية.

وكذلك التفريق بين رسل الله في الإيمان بهم كفر، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾، كاليهود الذين كفروا بعيسى، والنصارى الذين كفروا بمحمد ﷺ، كما ذكرنا قبل قليل [1].

إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر ليحررهم من العبودية لغيره من المخلوقات ؛ ويقتضي توحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس ؛ وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية. فدين الله للبشر ومنهجه للناس، هو هو لا يتغيّر في أساسه: « تحرير الإنسان من العبودية لغير الله سبحانه »، كما أنه لا يتغير في مصدره [2].

ثم قال سبحانه: ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾، أي يتخذوا بين الإيمان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٢).

والجحد طريقاً، أي ديناً مبتدعاً بين الإسلام واليهودية، أو بين الإسلام والنصرانية [١]، مثل المنادين اليوم بوحدة الإيمان؛ فيقولون إن اليهود مؤمنون بالله، والنصارى مؤمنون، وفرعون مؤمن. والله سبحانه يؤكد كفرهم بتوكيد يزيل التوهم في إيمانهم، فيقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾؛ إن كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به؛ لأنه ليس شرعياً، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه لو نظروا حقّ النظر في نبوته. ويأتي بعد التوكيد الوعيد بالعذاب المذلّ للكافرين عموماً، ويدخل به هؤلاء دخولاً أولياً: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

أما المؤمنون الذين آمنوا بالله، وبكلّ الرسل، فقد أعدّ الله لهم الجزاء الجزيل، والثواب الجليل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾، يعني بذلك أمة محمد ﷺ؛ فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ولذلك ختمت الآية هنا بالمغفرة لذنوبهم، إن كان لبعضهم ذنوب: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [٢].

وبعد تركيز تلك القاعدة الأساسية في العقيدة الإسلامية عن حقيقة الإيمان، وحقيقة الكفر، فيما يتعلق بالرسل والرسالات، يأخذ في استعراض بعض مواقف اليهود في هذا المجال، وفي مجال الجهر بالسوء الذي خُتم به المقطع السابق؛ منددًا بموقفهم من النبي ﷺ ورسالته، وتعنّتهم في طلب الآيات، مع أن معجزاته ﷺ واضحة، وأوها صفاته في كتبهم، وأمرهم بالإيمان به ﷺ. ويقرن بين موقفهم هذا، وما كان لهم من مواقف مع نبيهم موسى عليه السلام ثم مع رسول الله من بعده عيسى عليه السلام وأمه مريم؛ فإذا هم جِبلّة واحدة في أجيالهم المتتابعة. والسياق يوحّد بين الجيل الذي واجه الرسول محمداً ﷺ، والجيل الذي واجه عيسى، والجيل

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٧٢).

الذي واجه موسى كذلك من قبل، ليؤكّد هذا المعنى، ويكشف عن هذه الجبلة [١]:

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾.

سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة. وإنما سألوه هذا على سبيل التعنّت والعناد والكفر، كما سأل كفار قريش من قبلهم نظير ذلك: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]. فبين الله لرسوله ﷺ أن سؤالهم هذا من باب التعنت، لا من باب طلب الدليل، وأن هذه طبيعتهم المتوارثة. فهاهم مع كل ما رأوا من الآيات مع موسى عليه السلام طالبوه أن يريهم الله جهرة، فعوقبوا بالصاعقة، بسبب طغيانهم، وعتوهم وعنادهم، وهذا مفسّر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦]. وعبدوا العجل من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة، والأدلة القاهرة على يد موسى عليه السلام، من فلق البحر، وإهلاك فرعون وجنوده، وغير ذلك. وقصّة اتخاذهم العجل وعفو الله عنهم مبسوطة في سورة الأعراف، وفي سورة طه [٢].

وبسبب نقضهم الميثاق الذي أُخِذَ منهم، وهو العمل بما في التوراة، رفع الله فوقهم الجبل ونهاهم عن العمل يوم السبت، وأمرهم أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً، وأخذ منهم الميثاق الغليظ على الطاعة فعصوا وخالفوا أمر الله. وقد تقدم رفع الجبل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٧٢-٥٧٣).

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤]. وتفصيل أمر الله لهم بدخول بيت المقدس سجداً جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩]. وجاء تفصيل عدوانهم في السبت في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَۙ لَا تَأْتِيهِمْۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦] [١].

هذه طبيعة اليهود. إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم، وغياب القهر لهم تملّصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه، وتبجّحوا فقالوا: إنّ قلوبنا غُلْف ؛ لا تقبل موعظة، ولا يصل إليها قول، وفعلوا كل الأفاعيل الأخرى التي يقصها الله سبحانه على رسوله وعلى المؤمنين [٢]، ليعرفوا كيف يواجهون اليهود، وليأخذوا حذرهم ؛ فلا يقعوا بمثل ما وقعوا فيه:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

إخبار من الله تعالى عن أشياء واقعوها هي الضدّ مما أمروا به ؛ وذلك أن الميثاق الغليظ الذي رفع الطور من أجله نقضوه، ووقعوا فيما أخبر الله عنه في الآيتين السابقتين مما هو استخفاف بأمر الله، وكفر به. وكفروا بآيات الله، أي حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام، حتى انتهوا إلى أعظم حرمة، وهي قتل الأنبياء، وغير

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٧).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٧).



ذلك من الجرائم الكبيرة، التي كل واحدة منها كفر [١]. ففي الكلام مقدر، والجار والمجرور متعلق بمقدر ؛ إذْ حَذْف جواب هذا الكلام بليغٌ متروك مع ذهن السامع، تقديره: لعناهم وأذللناهم، وحتمنا على الموافين منهم الخلود في جهنم [٢] ؛ وقد ذكر الله سبحانه قتلهم الأنبياء في عدد من الآيات، وأشار إلى أن الدافع إلى ذلك هو كفرهم وعبوديتهم لأهوائهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقولهم: قلوبنا غُلْف ؛ أي في غطاء (مغلفة: جمع أغلف) فلا نفقه ما تقول، وهو كقول المشركين: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ [فصلت: ٥]؛ وغرضهم بهذا درء حجة الرسل[٣]، أوتيئيس الرسول ﷺ من إيمانهم واستجابتهم، أو الاستهزاء بتوجيه الدعوة إليهم، والتبجح بالتكذيب وعدم الإصغاء. وربما كان غرضهم كلّ ما ذُكر. وينقطع السياق عند قولهم ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ليكذبهم ويردّ عليهم: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ؛ فهي ليست مغلقة بطبعها ؛ إنما كفرهم جرّ عليهم أن يطبع على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة، مختوم عليها، فلا يدخلها الحق، ولا تستشعر نداوة الإيمان، ولا تتذوق حلاوته فلا يقع منهم إلا قليلاً منهم كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد الله، وغيرهم.

وبعد هذا الاستدراك والتعقيب يعود السياق إلى تعداد الأسباب التي استحقوا عليها ما استحقوا من الذلة والمسكنة، وتحريم الطيبات في الدنيا، ومن إعداد النار وتهيئتها لهم في الآخرة [٤]: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾. قال ابن عباس: إنهم رموها

(١) الباء في قوله : ﴿ فبما نقضهم ﴾ للسببية، و« ما » مزيدة لتوكيد السببية، والإشارة إلى أنّ ما ذكر سبب قوي. انظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٠٩).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٣٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٨).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٧).

بالزنا، وكذلك قال غير واحد من التابعين. وهو ظاهر من الآية؛ أنهم رموها وابنها بالعظائم؛ فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك. زاد بعضهم: وهي حائض[1]. مع أنهم عاينوا المعجزات التي تدل على طهرها، وعلى نبوة عيسى عليه السلام، من كلامه الناس في المهد وغير ذلك.

ثم هم يتبجّحون بأنهم قتلوا المسيح عليه السلام، فيثبت عليهم الجرم، وإن كانوا قد قتلوا غيره[2]: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾.

لقد كان عيسى عليه السلام يسيح في الأرض، ويدعو إلى الله، وكانت بنو إسرائيل تطلبه، وأغروا به ملكهم ليقتله، وزعموا أنهم قتلوه، ولزمهم ذنب هذا الجرم العظيم، من حيث اعتقدوا أن قتلهم وقع في عيسى، فكأنهم قتلوه[3]؛ وقد أوضح الله الأمر وجلاّه، وبيّنه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والدلائل الواضحات فقال سبحانه: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾، أي رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾، يعني بذلك من ادعى قتله من اليهود، ومن سلّم إليهم بذلك من أهل الجهل من النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾، أي وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكّين متوهمين. والحقيقة أن الله رفعه إليه، والله سبحانه عزيز منيع الجناب، لا يصل أحد إلى من أراد الله نصره وحفظه، وهو سبحانه حكيم في جميع ما يقدّره ويقضيه ؛ فهو سبحانه حكيم فيما فعله بعيسى عليه السلام، وسينزله إلى الأرض بعد رفعه إلى السماء، فيكون من أمة محمد ﷺ، ويدعو الناس إلى شريعته ﷺ ودينه، ويؤمن به أهل الكتاب قبل أن يموت كما يموت سائر الناس: ﴿ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٧٣).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٣٣).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٣٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٥٧٤-٥٧٦).

وقد ذكر الله قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام في سورة آل عمران: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾، الآيات إلى قوله: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) ﴾ [آل عمران: ٤٢-٥٥]. وقال ﷺ: « والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مُقْسِطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد »[(١)]، وقال رسول الله ﷺ: « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم »[(٢)].

ثم يعود السياق إلى تعداد مناكر اليهود، وما نالهم عليها من الجزاء في الدنيا والآخرة:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) ﴾.

جعل الله تعالى هذه العقوبة الدنيوية إزاء ظلم بني إسرائيل في تعنّتهم، وسائر أخلاقهم الدميمة. والطيبات ذكرتها الآية الكريمة: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾ [الأنعام: ١٤٦]. ﴿ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾؛ يحتمل أن يريد صدهم في ذاتهم، ويحتمل أن يريد صدهم غيرهم[(٣)]. وقد

---

(١) رواه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥)، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥)، وفي رواية لمسلم: «... فأمّكم منكم». قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمّكم منكم؟ قلت: تخبرني، قال: فأمّكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ. وارجع إلى تفسير القرطبي (٤/ ١٠١).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٣٥).

رجح الطبري رحمه الله (صدهم غيرهم) فقد صدوا عباد الله عن دينه وسبله التي شرحها لعباده صداً كثيراً، وكان صدهم عن سبيل الله بقولهم على الله الباطل، وادعائهم أن ذلك عن الله، وتبديلهم كتاب الله، وتحريف معانيه عن وجوهه ؛ وكان من عظيم ذلك جحودهم نبوة نبينا محمد ﷺ، وكتمانهم ما قد علموا من أمر محمد ﷺ[1]. ﴿ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ لا عن جهل فقد نُهوا عنه فأصرّوا عليه، وأكلهم أموال الناس بالرشا وغيره، من أنواع أكل أموال الناس بالباطل. بسبب هذه المنكرات، وما ذكره الله قبل هذه، حُرمت عليهم طيبات أحلت لهم، وأعد الله للكافرين منهم عذاباً أليماً.

وهكذا تنكشف طبيعة اليهود وتاريخهم المشين، وعدم استجابتهم للرسول ﷺ، وتسقط بذلك وتتهاوى دسائس اليهود في الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم، وتعرف الأمة المسلمة ما ينبغي أن تعرفه في كل حين عن طبيعة اليهود وجِبِلّتِهم، ووسائلهم وطرائقهم، ومدى وقوفهم للحق في ذاته ؛ سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم ؛ فهم أعداء للحق وأهله، وللهدى وحَمَلَتِهِ، في كل أجيالهم وفي كل أزمانهم، مع أصدقائهم ومع أعدائهم.

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق ليقصر على الجماعة الأولى في المدينة ؛ فالقرآن هو كتاب هذه الأمة ما عاشت، فإذا استفتته عن أعدائها أفتاها، وإذا استنصحته في أمرهم نصح لها، وإذا استرشدت به أرشدها. وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها في شأن يهود، فدانت لها رقابهم، ثم لما اتخذته مهجوراً دانت هي لليهود، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة، وهي غافلة عن كتابها «القرآن» شاردة عن هديه، ملقية به وراءها ظهرياً ! متّبعة قول فلان وفلان. وستبقى كذلك غارقة في كيد يهود، وقهر يهود، حتى تثوب إلى القرآن.

ولا يترك السياق الموقف مع اليهود، حتى ينصف القليل المؤمن منهم، ويقرر حسن جزائهم، وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العريق، ويشهد لهم بالإيمان والعلم: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ

(١) جامع البيان، الطبري (٦/ ١٧).

فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾.

فالعلم الراسخ، والإيمان المنير، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله ؛ كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذي جاء من عند الله الواحد.

وذكر العلم الراسخ بوصفه طريقاً إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذي يفتح القلب للنور، لفتة من اللفتات القرآنية التي تصور واقع الحال التي كانت يومذاك، كما تصور واقع النفس البشرية في كل حين. فالعلم السطحي كالكفر الجاحد، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة، ونحن نشهد هذا في كل زمان [(١)].

ومع ذكر إيمانهم بما أنزل إلى محمد ﷺ وما أنزل من قبله، فهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالله واليوم الآخر، وكلها صفات المؤمنين المتقين التي جاءت في أول سورة البقرة.

ونلاحظ قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ جاءت منصوبة، على غير سائر ما عُطفت عليه، وذلك نصب على المدح، لإبراز أهمية الصلاة. وختمت الآية ببيان أجر هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ونظراؤه: ﴿ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [(٢)].

ونلاحظ ارتباط هذا المقطع الذي يتناول انحرافات أهل الكتاب عن الاعتقاد الصحيح بمحور السورة، حيث يظهر من سلوك أهل الكتاب المنحرف حقيقة العبودية لله وطاعته.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- قضايا العقيدة:

١- أساس أركان الإيمان الإيمان بالله رباً معبوداً لا إله سواه، والإيمان برسوله محمد ﷺ،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٢٠-٢١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١٣).



وبالقرآن الذي نزل عليه، وينبني على ذلك الإيمان بما أخبر به القرآن ؛ كالإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر.

٢- يجب الإيمان بكل نبي بعثه الله إلى الناس ؛ فمن ردّ نبوة واحد من الأنبياء فقد ردَّ نبوة الكل، وخاصة نبوة خاتم الأنبياء ﷺ.

٣- التفريق بالإيمان بين الله ورسله كفر ؛ لأن الرسل يبلغون أمر الله وشرعه. وعدم الإيمان بهم تكذيب لشرع الله الذي جاءوا به، وتركٌ لطاعة الله والعبودية له.

ب- **الأحكام الشرعية**: يجوز التعامل المادي مع أهل الكتاب غير المحاربين ؛ لأن المعاملة بالبر والعدل غير الولاء. قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

ج- **الجوانب التربوية**:

١- الكشف عن طبيعة اليهود وتاريخهم، وفضح سلوكهم، وكشف نفوسهم أسلوب من أساليب القرآن لتربية المسلمين، وتعريفهم على عدوهم ليحذروه، ويحذروا عقائده وسلوكه.

٢- من أساليب القرآن مدح العلم وأهله، وبيان أن العلم الراسخ الذي يؤدي إلى الإيمان الصحيح، هو العلم النافع، الذي يكون البحث فيه عن بواطن الأمور، وأهدافها وحكمها. أمّا العلوم الدنيوية البحتة، والانغماس بالمادية، فإنها تؤدي إلى الغفلة عن الحق والبعد عنه، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم: ٧].

المقطع الحادي عشر: الوحي لتحرير الناس لم ينقطع من بداية البشرية إلى بعثة محمد ﷺ (١٦٣-١٧٠):

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾ ﴾.

صلة المقطع بما قبله:

المقطع السابق يتحدث عن انحرافات أهل الكتاب في اعتقادهم بالله وبرسله، ويزعمون أنهم يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض. ويتحدث هذا المقطع عن استمرار الوحي من الله إلى الرسل المتتابعين في البشرية من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ آخر الرسل وخاتمهم. والعاقل الذي يريد الحق قد أُرسل إليه الرسول محمد ﷺ بالحق، فإن آمن به وبالرسل قبله فقد اهتدى إلى طريق الحق، وإن آمن ببعض الرسل وكفر بمحمد ﷺ، فقد كفر بالحق المنزل من عند الله. فالمقطع يبين وحدة الرسالة، ووحدة المصدر.

التفسير الإجمالي:

مما نلاحظه أن المقطع الثامن بدأ بقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ .. ﴾ الآية، وانتهى بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾. وهذا المقطع يبدأ بقوله: ﴿ ۞ إِنَّآ

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾، وينتهي بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ... ﴾ الآية؛ علماً بأن بداية سورة النساء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾.

روى الطبري بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال سُكَيْن وعديّ بن ثابت[1]: يا محمد، ما نعلمُ أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾.

يخبر الله عز وجل في هذا المقطع أنّ إنزال الوحي على محمد ﷺ ليس بدعاً، بل أوحى إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله، فلم ينقطع الوحي من بداية حياة البشر على الأرض، إلى بعثة محمد ﷺ، لتحرير الناس من العبودية للأهواء والطواغيت. وعدد الله سبحانه أسماء بعض من أوحَى إليه من الرسل ؛ فإنزال الكتاب إلى محمد ﷺ ليس بدعاً، فقد أنزل سبحانه كتباً من قبل، منها الزبور الذي أنزله على داود ﵇.

والرسل كثيرون، منهم من قصَّ الله على رسوله قصصهم، ومنهم من لم يقصص. والأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن خمسة وعشرون نبياً، وهم: آدم، وإدريس ونوح، وهود وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى وعيسى. وكذا ذو الكفل، عند كثير من المفسرين، وآخرهم سيدهم وسيدنا محمد ﷺ. وهناك خلق آخرون من الأنبياء لم يذكروا في القرآن، وعددهم أكثر من ألف. قال رسول الله ﷺ: « إني خاتم ألف نبي أو أكثر، وما بُعِثَ نبي يتبع إلا وقد حذّر أمته الدجال، وإني قد بُيِّن لي في أمره ما لم يُبَيَّنْ لأحد، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وعينه اليمنى عوراء جاحظة، ولا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصّص، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري، معه من كل لسان، ومعه صورة

---

(١) عند القرطبي (٦/ ١٥) : قوم من اليهود، منهم سُكيْن وعدي بن زيد، وكذا عند ابن كثير (١/ ٥٨٥)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٢/ ١٣٦) : عدي بن زيد.

الجنة خضراء يجري فيها الماء، وصورة النار سوداء تدخن »[1].

وأخبر الله سبحانه أن من الوحي ما كان كلاماً من الله، كما كان ذلك لموسى عليه السلام، وهذا تشريف له بهذه الصفة، ولهذا يقال له: الكليم.

ثم بين الله الحكمة من إرسال الرسل، وهي التبشير والإنذار ؛ فيبشرون من أطاع الله واتّبع رضوانه، وتحرر عن العبودية لغيره بالخيرات، وينذرون من خالف أمره، وكذب رسله بالعقاب والعذاب.

وقد أنزل الله كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبيّن سبحانه ما يحبه ويرضاه، مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر ؛ فلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾، فهو سبحانه عزيز في العقاب على من أنكر الحق، حكيم في بعث الرسل لتحرير الناس من الذل والعبودية لغير الله تعالى. وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه: ١٣٤]. وقال رسول الله ﷺ: « لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين »[2].

وفي قوله سبحانه: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾، إشعار برحمة الله للعباد، فلا حجة لأحد على الله ؛ ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام:

(١) رواه الإمام أحمد (١١٣٤٣). قال ابن كثير : رواية الإمام أحمد أثبت وأولى بالصحة، وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « إني لخاتم ألف نبي أو أكثر، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال، وإني قد بين لي ما لم يبين لأحد منهم، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور ». تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٧).

(٢) رواه البخاري (٢٤١٦)، ومسلم (٢٧٦٠، ١٤٩٩)، وفي رواية : « من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه ». انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٨).

١٤٩]، فقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق. ولكنه سبحانه، رحمة منه بعباده، وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم - أداة العقل - اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ يذكرونهم ويبصّرونهم، ويحاولون استنقاذ فطرهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها، أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق. ودور العقل أن يتلقى عن الرسالة، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول، ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام، وينبّه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق، وأن يرسم للعقل - أيضاً - منهج التلقي الصحيح، ومنهج النظر الصحيح، القائم على الأدلة والحجج، وأن يقيم له القاعدة التي ينهض عليها منهج الحياة العملية، المؤدي إلى خير الدنيا والآخرة [١].

ثم يأتي الاستدراك عن مفهوم ما قبله ؛ كأنهم لما سألوه ﷺ إنزال كتاب من السماء، وتعنتوا وردّ عليهم بقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ ﴾، قيل: إنهم لا يشهدون، أو واقع حالهم أنهم لا يشهدون لكن الله يشهد. وحاصل ذلك: إن لم تلزمهم الحجة، ويشهدون لك، فالله يشهد [٢]:

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦ ﴾.

روي في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من يهود، فقال لهم: إني والله أعلم أنكم لتعلمون أني رسول الله، فقالوا: ما نعلم ذلك فأنزل الله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٢٣-٢٤).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢١٧).



بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾[١].

في هذه الآية تسلية للنبي ﷺ، مع إثبات نبوته، والردّ على من أنكرها ؛ أي وإن كفر بك مَنْ كفر يا محمد ممّن كذبك وخالفك، من أهل الكتاب وغيرهم، فالله يشهد أنك رسوله الذي أنزل عليك الكتاب، وهو القرآن، الذي أنزله الله بعلمه ؛ ممّا أراد الله أن يطلع العباد عليه، بمشيئته سبحانه، وحكمته فيما يحقق مصالحهم، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ؛ والدليل أنه أنزله بعلمه ما فيه من أمور لا يمكن أن تكون إلا عن علم الله ؛ من ذكر للبينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وغير ذلك من أوجه الإعجاز في القرآن التي تشهد على صدق نبوة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، ويضاف إلى ذلك ما في القرآن من ذكر لصفاته تعالى المقدسة، التي لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا أن يُعلمه الله بها [٢].

إن في هذا القرآن من العلوم الكونية، والتشريعية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والحقوق العامة والخاصة وغيرها، ما لا يمكن أن يكون إلا من عند رب العالمين، وكفى بذلك معجزة لمحمد ﷺ. فشهادة الله بما أنزله إليه، إثباته لصحته بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعاوى بالبينات ؛ إذْ الحكيم لا يؤيّد الكاذب بالمعجزة.

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ أيضاً بما شهد له الله سبحانه. وقد جعل بعضهم شهادة الملائكة على صدقه ﷺ في دعواه بإتيانهم لإعانته ﷺ في القتال ظاهرين، كما كان في غزوة بدر وغيرها[٣].

وعندئذ يجيء التهديد الرعيب للمنكرين في موضعه، بعد شهادة الله - سبحانه - وشهادة الملائكة بكذبهم وتعنتهم والتوائهم [٤]:

(١) رواه ابن جرير عن ابن عباس من طريق محمد بن إسحاق، وهو إسناد حسن. جامع البيان الطبري (٦/ ٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٩).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢١٨).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٣٤).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾.

إن الذين كفروا بالله وآياته ورسله، بعد أن تأكدت رسالة الرسول، بشهادة الله، وتأييده بالمعجزات، ولم يكتفوا بعدم اتباع الحق، بل سعوا في صد الناس عن اتباعه، إن هؤلاء قد خرجوا عن الحق، وضلوا عنه، وبعدوا بعداً عظيماً شاسعاً[1].

كل من ينطبق عليهم وصف الكفر والصد عن طريق الهدى والحق قد ضلوا ضلالاً بعيداً ؛ ضلوا عن هدى الله، وضلوا طريقهم في الحياة ؛ فضلوا فكراً وتصوراً واعتقاداً، وضلوا سلوكاً ومجتمعاً وأوضاعاً. ضلوا في الدنيا وضلوا في الآخرة، ضلالاً لا يُرتجى معه هدى؛ ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾.

ويعيد السياق وصفهم بالكفر، ليضم إليه الظلم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ ﴾.

والكفر في ذاته ظلم. إنه ظلم للحق، وظلم للنفس، وظلم للناس. والقرآن يعبر عن الكفر والشرك بأنه الظلم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]، بعد أن قرر في الآية السابقة على هذه أنهم الكافرون: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وهؤلاء لم يرتكبوا ظلم الكفر والشرك وحده، ولكن ارتكبوا معه ظلم الصدّ عن سبيل الله أيضاً، فأمعنوا في الكفر، أو أمعنوا في الظلم، ومن ثم يقرر الله بعدله جزاءهم الأخير: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾[2].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ وذلك لعدم استعدادهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٩).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٣٤).



للهداية إلى الحق، والأعمال الصالحة التي هي طريق الجنة [١]، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾ [الصف: ٥].

إن هذه الأوصاف وهذه التقريرات، مع كونها عامة لكل من كفر وصد عن سبيل الله تنطبق أول ما تنطبق على حال اليهود، وتصور موقفهم عن هذا الدين وأهله؛ بل من الدين الحق كله، سواء منهم الذين عاصروا فجر الدعوة في المدينة، ومن سبقوهم منذ أيام موسى عليه السلام، ومن جاءوا بعدهم إلى يومنا هذا؛ إلا القلّة النادرة من الذين فتحوا قلوبهم للهدى فهداهم الله[٢].

وبعد وضوح الحجة، وظهور هذه الحقائق يأتي النداء إلى الناس جميعاً:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠ ﴾.

يا أيها الناس قد جاءكم محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، والبيان الشافي، المؤيّد بالدليل من الله عز وجل، فآمنوا بما جاءكم، واتبعوه يكن خيراً لكم. وأما إن كفرتم بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم ؛ ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [٣]، وأنتم خلق ممن خلق في السماوات والأرض ؛ فأنتم في ملكه وتحت تصرفه فلا يضره كفركم، بل تضرون أنفسكم باختيار ما تمليه عليكم شهواتكم، وشياطين الإنس والجن، على ما أنزله العليم الحكيم. والله سبحانه عليم بما يكون من إيمان وكفر، وهو حكيم في تكليفكم بما أنزل على رسوله، مع علمه بما يكون منكم [٤].

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٢٠).

(٢) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٣٤)، وانظر قول الألوسي في تفسيره روح المعاني (٢/ ٢٢٠)، والآية في اليهود على الصحيح، وقيل إنها في المشركين، وما قبلها في اليهود.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٩).

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٢٥٩).



ونعود إلى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ في سورة مدنية، إنها دعوة سبقها دحض مفتريات أهل الكتاب، وكشف جِبلّة اليهود ومناكرهم في تاريخهم كله، وبيان تعنتهم الأصيل، حتى مع موسى نبيهم وقائدهم ومنقذهم من الطغيان والاستعباد. كما سبقها بيان طبيعة الرسالة وغايتها. وهذه الغاية وتلك الطبيعة تقتضيان أن يرسل الله الرسل، وتقتضيان أن يرسل الله محمد ﷺ حتماً ؛ فهو رسول إلى الناس كافّة، بعد ما مضى عهد القوميات ؛ كما قال النبي ﷺ: « وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثت إلى الناس عامة »[(١)]، فلم يكن بدّ من تبليغ عام في ختام الرسالات، يُبلّغ إلى الناس كافة: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ فانقطعت هذه الحجة بالرسالة العامة للناس وللزمان، وكانت هي الرسالة الأخيرة. فإنكار أن هناك رسالة بعد أنبياء بني إسرائيل غير عيسى، أو بعد موسى عليهما السلام، لا يتفق مع عدل الله في أن يأخذ الناس بالعقاب بعد البلاغ[(٢)].

ونلاحظ بوضوح الارتباط بين هذا المقطع ومحور السورة (التوحيد الصحيح) بالعبودية لله وحده، والتحرر عن العبودية لغير الله. حيث يبين المقطع وحدة الوحي، واستمراره من بداية البشرية إلى بعثة محمد ﷺ، لتحرير الناس من العبودية لغير الله تبارك وتعالى.

الهدايات المستنبطة من السورة:

أ - **قضايا العقيدة**: الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله لتحرير البشرية من العبودية لغير الله ومحمد ﷺ آخر الرسل، أرسله الله للناس كافة، وليس بدعاً من الرسل: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف: ٩].

ب- **الجوانب التربوية**: السياق التربوي منصب على تأكيد صحة الوحي، وصدق القرآن ؛ وقد ختم المقطع بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾.

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨)، ومسلم بنحوه (٥٢١)، والنسائي (٤٣٢)، وغيرهم.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٣٥).



المقطع الثاني عشر: الغلو عند أهل الكتاب أخرجهم من الإيمان الصحيح، وأوقعهم في العبودية لغير الله (١٧١-١٧٣):

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣﴾.

صلة المقطع بما قبله:

وضح المقطع السابق وحدة الوحي، ووحدة مصدره، واستمراره لتحرير البشرية وسعادتها، ثم دعا الناس عموماً إلى الإيمان بالحق والرسول، ويأتي هذا المقطع خاصاً بأهل الكتاب يدعوهم إلى الإيمان، والعمل الصالح، وترك ما يتنافى مع توحيد الله والعبودية له.

التفسير الإجمالي:

ينهى الله أهل الكتاب عن الغلو والإطراء[1]، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحدّ في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله، يعبدونه كما يعبدون الله. بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعموا أنهم على دينه، فادعوا فيهم العصمة، واتَّبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً

(١) الغلوّ: الإفراط ومجاوزة الحد، ومنه غلا السعر. زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٢٦٠)، وقد أفرط اليهود في الغلو في حطّ المسيح ﷺ عن منزلته، بعدما رأوا معجزاته، حتى قالوا: إنه ابن زنا، تفسير القرطبي (٦/ ٢١)، والغلو باب واسع، يدخل فيه أشياء كثيرة من قضايا العقائد إلى العبادات إلى غير ذلك.

أو صحيحاً أو كذباً، وهذه هي العبودية لغير الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤][1].

ولابدّ لنا أن نلفت النظر هنا في موضوع الغلو والإطراء للبشر، حتى يصلوا إلى درجة العصمة، فيحلّوا ويحرموا للناس ما لم يأذن به الله ؛ فيُذلّونهم، ويستعبدونهم، وهم يحسبون أنهم يتقربون إلى الله بهذه الطاعة للمعصومين، وهذا متحقق في البابا والأحبار والرهبان، كما وضحت ذلك آية سورة التوبة، التي ذكرت قبل قليل. ويدخل في ذلك ما تفعله بعض الفِرَق الإسلامية عندما تغلوا في مرجعيّاتها الدينية وتوصلها إلى حدّ العصمة لتكون معبودة من دون الله. ويدخل في ذلك بعض الشيوخ الضالين المضلّين، أو المغضوب عليهم، حين يدعون الناس بأسلوب مباشر أو غير مباشر، إلى تقديسهم، وإطرائهم، وطاعتهم طاعة عمياء، كالميت بين يدي الغاسل. وقلت: « بعض الشيوخ الضالين أو المغضوب عليهم » لأنهم إن كانوا يعلمون من دين الحق أن العبادة لله، والإخلاص له، ثم يتجاوزون حدودهم بدعوة الناس إلى تقديسهم وطاعتهم طاعة عمياء، ليصلوا إلى التسلط على الناس، والوصول إلى أهوائهم ومصالحهم فهؤلاء من المغضوب عليهم ؛ لأنهم يعلمون الحق ولا يتبعونه. أما إذا كان الشيوخ جهلة لا يعلمون حقيقة الدين، وحقيقة العبودية لله والتحرر عن العبودية لغيره، ويظنون أنهم بخضوع الناس لهم يجرونهم إلى الصلاة والصيام وطاعة الله... إن كانوا كذلك فهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم. والضال هو الذي لا يعرف الحق ولا يتبعه.

فهذا درس تربوي مهم في عدم الانسياق في تيار العبودية لغير الله سبحانه، عن طريق

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٩).



الغلوّ أو الإطراء. ولذا قال النبي ﷺ: « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله » (١).

وهكذا نهى الله أهل الكتاب عن الغلوّ في دينهم، ثم نهاهم أن يفتروا على الله، وأن يجعلوا له صاحبة أو ولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزّه وتقدس، وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو، ولا ربّ سواه.

وإذ كان من أعظم ما وقع من غلو ما ادعاه النصارى أن المسيح هو الله أو ابن الله –تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً– فقد قرر الله حقيقة المسيح عليه السلام: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾. إن المسيح عليه السلام عبد من عباد الله، وخلق من خلقه، قال له كن فكان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [غافر: ٦٨]. فهو عليه السلام رسول من رسل الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن الله فكان عيسى بأمره عز وجل، ولهذا قيل لعيسى كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل، وليس غريباً في قدرة الله أن يخلق عيسى بكلمة ﴿ كُن ﴾ من غير أب، فقد خلق آدم عليه السلام بلا أب ولا أم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩١] (٢)، وقال النبي ﷺ: « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » (٣).

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥)، وأحمد (١٥٥، ١٦٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٩٠).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣٥).

و« مِنْ » في قوله: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ لابتداء الغاية، وليست تبعيضية. وقد توهّم بعض النصارى أن لهم مستمسكاً من القرآن بالنص أن عيسى منه في هذه الآية ؛ أي جزء منه، فردّ عليهم بعض أهل العلم، وقرأ هذه الآية: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]، فيلزم إذن أن يكون جميع الأشياء جزءاً منه سبحانه وتعالى علواً كبيراً، فانقطعت حجة النصارى. وكذلك خلق آدم عليه السلام، فلا يقول أحد أنه جزء من الله في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢][1].

وبعد أن قرر حقيقة عيسى عليه السلام نهاهم أن يجعلوه وأمه -أو ما يسمونه الروح القدس- مع الله شريكين، فنهاهم عن التثليث بعد أمرهم بالإيمان بالله و(رسله): ﴿ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾. وهذه الدعوة إلى الإيمان بالله ورسله، ومن بينهم عيسى بوصفه رسولاً، ومحمد ﷺ بوصفه خاتم النبيين، والانتهاء من تلك الدعاوى والأساطير تجيء في وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف[2]. وهذا النهي عن التثليث هو نهي لكل فرق النصارى عن ضلالهم في هذا الشأن ؛ لأن فرق النصارى - بعد ما فني أهل التوحيد الخالص منهم - كلها تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاّهوت والناسوت - في زعمهم - هل اتّحدا أو ما اتحدا، أو امتزجا، أو حل فيه، على آراء كثيرة، وكلها كفر، ولا يقرها العقل والمنطق السليم. ولهذا أمرهم سبحانه أن ينتهوا عمّا هم فيه ؛ لأن في هذا الانتهاء الخير لهم. ثم قرر الله سبحانه الوحدانية الصحيحة: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، ونزه ذاته أن يكون له ولد: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾، وذلك لأن كل ما في السماوات والأرض - بما فيهم عيسى وغيره - ملكه وخلقه، وجميع ما فيها عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد، وهو الحافظ والمدبر

(١) انظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٢١-٢٢٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٤٠).

للجميع، كما قال سبحانه: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ ﴾ [الأنعام: ١٠١] [١].

وفي قوله سبحانه: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ إشارة إلى دليل آخر ؛ لأن الوكيل بمعنى الحافظ، فإذا استقلّ سبحانه وتعالى في الحفظ لم يحتج إلى الولد، فإن الولد يعين أباه في حياته ويقوم مقامه بعد وفاته، والله سبحانه منزّه عن كلّ هذا، فلا يُتصور له ولد عقلاً، ويكون افتراؤه حمقاً وجهلاً. ثم يأتي الاستئناف المقرر لما سبق من التنزيه [٢]:

﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣ ﴾.

لن يستكبر ولن يحتشم المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون يستكبرون عن العبودية لله، بل هي فخرهم وشرفهم. وهذا ينفي عن الملائكة صفة الألوهية، كما افتراها بعض أهل الجهل، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]. ثم بين الله عز وجل أنّ من يستكبر عن عبادة الله والتحرر عن العبودية لسواه، فإن الله سيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، الذي لا يجور ولا يحيف؛ وحكمه وجزاؤه ضمن قاعدة هي: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيعطيهم من الأجر والثواب على قدر أعمالهم الصالحة، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه، وسعة رحمته وامتنانه [٣]. وتحتمل أن تكون هذه الزيادة المخبر عنها أن الحسنة بعشر أمثالها، كما في قوله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠ ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ويحتمل أن يكون

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٩١).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٣١).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٩١).

التضعيف سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١][١].

وأما الممتنعون عن طاعة الله وعبادته، المستكبرون عنها، فإن الله يعذبهم عذاباً أليماً؛ لا يحيط به الوصف، ولا يجدون من يلي أمورهم ولا من ينصرهم من بأس الله تعالى وينجيهم من عذابه[٢].

وفي ختام هذا المقطع نرى أنه يطالب أهل الكتاب بتوحيد الله ومعرفته، وترك العبودية لسواه؛ ويكون ذلك بالعمل الصالح بعد الإيمان الصحيح. فدلّ ذلك على أن العبادة مجموعة أمور: معرفة الله بذاته وصفاته، والإيمان به، والعمل الصالح الذي أمر به وشرعه سبحانه وهذا مضمون محور السورة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة:

١ - الدعوة إلى التوحيد: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.

٢ - الدعوة إلى العبادة والعمل الصالح: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾، والعمل يصدق الإيمان.

ب- الجوانب التربوية: عرض حال النصارى، ونهيهم عن الغلو الذي أوقعهم في التثليث والشرك، والترغيب في الإيمان والعمل الصالح مع الترهيب لمن استكبر واستنكف عن الإيمان والطاعة. كل ذلك أساليب تربوية تبين حقيقة التوحيد وتدعو أهل الكتاب إلى الحق، وتُقرّ في قلوب المؤمنين الثبات عليه.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٢/ ١٤٠).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٣٥).



المقطع الثالث عشر: القرآن دليل قاطع وحجة واضحة (١٧٤-١٧٦):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

صلة المقطع بما قبله:

يتناول المقطع السابق دعوة أهل الكتاب إلى التوحيد الصحيح، وترك الشرك والغلو، كما تناولت المقاطع السابقة انحرافات اليهود وتعنّتهم قبل بيان غلو النصارى، وأهل الكتاب عموماً، وتناولت الآيات سابقاً بيان العبودية لله، وأن التوحيد الصحيح لا يكون إلا بالتحرر من النفاق؛ وتحرير النفس والقلب من كل عبودية لغير الله تبارك وتعالى؛ يأتي المقطع الأخير في السورة ليدعو الناس كافة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، كما بدأت السورة بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾. يدعو الله الناس جميعاً إلى الرسالة الأخيرة، التي تحمل برهاناً من الله، وهي نور كاشف للظلمات والشبهات، فمن أطاع الله ورسوله، واستقام على أمره سبحانه سُعِد في الدنيا والآخرة.

التفسير الإجمالي:

يقول الله تعالى مخاطباً جميع الناس، ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم [١]، وهو الدليل القاطع للعذر، والحجة المزيلة للشبهة، وهو القرآن الذي هو الضياء الواضح على الحق كله في كل شؤون الحياة، فهو حق، وفيه برهانه ودليله [٢].

فالقرآن هو معجزة الرسول ﷺ الخالدة الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وإذا

(١) البرهان: الحجة النيّرة الواضحة، التي تعطي اليقين التام. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٤١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٩٢).

كان كثير من الناس ظنوا أن إعجاز القرآن في الجوانب اللغوية فقط، لكثرة الكتابة فيه، فإن أوجه إعجاز القرآن كثيرة، إضافة إلى اللغة والبيان، نذكر منها بإيجاز:

أ - فالقرآن معجز في أساليبه التربوية ؛ من تدرج في الأحكام، وتحرير للنفس البشرية، وترغيب وترهيب، وتشبيه وتمثيل، وغير ذلك من الأساليب التي نقل بها الأفراد والمجتمعات، بل البشرية جميعاً، لا من آمن به فقط، رويداً رويداً ؛ نقلهم من جاهلية جهلاء إلى حضارة إنسانية ومادية فريدة لا مثيل لها. وقلنا « البشرية جميعاً » ؛ لأنه لا يستطيع أحد أن ينكر أثر القرآن والإسلام في الشرق بعد غزو التتار، وأثره في الغرب بعد الحروب الصليبية.

ب- والقرآن معجز في أخباره عن الماضي والمستقبل.

ج- وهو معجز أيضاً، حيث لم يأت فيه شيء لا يقرّه العقل السليم.

د - وهو معجز حين أخبر عن بعض الظواهر الكونية والعلمية، ممّا لم تصل إليه البشرية إلا في القرن العشرين ؛ من ذلك تلقيح الرياح: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[الحجر: ٢٢]، حيث تلقح الرياح السحاب والنبات، ومن ذلك إخباره عن النبات والجيولوجيا، واختلاف الكائنات الحية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]، ومن ذلك إخباره عن خلق الإنسان في ظلمات ثلاث؛ ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وتكوين الجنين نطفة فعلقة فمضغة فعظاماً، ثم كائناً إنسانياً متكاملاً: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. فهل كان محمد ﷺ، وهو أمي متخصصاً في علوم الأجنة، ممّا لم تصل إليه العلوم الحديثة إلا في العصر الحديث. لا شك أن هذا من عند خالق الإنسان.

هـ- والقرآن معجز بعلومه الشاملة لكل جوانب السلوك الإنساني في هذه الحياة، وبيّنت السنة وفصلت ذلك كله:

١- فقد وضع أسس العلاقات الاجتماعية السليمة.

٢- ووضع أسس الاقتصاد والعلاقات المالية؛ فحرم الربا، والغش، والغرر، والرشوة والاحتكار، وكل تصرف ماليّ يؤدي إلى تكدّس الثروة بأيدي جماعة قليلة في المجتمع، ولذلك فتت الثروات بالإرث الذي يتوافق مع فطرة الإنسان وحقق النمو الاقتصادي المتوازن: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]. وحلّ القرآن مشكلة الفقر بسنوات قليلة، وعجز العالم عن حلها.

٣- ووضع القرآن القواعد والأسس للحقوق المدنية، وبنى قواعد الالتزام على العدل والسماحة.

٤- ووضع القواعد والأسس للحقوق الدولية. ولقد قامت عصبة الأمم المتحدة قبل هيئة الأمم المتحدة على المبادئ الفقهية التي ترجمها أعضاء جمعية الشيباني للحقوق الدولية، من كتاب السير (الجهاد) في الجامع الصغير للإمام محمد بن الحسن الشيباني أحد تلاميذ أبي حنيفة النعمان رحمه الله. ولكن - مع الأسف - انحرفت المؤسسات الدولية عن العدالة الإسلامية في السلم والحرب، إلى سياسة المصالح، والتسلط من الدول العظمى، كما وضحنا ذلك سابقاً.

فمن أين لإنسان أمي أن يأتي بهذه العلوم، التي تُخرج الناس من الظلمات إلى النور، وترسم للإنسانية طريق السعادة، وقد عجزت البشرية كلها - بمجالسها النيابية والشعبية، وبعلومها المادية والإنسانية، وبتعاون أممها وشعوبها، وتبادل خبراتها - أن تصل إلى تحقيق العدل والخير في بعض ما وصلت إليه العلوم والمعارف التي جاء بها القرآن ؛ بعد أن تخبطت البشرية طويلاً:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصّلت: ٥٣].

ولا نريد أن نطيل في موضوع الإعجاز، ولكن لابدّ لنا من هذه الإشارات، حتى نعلم أن القرآن نفسه حجة وبرهان للناس جميعاً على أنه حق، أنزله الله سبحانه لإسعاد البشرية ونقلها من ظلمات المصالح الخاصة والشهوات، وتضليل شياطين الإنس والجن إلى طريق النور والسعادة الأبدية، في الدنيا والآخرة ؛ فهو الحق، وهو برهان ودليل على الحق.

وهذا القرآن الذي هو البرهان والحجة هو النور المبين الذي تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة، ففيه العقائد والشرائع، والأحكام والمواعظ، التي تفرق بين الحق والباطل في داخل النفس، وفي السلوك، وفي الحياة، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦][1].

وإذا جاء البرهان والبيان، فلابدّ من الإيمان لمن يدرك البرهان، ويعي بقلبه النور المبين. ومن استنكف تعنتاً واستكبر عن الحق بعد بيانه، فقد ذكره السياق قبل قليل في قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾، وهنا يذكر في الختام من استنار بالنور وآمن بالحق: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾، الذين

---

(١) اتفق علماء التفسير على أن النور المبين هو القرآن، وقال بعضهم عن البرهان والحجة : إنها محمد ﷺ وقال بعضهم : إشارة إلى محمد ﷺ، والمعنى ؛ قد جاءكم مقترناً بمحمد برهان من الله تعالى على صحة ما يدعوكم إليه. انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٤١)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٧)، وروح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٣٥).

آمنوا بالله حسبما يوجبه البرهان الذي جاءهم. آمنوا بالله رباً خالقاً مالكاً متصرفاً في ملكه لا معبود سواه، واعتصموا به سبحانه، فاستمسكوا بدينه وعصموا أنفسهم بالله من زيغ الشيطان(١) ؛ والاعتصام بالله ثمرة الإيمان الصحيح، فمتى عرفت النفس حقيقة الله بصفاته، وعرفت حقيقة عبودية الكل له، فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده، وتثق به وتتوكل عليه ؛ لأنه وحده صاحب السلطان والقدرة. وهؤلاء يدخلهم الله في رحمة منه وفضل. رحمة في هذه الحياة الدنيا – قبل الحياة الأخرى – وفضل في هذه العاجلة – قبل الفضل في الآجلة – فالإيمان هو الواحة الندية التي تجد فيها الروح الظلال من هاجرة الضلال في تيه الحيرة والقلق والشرود. كما أنه هو القاعدة التي تقوم عليها حياة المجتمع ونظامه في كرامة وحرية واستقامة، حيث يعرف كل إنسان مكانه على حقيقته: « عبدٌ لله وسيد مع كل من عداه »، وليس هذا في نظام غير نظام الإيمان كما جاء به الإسلام، وهذا كله رحمة وفضل من الله في الدنيا قبل الآخرة، وما في الآخرة خير وأبقى (٢).

إن الله وعد المؤمنين المعتصمين بالله بأمور ثلاثة: الرحمة، والفضل، والهداية. فالرحمة الجنة، والفضل ما يتفضل به عليهم، ممّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والهداية إلى الصراط المستقيم هي الهداية إلى الدين القويم، الذي يكون باتباعه سعادة الدنيا، وهو الطريق إلى الجنة (٣).

وتقديم ذكر الوعد بالإدخال في الرحمة، والثواب الجزيل على الوعد بهذه الهداية إلى الصراط المستقيم، للمسارعة إلى التبشير بما هو المقصد الأصلي (٤) ؛ ففي الكلام تقديم وتأخير كأنه يقول: يهديهم في الدنيا صراطاً مستقيماً، يعني ديناً لا عوج فيه، ويثيبهم على ذلك، ويدخلهم

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٣٥)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٢٦٤).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٤٨).

(٣) التفسير الكبير، محمد الرازي (٣/ ٣٥٠).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٣٦).

في الآخرة في رحمة منه وفضل [(١)].

وبمناسبة كون هذا القرآن نوراً وضياءً، فقد ختمت السورة بجواب استفتاء في قضية من قضايا الإرث، ليعلم أن التوحيد الصحيح يكون في طاعة الله في كل شأن، والاستسلام لحكمة في كل قضية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾

وقد روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمي عليّ، فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صبّ عليّ من وضوئه فأفقت، فقلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي ؟ فلم يردّ عليّ شيئاً حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [(٢)].

وقد ورد شطر من أحكام الكلالة في أول السورة، وهو الشطر المتعلق بإرث الكلالة من جهة الرحم، حين لا توجد عَصَبة، ونصه هناك: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [(٣)].

فالآن يستكمل الشطر الآخر في وراثة الكلالة، وهو من يموت وليس له والد ولا ولد، والمراد بالأخوة هنا الإخوة للأب والأم، أو للأب، فإن كان للميت أخت فلها نصف التركة، وإن كان له أختان فلهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما. وإن ماتت المرأة كلالة ولها أخ فإنه يرثها بالتعصيب، وإذا كان الورثة للكلالة إخوة ذكوراً ونساءً فيكون الجميع عصبة، ويُعطى الذكر مثل حظ الأنثيين. ثم يبيّن الله حكمته في هذا البيان فيقول: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

---

(١) تفسير بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٨٦).

(٢) رواه مسلم (١٦١٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٨).

﴿أَن تَضِلُّواْ﴾، أي يوضح لكم فرائضه، ويحدّ لكم حدوده، ويوضح شرائعه، لئلا تضلوا عن الحق. ثم يختم الله سبحانه الآية والسورة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾، فهو سبحانه عالم بعواقب الأمور ومصالح العباد(١).

وهكذا تختم السورة التي بدأت بالأمر بتقوى الله، والتقوى: عبادة الله وحده وترك الشرك. والله الذي يجب على الناس أن يعبدوه وحده هو الذي خلقهم من آدم وحواء، أول أسرة خلقها الله، ثم تحدثت السورة عن علاقات الأسرة، وذكرت كثيراً من تنظيماتها الاجتماعية والحقوقية، وختمت السورة بتكملة أحكام الكلالة.

الهدايات المستنبطة:

أ - قضايا العقيدة: الإيمان بالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ مبني على القناعة والبرهان.

ب- الأحكام الفقهية: إتمام أحكام الكلالة من الإخوة والأخوات لأب وأم، أو لأب فقط.

ج- الجوانب التربوية: إذا تراكم الصدأ على فطرة الإنسان، فلا بدّ من تكرار الأساليب التربوية، وتنوّعها لجلاء الفطرة، وإنقاذ العقل من الانسياق وراء المألوف إذا كان غير صحيح، وتحريره من سلطان الشهوات؛ لذلك كرر القرآن الدعوة إلى استعمال العقل كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، وغيرها من الآيات كثير كثير. وأحياناً يأتي القرآن بأسلوب التحدي ليثبت الإعجاز ويقيم الحجة، وأحياناً يشير إلى الحجة والبرهان مع أسلوب الترغيب والترهيب كما في هذا المقطع الذي ختمت به السورة.

---

(١) بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٨٧)، وفي ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٤٩).

سورة المائدة

بين يدي السورة:

(أ) أسماؤها:

١ - تسمى سورة المائدة لورود قصة المائدة فيها. ولما رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو (آخر سورة أنزلت المائدة)[1] ولما رواه الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد (... أنزلت عليه المائدة...)[2].

٢ - تسمى سورة العقود لورود هذا اللفظ في أولها ولما فيها من عقود.

٣ - تسمى المنقذة. لقوله ﷺ (سورة المائدة تدعى في ملكوت السموات المنقذة لأنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب)[3].

(ب) فضائل السورة:

١ - عن عبد الله بن عمرو قال: (نزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته. فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها)[4].

٢ - عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لآخذة بزمام العضباء - ناقة رسول الله ﷺ - إذ أنزلت عليه المائدة كلها فكادت - من ثقلها - تدق بعضد الناقة)[5].

(ج) مدنية: بالإجماع لأنها نزلت بعد الهجرة.

---

(١) الترمذي ج٥/ ٢٦.
(٢) مسند الإمام أحمد ج٤٥/ ٥٥٧.
(٣) التفسير المنير ج٦/ ٦٠.
(٤) مسند الإمام أحمد ١١/ ٢١٨.
(٥) مسند الإمام أحمد ج٤٥/ ٥٥٧.

(د) عدد آيات السورة:

١ - مائة وعشرون آية عند القراء الكوفيين كالطبري والنسفي والبغوي وغيرهم.

٢ - مائة وثنتان وعشرون آية عند الحجازيين والشاميين.

٣ - مائة وثلاث وعشرون آية عند البصريين. والخلاف بينهم في فاصلتين فقط[١].

(هـ) مرحلة نزولها:

١ - في روايات كثيرة أنها نزلت بعد سورة الفتح التي نزلت بعد صلح الحديبية في شهر شوال سنة (٦ هـ)[٢].

٢ - في رواية أنها نزلت جملة واحدة ما عدا آية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ في مسير رسول الله ﷺ في حجة الوداع[٣].

٣ - يورد الشهيد سيد قطب تحليلا منطقيا لهذين الرأيين نوجزه فيما يلي:

* محادثة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة والتي وردت في السورة كانت معلومة للمسلمين لاستشهاد سعد بن معاذ بقول بني إسرائيل حين جمع النبي ﷺ المسلمين في ساحة بدر بعد ذهاب العير ومجيء النفير قال: «لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إناهاهنا قاعدون ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون». وغزوة بدر وقعت في رمضان سنة (٢هـ).

* الحملة على اليهود في السورة تبين أن لهم نفوذا قويا اقتضى هذه الحملة عليهم لكشف موقفهم وإبطال كيدهم وخمول ذكرهم بعد هذا الكشف بعد غزوة الخندق التي انتهى فيها الدور اليهودي نهائيا في المدينة.

---

(١) تفسير المنار ج٦/ ١١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٣.

(٣) في ظلال القرآن: ٦/ ٨٣٢.

* يرجح أن بعض مقاطع السورة ـ في أولها ـ نزلت بعد الفتح، وبعض المقاطع نزلت بعد ذلك[1].

وأقول:

١ - أرجح نزول بعض آياتها نزل في العام التاسع قبل سير النبي ﷺ لحجة الوداع وذلك لقدوم وفد نصارى نجران في هذا العام، في الجزء الأخير منه فأبوا أن يسلموا ودعوا للمباهلة فأبوا وأقروا الجزية.

٢- حادثة العرنيين الذين قدموا المدينة في السنة الخامسة قبل صلح الحديبية واستوخموا المدينة فأرسلوا إلى إبل الصدقة ليشربوا من ألبانها وأبوالها، والذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ... ﴾ (المائدة: ٣٣).

ويقول ابن عاشور:

ولذلك اختلفوا في أن هذه السورة نزلت متتابعة أو متفرقة؟ ولا ينبغي التردد في أنها نزلت متفرقة[2].

(و) المحور الذي تجري فيه السورة:

١ - التشريع لإقامة المجتمع المسلم المستمد أمره من الله.

٢- توحيد الله ومحاربة الشرك في عقيدة التثليث عند النصارى.

٣- إبطال تحريم وتحليل وأمر ونهي الجاهلية وردَّ ذلك كله لله.

(ز) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

قصة المائدة وردت في آخر السورة حيث طلبها حواريو عيسى ـ عليه السلام ـ فطلبها عيسى من

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٨٣٢.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ٧٢.

الله آية وعيدا. واشترط الله لها شروطا، والسورة من محورها محاربة عقيدة التثليث التي يعتقدها النصارى فارتبط الاسم بالمحور.

(ح) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة بالأمر بالوفاء بالعقود وهي ما أحل الله وما حرم، وأمر ونهى، وختمت الآية الأولى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ وختمت السورة بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ فناسب البدء الختام، فالكون ملكه يفعل ويحكم ما يريد.

(ط) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

ختمت سورة النساء بآية الكلالة، وورث الله تعالى أخوانه وأخواته الأشقاء وقال في ختامها ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ ﴾ فكان البيان بهذا التشريع الذي قسّم به هذا الميراث، وافتتح سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ فختم سورة النساء بالتشريع وافتتح سورة المائدة بالتشريع تتميما لما بدأه في تلك فناسب ختام تلك افتتاح هذه.

(ي) المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

يقول صاحب التفسير المنير: (هناك أوجه تشابه بينها وبين سورة النساء، لاشتمال كل منهما على عدة عقود وعهود وأحكام ومناقشة أهل الكتاب والمشركين والمنافقين، ففي سورة النساء الكلام على عقود الزواج والأمان والحلف والمعاهدة والوصايا والودائع والوكالات والإيجارات، وابتدأت سورة المائدة بالأمر بالوفاء بالعقود، ومهدت سورة النساء لتحريم الخمر وحرمتها سورة المائدة بنحو قاطع، وتضمنت السورتان مناقشة أهل الكتاب و المشركين[1].

(١) التفسير المنير: ٦/ ٦٨.

ما اشتملت عليه سورة المائدة:

(ورد في سورة المائدة أحكام تشريعية وقصص للعظة والعبرة.

فالأحكام: أحكام العقود مع اليهود والنصارى، ونكاح الكتابيات والوصية عند الموت، والمطعومات من ذبائح وصيد، وصيد الإحرام وجزاء من وقع فيه، والطهارة من غسل ووضوء وتيمم وتحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وكفارة اليمين وحد السرقة وحد الحرابة وإبطال وتشريع الجاهلية للأنعام والحكم لمن ترك العمل بما شرع الله، ومناقشة اليهود والمشركين والمنافقين. وفيها قصة موسى مع بني إسرائيل في دخول بيت المقدس وردهم القبيح ومفارقة موسى لهم، وقصة ابني آدم وقتل قابيل لهابيل، وقصة المائدة)[1].

(١) التفسير المنير: ٦/ ٦٨.

المقطع الأول: العهود والمواثيق مع أمة محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة:١-٨].

افتتح الله تعالى هذه السورة بجملة عهود، أخذها على أمة محمد ﷺ وألزمهم العمل بها، وتشمل: تحليل الأنعام كلّها، وتحريم التّعدّي على شعائر الله ومحارمه، وحرّم من الأنعام الميتة وغيرها، وأحلّ الطيّبات عموماً، وما أمسكت الجوارح بعد التسمية عند إرسالها، وأحلّ الطّعام تبادلاً بين الملل الثلاث، وأحل للمسلم الزواج بالعفيفة، المسلمة والكتابية، شرط الإحصان، ودوام العشرة، وبيّن اكتمال الدّين، ويأس الكفار من هزيمة المسلمين، وبيّن الطّهارة بأنواعها،وأمر بالعدل.

والآن نأخذ بالتفاصيل:

١- يأمر الله تعالى عباده أهل الإيمان أن يوفوا بالعهود التي أخذها عليهم، وهي كثيرة منها جميع ما ورد في سورة النساء من تحليل وتحريم وأمر ونهي (لأكل مال اليتيم وتحريم لبعض النساء، والميراث الذي ورد في أول السور وآخرها، والكلالة والذي قال الله تعالى عنه: ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ ﴾ [النساء: ١٧٦].

ومنها ما بدأ وروده من هذه السورة من تحليل الأنعام فكلها عهود ومواثيق يأمر الله بالوفاء بها.

٢- التحريم والتحليل والأمر والنهي الذي سيرد تباعاً بعد هذه الآية كلها عهود ومواثيق مطلوب الوفاء بها.

٣- ما أخذه الله على الخلق من ميثاق في الأزل: ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قلنا بلى كلها مواثيق يوجب الوفاء بها.

﴿ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾. أحلت أكلاً وبيعاً وشراءً. والأنعام الإبل والبقر والضأن والمعز ويدخل معها الظباء والغزلان والأراوي أحلها الله تعالى لهذه الأمة منذ القدم، ولكن (عمرو بن لحي بن قمئة) الذي غير ملة إبراهيم عليه السلام جلب الأصنام من

الشام وعلم الناس عبادتها، وحَرم وحَلل وأمر ونهى من تلقاء نفسه، فحرَّم بعض الأنعام التي ورد ذكرها في سورة الأنعام المكية والتي جاء فيها: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩]، وقالوا فما حرمته الجاهلية أصبح سائداً حتى جاء القرآن ليهدمه ويبني على أنقاضه ما أحل الله تعالى فقال: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ فهي حلال بكل أصنافها إلا ما استثنى الله تعالى منها بقوله: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وهي أصناف من الأنعام حرمها الله لعلة فيها سيأتي تفصيلها.

﴿ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ حرم علينا الصيد ونحن محرمون بعمرة أو حج - فإن الحاج والمعتمر يحرم عليه الصَّيد، فلا تستحلوا ما حرم الله عليكم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ هذا حكم الله تعالى: يحل لعباده ما يشاء ويحرم عليكم ما يشاء والله يحكم ما يريد.

فالآية تبين أن الأنعام حلال أكلها إلا ما استثنى منها، والصيد حرام علينا ونحن محرمون بحج أو عمرة، وهو مصدر التشريع للخلق.

﴿ لَا تُحِلُّواْ ﴾ لا تستحلوا ما يأتي، فهي محرمات (شعائر الله) شعائره هي متعبداته التي يأمرنا بها.

فالصلاة شعيرة والحج شعيرة والعمرة شعيرة والوقوف بعرفة شعيرة ورمي الجمرات شعيرة والأشهر الحرم (ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، ورجب) شعائر. فأمرنا ألا نستحلها وننتهك حرمتها. وقد كانوا يعتدون على الأشهر الحرم فيستحلون واحداً من الأربعة ويحرمون آخر غيره غير ما حرم الله ليكتمل عدد الأشهر الحرم أربعة كما أمر الله بها، وفي العام الذي يليه يحلون شهراً آخر محرماً ويحلون غيره مما لم يحرم وهكذا، يعتدون على الأشهر الحرم.

﴿ وَلَا ٱلْهَدْىَ ﴾والهدي البهيمة التي يهديها المحرم بحج أو عمرة لتذبح في منى أو في المروة بعد حج أو عمرة فمحرم الاعتداء عليها بسرقة أو نهب.

﴿ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ وهي البهائم التي توضع في أعناقها قلائد من صوف أو وبر أو قطعة من لحاء الشجر ليعرف أنها مهداة لتذبح في الحرم فلا يتعرض لها.

﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾.

ولا تستحلوا التعدي على قاصدي بيت الله تعالى للحج أو العمرة طالبين رضوان الله بهذه العبادة وطالبين فضله بالكسب الذي يمارسونه وهم حجاج ومعتمرون بيعاً وشراءً وعملاً.

﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ﴾ أما إذا أتممتم الحج أو العمرة وتحللتم منهما فاصطادوا إن شئتم بعد أن كان ذلك محرماً عليكم. في غير أرض الحرم.

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾.

سبب النزول:

روى ابن كثير بسنده عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة. فقال أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدوا أصحابنا. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ الآية[1].

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ والآية تخاطب المسلمين الذين صدهم المشركون عن العمرة بالحديبية وقد لاقوا مشركين من أهل الشرق ذاهبين إلى العمرة فكّروا في صدّهم عن العمرة كما صد مشركو مكة المسلمين، فنهاهم الله تعالى وقال: (لا يحملنكم بغضكم للمشركين الذين صدوكم عن المسجد الحرام ومنعوكم عن العمرة أن تصدوا هؤلاء المشركين الذاهبين إلى العمرة تعاملاً

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٢

بالمثل فالله ينهى عن ذلك، ويأمرهم أن يتعاونوا على فعل الخير لا على فعل الشر، والله يذكرهم بعد ذلك بقدرته على عقاب من خالف أمره بأنه شديد العقاب).

الآن بعد أن أحل لنا بهيمة الأنعام في أول السورة، واستثنى ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ جاء الآن بما استثنى محرماً مفصلاً فقال:

ما حرمت عليكم من الأنعام: ﴿ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ وهي التي فارقتها الحياة، وكانوا يعدونها مما قتل الله فيستحلون أكلها، ويقولون أنأكل ما قتلنا ولا نأكل ما قتل الله؟ ﴿ وَٱلدَّمُ ﴾ وهو المسفوح الذي يسيل خارجاً من البهيمة بعد ذبحها، وكانوا قديماً يستحلونه أكلاً وشرباً، وحديثاً كذلك.

﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ وابن عاشور يقول: وهذا إيماء إلى أن ما عدا أكل لحمه من أحوال استعمال أجزائه، هو فيها كسائر الحيوان في طهارة شعره إذا انتزع منه في حياته بالجز وطهارة عرقه وطهارة جلده بالدبغ، إذا اعتبرنا الدبغ مطهراً جلد الميتة اعتباراً بأن الدبغ كالذكاة[1] مستشهداً بالحديث (أيما إهاب دبغ فقد طهر)[2].

وعندي أنه محرم كله لقوله صلى الله عليه (لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها وأكلوا ثمنها)[3]. ذلك أن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه.

فقد يكون التحريم شاملاً – والخنزير مستقذر لحماً وجلداً وما استخرج منه ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ وهو الحيوان الذي يرفع الذابح صوته به عند ذبحه، ولا يذكر اسم الله جلّ جلاله عليه كأن يقول باسم فلان اذبح.

﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾ هي التي حبس نفسها شيء فماتت.

﴿ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾هي التي ضربت بعصا أو بشيء ثقيل لم يخرقها فتموت قال عدي ابن حاتم

(١) التحرير والتنوير، جـ٤/ ص ١٢٥.
(٢) الترمذي، جـ٤، حديث رقم (١٧٢٨).
(٣) البخاري حديث رقم (٣٤٦٠).



سألت رسول الله ﷺ عن صيد المعراض فقال: (إذا اصبت بحده فكل، وإذا اصبت بعرضه فقتل فإنه وقيذ فلا تأكله)[1] فالموقوذة محرمة لأن الدم لم ينزل منها بعد ضربها.

﴿ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ التي سقطت من علو فماتت فهي محرمة.

﴿ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾ والتي ماتت بسبب نطح أختها لها فماتت بهذا النطح.

﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ والسبع، الحيوان المفترس، فإن اصطاد بهيمة وأكل منها وترك بقيتها وفيها حياة وروح وذكيناها حلت. وإلاَّ فهي ميتة. والتذكية: هي الذبح لا يصلح فيها السن والظفر والعظم. والنبي ﷺ يقول: (وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)[2] وإذا كان في بطن البهيمة المذكاة جنين فإن ذكاة أمه له ذكاة. أشعر أم لم يشعر.

﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ والنصب الحجارة التي كانت موضوعة عند الكعبة يذبحون عندها تقرباً للآلهة فما ذبح عندها أصبح محرماً لا يؤكل.

﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾والأزلام قداح ثلاثة مشهورة موضوعة في كيس عند السادن قرب الكعبة مكتوب على أحدها (افعل) وعلى آخر (لا تفعل) والثالث (غُفل) لا كتابة عليه. فمن أراد السفر أو الزواج أو فعل شيء لا يعرف عاقبته استقسم بالأزلام أي طلب من السادن أن يستقسم له بأن يخرج أحد الأقداح من الكيس فإن خرج ما كتب عليه (افعل) سافر إذا قصد السفر أو تزوج إن أراد الزواج أو باع أو اشترى فإن الآلهة أمرته أن يفعل. أما إن خرج القدح (لا تفعل) ترك السفر إن كان مسافراً أو ترك الزواج إن استقسم للزواج وإن خرج القدح (غُفلاً) لا كتابة عليه أعاد الاستقسام من جديد حتى يخرج (افعل) أو (لا تفعل).

وكذلك كانوا يستقسمون لمن شَكُّوا في نسبه ولهم قداح ثلاثة مكتوب فيها (منكم) (مصلق) (من غيركم) فإن خرج (منكم) كان ذا نسب وإن خرج من (غيركم) سقط النسب.

(١) البخاري ج٥ ص ٢٠٩٠.

(٢) مسلم: ٣/ ١٥٤٨، حديث: ٥٧.



﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾كل ما بدأته الآية من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير إلى الاستقسام بالأزلام كله فسق وخروج من الدين ومعصية لله، فحرمه... ومن فعله كان فاسقاً عاصياً لله خارجاً عن الطاعة والدين.

﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ اليوم: الجمعة في عرفة في التاسع من شهر ذي الحجة العام العاشر من الهجرة وبناء آخر أركان الإسلام وهو الحج واكتمال الدين، يئس الكفار الآن أن يخرجوكم من دينكم ويردوكم كفاراً، وقد حاربوكم في عدة معارك انهزموا فيها فما عادوا قادرين على إخراجكم من الدين بالحرب ولا بالتعذيب، ولا بالتخويف فقد يئسوا من كل تلك الوسائل... ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ فقد انكسرت شوكتهم، ﴿ وَٱخْشَوْنِ ﴾ خافوني، واتقوني، فإني القادر على الإهلاك والتعذيب والتنكيل والنبي ﷺ في حجة الوداع قال: (أن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا، ولكن قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على أنفسكم)[1]، ونزل عليه قوله تعالى:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾. اليوم جاء الإعلان من الله تعالى: أن الدين اكتمل عبادات وتشريعات ومعاملات. ولم يعد فيه نقص. وقال النبي ﷺ بعدئذٍ: (بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان)[2].

وقال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[3].

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

المضطر: الذي ألجأته الضرورة التي هي المجاعة إما أن يأكل من الميتة التي لم يجد غيرها فيحيا. أو يتركها فيموت، هنا أباح الله لهذا المضطر أن يأكل من تلك المحرمات قدر الضرورة

(١) الترمذي ٢/ ١٣٨.

(٢) البخاري: ١/ ١٩، حديث: (٨).

(٣) البخاري: حديث: (٢٥٥٠).

وقدر ما يمسك الرمق لا أن يشبع منها، والله يغفر له تعاطيه ما حرم عليه، ما دام لم يفعل ذلك افتراقاً لإثم أو تعدياً لحدود الله.

بعد أن ذكر لهم ما حرم عليهم من المطعومات في الآيات السابقة: الميتة والدم ولحم الخنزير. سألوا النبي ﷺ ماذا أحل لهم فجاء الجواب من الله تعالى: ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾.

والطيبات الأطعمة الطيبة الحلال، كما قال الله لرسله الكرام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [المؤمنون: الآية ٥١] فهو الحلال الخالص الذي لا شبهة فيه، وأحل لكم كذلك ما أمسكت لكم الجوارح - من كلاب وصقور وغيرها - التي دربتموها على الصيد - بفضل الله عليكم وتعلمكم ذلك فعليكم عند إرسال الكلب أو الصقر أن تقولوا ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ ثم تطلقونه، فإن أمسك وقتل فقد حل لكم ما أمسك عليكم، شريطة ألا يأكل مما أمسك فإن أكل فلا يحل لكم وإن كانت فيه روح وذكى لأنه إنما صاد لنفسه لا لصاحبه لأنه غير مدرب ومعلم. وكذلك إذا شاركه كلب غيره. ولهذا قال الرسول ﷺ لعدي بن حاتم وقد سأله عن الكلب (وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسك لنفسه)[1].

ثم يذكرهم بتقوى الله ويذكرهم بالدقة في تصرفاتهم حتى لا يأكلوا مما أمسك الجارح لنفسه وأكل، مستحلين لما أكل الجارح وان كان فيما أكل وترك بقية من حياة فلا يحل.

ويذكرهم بأن عقاب الله سريع لمن يعصى.

اليوم مكررة مرة بعد مرة لما لها من وقع طيب، وتعظيم لهذا اليوم الذي يكتمل فيه الدين ويكتمل فيه التبيين. أحل لكم الطيبات بكافة أنواعها من مأكولات فلا يبقى أثر لما كانت تحرمه الجاهلية، وطعام الذين أوتوا الكتاب من يهود ونصارى حل لكم وطعامكم حل لهم، والآية تشي بسماحة الإسلام في المخالطة بين الملل الكتابية وإن اختلفت فلا عزلة لأهل الكتاب وإن اختلفت الديانة والعقيدة. مع ذلك يبيح الالتقاء والمؤاكلة، ثم يمضي ليبيح الزواج من

(١) البخاري: حديث: (١٧٥).



المؤمنات العفيفات اللاتي لم يمارسن الجنس قبل الزواج.

ثم يمشي خطوة أوسع من المخالطة فيبيح للمسلم أن يتزوج الكتابية العفيفة ويسمي عفتها (المحصنة) فإن فيهم إباحية كما معلوم اليوم، فإن الفتاة التي لم تصاحب في حياتها ولم تزاول الجنس قبل الزواج تعتبر منبوذة في عرفهم أما التي لها صاحب يؤانسها ويمارس معها الجنس في بيت أسرتها وعلى مرأى ومسمع منهم فإنا راقية منصهرة في مجتمعها ومقبولة فيه. وهي ليست المعنية في الآية فأراد للمسلم أن يتزوج الكتابية العفيفة التي لم تشارك في هذا الفساد.

وبهذا يعلن الإسلام سماحته وفضله وأنه دين المخالطة والمشاركة فقد يكون المسلم وقد جمع في بيته بين الكتابية اليهودية والكتابية النصرانية ويرزقه الله منهما نسلاً يكون جده يهودياً أو نصرانياً، وعماته وخالاته، وأخواله وأعمامه كتابيون.

ويشترط في هذا الزواج من الكتابية والمسلمة أن يكون زواجاً مبنياً على نية الاستدامة مدفوع المهر لا نية في سفاح ولا مخادنة. والسفاح زنا المرأة مع كل راغب فيه والمخادنة صحبة رجل لامرأة لا تأتي غيره.

كل هذا الذي قال الله تعالى في تحريم المأكولات وتحليلها، وما أباح من صيد وما حرم وما أباح من طعام وزواج من أهل الكتاب قبول هذا كله من الإيمان، فمن أحل ما أحل الله وحرم ما حرم الله وقبل به فهو الإيمان الكامل المحض، ومن لم يقبله وكفر به فقد فارق الإيمان فلا إيمان. وقد حبط عمله... والجزاء في الآخرة هو الخسران المبين... الذي يقود صاحبه إلى النار.

سبب النزول:

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سقطت قلادة لي البيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فثنى رأسه في حجري راقداً، وأقبل أبو بكر، فلكز فيَّ لكزة شديدة وقال: حبست الناس في قلادة، ثم إن النبي ﷺ استيقظ، وحضرت الصبح، فالتمس الماء، فلم يوجد فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَعَلَّكُمۡ

تَشْكُرُونَ ﴾. وكان ذلك في غزوة المُرَيْسِيع. فقال أسيد بن حُضَيْر: (لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ما أنتم إلاَّ بركة لهم)[١].

وروى الإمام مالك عن عائشة رضي الله عنها: لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا، أخرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة أخرى فسقط أيضاً عقدي حتى حبس الناس على التماسه. فقال لي أبو بكر: (بُنَيَّة في كل سفر تكونين عناء وبلاء على الناس؟ فأنزل الله الرخصة في التيمم فقال أبو بكر: إنك لمباركة)[٢].

الآن بعد المطعومات والمنكوحات يأتي دور العبادات وأولها الصلاة لأنها دليل الإيمان الذي وقر في القلب وصدقه العمل وهو الصلاة. والتي قال رسول الله ﷺ: (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان)[٣].

ينتقل القرآن الكريم إلى عهود الطهارة بأنواعها الثلاثة: الوضوء والجنابة والتيمم. بعد عهود الحلال والحرام في المطعومات وأنواعها ووسائل صيدها والمنكوحات.

والقرآن يقول إذا قمتم - وهي النية في أداء الصلاة - فرضاً أو نفلاً يسبق القيام لها الطهارة بالوضوء لأجزاء محددة؛ هي: فرائض الوضوء، غسل اليدين وغسل الوجه، ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين، وأن يتم ذلك بلا انقطاع أو تراخ بين غسل الأجزاء المحددة وان يصحب ذلك دَلْكٌ للأجزاء مع صب الماء، وإلا فصب الماء على الجزء لا يعني غسله ما لم يصحبه دلك. والنبي ﷺ رفع صوته قائلاً (ويل الأعقاب من النار)[٤] حينما رأى القوم يتوضئون وأعقابهم تلوح - لم تغسل. لهذا تكون فرائض الوضوء سبع - أضافت السنة إليها بقية ما لم يذكر في الفرائض، وهي المضمضة والاستنشاق والاستنثار وغسل اليدين إلى الكوعين.

---

(١) البخاري: ٤٣٣٢.
(٢) موطّأ مالك: ١/ ١٣٣.
(٣) سنن ابن ماجه: ١/ ٢٦٣.
(٤) البخاري: ١/ ١٠٥، حديث رقم (٥٨).

هذا هو الوضوء، وقد شرع أولاً لكل صلاة، ثم نسخ عام الفتح فصلى النبي ﷺ بوضوء واحد خمس صلوات[1].

والجنابة أسبابها، خروج المني، بلذة معتادة وبغير لذة، أو مغيب خشفة البالغ في فرج أو مطيقه، (وإذا رأت المرأة الماء)[2] أي: احتلمت، وإذا التقى الختانان فقد وجب الغسل. والغسل تعميم الجسد بالماء الطهور.

والتيمم، قصد التراب ليتطهر به بديلاً عن الماء، في حالة المرض المانع من استعمال الماء أو السفر أو جاء الشخص من الغائط أو جامع النساء فلم يجد الماء ليتطهر به فالبديل هو التيمم. لأجزاء مخصوصة من الجسم هي التي ذكرها القرآن؛ الوجه واليدين إلى الكوعين، وأضافت السنة إلى المرفقين. مع سبق النية في ذلك والتتابع.

هذه هي الطهارة - ما فرضها الله تعالى على عباده ليشق عليهم ويضيق، ولكنها رحمة ونظافة وطهارة تحمي الإنسان من القذر ووساوس الشيطان وتبيح التعبد ومس المصحف ودخول المساجد والصلاة على الأموات والنفل وغيرها، تماماً للنعمة وهي نعمة الإسلام المذكورة وفضل الله الذي ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ثم لعلكم تشكرون الله تعالى هذا الاهتمام نظافة وقربى ورفعة بهذا الدين وهذا التشريع.

يذكِّر الله تعالى بالنعمة؛ نعمة الإسلام ونعمة التحليل والتحريم، التي هي منهج الله الذي رسمه للعباد ورضيه لهم ليكونوا على بصيرة في دينهم.

﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ وهي مواثيق متعددة أولها ما كان عليه العباد في عالم الذر ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ

(١) انظر التحرير والتنوير: ٦/ ١٢٨.

(٢) الترمذي: حديث: ١٠٤.



وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٢].

والميثاق الذي أخذه الرسول ﷺ على الأنصار يوم بيعة العقبة الثانية في العام الثالث عشر:

١ - السمع والطاعة في المنشط والمكره.

٢ - وعلى النفقة في العسر واليسر.

٣ - وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ - ولا تأخذكم في الله لومة لائم فكلها مواثيق، يذكر الله بها[١].

إذ قلتم سمعنا وأطعنا... والسمع والطاعة عهد وميثاق، ثم يذكر بالتقوى ويأمر بها لأن في الخوف منه نجاة، وفي التهاون مهلكة والنبي ﷺ يقول: (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزلة)[٢]. فمن خاف الله ابتعد عن محارمه والله يذكر العباد أنه مطّلع على ما في صدورهم من شيء وإن لم يذكروه فهو عالم به مطّلع عليه.

جاء في سورة النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾، وسورة النساء سورة للعدل في كل أوجهه بدءاً بإيتاء اليتامى أموالهم، والعدل في اليتيمة في حجر الوصي لا يعطيها مهر مثلها إن أراد الزواج بها فأمر بتركها والعدل في أموال اليتامى لا تؤكل أموالهم إسرافاً وبداراً، وتقسيم ميراث الميت لأبنائه ووالديه، وميراث الزوجة لزوجها إن كانت ذات ولد أو لم تكن، وميراث الزوج لزوجته إن كان له ولد أو لم يكن له ولد، وميراث الكلالة، ثم الحديث عن أصحاب الفواحش وعقوباتهم، إلى تحريم بعض النساء بلغ عددهن خمس عشرة امرأة، وإباحة ما سواهن إلى آخر السورة فكلها تحقق العدل والتوجه، والآن جاء الحديث (قوّامين لله) وهي مبالغة القيام لله، أن نقوم وفاء بعهوده ومواثيقه وأن نقوم لله ملتزمين بما أمر منتهين عمّا نهى خوفاً وخشية منه.

---

(١) انظر ابن هشام جـ١/ ٤٤٠/ ٤٤١.

(٢) المستدرك، جـ ٤/ ٤٣٤.



﴿ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ ﴾ شهادة مجردة لله عدلاً لا حيف فيها ولا جور ولا ظلم. حتى لو كان الذي يُشهد له أو عليه قريباً من أقرب أقربائنا أو خصماً من الخصوم، لا يحملنا هذا التخاصم - الذي يولد العداوة - على ألا نعدل، فالله يأمر بالعدل، مع وجود البغضاء لأن الشهادة هنا لله مجردة من كل شبهة وريبة خالصة لله تعالى، فالله يأمرنا أن نعدل في الشهادة ولا نقول إلا ما علمنا إقامة للحق والعدل، فالعدل يقربكم للتقوى أكثر من الجور والحيف، ثم يذكّر بالتقوى ويأمر بها ويقول أنه ﴿ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، كما قال قبلاً ﴿ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ كلاهما دليل وتذكير باطلاع الله على ما نكن وما نعلن.

المقطع الثاني: المواثيق والجزاء:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾[المائدة:٩-١٠].

هذه هي العهود بدءاً من فاتحة السورة وانتهاءً بالقوامة بالشهادة والآن جاء الحديث عمن أوفى بهذه العهود فما جزاؤه؟ ومن خالف فما جزاؤه.

وعد من الله تعالى للمؤمنين من عباده الذين التزموا عهوده وبذلوا جهدهم في صالح الأعمال بالمغفرة لذنوبهم وتكفيرها لهم فيأتون يوم القيامة وقد محا الله ما كسبوا من المعاصي ووعدهم الأجر العظيم على ما قدموا من خير، ووعد الكفار الذين لم يؤمنوا مع وجود دلائل الإيمان المنثورة في كتابه الكريم أو المنثورة في كتاب الكون العظيم بأنهم هم أصحاب الجحيم.

ويذكر الله تعالى المؤمنين بنعمة من نعمه ذات وقع خاص وأثر، قريب الحدوث عند نزول سورة المائدة، حدث له دلالة، واطلاع الله تعالى عليه وهو صرف البلاء عنهم.

المقطع الثالث: البلاء وصرفه عن المسلمين:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[المائدة: ١١].

بعد الحديث عن نعمة الإسلام وإكمالها، وغيرها من النعم، كالصيد الذي أباحه للناس، ونعمة الطهارة يمضي القرآن ليبيّن نعمةً أخرى وهي نجاة النّبيّ ﷺ من محاولة اغتياله، فحياته ﷺ نعمة من نعم الله حفظها بفضله، وهو القائل: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٦٤].

نقمة كادت أن تقع فصرفها الله تعالى بحكمته وقدرته، والمسلمون لا يعرفونها حتى عرفهم الله بها، هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم، بالضرب والتنكيل والقتل، فصرف الله عنكم هذا وكف أيدي الظالمين بعد أن هموا بإحداث ما انطووا عليه وهموا به. فَصَرْفُهُ عنكم نعمة من نعمه ذكرهم بها، وهم غافلون عنها. ثم يأمرهم بالتقوى التي تجلب الخير وتصرف عنهم السوء، ويأمرهم بالتوكل عليه، فالمتوكل حسبه الله كافياً، حسبه الله صارفاً عنه السوء، حسبه الله منجياً من كل هول وشدة.

الحديث عن هذه النعمة كثير. فقد تعني نجاة جميع المسلمين أو أفراداً منهم، أو الرسول ﷺ نفسه فإن تعرضه للأذى تعرض للأمة كلها ونجاته نجاة للأمة كلها وهنا يروي:

١ - إنه كان نائماً وهم قادمون من غزوة وسيفه معلّق على الشجرة، فجاء إعرابي تسلل إليه وأخذ سيف رسول الله ﷺ وسل السيف وأيقظ النبي ﷺ وقال: من ينجيك مني؟ قال ﷺ: (الله) فسقط السيف من يده وسقط الإعرابي على الأرض ونادى النبي ﷺ الصحابة وأراهم ما حدث[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٢٩/ ٤٥٠ حديث: (١٤٤٠١).



٢ - نجا النبي ﷺ من سحر لبيد بن الأعصم والذي قصد إهلاك رسول الله ﷺ[١].

٣ - نجا النبي ﷺ من محاولة قتل بني النضير له[٢].

٤ - من قبل نجا من تآمر قريش على قتله[٣].

كلها نعم مَنَّ الله بها على المؤمنين ونجاهم. فلا بد من ذكر، ولا بد من شكر لله على ذلك.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

الآن بعد هذه الجولة من العهود والمواثيق التي ألزم الله تعالى بها عباده المؤمنين نلخص هذه العهود ونبينها فنقول:

١ - أن كل أمر من الله، وكل نهي، وكل تحليل وكل تحريم لأمة المؤمنين هو عهد وميثاق بين العباد وربهم سبحانه وتعالى، عهد ملزم إن فعلوه أثابهم وإن تركوه عاقبهم.

٢ - بينت العهود التي مرت: إن كل الأنعام أكلها حلال، حلله الله تعالى، وأن المحرمات هي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به عند ذبحه. وكل أنواع الميتات محرمة ما عدا التي تذكى، وأن المضطر يأكل قدر ما يمسك الرمق.

٣ - الصيد للمحرم بحج وعمرة حرام، فإذا قضى حجه وعمرته حل له الصيد خارج منطقة الحرم. وإن أرسل كلبه وصقره للصيد عليه أن يسم الله عليه فإذا قبضه وجاء به حل له وإن مات.

٤ - العدل أساس هذا الدين لا ينبغي أن ينحرف الناس عنه بسبب الخصومة والبغضاء والأذى الذي أصابهم من الفئة التي آذتهم حين كانوا قِلّة وشردتهم من المسجد الحرام الذي هم أهله، فعليهم أن يعدلوا وقد مَكَّن الله لهم في الأرض فلا يعتدوا على الذين آذوهم من قبل ولكن فليسموا وليعلوا فوق الجراحات ويتعاونوا على البر لا على الشر.

---

(١) ينظر: البخاري: ٥/ ٢١٧٤.

(٢) تفسير الطبري: ٢٣/ ٢٥٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٣.

٥ – الاستقسام بالأزلام من الفسق، وكانوا يتعاملون به كشفاً للغيب فالإسلام يعتبر التعامل به من المعاصي وكذلك المحرمات من المطعومات في حالة المخمصة حلال للضرورة.

٦ – الكفار يئسوا من إرجاع المسلمين كفاراً بعد إيمانهم، بشرهم الله تعالى بذلك... ولكن كما قال الرسول ﷺ: (أن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا ولكنه رضي منكم ما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على أنفسكم)[1].

٧ – اكتمل الدين اليوم عبادات ومعاملات وتشريعات فلا نقص، ومن أحدث في الدين شيئاً فهو رد. قال ﷺ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[2].

٨ – كانوا يسألون رسول الله ﷺ عند ذكر المحرمات، فسألوه عمّا أحل الله لهم، فأحل الطيبات من المأكولات وأحل طعام أهل الكتاب للمسلمين وطعام المسلمين لأهل الكتاب، وأحل نكاح المحصنات العفيفات من المسلمين، ومن أهل الكتاب للمسلمين. ولكن لا ينكح المسلمون أهل الكتاب وان يكون زواج إحصان ويراد به دوام العشرة.

٩ – ثم أمر بالطهارة في أوجهها الثلاثة: الغسل والوضوء والتيمم وبين أجزاءها المفسرون.

١٠ – ثم أمر بالقوامة في الشهادة ابتغاء وجه الله. والعدل في كل الأمور.

١١ – ثم بين جزاء من التزم وأوفى بتلك العقود والمواثيق وجزاء من خالف.

هذه هي عهود الله ومواثيقه مع أمة محمد ﷺ والقرآن ينقلنا إلى الأمم السابقة ويرينا مواثيقه معها وموقفها من المواثيق والجزاء الذي نالته على ذلك.

بعد الحديث عن العهود مع أمة محمد ﷺ وجزاء من التزم ومن خالف يمضي القرآن لِيُرِيَنا مواثيق الله مع أمّتي اليهود والنصارى، وجزاء نقضهم المواثيق.

---

(١) ينظر: الرحيق المختوم: ٢٢٤.

(٢) البخاري: حديث: (٢٤٩٩).



المقطع الرابع: ميثاقه مع اليهود والنصارى:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٢-١٦].

جاء هذا القول من الله تتميماً لما ذكره تعالى في سورة آخر سورة النساء وأنزل عقوبات على بني إسرائيل بسبب جرائم ارتكبوها عددها الحق عز وجل فبلغت إحدى عشرة جريمة، قال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٧].

قد أخذ الله تعالى الميثاق على بني إسرائيل، كان ذلك في عهد موسى عليه السلام، والذين أخذ

الله عليهم الميثاق هم رؤساء بني إسرائيل ونقباؤهم المنبثقون من أبناء إسرائيل الاثني عشر فالنقباء هم من كل سبط من هؤلاء الأسباط حتى يشمل الميثاق بني إسرائيل أجمعين، وجاءت بنود الميثاق كما يلي:

إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل، وتعزيرهم وهو تقويتهم بالتأييد والنصرة، وإقراضهم الله قرضاً حسناً كناية عن البذل في سبيل الله والإنفاق على المساكين كل ذلك إقراض لله فمن التزم هذه البنود الخمسة فالجزاء؛ الكفارة لكل ذنوبهم ومحوها لهم، وإن يدخلهم الجنة الموصوفة أنها تجري من تحتها الأنهار. أما من كفر ولم يؤمن فقد ضل عن الصراط السوي المستقيم فما اهتدى، والعاقبة هي النار.

والله تعالى يخبرنا أن بني إسرائيل لم يؤمنوا ولم يلتزموا بتلك المواثيق بعد إبرامها وعرضها عليهم وموافقتهم عليها وقبولها. فكان العقاب.

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ ﴿ لَعَنَّٰهُمْ ﴾ و ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[المائدة: الآية ١٣].

فبنو إسرائيل، نقضوا الميثاق الذي التزموا به لهذا استحقوا لعنة الله عليهم وطردهم من رحمته ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ لا تدخلها رحمة ولا لين ولا عطف، شبهها بالحجارة وقال أن في الحجارة نداوة ولين، وقلوب بني إسرائيل ليست كذلك وعلامة هذه القسوة الجرأة على تغيير كلام الله بالتحريف والتبديل، فما أحلوا ما أحل الله لهم، ولا حرموا ما حرم عليهم، بل أحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله وقد غيروا وصف النبي ﷺ الموجود في التوراة والإنجيل لما جاء النبي ﷺ مهاجراً ووجدوا وصفه ينطبق على ما في كتبهم حرفوا ذلك حتى لا يؤمن بقية بني إسرائيل.

ولا يزال بنو إسرائيل تظهر منهم الخيانة بين الحين والحين نقضاً للمواثيق وتحريفاً للكلم عن مواضعه وتحيتهم للنبي ﷺ بغير ما حيّاه الله بها يقولون (السام عليك)

يعنون الموت (وراعنا) لياً بألسنتهم حتى تأتي الكلمة (راعنا) المعنى بها انظرنا إلى (راعن) التي هي أحمق... في إساءة للنبي ﷺ.

ونسوا - إهمالاً - كثيراً مما أمروا به من عبادات ومعاملات، تركوه وراء ظهورهم - ويكفي أن الله شبههم بالحمار يحمل أسفاراً كناية عن إعراضهم عمّا في كتابهم من أوامر ونواهي وتحليل وتحريم أهملوه وتركوه ومع ذلك يقدسون الكتاب (التوراة) لأنه أنزل عليهم.

فالتوجيه للنبي ﷺ إزاء هذا ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾. وكما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ ﴾[البقرة: ١٠٩]. فالعفو المطلوب ليس رحمة بهم ولا على الإطلاق وإنما كما قال حتى يأتي الله بأمره. فقد جاء أمره بإجلاء بني قينقاع وبني النضير من المدينة وقتل وسبي وتقسيم أموالهم بني قريظة... فهو إمهال حتى تأتي الضربة القاصمة لهم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

أنه تعالى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً يمثلون القبائل التي انبثقت من أبناء إسرائيل الاثني عشر، وأخذ عليهم الميثاق الذي وردت بنوده، فما التزموا، فاستحقوا اللعنة والطرد من رحمته. والقصة ساقها الله تعالى عظةً وعبرةً حتى لا يقع أحد في نقض الميثاق مع الله تعالى، أو مع آخرين. فإن للمواثيق قدسيتها واحترامها، وقد قصّ الله تعالى قصة الذي عاهد الله لئن آتاه مالاً ليعطين كلّ ذي حقٍّ حقّه، فلما آتاه نقض عهده، وضرب على قلبه النفاق فمات عليه.

والعهود مع النصارى أخذت في عهد عيسى عليه السلام، فقد أخبرهم بمجيء نبي من بعده اسمه أحمد حتى يكونوا على علم فإن جاء عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه:

أخذ الله تعالى الميثاق على النصارى أن يؤدوا نفس ما كلفهم الله به في عهد موسى، ولكنه تجديد لذلك لطول الزمن وهجران ما أمروا به فإن عيسى عليه السلام متمم ومكمل لرسالة موسى عليه السلام لأنهما من أمة واحدة فهو كما قال ﴿ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [الصف: ٦].

فنسوا ما جاءهم به رسولهم وأهملوه، وجاء الجزاء على ذلك التمزيق لهم... فهم مختلفون في أمر عيسى عليه السلام. فبعضهم يقول: هو الله، وبعضهم يقول: هو ابن الله جل وعلا، وبعضهم يقول: ثالث ثلاثة، وبعضهم يقول: أنه عبد الله ورسوله. وتبعاً لهذا الاختلاف عقيدة اختلفوا فيه عبادة... وأصبح كل فريق يبغض الآخر ويخالفه، تماماً كما قال: تعالى: ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾.

فمزقهم وأشاع بينهم العداوة والبغضاء ولن تنفك ولن تنتهي هذه العداوة إلى يوم القيامة، جزاء نقضهم الميثاق.

والآن بعد التفصيل في أمر بني إسرائيل يهوداً ونصارى، خاطبهم مجتمعين وشملهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

نداء لأهل الكتاب من يهود ونصارى وإعلان، أن الله تعالى بعث هذا الرسول الكريم وزوده الله بعلم ما أخفى اليهود والنصارى من علوم ومعارف بينهما الله تعالى وأخفوهما هم... فهو يَعْلمها وسيكشفها لهم، فمما أخفوه:

١ - حكم رجم الزاني المحصن.

٢ - وصف هذا النبي الكريم في كتبهم، حتى لا يتبعه عامة بني إسرائيل.

٣ - نفي أن يكونوا هم أبناء الله وأحباؤه.

٤ - ما قالوه في عيسى عليه السلام وأمه وما تآمروا به لقتله.

فكان مجيء الرسول ضرورة لإبطال باطل بني إسرائيل وإظهار الحق... فالله تعالى يقول: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ ﴾[البينة: ١-٢].

فهو نور جاء يمحو أباطيلهم وادعاءاتهم.

فنداء الله لهم يا أهل الكتاب من يهود ونصارى، قد جاءكم رسولنا بين ويكشف كثيراً مما كنتم تخفون من أحكام الله الواردة في التوراة، حتى تعرف، ويُتَّبع ويعفو عن كثير من جرائمكم وادعاءاتكم.

سماه الله نوراً، لأنه يكشف ظلمة ما أشركتم وظلمة كذبكم، وظلمة ما أخفيتم وظلمة ما ادعيتم أنكم أبناء الله ومعه كتاب واضح العبارة والدلالة والأحكام، هذا الكتاب المبين ان اتبعتموه يهديكم به الله إلى صراطه المستقيم، السبيل الآمن من العذاب، ومن غضب الله، المفضي إلى جنته ورضوانه، ويخرجكم هذا الكتاب مع هذا النبي من الظلمات، ظلمة الشرك وظلمة الكفر المتمثلة في عبادتكم لعيسى عليه السلام وعزير والعجل، وإهمالكم لكتب الله وتحريفها، يخرجكم إلى سماحة الإسلام وهدى الله.

بعد أن أعطانا الله سبحانه وتعالى معلومات عن اليهود والنصارى ومواثيقهم وعدم التزامهم بها وعقاب الله لهم ثم دعاهم إلى إتباع هذا النبي والكتاب الذي معه.

المقطع الخامس: فساد عقيدة أهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾[المائدة: ١٧-١٩].

ولأن هذه السورة نزلت كما ورد آخر أيام النبي ﷺ، وهو في طريقه إلى حجة الوداع في العام العاشر من الهجرة وهو عام الوفود والذي قدم فيه وفد نصارى نجران لا ليؤمن ولكن ليقول للنبي ﷺ: إن عيسى إله، أو ثالث ثلاثة. أو هو ابن الله... والله جل وعلا أنزل على نبيه ﷺ آيات تبين حقيقة عيسى منذ بدء الخليقة إلى أن رفعه الله.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

قال تعالى هنا – لتلك المناسبة ولذلك الوفد: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ والحديث عن عيسى عليه السلام في هذه السورة يبدأ في ثلاث حلقات، هذه هي:

الحلقة الأولى: والتي يكفر الله تعالى من قال أن عيسى هو الله.

والحلقة الثانية: في هذه السورة هي الآية (٧٢) التي يقول الله فيها: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ ويقول عيسى نفسه عليه السلام داعياً بني إسرائيل إلى عبادة الله ربه وربكم ويبين أن من أشرك بالله غيره فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

والحلقة الثالثة: في آخر السورة. مقرراً عيسى بنعمه عليه وعلى والدته أمام الخلق أجمعين ثم يسأله أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله؟.

كل ذلك لفظاعة الشرك، ولأنه الذنب الذي لا يغفره الله، ولأنه الظلم المبين أن تجعل المخلوق نداً للخالق.

والله تعالى يقول لنبيه ليسألهم ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إنهم خلقه وأنه قادر على إهلاكهم ومن في الأرض، فإن أراد ذلك فمن يمنعه؟

والواقع أن أمه ماتت، ومن حوله يومئذٍ ماتوا جميعاً، فأين إلوهيتهم إن كانوا آلهة؟ وأي إله هذا الذي لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة وهو يولد كما يولد البشر وتموت أمه، وسينزل هو في آخر الزمان، ليقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية، ثم أي إله هذا الذي يغيب فلا يرى وليس له أثر؟ أي إله هذا والله يقول عنه وعن أمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] وهي من صفات البشر، فهو يطلب الرزق كغيره ومن أكل الطعام أخرجه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ - السموات بما فيها ملك لله والأرض بما فيها ملك لله وعيسى وأمه في هذا الملك، والله تعالى في ملكه هذا يتصرف كيف يشاء ويهدي من يشاء ويقتل من يشاء ويحيي من يشاء ويميت من يشاء فهو على فعل كل شيء قدير. ولهذه القدرة خلق الله عيسى من غير أبٍ، وآدم من غير أبٍ ولاَ أم.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾

سبب النزول:

روى البيهقي في دلائل النبوة أن ابن أُبي، ونعمان بن قصي، وشاس بن عدي جلسوا إلى النبي ﷺ فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته. فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه. فنزلت هذه الآيات.

بعـد دعـوى المسـيح هـو الله – تعالى عن ذلك علـواً كبيراً – جـاءت مقالة أهـل الكتاب أشـنع وأفظـع، ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ وهو يقول جلّ وعـلا: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعـام: ١٠١]، وقال تعالى دحضـاً لهذه المقالة، وإن كنتم – كما تزعمون أبناءه: ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨].

فقـد عذبهم عذاباً مسـتمراً، فقد سـلط عليهم فرعـون أذاقهم مر العـذاب يذبح أبناءهم ويسـتحيي نسـاءهم، وطردهـم مـن رحمته، وجعل منهـم القـردة والخنازير وعبـدة الطاغوت قطعهـم في الأرض أممـاً، ولم يعطهـم وطناً يسـتقرون فيه، ووعدهم بعـذاب سرمدي لا ينقطع عنهـم أبداً يأتيهم بـين حين وآخر، قال تعـالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٦٧] إن كنتم أبناءه فهل يعذب الأب ابنه؟؟ فأنتم في عذاب، وكنتم في عذاب، وسيستمر معكم العذاب إلى يوم البعث، ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ أنتـم جـزء صغير في هذا الخلق الكبير بشر لا تملكون حولاً ولا قوة، ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ يتـصرف فيكـم وفيمـن معكم كيف يشاء. لا حجر عليه.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ – من أخطر الجرائم نسبة الولد لله تعالى.

٢ – كذّب الله تعالى اليهود والنصارى في ادعائهم أنهم أبناؤه ونفاهم عنه. وبين عذابهم نتيجة هذا الادّعاء.

٣ – بهذا الادعاء ازدادوا من الله بغضاً وبعداً وزاد أهل التوحيد عند الله حبّاً وقرباً.

بين آخر رسـول وهو عيسـى ﷺ، وبين محمد ﷺ خاتم الرسل أكثر من ستمائة عام، فترة طويلة انقطعت فيها رسـالات السماء إلى الأرض، وضاعت فيها كثير من معالم الدين وظهرت فيها دعاوى بني إسرائيل المذكورة ... فجاء النبي محمد ﷺ بعد طول انقطاع، جاء حتى لا تقوم

لليهود والنصارى حجة عند الله يوم القيامة ما جاءنا من بشير ولا نذير.

ها هو البشير والنذير قد جاء، فلا حجة أن الرسول لم يأت فقد جاء، وهي فرصة ينبغي أن ينتهزها بنو إسرائيل فيؤمنوا لينجوا من عذاب الله. فقد جاءكم الرسول. وانقطعت الحجة فإن آمنتم فقد نجوتم وإلا، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قادر على تعذيبكم بكل وسيلة وطريقة.

المقطع السادس: سوء أدب اليهود:

والقرآن ينقلنا إلى اليهود مرة أخرى ليبين بعض فسادهم وسوء أدبهم مع الله والرسل وأهل الخير.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

ذَكَّر موسى عليه السلام قومه بكثير نعم الله عليهم، إذ انتقى منهم فئة جعلها أنبياء تحمل رسالة الدعوة إلى الله، وهذه منة ونعمة لا تتوفر لكل الخلق فكثر في بني إسرائيل الأنبياء لفسادهم وجعلكم ملوكاً. روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً (كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة سمي ملكاً)[1].

(١) الدر المنثور: ٣/ ٤٦.

ففيهم أنبياء ملوك كداود وسليمان عليهما السلام، وفيهم ملوك، ومن عليهم بمنن ونعم لم ينعم بمثلها على آخرين، فقد أنقذهم من فرعون وقد استعبدهم وأذلهم، وفلق لهم البحر فأنجاهم - وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، في سيناء من غير ثمن، وفجّر لهم الماء من حجر... كلها منن اعترف بها نبيهم موسى ﷺ وذكرهم بها.

فالآن يحثهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، بيت المقدس، وما حوله بعد أن خرجوا من مصر ولا بد من صبر وقوة لمدافعة من يمنعهم من دخول الأرض المقدسة. والأرض المقدسة يومئذٍ يسكنها العماليق، طوال أشداء أقوياء، فقالوا لموسى: أن سكان الأرض المقدسة أقوياء ولا نستطيع أن نقاومهم فإن خرجوا منها طوعاً دخلناها، وقام رجلان ممن خصهم الله بالإيمان وقوة العزيمة والرغبة في تنفيذ أوامر الله حاثين بني إسرائيل على الدخول فإن ذهبوا متوكلين على الله وجاهدوا فإنهم سيدخلونها منتصرين.

ولكن بني إسرائيل لم يستجيبوا لقول الرجلين، فقالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ قد وصلوا بقبح القول منتهاه، فكأنما الله عزّ وجلّ هو رب موسى فقط وليس ربهم ولا إلههم هم، ويقعدون هم ويقاتل موسى وربه - ويأتون بني إسرائيل بهذا النصر ليدخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بغير جهاد ولا بذل ولا شيء.

بعد هذا القول القبيح من بني إسرائيل يتوجه موسى ﷺ إلى ربه ضارعاً، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة: ٢٥]. فهم فسقه يريد الخلاص منهم. ويجيب الله تعالى دعاءه ويقرر - عقوبة لهم - التيه في هذه الصحراء - أربعين سنة حتى ينشأ منهم جيل جديد لم يعرف الذلة، ولم يعرف الخوف ليسمع ويطيع ويدخل الأرض المقدسة. أما هذا الجيل فلا خير فيه، لذا يظل محبوساً في هذه الصحراء أربعين سنة حتى يفنى ويموت وينضج الجيل الجديد ويدخل الأرض المقدسة.

هؤلاء هم اليهود ...

سوء أدب وألفاظ جارحة، وغلظ في القول ومعصية لكل أمر، كل هذا ليس مع بعضهم

البعض، وإنما مع رب العزّة جل وعلا ورسلهم الكرام، هذه صورة سيئة رسمها القرآن لليهود. وكان لها العقاب، وهو تمهيد بصورة أخرى أكثر عنفاً وأشد ضراوة. ولقد ظلّ سوء أدبهم إلى اليوم، حيث رسم يهود ونصارى الدنمارك رسماً (كاريكاتيريّاً) لرسول الله ﷺ في صحفهم في وضع مسيءٍ، علّقوا عليه أنه إرهابي، وتناقلت دول النصارى وبعض صحف ضعاف النفوس من المسلمين تلك الصور بإعادة رسمها إمعاناً في الإساءة، والله يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

بعد هذه الجولة الطويلة مع بني إسرائيل نخرج منها بالدروس التالية:

١ - بنو إسرائيل (اليهود) لا يلتزمون بعهد ولا ميثاق ومن وثق فيهم وعاهدهم فقد ظلم نفسه فإنها فئة ناقضة للعهود ولا تحترم رباً ولا رسلاً ولا ملائكة ولا بشراً. وهم مطرودون من رحمة الله، وهم قساة القلوب لا رحمة في قلوبهم.

٢ - فيهم الخيانة والغدر.

٣ - النصارى: لا يلتزمون طاعة الله التي أخذها عليهم وهم الآن فئات مختلفة في دينها وعقيدتها، تبغض كل فئة أختها ولا يلتقون في دين ولا نهج. فبعض يعتقد أن عيسى ابن الله وبعضهم يعتقده هو الله، وبعضهم يعتقده ثالث ثلاثة. وبعضهم يعتقده عبد الله ورسوله.

٤ - جاء الرسول ﷺ ليخرج بني إسرائيل من ظلمات الشرك والكفر ان اتبعوه، مع هذا الكتاب الكريم.

٥ - دعاوى بني إسرائيل الباطلة بأنهم أبناء الله وأحباؤه أبطلها الله، بل هم مغضوب عليهم ومطرودون من رحمة الله.

٦ - لمخالفتهم لموسى ، في كل ما أمرهم به، ولتطاولهم على الله تعالى طلب موسى من ربّه أن يفرّق بينه وبينهم، فقد كرههم.

٧ - مات موسى ، ولم يدخل بنو إسرائيل بيت المقدس، وإنما دخلوه بعد سنوات التيه وهي أربعون سنة بعد نشأة جيل جديد وفناء الجيل القديم المعاند.

المقطع السابع: جرائم وعقوبات:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧-٣٢].

في الآيات السابقة قال الله تعالى لرسوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾[المائدة: ١١] فالله تعالى يقص عليه ما هو أشد وأنكى.

ويقول للنبي ﷺ أتل على أمتك ما حدث من ابن آدم، وهي واقعة حقيقية ينقلها الله لعباده ليريهم سوء خلق بعض الناس، والواقعة نشأت في بيت نبوي كريم لكل الخلق، ونحن في بداية البشرية وهي تخطو أولى خطواتها على الأرض.

آدم ربى أبناءه على التقرب إلى الله بصالح الأعمال وخالص النية، والولدان

هابيل وقابيل قربا قرابين فتقبل الله قربان هابيل لخلوص النية وحسن الاعتقاد، ولأنه قدم أطيب ما عنده، فأرسل ناراً أحرقت قربانه دليل قبوله، أما قربان قابيل فظل كما هو لم تمسسه نار دليل على عدم قبوله، فدب الحسد في قلبه على أخيه هابيل، وهو لم يجن ذنباً ولم يقترف جريمة، فأعلن الحقد على أخيه وأنذره بالقتل، وهابيل بين لأخيه طريقة قبول القربان، التقوى فإن اتقيت الله حين تقديمه، وقدمت طيباً بخلوص النية وصلاح الكسب قبل منك، أمّا إن صممتَ على قتلي فلسُت مصمماً على قتلك، وستبوء بإثمي إن قتلتني وتبوء بإثمك الذي عليك قبل ذلك. فتكونَ من أصحاب النار، والنار جزاء الظالمين، فحسّنتْ له نفسه قتل أخيه رغم هذا الذي قاله له؛ فقتله فأصبح من الخاسرين، خسر الدنيا والآخرة، ثم لم يدر ما يفعل بأخيه الذي قتله؟ فهو أول قتيل وأول ميت في الدنيا. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس: (جاء غراب إلى غراب ميت فحث عليه من التراب حتى واراه، فقال: ﴿ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَـٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي ﴾، فدفنه)[1] ﴿ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾ وهكذا إندفع للقتل حتى ارتكب الجريمة فبقي للحسرة والندم والغم. بهذا أصبح ابن آدم هذا أول من سن سنة القتل، ولهذا قال الرسول ﷺ: (لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل)[2].

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١- أهل الإيمان أبعد الناس عن سفك الدماء بغير حقّ، وكلما قوي الإيمان بعد المؤمن عن الإجرام؛ لهذا يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ [النساء: ٩٢].

٢- القاتل في الآخرة إذا سفك الدّم الحرام، واجه قول الله عز وجل ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا

(١) تفسير القرآن العظيم:٦/ ٤٤.
(٢) الترمذي، حديث رقم (٢٦٧٣).

عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣] ويقول النبي ﷺ: (ما يزال المؤمن في فسحةٍ من دينه ما لم يصب دماً حراماً) [١].

٣- يجيء المقتول يوم القيامة متعلقاً بالقاتل يقول: يا ربّ سله فيمَ قتلني [٢].

٤- يصيب الغمّ القاتل بعد جريمته، لا يكاد ينفك عنه، وقد منَّ الله على نبيه موسى عليه السلام بالنجاة من الغمّ فقال عز وجل: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ [طه: ٤٠].

من أجل ذلك الظلم والقتل بغير جريرة وسبب، ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾.

بعد هذا القتل الذي وقع على هابيل بغير ذنب، كتبنا وشرعنا لبني إسرائيل أنه من قتل نفساً لم تقتل نفساً تستحق عليها القصاص، ولم ترتكب جرماً تستحق عليه القتل، فكأنما قتل الناس أجمعين، ومن تركها حية ولم يقتلها فكأنما أحيا الناس أجمعين، وبلغت هذه الأحكام بني إسرائيل عن طريق رسلهم، ولكنهم مع ذلك، ظلت فئة كثيرة منهم تمارس القتل بلا هوادة ولا رحمة، ولم توقفها أوامر الله ولا ما قال الرسل، وأسرفوا في القتل كثيراً، وما زالوا والقصة تبين أن بعض النفوس تبغض أهل الخير والصلاح، ولا ترضى عن الاستقامة والهدى، ولهذا هم حرب على كل صالح ومستقيم، ولهذا شرع الله لعباده العقوبة لهؤلاء المجرمين.

---

(١) البخاري: ٦٤٦٩.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤٧/ ١٣٦.

المقطع الثامن: عقوبة الحرابة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤ ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

سبب النزول:

روى البخاري عن أنس بن مالك أن نفراً من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام واستوخموا المدينة وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال: (ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها؟). فقالوا: بلى - فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا. فقتلوا الراعي، وطردوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم فأدركوا فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا)[1].

جاء رجل من مراد إلى أبي موسى الأشعري وهو على الكوفة إمارة عثمان رضي الله عنه، بعدما صلى المكتوبة فقال: يا أبا موسى هذا مقام العائذين أنا فلان بن فلان المرادي، وإني كنت حاربت الله ورسوله. وسعيت في الأرض فساداً، وإني تبت من قبل أن تقدروا عليّ. فقام أبو موسى وقال: إن هذا فلان بن فلان وأنه كان حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، وأنه تاب من قبل أن نقدر عليه، فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فإن يك صادقاً فسبيل من صدق، وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه. فأقام الرجل ما شاء الله ثم أنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله[2] ولم يك صادقاً في توبته.

---

(١) البخاري، حديث رقم (٦٥٠٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٠.

روى ابن كثير: أن علياً الأسدي حارب الله ورسوله وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال. فطلبه الأئمة والعامة فامتنع ولم يقدروا عليه حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الزمر: ٥٣] فوقف عليه فقال يا عبد الله أعد قراءتها فقرأها عليه فغمد سيفه ثم جاء تائباً حتى قدم المدينة من السَّحر، فاغتسل ثم قدم مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه، فلما أسفروا، عرفه الناس فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم عليّ جئت تائباً من قبل أن تقدروا عليَّ. فقال أبو هريرة صدق فأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية، فقال: هذا علي قد جاء تائباً ولا سبيل لكم عليه ولا قتل فترك من ذلك كله. قال وخرج عليٌّ تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر فلقوا الروم فقربوا سفينة إلى سفينته من سفنهم فاقتحم على الروم من سفينتهم. فهربوا منه إلى شقها الآخر فمالت بهم فغرقوا جميعاً[(١)].

تلك خاتمة طيبة لتائب من عباد الله صدق في توبته وجهاده.

والآية سميت آية الحرابة، وهي تعني الحديث عن قطاع الطرق، وقطاع الطرق إنما يتصيدون ضحاياهم في الأماكن البعيدة المعزولة عن الناس، وعن الغوث لمن استغاث. فلذا روى ابن عباس: أن قطاع الطرق، إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإن قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا. وإن أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإن أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض[(٢)].

فكان هذا حكم الحرابة ... وهو ما عليه جمهور المسلمين الآن وهو جزاء موافق يناسب الجرم المرتكب، وهذه واحدة من الحدود التي أوجب الله العمل بها. وهي آية محكمة واجبة الأداء.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٤٩.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - ما وقع من عكل ما يزال يقع في مجتمعاتنا، فبعض الناس تحسن إليهم وتؤويهم وتقدم لهم كلّ عونٍ، وآخر الجزاء ارتكاب جريمةٍ ففي حقّ المحسن.

٢ - وجوب الحذر من كثيرٍ من الناس، فلا بدّ من ترك السذاجة التي يعقبها الأذى.

٣ - وفي المثل: (اتق شرّ من أحسنت إليه)[١].

المقطع التاسع: في التقوى نجاة من النار:

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة:٣٥-٣٧].

بعد الحديث عن الحرابة جاءت الآية تأمر بتقوى الله، وترك ما نهى عنه وحرم، وفي التقوى الفلاح ويرزق الله العبد التقي من حيث لا يحتسب ويجعل له من كل ضيق مخرجا، ويجعل له من أمره يسرا وهو معه بالتأييد والنصرة والمؤازرة، ويأمرنا أن نتخذ الوسيلة لمرضاته فالدعاء وسيلة، والسؤال بأسمائه الحسنى وسيلة، والتقرب إليه بأحب الأعمال الصالحة الخالصة إليه وسيلة، والتقوى وسيلة، فابتغوا إليه الوسيلة لتصلوا إلى غاياتكم، وجاهدوا في سبيله بالمال والنفس والكلمة الصالحة وتبيين الحق والوقوف في وجه الباطل. قال ﷺ (سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى ذي سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله)[٢] وقولنا بعد الآذان (اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته)[٣] وهي

---

(١) اللؤلؤ المرصوع: ١/ ٣٢.

(٢) المستدرك: ٣٦٩.

(٣) البخاري حديث رقم (٥٨٩).

أعلى درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله، وهو رسول الله ﷺ، ومن قال ذلك حَلَّت له الشفاعة من رسول الله ﷺ. فهذه الكلمة وسيلة لمرضاة الله ودخول الجنة.

والله يرينا أن الكفار والذين لم يدخلوا في هذا الدين ولم يعبدوا الله ويوحدوه لو جاءوا يوم القيامة بملء الأرض ذهباً ليفدوا به أنفسهم من العذاب لن يقبل منهم، فلا بد من عذاب ولن ينجيهم من النار شيء، فهم في عذاب مقيم، سرمدي.

المقطع العاشر: حدّ السرقة:

بعد حد الحرابة الآن يأخذ في حد السرقة.

فيقول تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المائدة:٣٨-٤٠].

روى ابن كثير: (أن أول من قطع يد السارق في الجاهلية قريش، فقد قطعوا يد دويك مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة كان قد سرق كنز الكعبة.

وحد السرقة واحد من أعمال الجاهلية التي أقرها الشرع واستمر العمل بها، هي والدية والقسامة والقراض)[1].

واشترط بعض الفقهاء النصاب الذي تقطع فيه واتفقوا على ألا يكون القطع في أقل من ثلاثة دراهم وبعضهم سماها ربع دينار وكان الدينار يومئذٍ يساوي اثني عشر درهماً وهي ربع الدينار فلا خلاف في ذلك، وممن قال ذلك الإمام مالك فعنده (النصاب ثلاثة دراهم) إن سرقها أو بلغ ثمن ما سرقه ثلاثة دراهم، مستشهداً بفعل رسول الله ﷺ فيما رواه أصحاب

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٢.



الصحيحين (قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم)[١].

وقد حاول بعض الناس أن يؤجل أو يخفف حكم القطع فاغضب ذلك النبي ﷺ وقال لأسامة (أتشفع في حد من حدود الله عزّ وجلّ) وخطب الناس فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

(أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[٢].

واختلفوا في رد المسروق بعد القطع وقيل لا يرد.

عن عبد الله بن عمر أن امرأة سرقت حلياً فجاء الذين سرقتهم رسول الله فقالوا: هذه المرأة سرقتنا. فقال رسول الله ﷺ (اقطعوا يدها اليمنى) فقالت - بعد القطع - هل من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: (أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك)[٣] فأنزل الله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

والآية ترد على المعارضين لحكم الله، والذين يثيرون الشبهات حول أحكام الله، والذين يرون في قطع السارق والسارقة عملاً لا إنسانياً كما كتبت بعض الصحف والأقلام، وكما يقول المعارضون لحكم الله تعالى:

ورد الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ هذه حقيقة ثابتة، وما

---

(١) البخاري: (٦٤١١).

(٢) البخاري: (٤٠٥٣).

(٣) المصدر نفسه.



داموا اعترفوا بأن السموات بما فيها والأرضين بما فيها ملك لله خالصاً فمن ذا الذي يعترض على صاحب الملك أن يتصرف في ملكه؟ فيعذب المجرم، ويغفر للتائب المقصر في حق الله عليه، لا في حق العباد، فلا بد من رد المظالم. والناس يعترضون على عقاب المجرم المعتدي على حقوق الشرفاء والكادحين العاملين الذين يسعون لعيشهم الشريف فيأخذ هذا جهدهم وعرقهم ولا يقدرون بذل المعتدي عليهم والذين يسعون من أجل أسرهم وعيشهم، يكرمون المجرم ولا ينظرون للمظلوم، تلك غاية الإجحاف. والله على التعذيب والعفو قدير، فهو العالم بمن يستحق عفوه ومن يستحق عقوبته.

هذه هي جريمة السرقة وعقوبتها، وسبقتها عقوبة الحرابة، ومن قبلهما عقوبة من قتل نفساً بغير ذنب في قضية ابني آدم فالقاتل كأنما قتل الناس جميعاً، ولابن آدم القاتل نصيب في كل جريمة قتل لأنه أول من سن القتل - والآن نأخذ في جريمة الزنا.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

إن من الأدب مع الله أن نتقبّل أحكامه، وأوامره بنفس طيبةٍ ورضاً بما أمر؛ لقوله عز وجل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥].

المقطع الحادي عشر: تلاعب أهل الكتاب بأحكام الله:

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة: ٤١-٤٥].

والآية تبدأ الحديث بالمنافقين الذين قال الله لرسوله عنهم لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواهم ولم تؤمن قلوبهم، فهؤلاء آمنوا باللسان قولاً ولم يؤمنوا بقلوبهم فعلاً، فاختلفت الجوارح واختلفت النتائج، والمشركون من العرب هم الذين يعنيهم القرآن بهذا القول، ثم يضيف إليهم الصنف الثاني في النفاق والكفر، من الذين هادوا، وهؤلاء سماعون للكذب استماع تصديق وإيمان وقبول، ﴿ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ فهم مرسلون من جهة، تأبى أن تظهر: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ يتأولونه تأويلاً خاطئاً عامدين قاصدين تبديل أحكام الله وشرعه. يقولون لمن أرسلوهم إلى رسول الله ﷺ وقد

زنـا رجل وامـرأة منهم إن قال: لكم حكم الزنـا الجلد فاقبلوه، وإن قال حكـم الزنا الرجم فلا تقبلـوه. فلـما قدم الذين بعثوهم لرسـول الله ﷺ وسـألوه عن حكم من زنا من الرجال والنسـاء وهم محصنون، فسـألهم رسـول الله ﷺ عن الحكم عندهم في التوراة فقالوا: نجلدهم مائة جلدة ثـم نحممها بالسـواد، ونركبهما حمارين مقلوبـين يطوفون بهما في الأسـواق، وكان قد اصطلحوا على ذلك مبطلين حكم التوراة وهو الرجم، فلما قالوا ذلك كذبهم عبد الله بن سلام وقال حكم التـوراة فيهما الرجم، فجاءوا بالتوراة، فنشروهـا ووضع أحدهم إصبعه على آية الرجم ليخفيها وقرأ ما قبلها وما بعدها. فأمره عبد الله بن سلام برفع يده فقرؤوا آية الرَّجم فأمر بهما فرجما[1].

فـالله يقول لرسـوله ﷺ لا تحزن لمسـارعة المنافقـين في الكفر، ولا تحزن عـلى بعض اليهود الذين يحبون سماع الكذب بما ينقله المنافقون لهم كذباً وبهتاناً عن المسلمين، والبعض من اليهود سـماعون لقوم آخرين من مرتكبي الجرائم الذين يبحثون لها عند حلول بإرسال هؤلاء لرسول الله ﷺ ولم يظهروا بأنفسهم يقولون لهم اسألوه عن الحكم عندهم في الإسلام لمن زنا.

فهـؤلاء أراد الله فتنتهـم بوقوعهم في هذا النفاق والتحريف لأحكام الشرع فلن يملك لهم أحد من الله شيئاً، ولن يَرُدْ ما قد أراده الله بهم، لم يُرِدْ الله لهم طهارة القلب ولا صفاء النفوس ولا الرغبة في هذا الخير. فلهم في الحياة هذه الخزي والذل والمهانة، ومن الأخرى العذاب العظيم.

من أخلاقهم أنهم سماعون للكذب المنقول إليهم، أكالون للحرام بكل أنواعه رشاوى وربا وغيرهمـا من المحرمات. فالله يقول لرسـوله ﷺ. إن جاءك هـؤلاء يطلبون الحكم فيما ارتكبوا من حرام، فأنت بالخيار أن شئت فاحكم بينهم وإن شئت فاعرض عنهم وفي كلا الحالين لن يضروك شـيئاً. فإن حكمت فاحكم بينهم بالقسـط والعدل ان الله يحب المقسـطين فحكم رسـول الله ﷺ بحكم التوراة وهو الرجم الذي أرادوا أن يتفادوه، فرجم اللذين زنيا.

والسؤال ... لم يحكموك وعندهم التوراة التي يؤمنون بها وفيها الحكم؟ - إنما هو الهروب

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٥.



والتخلي عن أحكام الله والتنصل مما أمر الله به. والله يقول أنهم بهذا التصرف ليسوا مؤمنين.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

والله يقول إنه أنزل التوراة. فيها هداية تبين للناس وحدانية الله، والطريق المستقيم المؤدي إلى جنة الله ورضوانه، المتمثِّل في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإن يقولوا للناس حسناً، وإن يحسنوا إلى الوالدين ويبروهم وان يحسنوا إلى الجار، وغيرها من الفضائل مما يسمو بالأخلاق والنفوس، وفيها نور يبين الحلال من الحرام والخير من الشرك والحق من الباطل، والطيب من الخبيث، وأمر الله أن ينفذ أحكام التوراة في بني إسرائيل النبيون موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى الذين استسلموا وخضعوا لله مؤتمرين بها أمر منتهين عمّا نهى عنه مُحلِّين ما أحل محرمين ما حرم، ويحكم بها وينفذ أحكامها كذلك الربانيون وهم الموحدون الله الذين لا يشركون به، والأحبار، وهم العلماء فهؤلاء الثلاثة. هم المنفذون لأحكام التوراة المطالبون بالحكم بها في بني إسرائيل لأنهم مؤمنون بها، ولأن الله تعالى وَكَلَ إليهم حفظها ورعايتها من التحريف والتبديل وكانوا شهداء، أنها من عند الله، وعلى ما فيها من خير لبني إسرائيل وسعادة، فلا تخشوا يا منفذي حكم الله في التوراة من الناس إذا حكمتم بها، فإنكم ستجدون من يعارضكم في تنفيذ أحكامها، فلا تخشوا الناس واخشوني، ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة:٤١]، أي لا تحرفوا كلام الله وتبدلوه وتبيعوه للناس محرفاً على أنه كتاب الله الحق ولا تقبلوا الرشوة مقابل ترك الحكم به ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[البقرة:٧٩] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾. روى الحاكم في مستدركه (أنه ليس الكفر الذي تذهبون إليه أي ليس الذي يخرج من الملة والله أعلم)[1]. ولكنه الكفر الذي وصفه

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٩.

الله والذي يخرج من الملة لأن التهاون بشرع الله وأوامره لا يقابل بالتهاون.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ساوت التوراة في أحكام القصاص والدماء، فمن قتل نفساً قُتل بها ومن فقأ عيناً فقئت عينه ومن جدع أنفاً جدعت أنفه ومن صلم أذناً صلمت أذنه ومن كسر سناً كسرت سنه، ومن جرح شخصاً جرح بمثل ما جرح وبنفس الكيفية والموقع، حتى يرتدع بنو إسرائيل، وهي غاية العدل والإنصاف، لكن بني إسرائيل حرفوا هذا الحكم، وجعلوا بين القبائل تفاضلاً، فبنو النضير يعتبرون أنفسهم سادة اليهود، ويعتبرون بني قريظة أضعف اليهود فلا يتساوون معهم في الدية والقتلى فإذا قتل قرظي نضرياً قتل به وإذا قتل نضري قرظياً لم يقتل به وإنما يدفعون دية لأهل القتيل، وهذا حكم مخالف لما شرع الله تعالى وبين أن النفس بالنفس... قصاصاً، كما حرفوا حكم الرجم السابق إلى ما تعارفوا عليه من الجلد والإركاب فلم يحكموا بها ولم يتعاملوا بها شرع الله فوصفهم بالظالمين[1]. فإمّا هو ظلم الشرك، أو هو ظلم التعدّي على حدود الله، وكلاهما مهلك، وصاحبه إلى النار.

وشرع من سبق شرع لنا إلا إذا نسخ فلهذا طبق رسول الله ﷺ هذا الحكم على المسلمين، روى البخاري بسنده أن (الربيع) عمة أنس بن مالك كسرت ثنية جارية فطلبوا إلى القوم العفو، فأبوا فقال رسول الله ﷺ: (القصاص) فقال أخوها، أنس بن النضر يا رسول تكسر ثنية فلانة؟ فقال رسول الله ﷺ: (يا أنس كتاب الله القصاص) قال: فقال: لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة، قال فرضي القوم فعفوا وتركوا القصاص. فقال رسول الله ﷺ: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه)[2].

---

(١) سنن البيهقي الكبير: ٨/ ٢٠.

(٢) البخاري: (٢٥٥٦).

فهذا تطبيق لأحكام هذه الآية التي نزلت في التوراة وعمل بها رسول الله ﷺ لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ.

عن عمران بن حصين: أن غلاماً لأُناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء، فأتى أهله رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله: إنا أُناس فقراء. فلم يجعل عليه شيئاً[1]. وعن قتادة أنه ذو إسناد قوي ورجاله ثقات، وعلل: لعل أن الغلام الجاني لم يبلغ فلا قصاص عليه، ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء واستعفاهم عنه.

بهذا يكون قتل النفس بالنفس معمولاً به في الإسلام[2] وكسر السن بالسن، والأُذن بالأُذن الذي ورد في الحديث يكون كله شرعاً للمسلمين إلى يومنا هذا مع بقية ما ورد في الآية.

وفي عهد ابن الخطَّاب ﷺ، لطم جبلة بن الأيهم في الحج أعرابياً وطئ ثوبه، فاشتكاه إلى عمر فاستدعى، عمر جبلة وطلب منه القصاص فقال جبلة: أنا ملك وهذا سوقة. وقال عمر بن الخطَّاب: إن الإسلام ساوى بينكما، وطلب من عمر أن يمهله إلى الغد فهرب وتنصر ومات على كفره. والشاهد أن الجروح قصاص.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال: (تقتل النفس بالنفس وتفقأ العين بالعين، وتقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح. فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونساؤهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس[3].

وبهذه الآية النفس بالنفس روى العلماء أن الرجل يقتل بالمرأة إذا قتلها. ويقول رسول الله ﷺ:

---

(١) النسائي: (٦٩٥٣).

(٢) البخاري: (٦٤٨٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٠.

(المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد من على من سواهم)[1].

وروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلا أن يدفع وليه إلى أوليائها نصف الدية لأن ديتها على النصف من دية الرجل. وإلى هذا ذهب أحمد بن حنبل. وللإمام أحمد بن حنبل قول صريح أن الرجل لا يقتل بالمرأة بل تجب ديتها.

كذلك نهى رسول الله ﷺ: (أن يُقتل مسلم بكافر)[2] لقوله ﷺ: (لا يُقتل مسلم بكافر)[3].

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، من فقئت عينه فعفا عن الجاني فهو كفارة للمجنى عليه، وكذلك من كسرت سنه أو أصابه أحد بجروح فعفا.

روى ابن جرير: عن أبي سفر قال: دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار فاندقت ثنيته، فرفعه الأنصاري إلى معاوية فلما ألح عليه الرجل قال شأنك وصاحبك قال وأبو الدرداء عند معاوية. فقال أبو الدرداء، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيهبه إلا رفعه الله به درجة وخط عنه به خطيئة)[4].

فقال الأنصاري: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي. فخلى سبيل القرشي. فقال معاوية مروا له بمال.

وفي القصاص في الجراحة لا يجوز أن يقتص في الجراحة حتى يندمل جرح المجني عليه، والدليل روى البيهقي أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقدني: فقال ﷺ: (حتى تبرأ) ثم جاء إليه فقال: أقدني، فأقاده. فقال يا رسول الله، عرجت فقال ﷺ: (قد نهيتك فعصيتني فأبعدك الله وبطل عرجك)[5] ثم نهى

---

(١) سنن أبي داود: ٢٧٥١.
(٢) البخاري: (١١١).
(٣) المصدر السابق.
(٤) الترمذي: (١٣٩٣).
(٥) البيهقي الكبير: ٨/ ٦٧.

رسـول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ. وذلك مخافة أن يتطور الجرح إلى شيء آخر فيفسـد الجسد كله فيضيع حق المجنى عليه.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - شرع من قبلنا شرع لنا، فلهذا استمر العمل بهذه الآية التي كانت عند أهل الكتاب في أحكام المسلمين إلى اليوم.

٢ - في الجاهلية أحكام ارتضاها الإسلام كالدية والقسامة، وارتضى ما كانت تقوم به قريش من سقايةٍ وحجابةٍ. وأمر بحفظ العهود التي أبرمت في الجاهلية، وأمر بإمضائها، وقال ﷺ: (كل حلفٍ كان في الجاهلية أو عقدٍ أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلاّ شدّةً)[1].

المقطع الثاني عشر: رسالة عيسى وإنجيله:

قـال تعـالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[المائـدة: ٤٦-٤٧].

والآن بعـد الحديث عن التـوراة يأتي الحديث عن الإنجيل. فيقـول تعالى: أنه أتبع - على أثر أنبياء بني إسرائيل السـابقين - عيسـى بن مريم، وجاء عيسـى مصدقـاً بالتوراة التي نزلت عـلى بنـي إسرائيل في عهد موسـى، فهـو مؤمن بها وباعتباره مـن أنبيائهم مأمـور أن يحكم بها، وآتينا عيسـى بن مريم الإنجيل، والإنجيل نفسـه مصدق بالتوراة التي سـبقته متفق معها ليس مخالفـاً وفي الإنجيـل هدى ونور، يهدي بما فيه من تعاليم إلى الطريق المسـتقيم بدعوة الناس إلى الصـلاة والعبادات وطاعة الوالدين والإحسـان إلى الجار وغيرها من مـكارم الأخلاق، ونور يبـين الحلال من الحـرام والخير من الشر ومعلوم أن الإنجيل جـاء بالتخفيف على بني إسرائيل

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٨٩.



من كثرة المحرمات التي عوقبوا بها نتيجة معصيتهم لله تعالى فقال عيسى عليه السلام ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ في الإنجيل هدى، وفيه موعظة وعبرة عن ارتكاب المعاصي حتى لا يحرم عليهم أشياء أخرى فهو يزجرهم عن ذلك.

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ وبنو إسرائيل لم يحكموا بما أنزل فهم فاسقون. والفسوق هو الخروج عن طاعة الله، وهو كفر محض، وصاحبه إلى النار.

إن بني إسرائيل الآن وصلوا في المعاصي حداً بعيداً، ولم يعد يردعهم عمّا هم فيه كتاب ولا رسول ولا قول، فهم قتلة سفاحون نشروا في العالم كل أنواع الفساد وقبائح الأخلاق، وفرقوا بين الشعوب في داخل البلد الواحد وأشاعوا الفتن، ودمروا النفوس والبيوت والقيم في ديار المسلمين وغيرها. فهم بهذا كافرون ظالمون فاسقون وكل من ترك منهج الله هذا قول الله تعالى وحكمه فيه.

القرآن المهيمن:

تحدث المولى عز وجل عن التوراة والإنجيل وما فيهما من أحكام، وبين أنه سبحانه وتعالى وكل بتنفيذ أحكامها إلى النبيين والربانيين والأحبار، وجعلهم حفظتها وأصاب التوراة والإنجيل التحريف لقصور البشر عن الحفظ.

وجاء الحديث عن كتاب الله الأخير إلى البشر، القرآن، والذي تكفل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩] فهو أولاً محفوظ من التحريف والتبديل والتغيير بحفظ الله له.

المقطع الثالث عشر: القرآن:

قال تعالـى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨-٥٠].

وأول القـول في القـرآن: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فهـو منـزل مـن عنـد الله تعـالى، ليس مـن صنـع محمـد ﷺ، وليـس ممـا يعلمـه بـشر، نـزل بالحـق والصـدق نـزل والحـق موضوعـه الـذي جـاء يحققـه، جـاء مـن عنـد الله بالحـق، مـع هـذا الرسـول الحـق، جـاء (مصدقـاً) لمـا سـبقه مـن كتـب معـترف بهـا، فالمصـدر الـذي جـاءت منـه واحـد، كـما قال تعالى في آل عمران: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٢-٤].

﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أميناً عليها معترفاً بها، مادته التي فيه تشمل كل ما في تلك الكتب وتزيد.

(فاحكـم بينهم) بالأحـكام التي تضمنها هذا الكتاب، فاقطع يد السـارق، واجلد الزاني غـير المحصن، وهكذا، وليعملوا بما فرض عليهم من عبادات، وما نهاهم عنه أشـياء، ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءك من الحق، وقد عارض العرب أحكام الميراث التي نزلت، وعجبوا أن يقسم الله تعـالى للجاريـة وللغلام وللمرأة وهم لا يحـوزون الغنيمة ولا يدفعون عـن القبيلة، وقالوا اسـكتوا عـن هذا حتـى نكلم محمداً ﷺ فيغـيره، ولقد وجـدت أحكام الله معارضة شـديدة في البداية وما زالت طوائف من المسـلمين يعطلون أحكام الله ويقفون ضدها. فامض مع أحكام الله تنفيـذاً ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائـدة: ٤٨] فالنـاس أعداء لما جهلوا

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ كل أمة لها تشريع يناسب ظرفها وزمانها، فلليهود شرعة ومنهاج في الحياة يخالف ما عليه النصارى، فقد جاء الإنجيل بالتخفيف من كثرة المحرمات التي حرمت على بني إسرائيل بسبب المعاصي وقال عيسى ﷺ ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠] ففي شريعته تخفيف عمّا كانوا عليه في عهد موسى ﷺ وجاءت شريعة محمد ﷺ مكتملة تخالف في بعض تشريعاتها ما كان عليه النصارى وما كان عليه اليهود ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ لو شاء الله لوحّد كل التشريعات في كل الأمم ولكن الله تعالى أدرى بمصالح العباد فجعلها تختلف تشريعاً وتتفق توحيداً لله تعالى ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ فهو ابتلاء لكم أتقبلون تشريع الله لكم وتنفذون أحكامه أم تأبون؟؟

﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ تسابقوا في تنفيذ شرعه وأحكامه وطاعته فهو مجال التنافس للفوز بمرضاة الله تعالى ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ إليه المصير يوم القيامة ليجازي الناس على ما قدموا من خير وتنافسوا فيه فهناك الجزاء على هذا التسابق... والجزاء على التخلف عنه ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ بين لكم من هو على الحق ومن هو على الباطل، من هو المهتدي ومن هو الضال. من وحد الله ومن أشرك به.

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ تأكيد العمل بهذا الكتاب والتحذير من أهواء المعارضين وشبههم التي يريدون بها التحلل من بعض هذا الشرع، إن اليسير من التحلل من هذا الشرع يهلك الأمة ويوجب سخط الله تعالى. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد: ٢٥-٢٨].

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ فإن انصرفوا عن الحكم بهذا الكتاب، ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ

ذُنُوبِهِمْ ﴾ فلا بد من عقاب لبعض الذنوب وليس كلها، وعقاب الله إذا وقع رادع، فكيف إذا حبس رزقه؟ إذ أصابهم بالقحط؟ وكيف إذا زرع بينهم الفتنة؟ وكيف إذا أصابهم بالأوجاع والأسقام؟ إن الأمم السابقة لم تحتمل عقاب الله فكيف بهذه الأمة؟ إنَّ الله يوجه أنظار العباد إلى الأمم السابقة عظة وعبرة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[يوسف: ١٠٩]﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ القلة من العباد هي الشاكرة الحامدة لربها والكثرة هي الفاسقة ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ أيريدون الرجوع إلى الوراء للجاهلية لتحكم بينهم؟ أيحبون حكم من لا يملك حق التشريع والتقنين ويتركون حكم الله الذي يرفعهم به؟ وتتنزل به عليهم رحماته وبركاته؟ - فما من حكم تنزل به الرحمة وتعم به البركة، ويأمن فيه العباد إلاَّ حكم الله، لقوم يوقنون أنه الحق وأن العدل فيه.

تَمَّ الحديث عن القرآن المهيمن على ما سبق من كتب.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - اليهود والنصارى يقدّسون ـ ظاهريّاً ـ التوراة والإنجيل، ولا يعملون بما فيهما من أحكام، لهذا شبه الله تعالى اليهود بالحمير فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة:٥].

٢ - السعادة تكمن في العمل بما أنزل الله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة:٦٦]. ولكنهم فسقوا وظلموا وكفروا ومصيرهم إلى النار.

والآن بعد أن فضح اليهود والنصارى وبيان فسقهم يوجه القرآن الأمة المؤمنة أمة محمد ﷺ إلى المفاصلة بين المسلمين، وأهل الكتاب.

المقطع الرابع عشر: المفاصلة بين المسلمين وأهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥١-٥٦].

أسباب النزول

روى ابن كثير عن عطية بن سعد قال جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أن لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله. فقال عبد الله بن أُبي: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله ابن أُبي (يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه) قال: قد قبلت فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾[1].

روى أبو داود عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: لما أصاب[2] رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: (يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً) فقالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٥.

(٢) سنن أبي داود: ٨/ ٢٣٤ (٢٦٠٧).

لم تلق مثلنا). فأنزل الله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢][1] فقال عبادة بن الصامت: إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم، كثيراً سلاحهم، شديدة شوكتهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ولا مولى لي إلا الله ورسوله. فقال عبد الله ابن أبي بن سلول: لكني لا أبرأ من ولاية يهود إني رجل لا بد لي منهم فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا الحباب أرأيت الذي نفست به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه) فقال: إذن أقبل فأنزل الله فيه الآية.

(وروى أنه عندما نقض بنو قينقاع العهد مع رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد، حاصرهم النبي ﷺ حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبد الله بن أُبي ابن سلول فقال: يا محمد أحسن في موالي، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: (أرسلني) وغضب رسول الله ﷺ حتى رؤى بوجهه ظللاً ثم قال: (ويحك أرسلني) قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني أمرؤ أخشى الدوائر - فقال رسول الله ﷺ: (هم لك) ثم أمرهم بالجلاء فخرجوا)[2]. بهاتين الروايتين، يبدو الآن موقفان، موقف مستجيب لله تعالى منفذ لأمره بترك موالاة اليهود والنصارى، والآخر عاصٍ لله لم يستجب لأمره متشبث بموالاة اليهود والنصارى، والله حينما حذر من موالاتهم وصف من والاهم بأنه منهم، منهم ديناً وخلقاً وسلوكاً ومنهجاً، فهذا عبادة بن الصامت مستجيب لله، وعبد الله بن أُبي بن سلول عاصٍ لله متشبث باليهود والنصارى. فهو بهذا ارتد عن دينه الذي لم يدخل فيه أصلاً.

بهذا ينهي الله تعالى عباده المؤمنين من موالاة اليهود والنصارى ونهاهم أن يستنصروا بهم، فإنهم أعداء وقد سبق القول من الله تعالى في سورة آل عمران لهذه الأمة فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ

---

(١) ابن هشام: ١/ ٥٥١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٣٤.

وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

والآن ينهاهم أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء ويقول من يتخذهم أولياء بعد هذا فإنه منهم، والله تعالى ﴿ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴾ لا يهدي من خالف أمره عمداً وخالف نهجه عمداً وخالفه شرعه عمداً. فهو ظالم، والله لا يهديه.

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

المنافقون ابن أُبي ورهطه يتعشمون أن تكون لليهود دولة، فهم يتمسكون بهذا الأمل، فإن صارت لهم دولة كانت للمنافقين حظوة عند اليهود لهذا استمسكوا بموالاتهم، ولم يتخل عنهم ابن أُبي في حين تخلى عنهم عبادة بن الصامت، وهم في عتادهم القوي وعددهم الكثير ووالى الله ورسوله. والله يقول: ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ فعسى الله أن يأتي بفتح مكة وهزيمة قريش وحلفائها، وصعود نجم المسلمين والإسلام أو أمر من عنده بضرب الجزية على اليهود والنصارى، أو بطردهم من المدينة ... فيصبح المنافقون بموالاتهم لهؤلاء ومخالفتهم لأمر الله نادمين، وهذا ما حدث فقد انتهى كل وجود لليهود في المدينة، فبعد خمس سنوات من هجرة النبي ﷺ للمدينة لم يبق فيها يهودي، وتحسر المنافقون فعلاً بما أصاب اليهود في المدينة حين أجلى الله بني قينقاع وبني النضير وقتل مقاتلي بني قريظة وسبي النساء والأطفال وقَسّم الأموال وذهبت أماني المنافقين أدراج الرياح، وتَصَرُّفُ ابن أُبي أخذ عند الله تعالى منحى آخر وحكماً جديداً، وهو حكم الرِّدة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

تتحدث الآيات عمن ارتد عن دين الله، والردة إما بقول يخرج صاحبه صريحاً من الملة أو بفعل أو ترك شيء من الدين عمداً أو إنكاره.

فتصرف عبد الله بن أُبي بن سلول خروج من الدين صريح وردة، وكذلك من رجع من الحق للباطل فقد ارتد فالله تعالى يأت بخير ممن ارتد، وأول صفات من يأت به الله، يكون ممن أحبهم الله، وكذلك هم أحبوه، ويكون لين الجانب متواضعاً خاضعاً خلقاً وسلوكاً مع إخوانه من المؤمنين، أما جانبه مع الكفر فهو شديد عليهم لا يريهم جانب اللين ولا الرحمة، مجاهداً في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر رسالته، ولا يخشى في الله لومة لائم، فلا يخضع لقرابة ولا لعظيم ولا لملك ولا لقبيلة، أمر الله تعالى أعظم عنده وأهم. والذي يصفه بهذه الصفات مَنّ الله عليه من فضله وأسبغ عليه من نعمه، وهو فضل الله يؤتيه من يستحقه من عباده. وهو العليم بمن يستحق.

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

بعد أن نهى الله تعالى عن موالاة اليهود والنصارى، أمر بموالاة الله تعالى ورسوله ﷺ وموالاة المؤمنين، الذين وصفهم بأفعالهم التي تثبت أيمانهم حقيقة وهي ﴿ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾. والإيمان كما بين الرسول ﷺ (ما وقر في القلب وصدقه العمل)[1] فأفعالهم تدل على إيمانهم، والصلاة علامة الإيمان.

ومن يتول الله ورسوله والمؤمنين فهؤلاء هم حزب الله وحزب الله غالب، وحزب الله منتصر.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - النهي عن موالاة اليهود درءاً لخطرهم لأنهم أهل الدسائس والمؤمرات والفتن، ولايستطيعون العيش الأوسط أمة ممزقة، وكذلك كانوا في صدر الإسلام حتى حسمهم ﷺ جلاءً وقتلاً.

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٤٠٤) رقم (٥٢٣٢)، قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٠٩٨): موضوع، وروي من كلام الحسن البصري.

٢ - الجماعة في الإسلام أصل يدعو الله عباده اليها لما فيها من القوة والتمكين والرفعة. وهم الحزب الإلهي الغالب.

٣ - لا ينصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها من توحيد الله والنهج النبوي الكريم.

٤ - من حالف اليهود فقد إرتد كما فعل عبد الله بن أبي ولقول الله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾.

والآية لم تتحدث عن عقوبة دنيوية لمن إرتد عن الدين وإنما بين ﷺ حكم الردة فقال: (من بدل دينه فأقتلوه)[1] وقوله ﷺ (لا يحل دم إمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة)[2] ويحتج أهل الشبهات بأن القرآن لم يبين حكماً عقابياً في الدنيا للمرتد وعلى الناس الرجوع الى السنة المبينة للقرآن فنحن نأخذ الأحكام من السنة لا من القرآن.

٥ - عقاب الردة القتل فقد قاتل أبو بكر الصديق المرتدين وأعادهم للصف الإسلامي ونفذ عقوبة الردة في إمرأة إرتدت والصحابة متوفرون حوله ولم ينكروا[3].

٦ - ونفذ معاذ بن جبل عقوبة الإعدام في يهودي،إرتد باليمن تنفيذاً لوصية ﷺ له (أيما رجل إرتد عن الإسلام فأدعه فإن عاد وإلا فأضرب عنقه وأيما إمرأة إرتدت عن الإسلام فأدعها فإن عادت وإلا فأضرب عنقها)[4].

٧ - وفي عصرنا الحديث نفذ جعفر محمد نميري في السودان حكم الردة في محمود محمد طه بعد أن إستتابه فلم يتب.

---

(١) البخاري حديث رقم ٢٨٥٤.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٤٨٤.

(٣) سبل السلام للصنعاني ج٣/ ٥٠٠.

(٤) سبل السلام للصنعاني ج٣/ ٥٠٠.

المقطع الخامس عشر: الدين بين المستهزئين والكارهين له:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [المائدة: ٥٧-٦٣].

بعد الحديث عن الردّة يأتي الآن الحديث عن الاستهزاء بالدّين وشعائره. فالكفار الآن، وأهل الكتاب من يهود ونصارى كلهم مجتمعون على حرب المسلمين، لضعف حكامهم وارتمائهم في أحضان اليهود والنصارى والخوف منهم. فالحجاب المأمورة به المرأة المسلمة موضع سخرية من أمة اليهود والنصارى وشرعت بتحريمه في بلادهم وأمر اليهود والنصارى حكام المسلمين الآن بتغيير منهاج الدراسة الدينية وإبعاد كل آية تحارب اليهود، وتدعو إلى الجهاد، وتكفر أهل الكتاب من مناهج الدراسة كلها أوامر أطيعت من قبل حكام المسلمين وحتى الدراسة التي تقوم على الدين وتحفيظ القرآن محاربة تماماً، وكذلك أوقفوا ما كانت تجمعه الجمعيات الخيرية المسلمة من أموال المسلمين المغتربين وردها على الفقراء والمحتاجين في بلاد المسلمين منعت وجففت منابعها وسُجن القائمون بها حرباً لدين الله.

فالإسلام الآن محارب في بلاد الغرب ومحارب داخل بلاد المسلمين عن طريق بعض ذوي النفوذ. فالولاء مع أهل الكفر قائم بينهم وبين بعض المسلمين حتى أصبحنا الآن نشهد مع بداية القرن الحادي والعشرين الميلادي نشهد أحط أيام المسلمين، فالسيادة الآن لهم أمراً ونهياً وتشريعاً وتقنيناً... وسكوت الحكام عن مخازي أهل الكتاب دفع أهل الكفر إلى الاستهزاء

بشخص رسول الله ﷺ فالدنمارك جرائدها رسمت رسول الله ﷺ في صورة خنزير وصورته على أساس أنه إرهابي واستهزأت برسول الله وقامت المظاهرات في كل مكان مطالبة بمقاطعة الدول التي تسيء إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ولم تستجيب الدول وظلت الإساءات تترى حتى تطاول بابا الفاتيكان نفسه على شخص رسول الله ﷺ بالسب والشتم.

هؤلاء هم أهل الكتاب وجدوا الساحة خالية من رادع فتجاوزوا الاستهزاء بالصلاة إلى الاستهزاء بالرسول الكريم والأمة كلها، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ وقد غاب العقل عنهم حقيقة وحسبوا أن نشوة الانتصار الآن، والقدرة التسليحية التي يمتلكونها حسبوها دائمة، وأن المسلمين لن ينهضوا،لكنها الأيام دول، وسينتهي تجبر الطغاة ويأتي النصر للمسلمين بإذن الله ليصبحوا على ما فعلوا نادمين.

روى ابن كثير[1] بسنده عن عبد الله بن محيريز أخبره - وكان يتيماً في حجر أبي محذورة قال قلت لأبي محذورة - يا عم: إني خارج إلى الشام وأخشى أن أسأل عن تأذينك فأخبرني أن أبا محذورة قال له: نعم خرجت في نفر وكنا في بعض طريق حنين مقفل رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ في بعض الطريق، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون فصرخنا نحاكيه ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه فقال رسول الله ﷺ: (أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع؟) فأشار القوم كلهم إليّ وصدقوا فأرسل كلهم وحبسني وقال: (قم فأذن) فقمت ولا شيء أكره إليّ من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ فألقى عليَّ رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه قال: (قل الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر لا إله إلا الله) ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة ثم أمرَّها على وجهه ثم

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٧.

بين ثدييه ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سرة أبي محذورة. ثم قال له رسول الله ﷺ (بارك الله فيك وبارك عليك)[1] فقلت يا رسول الله: مرني بالتأذين بمكة. قال: (قد أمرتك به) وذهب كل شيء من كراهية لرسول الله ﷺ، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ فأذّنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ وأخبرني ذلك من أدركت من أهل محمد من أدرك أبا محذورة واسمه (سمرة بن معير بن لوزان) أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة وكان مؤذنه بمكة.

يمضي القرآن في الحديث عن اليهود والنصارى فبعد أن نهى عن موالاتهم، واستهزاء الكفرة والمشركين بالدّين وشعائره يبيّن في الآيات الآتية أسباب كراهيتهم للمسلمين، وعقاب الله لهم.

الخطاب موجه لرسول الله ﷺ يقول لأهل الكتاب ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

هل غير هذا الإيمان من جانبنابالله وبالقرآن الذي أنزل الله لهذه الأمة وبالتوراة والإنجيل اللذين أنزلا عليكم، هل غير هذا من سبب لهذه الكراهية البادية منكم لنا. نحن آمنا بالقرآن وصدقنا أنه الحق وأنه نزل من عند الله وأننا نعمل بما فيه نحل حلاله ونحرم حرامه ونهتدي بهديه وأنتم كذبتم ولم تؤمنوا ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ قل لهم يا محمد هل أخبركم بشر عقاب جازى الله به عباده العصاة، شر عقابه ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ وأنتم ملعونون فقد قال الله فيكم ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة: ٧٨] ولعنكم بقوله ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ ﴾[سورة المائدة، الآية ١٣].

وقال عنكم ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

---

(١) المستدرك: ٢/ ١٩٩.

﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ وأنتم مغضوب عليكم بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ٦١].

شر عقاب أصابه (اللعنة وهي الطرد من رحمته) وغضبه عليكم ومن غضب عليه الله فقد (هَوَى) وسقط فلا رفعة ولا حياة. ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ وأنتم مسخكم الله قردة حين اعتديتم في السبت الذي أمرتم بالطاعة فيه فصدتم السمك فيه، وجعلكم خنازير وعبدة للشيطان بالعجل والأصنام والمال، وغير ذلك فأنتم بهذا الذي حل عليكم من الله أنتم في شر منزلة وشر مكان وشر مقام، فأنتم أبغض الخلق إلى الله تعالى وهل بعد ذلك عقاب.

وقال تعالى عنكم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾[البينة: ٦].

ومن صفات هؤلاء اليهود إلى جانب ذلك النفاق والمخادعة فقال تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ﴾.

هذه صفاتهم إذا لقوا المؤمنين قابلوهم بالبشر والترحاب الظاهري والقلوب نحو المسلمين تقطر دماً عليهم وحقداً. وكذلك فعل بنو النضير مع رسول الله ﷺ وأصحابه عندما جاءهم ليأخذ دية القتيلين فرحبوا به وأجلسوه وتآمروا على قتله وطلبوا من يلقي عليه حجراً فجاءه الخبر من السماء فقام ثم أجلاهم. وقدموا له الطعام في خيبر وهو مسموم.

﴿ وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ﴾لم يكن في قلوبهم إيمان ولكنها عامرة بالكفر فدخلوا عليكم بالكفر وخرجوا به لم يتغيروا ولم يتبدلوا ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴾ فهم مرصودون من الله وتحت إحاطته.

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

أكثرهم يسارع في فعل ما يوجب الإثم، كقولهم للرسول ﷺ ﴿ رَٰعِنَا ﴾(السام عليك). ويسارعون في شتم المسلمين والتشبب بنسائهم ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ هم معتدون ولا يعتدي عليهم. ويسارعون في أكل كل مال حرام ولا يبالون في ذلك فقد حَرَّفوا التوراة وباعوها وأكلوا ثمنها وحرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها، وأكلوا الربا، وأكلوا أموال الناس غشاً وخداعاً هذه هي أخلاقهم، وهذه هي حقيقتهم.

أين الربانيون والأحبار علماء اليهود والموحّدون منهم؟ لم لا ينهون هؤلاء عن هذه المفاسد وعن قولهم الكلام الذي يأثمون فيه؟ وأكل المال بالباطل والمحرم لولا ينهونهم عن ذلك!! ولكنهم لم يفعلوا فلهذا حلت عليهم اللعنة لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس الصنيع صنيعهم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١- هناك أهل سعادة أراد الله بهم خيراً فردهم عن طريق الشر الذي ساروا فيه إلى طريق النعمة التي أرادها لهم. فمثال أبي محذورة كمثال عمر بن الخطّاب ذهب ليقتل النبي ﷺ، فأُخبر أن أخته أسلمت فذهب إليها وضربها ثم أسلم. وحمزة رضي الله عنه أخذته الحميّة لابنِ أخيه رسول الله ﷺ لمّا آذاه أبو جهلٍ فنتقم لابن أخيه، وأعلن أنه على دينه.

٢- الكراهية قائمة بين من يعصي الله ويطيع الله، وبين اليهود والمشركين من جهة وأهل الإيمان وهي عداوة لا تنتهي حتى تقوم الساعة، ولا بد من تذكر ما جرى بين ابني آدم وقول الله: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [المائدة: ٨٢].

٣- وقوله عز وجل ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

٤- الحديث يقول: (الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها أئتلف وما تناكر منها أختلف)(١).

---

(١) البخاري ١١/ ٤٩٥.

المقطع السادس عشر: سبّ اليهود للمولى عزّ وجلّ:

يتواصل الحديث عن أهل الكتاب وفسادهم. وكراهيتهم للمسلمين، والآن يأتي تطاولهم على الحق بالشّتم.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المائدة: ٦٤-٦٦].

يخبر الله تعالى: أن اليهود لعنهم الله وصفوه بالبخل تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً - وقالوا يد الله مغلولة، كناية عن عدم العطاء. فرد الله تعالى عليهم بدعوة أصابتهم جميعاً. قال تعالى: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ (فلا تخرج من بين أيديهم رحمة ولا عطاء، فهم أبخل الناس وأجبنهم في إخراج المال والبذل ﴿ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ بهذا القول القبيح طردهم الله تعالى من رحمته. ثم يبين سبحانه عطاءه فقال: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ بل عطاؤه ممتد، ويداه بالإنفاق مبسوطتان ليلاً ونهاراً، ينفق كيف يشاء.

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ (أن رسول الله ﷺ قال: إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء[1] الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه قال وعرشه على الماء وفي يده الأخرى الغيض أو الفيض يرفع ويخفض وقال يقول الله تعالى: أَنفق أُنفق عليك)[2].

---

(١) السح: الصب الكثير. الفيض: النقص.

(٢) البخاري: (٦٩٧٦).



عطاءه لم ينقطع وما في يده لم ينقص منذ خلق السموات والأرض وهو تعالى يأمر بالإنفاق وينهى عن البخل، ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ ﴾[الحديد: ٧]. ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾[سبأ: ٣٩]. وينهى عن التقتير والتبذير ويقول: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أن إنزال القرآن الكريم على رسول الله ﷺ نعمة، من أجل النعم يرفع الله به شأن هذه الأمة وشأن حاملي هذا الكتاب منزلة ومقاماً في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الأنبياء: ١٠]، وقال ﷺ (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)(١)، وقال: (إنّ للهِ أهلين من النّاسِ)، قِيل: مَن هُم يا رسول اللهِ؟ قال: (أهل القرآن هم أهل اللهِ وخاصّتُه)(٢) فهي خيرية وشرف لحامل القرآن بشهادة الرسول الكريم وقوله هذا القرآن الذي يعرف اليهود قيمته ومنزلته، زاد كثيراً منهم حقداً وحسداً لهذا الرسول ولهذه الأمة، جاوزوا به الحد طغياناً وجاوزوا به الحد كفراً. ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾.

وكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة، لهذا ألقى بينهم العداوة والبغضاء، فلا تأتلف قلوبهم ولا تجتمع أرواحهم فهم في فرقة وشتات ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر: ١٤] ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[المائدة: ٦٤].

يبين الله تعالى: أنهم دعاة فتنة وأصحاب كيد ومكر، ومشعلوا الحروب فما دخلوا

(١) البخاري: (٤٧٣٩).
(٢) مسند الإمام أحمد: ٣/ ١٢٨.



في مجتمع إلا فرقوا أهله ومزقوه، فهم لا يأمنون إلاَّ وسط افتراق الناس وتمزقهم، فعاشوا في المدينة بين الأوس والخزرج وقد مزقوا القبيلتين وباعوا السلاح في هذا الجو وأثروا، فالحروب سوق تجارتهم، وراحة أنفسهم، ومكان أمنهم، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله وأبطل كيدهم، ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ هم أسباب الفساد في الأرض هم الذين نشروا تعري النساء وبيع الخمر وموائد القمار، والربا ... واللواط وغيرها من الموبقات.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فهو سبحانه وتعالى يبغضهم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١- بعد تعديهم على المولى جل وعلا، فلن يتورعوا عن التعدي على مَن دونه من الخلق، فلا كبير ولا عظيم عند اليهود.

٢- العالم الإسلامي والعربي مُمَزّق الآن بفعل اليهود والنصارى، وتعدّيهم على المسلمين والعرب حكّاماً وشعوباً.

٣- أوصى الله عز وجل هذه الأمّة أن تعتصم بكتابه وتجتمع عليه، قال عز وجل: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. بعد محاولة اليهود تمزيق شمل المسلمين في المدينة نزلت هذه الآية.

٤- جهل أهل الكتاب بالدين جعلهم أبغض الناس إلى الله.

٥ - تكذيبهم الرسل صفة دائمة فيهم، وهي سبب تعاستهم، قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

رحمة الله ونعمته مربوطة بتقوى الله وإقامة شرعه فمن فعل ذلك فالغنى والنعمة والرحمة تنزل عليه.

المقطع السابع عشر: لو أنهم آمنوا:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

أهل الكتاب – باعتبار علمهم بهذا الرسول الموصوف في كتبهم، وحدثتهم به رسلهم، ورأوه عياناً – هؤلاء مع هذا العلم الوفير عن الرسول والدين والمؤمنين لو آمنوا وخافوا الله واتقوه لكان الخير الذي ينتظرهم جزاء الإيمان والتقوى عظيماً؛ لكفَّر الله عنهم سيئاتهم – وما أعظمها – ولأدخلهم جنات النعيم، ولكنهم أبوا فحرموا هذا الخير. ولو أنهم – قبل مجيء رسول الله ﷺ – وعندهم التوراة والإنجيل فأقاموهما وما تبعهما من أحكام متنزلة من عند الله لو أقاموا ونفذوا ما فيهما من أوامر ونواهي وأحلوا ما أحلتا وحرموا ما حرمتا لأغدق الله عليهم النعمة فبسط رحمته غيثاً يعم الأرض فتنبت فتخرج الأرض من باطنها من البقول والخير وهو ما تحت أرجلهم، وتثمر حدائقهم الفواكه والثمار، فأكلوا من فوقهم، ولكنهم أجرموا ولم يفعلوا ولو فعلوا لذاقوا من النعم ما لم يكن لهم في حسبان، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ٥].

عن زياد بن لبيد، أنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: (وذلك عند ذهاب العلم) قال: قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: (ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون بما فيهما بشي؟)[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (١٨٤٠٣).

فالتـوراة والإنجيـل العمـل بهـما معطـل، فلـم ينتفعوا بهـما، مع هـذا في أهل الكتـاب أمة ﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلة وسطية في دينها لا تفريط ولا إفراط بين بين ولكن الأكثر منهم فاسقون.

المقطع الثامن عشر: عصمة الرسول ﷺ:

قـال تعـالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٦٧-٦٩].

بعد الحديث عن الاستهزاء بالدّين وشـتم الله عز وجل يأتي الحديث لرسـول الله ﷺ أن يُبلّغ الرسـالة مهما وجد في طريقه من إسـاءات وتجريح. فالنبي والمسـلمون عندما هاجروا إلى المدينـة ونجـوا من كيد كفار قريش بعثت قريشـاً تهديداً للمسـلمين. أن لن تنجـوا منا حتى لو وصلتم المدينة وكذلك هددوا الأوس والخزرج لأنهم آووا المسلمين. فلهذا كانوا لا يبيتون إلا في السـلاح. لهذا روى أن عائشـة رضي الله عنها قالت أن رسول الله ﷺ بات ليلة وهي إلى جنبه قالت فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: (ليت رجلاً صالحاً يحرسني الليلة) قال فبينما أنا على ذلك إذ سـمعت صوت السـلاح. فقال: (من هذا؟) فقال: (أنا سعد بن مالك) فقال: (ما جاء بك؟) قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت فسمعت غطيط رسول الله ﷺ[1].

هذا الدين الذي جاء الكتاب منزلاً به، كل أوامر الله ونواهيه طلب من رسـوله أن يبلغها للنـاس، كل النـاس، فإن لم يفعل النبي ﷺ ما أمر به من بـلاغ خوفاً من أحد، أو جماعة أو تهاوناً - وحاشاه - فما بلَّغ الرسالة ولا أدى ما أمر به، والله يضمن لرسوله ﷺ (العصمة) فلا تمتد إليه

(١) صحيح مسلم: (٢٤١٠).



يد بقتل ولا تمتد إليه يد بضر فهو آمن بحراسة الله له، سالم برعاية الله له، فليمض وقد تحققت العصمة له ﷺ.

حين كان في غزوة ونام تحت شجرة علق عليها سيفه فجاء أعرابي وأخذ السيف وسله ثم أيقظ الرسول ﷺ والسيف مسلط وقال له: (من يعصمك مني؟) قال ﷺ (الله) فوقع السيف من يده وسقط الأعرابي على الأرض مبهوتاً، ونادى رسول الله ﷺ أصحابه وأراهم الأعرابي ساقطاً على الأرض والسيف بجانبه عاجزاً أن يقتل رسول الله ﷺ. تحقيقاً لعصمة الله له.

ووضعت اليهودية له السم في ذراع البهيمة الأيمن في خيبر، ونجا منه لأن الذراع أخبره أنه مسموم ونجا من محاولة سحر لبيد بن الأعصم له.

إن الله لا يهدي الكافرين الذين لم تقنعهم آيات الله في الكون، والقرآن ليؤمنوا فهم ضالون عنه الطريق ولن يهتدوا إليه.

والرسول ﷺ لو كان كاتماً شيئاً لكتم قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. ولكتم: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾[الأحزاب: ٣٧]. ولكتم: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾[عبس: ١-٢].

ولكنه ﷺ بلغ في غير توانٍ ولا حرج، حتى أشهد أمته في حجة الوداع، على أنه بلغ وشهدوا له. قال: (أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول: (اللهم هل بلغت) ثلاثة مرات[1].

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: (أيها الناس أي يوم هذا؟) قالوا: يوم حرام قال: (أي بلد هذا؟) قالوا: بلد حرام. قال: (وأي شهر هذا؟)

(١) مسلم ١/ ٣٩٧.



قالوا: شهر حرام، قال: (فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا) ثم أعادها مراراً ثم رفع أصبعه إلى السماء فقال: (اللهم هل بلغت؟) مراراً. قال يقول ابن عبّاس والله لوصية إلى ربه عزّ وجلّ - ثم قال: (ألا فليبلغ الشاهد الغائب. لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[١].

وظل كذلك رسول الله ﷺ يؤدي رسالة ربه محروساً من أمته حتى نزل عليه قوله في هذه الآية: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ عند ذلك أخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، وقال لحراسه (أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عزّ وجلّ)[٢].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فعلى الرسول البلاغ، أما الهداية فمن الله، والله لا يهدي القوم الذين اختاروا طريق الكفر.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - عصمة الله تعالى لنبيه ﷺ من أكبر الشواهد والدلائل على قدرة الله تعالى، وصدق الآية في حماية النبي ﷺ، وأن يمشي بين الناس بلا حرسٍ ولا رقيبٍ إلاّ الله، ولهذا باءت كلّ محاولات قتله بالفشل، وحماه الله تعالى وهو نائم، وحماه وهو يجاهد، وحماه وهو يدخل دور الأعداء.

٢ - والآية تذكر بحماية الله لإبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا تحرقه، وحمايته لإسماعيل عليه السلام وأبوه يمرّر السكين على حلقه فلا تذبح، وكذلك يُنجي الله المؤمنين.

٣ - ﴿ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ ﴾ أي لستم على دين أو على هدى مالم تنفذوا مافي التوراة والإنجيل والتوراة والإنجيل يأمرانهم بإتباع هذا النبي وهذا الدين ومن لم يتبع فلن يقبل منه دين والله يقول: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا ﴾

---

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (٢٠٣٧).

(٢) الترمذي، جـ١٠، حديث رقم (٣٠٤٦).



بعد أن أُمر الرسول ﷺ بتبليغ الرسالة، وبلّغ الرسول ﷺ يأمره ربّه أن يقول لأهل الكتاب

بين الله تعالى في آخر سورة النساء كفر من فرق بين الله ورسله واتبع بعضاً وترك بعضاً. فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ ﴾[النساء: ١٥٠-١٥١].

والآن يخاطب أهل الكتاب الذين كفروا برسول الله وكتابه وأبوا أن يؤمنوا به ويتبعوه، يقول: لستم على دين، ولا على منهج ولا تقولوا أنكم أتباع موسى وعيسى حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم، فإقامة التوراة والإنجيل إتباع ما فيهما من وصف هذا النبي ﷺ وإتباع منهجه وما أنزل عليه من قرآن للهداية، ويؤكد الله أنّه أنزل القرآن على محمد ﷺ، الذي أكرم الله به العرب لغة وأمة، هذا القرآن يزيد أهل الكتاب طغياناً وتكبراً وحقداً على هذه الأمة المصطفاة المختارة، فلن يؤمنوا ولن يستجيبوا، فلا تأس ولا تحزن على من كفر، فهم كافرون.

ويؤكد الله تعالى جزاء من آمن بالله ووحده واتبع الرسول الذي أرسل إليهم، وآمن باليوم الآخر بعثاً بعد الموت، للجزاء، وعمل في هذه الحياة الصالحات من صلاة وصيام وحج وبر للوالدين وغيرها من الصالحات من كل الملل من أمة محمد ﷺ ومن ملة اليهود في عهد نبيّها موسى عليه السلام والنصارى في عهد نبيّها عيسى عليه السلام والصائبين في عهد نبيّها، واتبع محمداً ﷺ بعد مجيئه ومنهجه فلا دين بعد ظهور محمد ﷺ إلا الإسلام ومن اتخذ ديناً غير الإسلام لن يقبل منه، هؤلاء الذين آمنوا لا خوف عليهم عند الموت مما هم مقدمون عليه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على من فارقوا من الأهل والأموال والأولاد في الدنيا فالله تعالى وليهم بعدهم وكافلهم.

المقطع التاسع عشر: طبيعة بني إسرائيل

ويحدثنا عن طبيعة بني إسرائيل فيقول: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾[المائدة: ٧٠-٧٧].

يحدثنا الله تعالى عن طبيعة بني إسرائيل التي لا تلتزم المواثيق ولا العهود المبرمة معهم والتي أخذها الله تعالى على الاثني عشر نقيباً منهم وغيرهم من الرسل، لم يلتزموا بها ولم يوفوا بما عاهدوا الله عليه، فكلما جاء هم رسول لهديهم إلى طريق الحق والنهج القويم مخالفاً ما هم عليه من الالتواء والتحلل وما تهواه أنفسهم، إما قتلوه وإما كذبوه وأغراهم إمهال الله لهم بعدم تعجيل العقاب لهم فعموا، عن طريق الحق فلم يسلكوه وصموا آذانهم عن سماع الحق ولم يصغوا إليه.

وحسب بنو إسرائيل أن إمهال الله لهم أن ليس وراءه عقاب فزادوا التمادي في التعامي والتصامم، ولكن الله يمهل ولا يهمل وهم تحت رقابة الله تعالى، ورصده – وهو بصير بما يعملون.

هـذا هـو الموقـف الثـاني الـذي يعـرض فيـه كفـر مـن ألَّهـوا عيسـى عليه السلام، فقـد مـر قولـه تعـالى في هـذه السـورة: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[المائدة: ١٧].

بين الله تعالى كفر من قال عيسى إلهاً، وبين قدرته في إهلاك عيسى وأمه ومن في الأرض جميعاً، فبين أن عيسى عليه السلام لا حول له ولا قوة أمام قدرة الله إن أراد إهلاكه وأمه ومَنْ في الأرض جميعاً، فهم في قبضته وقدرته، والآن يعرض نفس المقالة في كفر من قال أن الله هو المسيح بن مريم، ولكن هنا يقف عيسى عليه السلام مخاطباً مؤلّهيه قائلاً: اعبدوا الله ربي وربكم، فهو يعترف بربوبية الله له كما هو ربهم سواء بسواء، فهو مثلهم عبد مملوك لله تعالى، وقال أن تأليهه شرك يدخل صاحبه النار، ولن يجد له يوم القيامة ناصراً ينجينه من عذاب الله وعقابه.

ثم يبين كفر الله الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة فجعلوا عيسى وأمه إلهين والثالث هو الله. وسموا الأقانيم الثلاثة هي الإله، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً. وما من إله إلا إله واحد، فالإله لا يتعدد إنما هو واحد لا شريك له، ويتوعد الله تعالى القائلين بذلك، بالعذاب الأليم أن لم ينتهوا عن هذا الزعم.

بهذا تكون السورة قد نفت مقولات بني إسرائيل الثلاثة التي قيلت: فنفت عقيدة التثليث بهذه الآية. ونفت أُلهوية عيسى وقال لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح بن مريم. ونفى أنهم أبناء الله وأحباؤه، فقال: (قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق).

سبحانه الله الحليم، بعد هذا الشرك والكفر العظيم من النصارى وجعل عيسى إلها وثالث ثلاثة وابن الله ويعبدونه من دون الله، يفتح لهم – مع هذا القول – باب التوبة والصفح والمغفرة ليلجوه ويدخلوا منه تائبين مستغفرين، ويبين أنه غفور رحيم، فما أحلم الله وما أرحمه بالعباد.

أفلا يتوبون، وباب التوبة مفتوح قبل أن يولج؟ أفلا يسارعون مستغفرين قبل أن تمضي

الدنيا وتأتي الآخرة، والله تعالى غفور رحيم. فإذا ذهبوا بهذا المعتقد إلى الآخرة فقد خسروا.

قال تعالى عن عيسى عليه السلام أنه رسول مرسل من عند الله ليدعو بني إسرائيل ليعبدوا الله ويوحدوه، سبقه في هذا الطريق موسى، وداود وسليمان وغيرهم، فهو جاء بعدهم، متمماً لما بدؤوا ومجدداً للعهد والدعوة والرسالة، وأمه صديقة... ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾[التحريم: ١٢] أمه صدقت الملك الذي تمثل لها بشراً وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾[مريم: ١٩]، وصدقت حين قيل لها ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾[مريم: ٢٤-٢٦]، وفعلت وخاطب ابنها الناس وهو في المهد، صدَّقت كل ذلك، ولم تكن إلهاً ولا نبياً ولا رسولاً، لأنها من خصوصيات الرجال.

كما قال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء: ٣٤] فالرجال فضلوا بالنبوة والرسالة والإمامة والتأذين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾[يوسف: ١٠٩] ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[المائدة: ٧٤].

﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ ومن احتاج للطعام فهو بشر كسائر الخلق يأكل ليعيش فإن نفد الطعام فقد الحياة، فما هذه صفة الإله، فالله تعالى ﴿ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾[الأنعام: ١٤]، وليس له أم وليس لله أب ومن أكل الطعام أخرجه فكلها صفات تنفي الإلوهية عن عيسى وتثبت بشريته.

انظر كيف نبين للنصارى الآيات الدالة على بشرية عيسى وأمه، وأنهما ليسا إلهين، ثم انظر كيف ينصرفون عن القول ولا يعيرونه انتباهاً.

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾[المائدة: ٧٦].

يعبد النصارى عيسى وأمه راجين منهما النفع والضر، والنبي ﷺ مأمور أن يسأل النصارى: أتعبدون غير الله راجين منه النفع والضرر وهو لا يملك أن يدفع عنكم الضر إذا وقع ولا يملك أن يجلب النفع والخير إذا أردتم إلاَّ الله تعالى هو القادر على ذلك يسمع إذا دعوتموه جهراً ويعلم إذا أخفيتم في صدوركم وعيسى وأمه لا يملكان من ذلك شيئاً.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

أمر النبي ﷺ أن يقول لأهل الكتاب، لا تغلو في دينكم وتبالغوا حتى تتجاوز الحق إلى الباطل بتعظيمكم أمر عيسى حتى أخرجتموه من بشر إلى إله، ورفعتموه فوق ما وضعه الله تعالى فكفرتم بهذا الفعل، وكذلك ما فعله اليهود بعزير فقالوا هو ابن الله... كل ذلك غلو وتجاوز، ولا تتبعوا في ذلك أسلافكم الذين سبقوكم في هذا الطريق ضالين، فضللتم بضلالهم كما ضل أسلافكم بضلال من سبقوهم فخرجتم من الطريق السوي المستقيم. ولهذا كان رسول الله ﷺ يخشى على أمته أن تبالغ بتعظيمه فتخرجه من بشريته إلى الإلوهية فقال في آخر أيام قبل وفاته: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما عبد فقولوا عبد الله ورسوله)[1].

وقال: (لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ألاَّ لا تتخذوا قبري وثناً ...)[2].

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - فلا بد من حساب ولا بد من عقاب لكل جريمة، فالله يمهل ولكنه لا يهمل، ليتوب العباد وإلا فالعقاب قائم.

٢ - دلائل بشرية عيسى كثيرة، وكونه عبداً لله لم ينكره عيسى عليه السلام، ولكن عقول أهل الكتاب لا تقبل المنطق، وإنما يعيشون على ما ورثوه من آبائهم.

---

(١) البخاري: (٣٢٦١).

(٢) البخاري: (١٢٦٥).

٣ - الغلو مضر، لقد أراده بعض المسلمين ليزدادوا في العبادة فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: (فإنّ المُنبتَ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)(١).

٤ - ومن غلو أهل الكتاب الحرية المفرطة، في السلوك والأخلاق والعلاقات، فأفسدوا المجتمعات التي يعيشون فيها، والحرية عندهم لا حدود لها، حتّى أنهم يدخلون في حدود الآخرين فيسيئون إليهم ويعتدون على مقدسات غيرهم.

المقطع العشرون: لعنة الأنبياء على الكفرة من بني إسرائيل:

لم تجد الأقوال لتمنع بني إسرائيل عن التعدي على حدود الله والشرك، فجاء الجزاء لعنة الأنبياء عليهم

فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨١ ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١].

الكفرة من بين إسرائيل من قديم عرفوا بالعصيان والتعدي على الآخرين، فمعصيتهم لله كثيرة، عدَّدها الله تعالى في هذا الكتاب، وكذلك تعديهم على الله بالشتم والسب، وعلى الأنبياء والملائكة، وعلى مريم وابنها، وعلى كل صالح وخيِّر، وعصيانهم أوامر الله تعالى وأوامر رسلهم بدءاً من موسى وهارون حتى كادوا أن يقتلوا هارون عندما نهاهم عن عبادة العجل في غياب أخيه النبي موسى عليه السلام. فقال هارون لموسى ﴿ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأعراف: ١٥٠] لهذا ظل العناد

---

(١) سنن البيهقي حديث رقم ٤٥٢٠.

والعصيان والتعدي خلتهم الذي جبلوا عليها، فتخلى عنهم موسى عليه السلام وقال لربه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ ﴾ [المائدة: ٢٥]، وكادوا أن يقتلوا عيسى عليه السلام فرفعه الله، ولهذا لعنهم داود عليه السلام ولعنهم عيسى من بعده.

وبنو إسرائيل يرون من يستحل محارم الله، وينتهك الحرمات، ويعيث في الأرض الفساد فلا ينهون عن ذلك، بل يجالسون من يفعل ذلك ولا يستحيون، فلهذا لعنهم الله.

قال رسول الله ﷺ قال: (أن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)[١].

وعندهم مع أهل الكفر والفسق، التقاء في التفلت والانحلال والعصيان، ولهذا يتولى بنو إسرائيل كل فاسق وكافر ومجرم، يعينونه ويناصرونه. بهذا الفعل سخط الله عليهم وغضب، فعاشوا في عذاب النفس في الدنيا وأعدّ لهم في الآخرة العذاب الأليم السرمدي.

فلذلك أمرنا رسول الله ﷺ ألا نكون كبني إسرائيل فقال:-

(والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم)[٢].

وقال: (من رأى منكم منكراً ليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[٣].

ولو كان بنو إسرائيل مؤمنين بالله موحدين له، وبالنبي ورسالته والقرآن المنزل على هذا

---

(١) سنن أبي داود، جـ١٢/ ٤٧٤.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥١/ ٢٤.

(٣) مسلم، جـ١/ ٦٩.



النبي، والذي هو مصدق لما معهم، ما اتخذوا الكافرين والفسقة أولياء من دون المؤمنين. ولكن كثيراً من بني إسرائيل فاسقين خارجين عن طاعة الله وعصاة.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - هكذا عجز أنبياء بني إسرائيل عن التعايشِ معهم وعن هدايتهم، فموسى عليه السلام سأل الله أن يفرق بينه وبين بني إسرائيل، ولعنهم داود وعيسى عليهما السلام.

٢ - مسخهم الله تعالى قِردةً وخنازير.

٣ - قطّعهم الله تعالى في الأرض، وحرمهم نعمة الوطن والانتساب إليه، فلذا انتزعوا فلسطين من أهلها في محاولةٍ لإيجاد وطنٍ لهم، والله وعد أن ترجع فلسطين إلى أهلها.

٤ - توعّد الله تعالى بني إسرائيل بأن يسلّط عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة، وآخر من عذّبهم (هتلر).

المقطع الحادي والعشرون: من يوادّ ويعادي أهل الإيمان:

بعد أن بين الله تعالى من لعن اليهود من الأنبياء يبين الله تعالى في الآيات الآتية من يوادّ ويعادي المؤمنين وجزاء كلٍّ قال: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾[المائدة: ٨٢-٨٦].

سبب النزول:

روى القرطبي بسنده عن عروة بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه، وروى الطبراني عن ابن عبّاس نحوه[1].

يكشف الله تعالى لهذه الأمة حقيقة ما في قلوب اليهود والمشركين من عداوة وبغضاء لأهل الإيمان من هذه الأمة، اليهود يبغضون هذا الدين وهذا النبي الكريم وهذه الأمة بغضاً شديداً. يقول صاحب كتاب الرحيق المختوم:

(عندما قدم النبي ﷺ مهاجراً إلى قباء ذهب إلى لقائه ورؤيته حيي بن أخطب زعيم بني النضير وأخوه أبو ياسر، فلما رأياه وعادا في المساء إلى المدينة تقول السيدة صفية أم المؤمنين قاصة هذه القصة: لما قدما في المساء قال عمي أبو ياسر لأبي حيي ... أهو هو؟؟ يعني أهو النبي الموصوف في كتبنا؟ قال حيي لأخيه: نعم هو هو ... قال أبو ياسر لحيي بن أخطب: فما موقفك منه؟ قال حيي: عداوته ما حييت!! وصدق الخبيث فقد ظل من تلك اللحظة عدواً للإسلام وللمسلمين ولرسول الله ﷺ، وهو الذي كان يدير العداوة ويؤلب الخصوم ويشعل نار الفتنة، كان يصل قريشاً محرضاً على القتال. وهو الذي جاء بعشرة آلاف مقاتل من كل القبائل العربية وقريش، ومجموعة اليهود الذين أجلاهم النبي ﷺ بعد غزوتي بدر وأحد ... وأجبر قبيلة قريظة بنقض عهدها مع النبي ﷺ والدخول مع الجيوش لاجتثاث الإسلام حتى أقنعهم في نقض عهدهم مع النبي ﷺ والمسلمين، ولما انتهت غزوة الأحزاب بنصر الله للمسلمين وحوصرت بنو قريظة قبض حيي معهم. وحوكم بالقتل، وفي طريقه لقطع رأسه مر برسول الله ﷺ وقال: والله ما لمت نفسي في عداوتك أبداً. ولكن مَنْ يغلب الله يغلب، لا بأس قضاء كتبه الله على بني إسرائيل، ثم قتل[2]!!

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٧٢.

(٢) ينظر: الرحيق المختوم: ٢٩١.

هذه هي العداوة في اليهود. أما عداوة المشركين فيكفي قول أبي لهب لابن أخيه رسول الله ﷺ على الصفا والدعوة في بداية الجهر بها (تباً لك ألهذا جمعتنا؟).

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ والآية تبين أن في النصارى أتباع عيسى والذين هم على منهجه بأنه عبد الله ورسوله رقة ومودة لأهل الإسلام، وخير مثال لذلك ما قاله النبي ﷺ للمسلمين عندما اشتد عليهم أذى مشركي قريش (إن بالحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد. فلو هاجرتم إلى الحبشة)[1] شهادة من رسول الله ﷺ للنجاشي الذي كان نصرانياً حين هاجر المسلمون إلى أرضه وحماهم من مشركي قريش ووجدوا عنده وفي أرضه الأمن والأمانة وعاشوا في أرضه سنوات وأسلم هو أخيراً.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يشهد الله لهم بأن القسيسين لا يتكبرون، وإنما من شيمتهم التواضع وكذلك رهبانهم وهم العباد.

وهذا الذي قاله الله تعالى عن هذه الفئات هو القائم الآن. فاليهود لا تجف الأرض الآن من الدماء التي يريقونها من المسلمين، وكذلك بقية المشركين من الطوائف التي تدعي الإسلام نفاقاً وتؤذي المسلمين. والنصارى الآن طوائف فبعضها يدعي أن عيسى عبد الله ورسوله وهم الأقرب للمسلمين مودة ومعاشرة، وبعضهم من قال المسيح ابن الله ومن قال ثالث ثلاثة ومن هو الله، أولئك الآن أشد عداوة للإسلام والمسلمين.

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

هذا موقفهم إذا سمعوا القرآن، أحدث فيهم تأثيراً فذرفت منه أعينهم دموعاً بكاءً من حلاوة ما سمعوا وصدق ما قال الله ونطقوا داعين الله وقائلين ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين.

ويقولون: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ

(١) انظر مختصر السيرة، ص٦٢، والرحيق المختوم، ص٨١.



ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ما لنا لا نؤمن والشواهد والأدلة حاضرة، والبراهين شاخصة في السموات والأرض دالة على الله ووحدانيته وشاهدة قدرته، وما لنا لا نؤمن بهذا القرآن الحق والناطق بالحق، ونطمع ونتعشم أن يدخلنا ربنا مع الصالحين - جازاهم الله تعالى على هذا القول الطيب، جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وهذا الجزاء هو جزاء المحسنين، المحسنين العمل والمحسنين القول والمحسنين الإيمان ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

وأما الذين كفروا ولم يؤمنوا، وكذبوا بآيات القرآن والآيات الكونية أولئك أصحاب الجحيم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - ليس اليهود كلهم شر ولا النصارى كلهم شر. ففي بعضهم خير، رغم اختلاف العقيدة والتوجه، والله تعالى يقول: ﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، ولوجود هذه الفئة جاز مصاهرتهم ومعاشرتهم.

٢ - الله تعالى يقول: ﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا ﴾ [آل عمران: ٧٥].

المقطع الثاني والعشرون: النهي عن الغلو في الدين:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

أسباب النزول:

روى ابن جرير بسنده(١) عن ابن عبّاس: أن هذه الآية نزلت في رهط من الصحابة منهم عثمان ابن مظعون قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما تفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا: نعم فقال ﷺ: (لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء. فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني)(٢).

هذه الآيات تتحدث عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ حين جاءوا إلى السيدة عائشة وسألوا عن عبادة رسول الله ﷺ، فتقالّوا ما يعملون فقرروا أن يزيدوا في العبادة.

والرفعة في الدين ليس بكثرة العبادة وإنما بالإخلاص فيها فالمولى عز وجل يقول﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ فلنحسن العمل ولتجوده ففيه الخير. ودخل الجنة قوم بعمل قليل، وقلب خالٍ من الأحقاد.

فرجعوا عمّا أرادوا، وتركوا الغلو في الدين والتشدد فيه.

وقال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾. لا تحرموا الطيبات مما يؤكل أو يشرب أو يلبس أو ينكح طالما كانت من الطيبات ومما أحل الله تعالى، ولا تعتدوا على ما أحل الله فتحرموه فتؤثموا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ يبغضهم، ولا يحبهم. ومن حرم على نفسه

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٥١٨ .

(٢) البخاري: (٤٧٧٦).



شيئاً من ذلك فليرجع عنه ولا كفارة عليه عند كثير من العلماء ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾.

اتقوا الله وخافوه، فالتقوى أعظم زاد وأرفع منزلة عند الله تعالى اتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون، بها ترفعوا وليس بزيادة العبادة.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - نهى الله المسلمين عن الغلو في الدين، وهذه الآية خير شاهد على ذلك وأمرنا أن نكلف من العمل ما نستطيع.

٢ - نهى رسول الله ﷺ عن الغلو فقال: (إنّ هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله فإنّ المُنبتَ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)[١].

٣ - قال ﷺ: (القصد القصد تبلغوا)[٢].

٤ - وقال ﷺ: (إنّ من بعدي من أمّتي قوم يقرؤون القرآن لا يتجاوز حلاقيمهم، يخرجون من الدّين كما يخرج السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه، هم شرّ الخلق والخليقة)[٣].

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ٤٥٢٠

(٢) نظم الدّرر: ٢/ ٤٥٤.

(٣) صحيح مسلم: ١٥٨.

المقطع الثالث والعشرون: اليمين وكفارتها:

قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[المائدة: ٨٩].

اللغو: الكلام الذي لا عزيمة عليه ولا نية فيه. فهذا لا يؤاخذ ولا يحاسب الله قائله، فوالله لتأكلن والله لتركبن والله لتفعلن كذا هذا لا حساب عليه عند الله تعالى ولكن اليمين المنعقدة التي فيها تأكيد الفعل والجد بما قال، هذا ما يحاسب الله عليه خاصة وأنه مرتبط بآخرين، أصبح الوفاء بها واجباً وأن نكث فمحاسب ولهذا رتب العقوبات (إطعام عشرة مساكين من أوسط من تطعمون أهليكم من طعام ما عليه عامة أهل البلد، وعامة ما يأكل الناس وجبة واحدة لكلٍ، أو يجمعهم على إناء واحد وهم عشرة) أَوْ ﴿كِسْوَتُهُمْ ﴾ ما يستر العورة، يكفي القميص، ويكفي السروال وتكفي العمامة عند العلماء، ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ والرقبة المملوكة الآن موجودة في بعض البلاد كموريتانيا، ولكنه ملك محرم دولياً وغير معترف به. فحقوق الإنسان والمنظمات العالمية ترفض ذلك ولا تقره، والإسلام نفسه لا يقره ولقد وجده وحلل المجتمع منه لأنه من أمور الجاهلية.

وأخيراً إن لم يجد مايطعم به المساكين أو يكسوهم به أو يشتري به الرقبة ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾.

وفي الإطعام والكسوة وتحرير الرقبة نفع للمسلمين فهو الخير فإن لم يجد﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾متتابعات في أغلب أقوال العلماء، ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ الإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة والصيام كفارة أيمانكم، لا كفارة لها إلا بذلك ﴿ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ فلا تحلفوا، وإن حلفتم فاحفظوها بالكفارة. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هكذا بين الله تعالى تفاصيل هذه الكفارات رحمة بهذه الأمة لعلها تشكر ربها على هذا الفيض من النعم

والعناية والتخفيف، يرفع عن كاهلها ثقل الذنوب والمعاصي لتعود إليه خالية من كل ذنب. هذا حكم الأيمان وكفاراتها

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١) من نعم الله على العباد أن جعل الكفارات لبعض المعاصي تعود على فقراء المسلمين بالخير إطعاماً وكساءً وفيها مخرج للمسلمين للتحلل من أيمانهم، فكفارة اليمين إطعام للمساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، كله يعود على المسلمين بالخير.

٢) الكفارات مرتبة تبدأ بالإطعام ثم الكسوة ثم تحرير الرقبة ثم الصيام.

المقطع الرابع والعشرون: خمس محرمات:

والآن مع القرآن تشريع جديد وحكم جديد للخمر والميسر والأنصاب والأزلام والصيد، وتتميماً لما سبق من تحريم حكم السرقة والحرابة والزنا.

بعد اليمين التي يكفر عنها صاحبها يدخل فيما هو أشدّ تحريماً وأكثر ضرراً، ويحرّم الخمر والاعتداء على قتل الصيد وهم حُرُمٌ ويبين ما أحلّ لهم

فيقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[المائدة: ٩٠-٩٦].

ذكـر الله تعـالى في هـذه الآيات أربع مفاسـد من مفاسـد الجاهليـة أراد الله لهـذه الأمة أن تتخلص منها في الإسلام الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

وبدأ بالخمر، وفي هذه الآية تحريمها الأبدي بعد أن تركها الإسلام مباحة منذ بدء الرسالة إلى ما بعد الهجرة بسنوات، وسبق تحريمها النهائي تضيق في كميتها وزمان شربها. وبدأ الحديث عـن الخمر بقوله تعـالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[البقرة: ٢١٩] دعت الآية الناس للتوازن بين الإثم الكبير والمنفعة ولم يحرمهـا، ثم صلوا وهم سـكارى وقرؤوا القرآن في الصلاة قـراءة خاطئة، فقال تعالى: ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النسـاء: ٤٣]. فضيقت أوقات الشرب وكميـة المـشروب، إذ أن يبـين الظهـر والعصر لا يسـتطيع أن يشرب وإلا أتاها وهو سـكران، وكذلك لا يسـتطيع أن يشرب بين العصر والمغرب لضيق الوقت، ولا يسـتطيع أن يشرب بين المغرب والعشـاء، ولا بعد العشـاء لأنه إن شرب ونام بها شرب قام كما نام سـكراناً، فلذا كان عليه أن يقلل إن أراد أن يشرب وينام، والوقت الذي فيه فسحة بين الصلاتين هو بعد الفجر إلى الظهر وهو وقت المعاش والكسب، ولذا إذا شرب يقلل حتى يستطيع الكسب ويعيش أولاده. ثم جاء التحريم أخيراً وقد سبقته تلك الضوابط فأمكن أن يتخلوا عن الخمر. وعندما جاء وفد عبد القيس في العام العاشر مبايعاً. طلبوا أن يسمح لهم رسول الله ﷺ بقليل من الخمر يشربونه فأبـى، وحرَّم عليهم حتى الأواني التي يصنعون فيها الخمر فقال: (وأنهاكم عن الدُّباء، والحنتم والنقير والمزفَّت) والمراد لا ينبذ في هذه الأواني الأربعة[1].

والميسر القمار. كسبه يورث الحقد بين الغالب والمغلوب وكثيراً ما أدى إلى القتل فلذا نهوا

(١) البخاري: (٥٣).

عن الخمر والميسر.

وأضاف إليها العلماء (النرد) وهو الطاولة لما ورد فيه من أحاديث موقوفة فحرمه العلماء وإن كان في الأحاديث ضعف، قياساً على الميسر.

والأنصاب هي الحجارة الموضوعة حول الكعبة والتي كانوا يذبحون عندها تعظيماً للآلهة ولا يذكرون الله على ما يذبحون. والذبح عندها عبادة وقربى للآلهة، ويلطخون الأصنام بدم الذبائح ويشرُّون اللحم عليها. فنهوا عن ذلك.

والأزلام ثلاثة قداح مكتوب فيها (افعل) (ولا تفعل) وآخر لا كتابة عليه فمن أراد السفر أو الزواج أو البيع أو الشراء استخدم الأزلام، فادخل يده في الكيس الموضوعة فيه هذه القداح فيخرج واحداً فإن كان الذي خرج (افعل) إذا أراد سفراً سافر وإذا أراد بيعاً باع وإذا أراد شراءً اشترى لأن الآلهة أمرته بذلك أما إذا خرج قداح (لا تفعل) ترك ذلك كله. وإذا خرج القداح الذي لا كتابة عليه أعاد من جديد حتى يخرج قدح (افعل) أو (لا تفعل). وبالأزلام يعرفون نسب من شكوا في نسبه، وهي كشف للغيب بغير دليل فنهوا عنه.

فالخمر مضيعة للصحة والمال والوقت والدين والأخلاق، ومبعدة عن طاعة الله وفي الآخرة صاحبها في تعاسة وشقاء من ذلك: أن صاحبها والمدمن عليها لا يدخل الجنة لقوله ﷺ (لا يدخل الجنة منّان ولا عاق ولا مدمن خمر)[1].

وصاحبها ملعون: لقوله ﷺ (لعنت الخمر على عشرة وجوه لعنت الخمر بعينها، وشاربها وساقيها، وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها)[2]. وإذا أسكر الكثير فالقليل حرام (وكل مسكر حرام)[3].

---

(١) سنن النسائي: (٥٦٧٢).

(٢) ابن ماجة: (٣٣٨١).

(٣) مسند الإمام أحمد: (٢٦٢٠).

ذكر المولى عزّ وجلّ هذه الأربعة من مفاسد الجاهلية آمراً بتركها وسماها ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما الرجس (سخط من عمل الشيطان) وقال زيد بن أسلم الرجس (شر من عمل الشيطان)[1] وأمرنا تعالى باجتنابه وقال ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وفي ترك الرجس وهو الشر أو السخط في تركه طاعة لله تعالى واجتناب لما أمر به الشيطان، والشيطان إنما يريد أن يوقع الفتنة بين المسلمين بشرب الخمر ولعب الميسر فإن الأصدقاء يظلون على خير حال، حتى يجتمعوا على شرب الخمر فتنفصم عرى المودة والمحبة بينهم وينتهي الأمر بهم إلى عداوة وخصومة وقتل، وكذلك إذا لَعبوا الميسر فإن قلب المغلوب يمتلئ حقداً على الغالب وربما قتله.

والقرآن يبين بعد هذا التحريم العلة في ذلك:

إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر. فالعداوة والبغضاء في الخمر والميسر أول ما يحدث بين الإخوان والأصدقاء والجالسين للشراب ولموائد القمار، فإذا شربوا خفت عقولهم وأساءوا القول وتعادوا وقد يقتل بعضهم بعضاً، أما إذا لعبوا الميسر فلا بد من نهاية أليمة لهذا الغلب.

فالعداوة والبغضاء أول ما يجنيه شارب الخمر ولاعب الميسر والإغراء بشرب الخمر ولعب الميسر من الشيطان للصد عن سبيل الله وذكر الله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة: ٩١-٩٣].

والآية تتحدث عن الذين شربوا الخمر قبل تحريمها وماتوا وهم سكارى، وهي في

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨٧.

بطونهم وماتوا وقد أكلوا ثمنها، وكذلك أكلوا مال الميسر ما حكمهم؟ سألوا ذلك النبي ﷺ فجاء الجواب من الله تعالى يبين أنه لا جناح عليهم ولا إثم ولا حرج طالما كانوا مؤمنين أتقياء، وعملوا الصالحات من صلاة وصيام وغيرها ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين، فلا جناح ولا إثم في ذلك لأنه كان قبل التحريم، وتمضي الآيات بعد هذا في ابتلاء الله لعباده ليعلم - علم الواقع من يخافه بالغيب.

في بداية السورة جاء الحديث عن الصيد فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌ ﴾ [المائدة: ١].

فأمرهم ألا يستحلوا الصيد وهم محرمون. ثم قال: وإذا حللتم فاصطادوا - في غير الحرم. وأمرهم بذكر الله عند إرسال ما يصطادون به من كلاب أو صقور أو غيرها، فإن أمسكن عليهم أكلوا وإن أمسك الحيوان لنفسه وأكل فلا يأكلون منه.

والآن:

يبين الله للمؤمنين أنه سيبتليهم بشيء من الصيد بعضه من الصغار الذي يستطيع الإنسان أن يقبضه بيده وبعضه من الكبار الذي يحتاج للرماح لصيده وأمرهم ألا يعتدوا على النوعين لا باليد ولا بالرماح. وألاّ يصيدوا، وأراد المولى بهذا الابتلاء أن يعلم علم الواقع من يطع الله ورسوله فلا يتعرض للصيد ممن يعتدي، فمن اعتدى بعد النهي وصاد فله عذاب.

ثم نهاهم عن قتل الصيد وهم حرم فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾[**سورة المائدة، الآية ٩٥**].

واختلف العلماء في مَنْ قتل ناسياً، ومن قتل متعمداً، وأورد ابن كثير أن جمهور العلماء قالوا إن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء، ولكن المتعمد مأثوم، والمخطئ غير ملوم[(١)].

فمن قتل متعمداً فحسابه - كما عليه جمهور العلماء - الجزاء من مثل ما قتل المحرم إذا كان

(١) الدر المنثور في التأويل بالمأثور ٣/ ٩٣.

لـه مثيـل من الحيوان الأنسي. وحكم الصحابة في النعامة ببدنـــه، وفي بقرة الوحشي ببقرة، وفي الغـزال بعنـز ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ يحكم بهذا الحكم اثنان عدلان من المسـلمين واخرج ابن أبي حاتم بسنده أن أعرابياً جاء لأبي بكر الصديق ﷺ، فقال: قتلت صيداً وأنا محرم فما ترى عليَّ من الجزاء؟ فقال أبو بكر ﷺ لأبي بن كعب وهو جالس عنده، ما ترى فيها؟ فقال الأعرابي: أتيتـك وأنت خليفة رسـول الله ﷺ أسـألك فإذا أنت تسـأل غيرك!! فقال أبو بكـر: وما تنكر؟ يقـول الله تعـالى: ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ فشـاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به[1].

وروى الطـبري عـن ابن جرير البجـلي قال: أصبت ظبيـاً وأنا محرم، فذكـرت ذلك لعمر فقـال: إئـتِ رجلين من إخوانك فليحكما عليـك فأتيت عبد الرحمن وسـعداً فحكما عليّ بتيس أعفر.[2]

وروى الطـبري بسـنده عن وكيـع أن (أوطأ أربد ظبياً فقتله وهو محـرم فأتى عمر ليحكم عليـه فقـال عمر: أحكم معي فحكما فيه جدياً قد جمع الماء والشـجر ثـم قال عمر (يحكم به ذوا عدل منكم) وهذا فيه جواز أن القاتل أحد الحكمين[3].

مع هذا أحل رسـول الله ﷺ جواز قتل خمس سـماهن من الفواسـق. فيما روته عنه عائشـة رضي الله عنهـا: (خمس فواسـق يقتلـن في الحل والحرم: الغـراب، والحدأة، والعقـرب والفأرة والكلب العقور)[4].

وشبهوا الذئب بالكلب العقور فإنه يقتل:

واختلفوا في قتل الغراب وقسموه إلى ثلاثة أنواع (الأبقع) وهو الذي يخالط سواده بياض.

---

(١) ابن ابي حاتم ٥/ ٩٣.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٤٧.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢٥.

(٤) تفسير الالوسي ٥/ ١٣٣.

و(الأدرع) الأسود الكامل السواد (والأعصم) وهو الأبيض لما رواه النسائي عن عائشة رضي الله عنها، (أن رسول الله ﷺ قال: (خمس يقتلهن في الحل والحرم الحية والفأرة والحدأة والغراب ألابقع والكلب العقور)[1].

وفي رواية (ويرمي الغراب ولا يقتله)[2].

(هدايا بالغ الكعبة) أن يدفع هدياً يصل الحرم فيذبح هناك ويفرق لحمه على المساكين - ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ إذا لم يجد المحرم مثل الذي قتله من النعم جاء التخيير في الجزاء بين الأطعام والصيام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد أي من قتل ظبياً أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل إيلاً أو نحوه فعليه بقرة، فإن لم يجدها، أطعم عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً. وإن قتل نعامة أو حمار وحشي فعليه بدنة من الإبل فإن لم يجد، أطعم ثلاثين مسكيناً فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً[3]. ويحرم عليه أكل ما قتل.

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ من أعمال الجاهلية.

﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾.

ومن عاد فقتل في الإسلام فينتقم الله منه مع الكفارة، وقال ابن عبّاس من قتل وحكم عليه، وعاد فقتل لا يحكم عليه، بل يترك لينتقم الله منه.

هذه أحكام الصيد، جعلها الله ابتلاء وقع للصحابة في صلح الحديبية كان الصيد يحوم وسطهم ونجحوا في الامتحان به فلم يتعرضوا له. والآن بعد التحريم بين ما أحله لعباده.

---

(١) البخاري: (٣١٣٦).

(٢) مسند الإمام أحمد: ٢٣/ ١١٢٨١.

(٣) سنن البيهقي ٩٦٨١.

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة: ٩٦].

أحل الله تعالى بهذه الآية نوعين من صيد البحر، ما صدتموه، وما قذفه البحر فمات كلاهما حل لكم. أحل الله تعالى صيد ما في البحر طعاماً طرياً تأكلونه وأحله لكم يابساً، وقيل طعامه: (ما قذفه). قال ﷺ: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته)[١] فما قذفه فهو حل. ويابساً ما كان ميتاً متاعاً لكم مقيمين ومسافرين ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تذكير بأمر الآخرة والحشر والجزاء ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ حرم عليكم أن تصطادوا وأنتم حرم... أما إن اصطاده غيركم من غير إشارة منكم أو طلبه أو أعنتم عليه فهو حلال لقوله ﷺ (صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ما لم تصيدوه أو يُصد لكم)[٢].

روى أبو قتادة أنه صاد حماراً وحشياً وكان حلالاً غير محرم وكان أصحابه محرمين فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال (هل كان منكم من أشار إليها وأعان على قتلها؟) قالوا: لا قال: (فكلوا) وأكل منها رسول الله ﷺ[٣].

هكذا تبين أمر الصيد: فهو حلال لكم وأنتم حرم ما لم تصيدوه بأنفسهم، أو تشيروا لمن يصيده لكم، أو يعن على صيده، ومن صاد حكم عليه بمثل ما صاد من الحيوان الأنسي ولا يأكل مما صاد. هذه أرزاق أحلها الله تعالى للمحرم ما لم يصدها - وما دام في ظل الإحرام والكعبة والأشهر الحرم - فالله تعالى يرينا رحمته بسكان الحرم.

---

(١) مسند الإمام أحمد: ١٤/ ٣٤٩.

(٢) أبو داود: (١٨٥١).

(٣) ابن أبي شيبة: ١/ ١٢٢.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - لعن رسول الله ﷺ بالخمر عشراً: عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقيها، وبائعها، وآكل ثمنها، والمشتري لها، والمشتراة له)[١].

٢ - الأزلام نوع من الكهانة وهو كشف للغيب الذي لا يعلمه إلا الله، والجاهلية استخدمت أنواعاً لكشف الغيب: كالتّنجيم والعرافة والفنجان وقراءة الكف، ففقد نهى عنها رسول الله ﷺ فقال: (من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدّقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمّدٍ ﷺ)[٢]. جعل رسول الله ﷺ الإستخارة في الأمور مكان الكهانة التي أبطلها الإسلام.

٣ - ذهبت الأنصاب وحلّ محلّها ما نواه الذّابح، فإن كان ما قدّمه للذّبح للهِ حلّ أكله، وإن كان غير ذلك فقد حرُم.

٤ - المحرم محكوم بضوابط الإحرام ألا يصطاد وهو محرم ومن فعل ذلك حكم عليه ومن صاد فلا يحاكم إنما يترك لوعيد الله.

المقطع الخامس والعشرون: من نعم الله على العباد:

جاء هذا المقطع مواصلة لما تمّ في المقطع السابق من تحريم الصيد للمحرم وعقابه إن صاد، ثمّ أحلّ لنا صيد البحر، وتلك أرزاق، والآن فتح أبواب رزقٍ أخرى للعباد

فقال تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[المائدة ٩٧-١٠٠].

---

(١) الترمذي: (١٢١٦).

(٢) مسند الإمام أحمد: (٩١٧١).

بيّن الله تعالى: أنه جعل الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد جعلها تعالى مصادر رزق للعباد، فالحاج والمعتمر القاصد بيت الله تعالى وحرمه في إقامته بمكة صرف يصرفه على إقامته وأكله وشربه وبيعه وشرائه وفي كل هذا رزق لأهل مكة وللعاملين في الكعبة من سدنتها وخادميها ومديريها. وكذلك في الشهر الحرام الذي يقدم فيه الناس للحج والعمرة فيه أرزاق ونعم لأهل مكة وللمقيمين بها ببيع الهدي والقلائد وللذين يذبحون ويطبخون وفي كل عمل يقوم به أهل مكة رزق ومعايش لهم - رحمة منه بهم فهو يعلم حاجتهم فيكفيهم.

ذلك لتعلموا أن الله تعالى لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة من أمر هذا الكون ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾.

الله تعالى يقول أنه شديد العقاب لمن خالف أمره، مَنْ سرق وظلم وأفسد في الحرم واعتدى في الشهر الحرام والهدي القلائد فعقاب الله شديد لمن قصد الإفساد. ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الحج: ٢٥].

وأن الله غفور رحيم لمن فعل شيئاً لم يقصده فعفو الله حاضر ومعرفته كذلك.

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ فالرسول مأمور أن يبلغكم رسالة الله تعالى فإن فعل فقد أدى ما عليه وعليكم ما حملتم وإثم ما فعلتم ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾.

يعلم ما أبديتم من قول وفعل ويعلم ما أخفيتم.

وينتقل القرآن - بعد أن بين أنه جعل الكعبة وغيرها قياماً للناس، ليبين الفرق بين الخبيث والطيب من الأرزاق، والأفعال والأقوال.

أمر الله تعالى رسوله أن يبلغ العباد، أن الخبيث كالمحرم من الأموال والأطعمة والمشروبات والملبوسات محرمة لخبثها فهي لا تستوي مع الطيب الحلال المباح. ولو كان الخبيث كثيراً والطيب قليلاً، فالقليل الحلال خير من الكثير الحرام وفي الحديث (ما قل وكفى خيرٌ مما كثر وألهى).

وكما قال ﷺ (قليل تؤدي شكره خير من كثيرٌ لا تطبقه) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ اتقوا وخافوه يا أصحاب العقول الذين يفقهون قول الله ويتدبرونه ويعملون به ويوازنون بين الخبيث والطيب فيميلون إلى ما فيه نفع الآخرة والدنيا ويتركون ما فيه خبث يفسد الدنيا والآخرة على السواء، اتقوه لعلكم بالتقوى تصلوا إلى الفلاح ودخول الجنة.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - من الخبائث التي يمارسها المسلمون اليوم: السجائر والقات والتبغ، وهي إن لم تُحرّم صراحةً فإنّها مستقذرة؛ لما ثبت أن لها علاقةً بأمراض السرطان، وأنها تُؤذي من لم يستعملها برائحتها ومنظرها وضياع الوقت فيها.

٢ - القليل الحلال خير من الكثير الحرام. والنفوس تميل إلى الكثير من الأموال والمقتنيات، ولكن كما قال رسول الله ﷺ (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى عن النفس)[1].

٣ - والكثرة ليست هي الغالبة وليست هي الأفضل وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة.

المقطع السادس والعشرون: تحريم السؤال عن ما يضرّ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾ [المائدة: ١٠١-١٠٥].

وتنتقل الآية تتميماً للحديث عن الخبيث والطيب إلى السؤال الملِحّ على الرسول ﷺ،

(١) البخاري: (٦٤٤٦).



والـذي هو من الخبائث، والمكروه عنـد الله تعالى، كما كُرهت مناجاته ﷺ إلاّ بصدقةٍ، ثمّ رفعت الصدقة.

والإكثار من السـؤال لرسـول الله ﷺ هو الذي جعل القرآن يضع حداً لذلك وواضح أنه أغضـب النبي ﷺ. فلذلك نهى الله تعالى عباده أن يسـألوا عن أشـياء ان أجيبـوا عنها وعرفوها سـاءهم ذلك وأضر بهم، وقد كان بعضهم يسـأل النبي ﷺ استهزاء فيقول أين ناقتي؟ من أبي؟ وأكثـروا عليـه فأغضـب النبي ﷺ فصعد يوماً المنبر وقال (لا تسـألوني اليوم عـن شيء إلاَّ بينته لكم) فأشـفق أصحاب رسـول الله ﷺ وخافوا أن يكون لأمر ما قد وقع. فقام رجل فقال: (من أبـي؟) فقـال النبي ﷺ (أبوكَ حذافة) وكان الرجل يدعى لغير أبيه. فأثبت نسـبه، فقام عمر بن الخطّاب فقال: رضينا بالله رباً وبالإسـلام ديناً وبمحمد رسـولاً، أعوذ بالله من شر الفتن، قال رسـول الله ﷺ (مـا رأيـت في الخير والشر كاليوم قـط صوِّرت لي الجنة والنـار حتى رأيتهما دون الحائط)[1].

إن الإلحاح على النبي ﷺ بالأسئلة مضر، فقد يُحرِّم شيئاً كان حلالاً، أو يوجب أمراً ما كان واجبـاً كـما روى أنـه ﷺ لَـمَّا نـزلت الآيـة ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧]. **قالوا**: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت: فقالوا: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقـال (لا ولو قلـت نعم لوجبت، ولو وجبت لما اسـتطعتم)[2] فنزلت هذه الآية ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

في شـأن التحليـل التحريم، يمـضي القرآن في نفي مـا حرمت الجاهلية مـن أنعام أعطتها مسميات من عندها ما أنزل الله بها من سلطان.

وجـاء في بداية قوله محللاً الأنعام إلا ما اسـتثنى فقـال: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا

(١) البخاري: (٦٠٠١).

(٢) مسلم: (١٣٣٧).



يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[المائدة: ١]، ثم ذكر ما استثنى فقال: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ [المائدة: ٣].

هذا ما حرمه والآن ينفي الله تعالى ما حرمته الجاهلية وأول المحرمين والمفترين على الله الكذب عمرو بن لحي بن قمئه كان أول من ولي ولاية البيت في عهد خزاعة بعد جرهم فذهب إلى الشام فرأى أهلها يعبدون الأصنام فقالوا نعبدها فتعطينا ونستمطرها فتمطرنا، فأعجبه ذلك فجاء بصنم ووضعه في الكعبة وعلم الناس عبادتها، فهو أول من سيب السائبة وبحر البحيرة وحمى الحامي[1]. وقال رسول الله ﷺ لأكثم بن الجون: (يا أكثم رأيت عمرو بن لحي ابن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلاً أشبه برجل به منك ولا منك به). فقال أكثم: تخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (لا، إنك مؤمن وهو كافر إنه أول من غير دين إبراهيم بحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي)[2].

عن ابن عبّاس البحيرة: الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن فإن كان الخامس أنثى جدعوا آذانها وقالوا هذه بحيرة لا يركب عليها ولا تذبح ولا يحلب لبنها.

والسائبة: الناقة إذا ولدت عشر إناث ليس بينهن ذكر سيبت فلم يُجز وبرها ولم يركب ظهرها ولم يحلب لبنها. وكان الرجل إذا عوفي من مرض أو قضيت حاجته سيب من ماله فإنه يجعله للطواغيت.

والوصيلة: من الغنم إذا أنتجت عشر إناث في خمسة أبطن توأمين توأمين ليس بينهما ذكر سميت الوصيلة وتركت للآلهة. وما ولدت بعد ذلك - ذكراً أو أنثى - جعلوه للذكور دون الإناث وإن جاء ميتاً اشتركوا في أكله رجالاً ونساءً.

---

(١) ينظر: مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب: ١٧.

(٢) البخاري: (٣٣٣٣).



والحامي: إذا لقح فحله عشر إناث. وقيل الحام من الإبل إذا ولد لولده قالوا حمي ظهره فتركوه للآلهة[(١)].

بين الله تعالى أنه لم يحرمها، أنما هي من أعمال الجاهلية وكان والسبب في تحريمها عمرو بن لحي فتحريمها افتراء على الله وكذب.

﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ما دل فعلهم على عقلٍ ونضج، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليبين لهم ما أحل الله لهم وما حرمه عليهم في كتابه، أبوا وقالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، فاكتفوا بما اعتادوا عليه، ورفضوا الاستجابة لما دعاهم له رسول الله ﷺ، وهو الهدى وظلوا مع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام التي حرمها الآباء جهلاً بغير علم وضلالاً بغير هدى.

يمضي القرآن في شأن التحليل والتحريم تشريعاً، فالآن يأمر الناس أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر

إن أبا بكر الصديق ﷺ قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ وأنكم تضعونها في غير موضعها وأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عزّ وجلّ أن يعمهم بعقابه)[(٢)].

وروى أن ابن مسعود ﷺ سئل عنها فقال: إن هذا ليس زمانها إنها اليوم مقبولة ولكنه قد يوشك أن يأتي زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذٍ عليكم

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٠٣.
(٢) ابن ماجة: (٤٠٠٥).



أنفسكم لا يضركم من ضل)[١].

والواقع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل زمان حتى من قبل بدءاً من عهد الرسول ﷺ إلى يومنا هذا يتبعه أذى، ولهذا قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧] فإن الأذى يصيب الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر - ومع هذا الأذى يتوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتبع الناس ما قاله الرسول ﷺ (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطيع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان)[٢].

وأخيراً: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فقد أديت ما أمرت به، ولا يضرك بعد ذلك ضلال من ضل - وإذا وقع العذاب نجوت منه كما نجا العلماء في عهد موسى عندما نهوا أصحاب السبت فقيل لهم: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٤-١٦٥] لقد نجا العلماء من عذاب الله لأنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وكما قالوا ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ يعتذرون لله عزّ وجلّ يوم يسألهم، يقولون ربنا أمرنا ولم يطيعونا. فهم مسئولون عن الأمر وليسوا مسئولين عن الاستجابة).

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - نهى الله تعالى عن الأشياء التي سكت عنها من غير نسيان كما بين الحديث: (وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تسألوا عنها)[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٠٤.

(٢) مسلم: (٤٩).

(٣) سنن الدارقطني: (٤٤٤٥).

٢- (ذروني ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ما نهيتكم عنه فانتهوا وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)[1].

هـذه الأشـياء التي نهى الله أن يسـأل عنها، قد سـألها قـوم في الأمم السـابقة لأنبيائهم فلما كتبـت عليهـم كفروا بهـا ولم يعلموا. ومعلوم أن اليهود سـألوا عن حكـم زنا المحصن في الإسـلام، وهو مكتوب عندهم - فلما عرفوه كفروا به وإن كان النبي ﷺ قد عاقبهم بما في التوراة من رجم، لمحاولتهم التفلت من العقاب.

كسـؤالهم النبي ﷺ (مـن يأتيه بالوحي من الملائكـة فقال: (جبريل) فقالـوا: لو كان الذي يأتيك بالوحي غيره لاتَّبعناك فرد الله عليهم: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقـرة: ٩٧-٩٨] فعادوا بسؤالهم بعداوة الله لهم.

٣-التحليـل والتحريم شـأن إلهي ليس للبـشر ومن فعل ذلك كان عقابه النـار كما فعل بعمرو ابن لحي.

٤-البحـيرة والسـائبة والوصيلـة والحامـي أنعام رزقهـم الله إياهـا فأعطوها هذه المسـميات، وجعلوها للآلهة جهلاً منهم، كما قتلوا أولادهم جهلاً، وكما أعطوا الثمار للآلهة جهلاً.

٥-الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر هي ميزة أهل الإيـمان وبها ارتفعوا وبهـا أصبحت لهم منزلة ومكانة عند الله تعالى فهو القائل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٦-والحديث (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة)، يُبيّن أنّ النجاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) مسند الإمام أحمد: (٧٠٦٣).

المقطع السابع العشرون: الإشهاد والقسامة:

هذا تشريع جديد بالوصية لمن حضره الموت في غربة، يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٦-١٠٨].

أسباب النزول

هذه الآية قال تميم الداري: (برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام فأتيا الشام لتجارتها وقدم عليه مولى لبني سهم يقال له - بديل بن أبي مريم، بتجارة معه جام من فضة، يريد به الملك، وهو أعظم تجارته، فمرض فأوصى إليها وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله[1]. قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم، واقتسمناه أنا وعدي، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا: ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره، قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة فتأثَّمتُ من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ودفعت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فوثبوا عليه فأمرهم النبي ﷺ أن يستحلفوه بما يعظم على أهله دينه فحلف فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا ﴾ فقام عمرو بن العاص فحلف ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من

---

(١) البخاري: (٢٦٢٨).

عدي بن بداء[١].

يبين الله تعالى: أن من حضرته الوفاة وهو على سفر أن يوصي اثنين من إخوانه المسلمين، فإن لم يجد مسلمين فمن غير المسلمين، فإن فعلا ذلك ووجد أهل الميت شيئاً مفقوداً ووجدوه مباعاً فيحلف اثنان من أهل الميت على أنهم فقدوا هذا ووجدوه عند آخرين ويسأل الآخرون من أين جاءوا بهذا فإن استبان أنهما اشترياه من اللذين جاءا بالوصية، يدفع لهما ما وجدا ويدفع حاملاً الوصية من الميت قيمة المفقود لمن باعاه إليه.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - الوصية عند الموت من كمال الإنسان، فأُمرنا أن نوصي عند الموت، قال رسول الله ﷺ: (لاينبغي لإمرئ مسلم له ما يوصي فيه يأتي عليه ليلتان ليست عنده وصية)[٢]فطبق إبن عمر هذا الحديث في حياته.

٢ - وعلى المُوَصَّى أن يحفظ حقَّ المُوَصِّي فيُؤدّي ما ائتمنه عليه.

٣ - الوصية من الأمانات التي أوصى الله تعالى بأدائها والتي يسأل عنها العبد يوم القيامة، يقول ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾.

٤ - جاز للموصي أن يعدل في الوصية إذاكان الموصي ظالماً يقول ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٠٦.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٢٤٤٤

المقطع الثامن والعشرون: عيسى بين يدي الله في القيامة:

والآن يأخذ القرآن في الجولة الأخيرة بشأن عيسى عليه السلام وتأليه النصارى له، وعبادتهم له هو وأمّه.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٩-١١١].

هذه نقلة الى القيامة مع عيسى في يوم الهول، والناس شهود، والرسل موقوفون ويسألهم رب العزة ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ { فقالوا: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ إن الرسل قدموا دعوة الله إلى الناس، فالله كما بين يسألهم أجمعين الرسل والناس الذين أرسلوا إليهم ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٦] فكلهم مسئول عمّا قال: ماذا قال الرسل؟ وماذا قال المرسل إليهم؟ وتجيء إجابة الرسل لا علم لنا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ فنحن إنما نعلم ظاهرهم ولا نعلم باطنهم، إنك أنت يا الله العالم بظاهرهم وباطنهم من اتبع ومن ضل.

ثم يوجه الله الخطاب الي عيسى عليه السلام أمام الجميع ليقرره بنعمه ليبين أنه لا حول له ولا قوة وأنه أحد عباده المرسلين فيسأله عمّا أنعم عليه. وتبدأ النعم بأنه ولد آية من آيات الله من أم بلا أب، نفخ في فرجها روح القدس بأمر الله، وأيده جبريل أن يتكلم يوم ولد لساعته، فتكلم في المهد، وسيتكلم - عند الكهولة في آخر الزمان بعد أن رفعه الله إليه حين أرادوا قتله. ومن نعمه عليه ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ علمه الخط وعلمه الحكمة فكان ينطق

بها، وعلمه التوراة التي نزلت على موسى فهو على نهج موسى مؤمناً بالتوراة ومنفذاً لأحكامها وعلمه الإنجيل الذي أنزل فيه التخفيف من المحرمات الكثيرة التي حرمت على بني إسرائيل بسبب معاصيهم لله فقال ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾[آل عمران: ٥٠].

وكان يصنع من الطين طيراً، ثم ينفخ فيه فيصير طيراً حقيقياً آية من الله له، كل ذلك بإذن الله تعالى ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾ والأكمه الذي خرج من بطن أمه أعمى فهو يبرئه بإذن الله مساً بيده من غير أدوية، ويبرئ الأبرص وهو الداء العضال المعروف يبرئه بإذن الله مساً بيده. ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ فكان يقف على القبر وينادي صاحبه فيخرج بإذن الله حياً. ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾. بنو إسرائيل خالفوه وأبوا أن يتبعوه وهم كعادتهم مع الأنبياء أما قتلوا النبي أو كذبوه، فكف أيديهم أن تصل إليه، مع عرضه لهم آيات الله البينات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه، والأبرص والتنبؤ ما ادخروه في بيوتهم من أشياء.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾. مما أنعم الله تعالى به عليه أن جعل له حواريين وتلاميذ يؤمنون بالله تعالى موحدين له ومؤمنين برسالة عيسى وأنه عبد الله ورسوله واتبعوه ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ فآمنوا وشهدوا برسالته وأشهدوه على إيمانهم بالله رباً ربه رسولاً) إلى هنا وعيسى مقر بهذه النعم. ثم يمضي القرآن مع عيسى عليه السلام. وطلب الحواريين معجزة تثبت نبوته. وتكون لهم عيدا.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - لا ينجو من سؤال الله أحد، فلذا جاء قول عمر بن الخطّاب (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)[١] استعداداً لهذا اليوم. ثم يمضي السؤال إلى عيسى عليه السلام والى كل واحد من البشر لقوله تعالى.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٣٤.

٢ - هذه معجزات أنعم الله بها على عيسى لتكون دليل صدق على نبوته وأنه لاحول له ولا قوة والسؤال حتى يعلم الخلق أن عيسى وأُمه عبدان من عباد الله.

٣ - العلم والحكمة من أجل النعم، وهي زاد زود الله تعالى به عباده المرسلين، فما من رسول إلا آتاه الله العلم والحكمة ليبلغ الناس ماعلمه الله آياه بحكمة وروية.

المقطع التاسع والعشرون: المائدة:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾[المائدة: ١١٢-١١٥].

هذه تذكرة تبين طلب الحواريين من معجزة مادية هي أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء برروا أسبابها فقالوا: نريد أن نأكل منها فهم جياع (وثانياً)وتطمئن قلوبنا بصدق ما جئتنا به وصدق إتباعنا لك ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ فيما قلت وفيما وعدت به من أمر الآخرة، وازددنا يقيناً، ونكون شهداء عليها، فلا مراء بعد ذلك ولا شك، ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

اقتنع عيسى عليه السلام بطلب الحواريين وعلم صدقهم فطلب من الله المائدة، لتكون عيداً يفرحون فيه بإنزالها ويبتهجون، وعيداً لمن بعدنا يحتفلون فيه بيوم هذا الإنزال، وآية من الله دالة على صدق رسالتك التي بعثتني بها للناس وصدق ما وعدتنا به من أمر الآخرة.

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ استجاب الله طلب عيسى عليه السلام واشترط للطالبين للمائدة أن من يكفر بعد إنزال المائدة فإنه سيعذبه عذاباً لم ينزل بأحد من العالمين.

واختلفت الأقوال في أمر المائدة هل نزلت أم لم تنزل؟ ولم يأت خبر من رسول الله ﷺ في أمرها ويرى بعض المفسرين أنها لم تنزل، ويعتمد المفسرون بأن النصارى في كتبهم لا يجدون شيئاً عن المائدة فلم تذكر في كتبهم.

ويقرنها بعض المفسرين بما طلبه مشركو قريش من رسول الله ﷺ أن يدعو الله ليجعل الصفا ذهباً فجاء جبريل وأخبر النبي ﷺ أنهم إن لم يؤمنوا بعد أن يجعل لهم الصفا ذهباً فيأخذهم العذاب، وأن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة فاختار رسول الله ﷺ باب التوبة والرحمة بدلاً أن يجعل الصفا ذهباً)[1]. ثم يمضي إلى السؤال الجوهري لعيسى عليه السلام.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - التعنت من البشر بطلب المعجزات من الرّسل قديم، واجهه المُرسلون أجمعون، وأشدّه في عهد نبيّنا محمّد ﷺ والله يعلم أنّ طالبي المعجزات طلبوها لا ليؤمنوا، ولكن تعنّتاً، لهذا قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾[الأنعام: ١١١].

٢ - ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الأنعام: ٣٧].

٣ - ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾[الأنعام: ١٠٩].

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١١٣.

المقطع الثلاثون: التبرؤ من التأليه:

القرآن يمضي في أمر عيسى عليه السلام ليكشف مصدر أكبر جريمة في الوجود مارسها النصارى

فيقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

أمام العالمين أجمعين والنصارى حضور أجمعون وفي حضرة المرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ وعليهم أجمعين يسأل الله تعالى عبده ورسوله عيسى عليه السلام وهو العليم بكل شيء ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إنها الجريمة التي لا يغفرها الله جريمة الشرك، من صنعها ومن أمر بها؟ ويجيب عيسى عليه السلام ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ يجيب عيسى عليه السلام، سبحانك تنزهت على الشريك والمثيل والنديد، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق فإنا لم آمرهم بعبادتي ولا عبادة أمي بل قلت لهم ما أمرتني به فقلت: اعبدوا الله ربي وربكم. وإن كنت قلت غير هذا فقد علمته لأنك تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب. وكنت شاهداً عليهم قبل أن ترفعني إليك، فلما رفعتني كنت أنت الشهيد عليهم.

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ - فالمشيئة لك ولا يحول بينهم وبين ما أردت وما أمرت شيء، فأنت ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ القوي الذي لا يغلب و ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأمور في نصابها ويحكم بالعدل فإن أردتهم بعذاب وقع العذاب الذي يناسب جرمهم بحكمتك وعلمك. وان تغفر لهم، فإنك تعفو وتغفر عن قدرة وقوة.

المقطع الحادي والثلاثون: كلمة الحق والختام:

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾[المائدة: ١١٩-١٢٠].

يقول الله وقد رد عيسى عليه السلام على ما سأله الله عنه، وكانت إجابته شافية، وكان صادقاً فيما قال ... وقال الله تعالى ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ هذا يوم الانتفاع بالصدق، فالذين صدّقوا المرسلين واتبعوهم وجاءوا الله بصالح العمل، ينفعهم هذا التصديق، فمن صدق واتبع فالجنة مثواه ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ فالجنة ذات الأنهار المتعددة جزاء الصادقين يعيشون فيها مخلدين أبداً أبداً، رضي الله تعالى على سلوكهم وطاعتهم، وهم رضوا عنه فيما أعطاهم مقابل هذا الإيمان والتصديق.

والآن يختم الله تعالى هذه السورة بمثل ما بدئت به بدئت بالحديث عن الوفاء بالعهود والعقود، وختمت بالذين أوفوا بعقود الله معهم فكان جزاؤهم يوم القيامة هذه المقالة الطيبة من الله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ الذين صدقوا فيما عاهدوا الله عليه، والتزموا بما أمرهم به ونهاهم عنه، هذا يوم الجزاء والجزاء ﴿ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بما فعلوه وما التزموا له وما صدقوا فيه ورضوا عنه ورضوا عن جزائه لهم.

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ الكون كله ملكه وفي ملكه يتصرف كيف يشاء، وهو على كل شيء قدير، على العطاء قادر على البذل قادر ولا يقف أمام إرادته شيء سبحانه!

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - الصدق موعده القيامة ينتفع به مَنْ تعامل به في الدنيا، فصدق في كل ما قال، وصدق في كل ما فعل، وجزاء الصدق الجنة، قال رسول الله ﷺ (عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البرِ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدّيقاً)[1].

٢ - يذكر الله تعالى عباده بأن الكون ملكه، وهم داخل هذا الملك، وأنه القادر على فعل كل شيء.

٣ - ختام هذه السورة بتذكير العباد الذي ورد في بداية السورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ يتناسب مع قوله في الختام: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ١٢٠﴾ فتناسب البدء مع الختام ملكاً وتصرّفاً.

(١) مسلم: (١٠٥).

سورة الأنعام

تمهيد

بين يدي السورة:

سورةُ الأنعامِ سورةٌ مكيةٌ: نزلت على قلب النبي ﷺ بمكة، لنقض عقائد الشرك وإبطالها، وتقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها.

وكان نزولُها في مرحلة الجهر بالدعوة التي واجهها أساطينُ الكفر وصناديدُ الضلال بالصدود والإعراض، والتكذيب والاستهزاء، والمطالبِ التي تنمُّ عن تعنُّتهم وإصرارِهم على الكفر مهما عاينوا من آيات.

نزلت هذه السورةُ جملةً واحدةً على غير المعهود في السور الطوال لتكون دفعةً واحدةً بحججها الساطعة، وبراهينها القاطعة، وآياتها المتتابعة، التي تُرْهِفُ الآذان، وتخاطب الوجدان، وتحاور العقول، وتصِل إلى القلوب.

أ - اسم السورة الكريمة :

أما عن اسمها: فسميت بسورة «الأنعام»: وذلك لما ورد فيها من ذكر الأنعام والشيء قد يسمى بجزئه، فسميت هذه السورة الكريمة سورة الأنعام لورود كثير من أحكام الأنعام فيها، ولبيان السورة لجهالات المشركين فيها، كتحليلهم وتحريمهم حسب أهوائهم وتقاليدهم البالية وتقربهم بها إلى أصنامهم، فنزلت هذه السورة لتبين بطلان ما اتخذوه من أمرها ديناً، لم يأذن به الله.

قال الإمام السيوطي: « وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها، وإن كان لفظ الأنعام ورد في غيرها، إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ

عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (١٤٤) :هذا التفصيلُ: لم يرد في غيرها»[1].

ب - فضائل السورة:

* هذه السورة الكريمة من السور السبع الطوال، ومما ورد في فضائل هذه السبع:

١ - ما رواهُ الإمام أحمد وغيره عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ)[2].

* فالكتب السماويةُ جميعها خرجت من مشكاةٍ واحدة ودعت إلى غاية واحدةٍ، ولقد جاء القرآن الكريم مهيمنا على ما سبقه من كتبٍ ومستوعبا لها ومصدقا بها.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي - النوع السابع عشر في معرفة أسمائه وأسماء سوره ١ / ٥٥

(٢) مسند الإمام أحمد ٤ / ١٠٧ حديث ١٧٠٢٣، ورواه الطبراني في المعجم الكبير عنه ١٥ / ٤٥٠ حديث ١٧٦٤٧، ورواه الإمام البيهقي في دلائل النبوة ٦ / ٩٥ حديث ٢٢٢٠ وفي شعب الإيمان ٢/ ٤٦٥ حديث ٢٤١٥، والطيالسي في مسنده ١ / ١٣٦ حديث ١٠١٢، والطحاوي في مشكل الآثار مشكل الآثار للطحاوي - ٣ / ٣٩٦ حديث ١١٨٠، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد عن واثلة ٧ / ١٣٢ حديث ١١١٠٩وقال «رواه أحمد وفيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات»، وأورد الهيثمي روايةً للطبراني عن أبي أمامة ﷺ فقال: «وعن أبي أمامة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ «أعطاني ربي السبع الطول مكان التوراة والمئين مكان الإنجيل وفضلت بالمفصل». رواه الطبراني وفيه ليث بن أبي سليم وقد ضعفه جماعة ويعتبَرُ بحديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح». مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٧/ ٣٢٩ حديث ١١٦٢٦ وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة حديث (١٤٨٠) وقال حديث حسن.

٢ - وروى الحاكمُ وغيرُهُ عن جابر ﷺ، قال: لما نزلتْ سورةُ الأنعامِ سبَّحَ رسولُ الله ﷺ ثم قال: (شيَّعَ هذه السورةَ من الملائكةِ ما سدَّ الأفقَ) [١].

٣ - وأخرج أبو عبيدة وابنُ الضُّرَيْس والطبرانيُّ وابنُ المنذر وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ قال: « نزلتْ سورةُ الأنعامِ بمكةَ ليلا جملةً، حولَها سبعونَ ألفَ مَلَكٍ يجأرون بالتسبيح » [٢].

٤ - وروى الدارمي فى مسنده عَنْ عُمَرَ بن الخطاب ﷺ قَالَ: « الأَنْعَامُ مِنْ نَوَاجِبِ الْقُرْآنِ.. » [٣] **وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد قال: « نزلت سورةُ الأنعامِ كلُّها جملةً »** [٤][٥].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٤٤ حديث ٣٢٢٦، وقال « هذا حديث صحيح على شرط مسلم » « فإن إسماعيل هذا هو السدي، ولم يخرجه البخاري »، وقد تعقب الذهبي الحاكم بقوله: «لا والله لم يدرك جعفر السدي، وأظن هذا موضوعا». لكنه على شرط مسلم في المعاصرة؛ فإن وفاة السدي كانت سنة ١٢٧هـ وولادة جعفر بن عون سنة ١٠٩ هـ؛ فاللقاء بينهما محتمل أما قول الذهبي: « أظنه موضوعا »: فلا وجه له؛ لأن رجال إسناد الحديث رجال مسلم، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٢ / ٤٧٠ حديث ٢٤٣١ وفيه موسى بن عبيدة ضعفه ابن حجر وضعفه الذهبيُّ، وقال السيوطي في الإتقان مُعقِّبا على الأحاديث الواردة في نزولها جملة: « فهذه شواهد يقوي بعضها بعضاً». الإتقان في علوم القرآن – النوع الثالث عشر: ما نزل مفرقا وما نزل جمعا ١/ ٣٧

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٢٩ حديث ٨-٣٦، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٢١٥ حديث ١٢٩٣٠. ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن وابن مردويه كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٣ / ٢٤٣، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٢١٥ حديث ١٢٩٣٠.

(٣) سنن الدارمي ٢ / ٥٤٥ حديث ٣٤٦٤، وقال محققه: حسين سليم أسد: « إسناده جيد إلى عمر ﷺ وهو موقوف عليه "، وفضائل القرآن للقاسم بن سلام ص ١٢٩ حديث ٣٧١، وفضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٢٩ والنواجب العتاق.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره في أول سورة الأنعام ٢/ ٢٠٣ وإسناده حسن وأورده السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣/ ٢٤٤ وقال أخرجه عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ.

(٥) وعن حكمة نزولها جملةً وليلا: يقول الإمام البقاعي في نظم الدرر: « وإنزالها على الصورة المذكورة يدل على أن أصول الدين في غاية الجلالة، وأن تعلّمه واجب على الفور لنزولها جملةً، بخلاف الأحكام =

ت - مكية السورة:

وهذه السورة مكية، وهي أولُ سورةٍ مكية في السبعِ الطوال، حسب ترتيب المصحف وقد انتظمت في عِقْدِ السور المكية التي نزلت لترسيخ العقيدة الصحيحة وإبطال ما عليه أهل الكفر من ضلالات وجهالات، وتقرير أصولِ الشريعةِ.

ث - عدد آيات السورة:

وعدد آياتها: (١٦٥) مائة وخمس وستون آية [(١)].

ج - محور السورة:

أما عن المحور الأساسي الذي تدور حوله السورة الكريمة: فهو إقامة الحجَّة على الكفار بنقض عقائدهم الباطلة وتقرير العقيدة الصحيحة بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة والحجج المتنوعة.

فهي أصلٌ في محاجة جميعِ الكفارِ، وكشف ما هم عليه من ضلالٍ وتفنيد شبهاتهم، وبيان العقيدة الصحيحة وإثباتِها بالأدلةِ والبراهين، والسورة الكريمة زادٌ للدعاةِ ومنهجٌ للمحاوِرين.

يقول صاحب الأساس في التفسير: « إن السورةَ حوارٌ شاملٌ مع الكافرين في كل الاتجاهات الرئيسية للكفر سواء كانت نظريةً، أو كانت عمليةً، ولذلك فإن على الداعية إلى الله

= فإنها تُفرَّق بحسب المصالح، ولنزولها ليلاً دليلٌ على غاية البركة لأنه محل الأنس بنزوله تعالى إلى سماء الدنيا، وعلى أن هذا العلم لا يقف على أسراره إلا البصراء الأيقاظ من سنةِ الغَفَلات، أولُوا الألبابِ أهلُ الخَلَوَات، والأرواحِ الغالبةِ على الأبدانِ، وهم قليل «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢/ ٥٧٩.

(١) لمزيد بيان: يراجع في ذلك: جمال القراء وكمال الإقراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٢٠٢ ط مكتبة التراث مكة، وفنون الأفنان في عيون علوم القرآن لابن الجوزي ص ٢٨٢ ط دار البشائر الإسلامية ١٤٠٨هـ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي النوع التاسع عشر في عدد سوره وآياته ١/ ٦٨.

أن يتملَّى حُججها ويعرف كيف يقرع بها» [1].

وقد وردت فيها كلمة «الحجة» مع بعض أخواتها في الاشتقاق في مواضع عديدة:

منها قوله تعالى ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٠] وقوله جلَّ وعلا ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقوله عز وجل ﴿ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام ١٤٩].

فقد نزلت هذه السورة لتقوِّض وتدحضَ عقائد أهل الشركِ وتقررَ وترسِّخ العقيدة الصحيحة التي من أجلِهَا أرسل اللهُ الرسلَ وأنزل الكتب قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنبياء: ٢٥].

وقال صاحب الظلال: « هذه السورة مكية، من القرآن المكي القرآن الذي ظل يتنزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاما كاملةً، يُحَدِّثُهُ فيها عن قضيةٍ واحدة قضيةٍ واحدة لا تتغير ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر؛ ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة، حتى لكأنما يطرقُها للمرة الأولى، لقد كان يعالجُ القضية الأولى والقضية الكبرى والقضية الأساسية في هذا الدين الجديد: قضية العقيدة» [2].

وهذه السورة الكريمة: « هي أجمعُ سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية وأشدُّها مقارعةً لهم واحتجاجا على سفاهتهم» [3].

---

(١) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى رحمه الله ٣/ ١٦٦١

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب رحمه الله ٢ / ١٠٠٤

(٣) تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام تأليف دكتور إبراهيم الكيلاني ص ٢٠

ولقد كشفت هذه السورة الكريمة كثيرا مما كان عليه أهل الجاهلية من زيغ وضلال، وانحرافات ومخالفات وأباطيلَ وشبهاتٍ: « عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: " إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾(١٤٠) "[1].

من هنا: فقد اشتملت هذه السورة على أساليبَ متنوعةٍ في تقويض دعائم الشرك وترسيخ قواعد الإيمان ودحض شبه أهل الزيغ والضلال وإبطال ما كان عليه أهلَ الجاهلية من معتقدات فاسدة وتقاليد راكدة.

من هذه الأساليب التي اشتملت عليها السورة: أسلوب التقرير وأسلوب التلقين وأسلوب الاستفهام التقريري، وأسلوب القصص وضرب الأمثال، وأسلوب الوعد والوعيد.

وخلاصةُ القول في محور السورة الكريمة: أنها نزلت بالحجج القاطعةِ والآيات الساطعةِ التي تقوضُ دعائم الشرك وتدحضُ شُبَهَهُ، وتقررُ عقيدةَ التوحيدِ وأصولَ التشريع، وتُثَبتُ فؤاد النبي ﷺ وَمَنِ اتَّبعَهُ مِنَ المؤمنين، وتُفصِحُ عن أسباب صدودِ المشركينَ وإعراضهم عن الحقِّ مع ظهورِ حُجَجِهِ، وجلاءِ براهينِه.

ح - **المناسبات في السورة:** تميز القرآن الكريم بنظمه الفريد، وسبكه النضيد، وتصريفه العجيب، وروعة الأساليب، مع امتزاج المعاني وتناسقها، واتساق الآيات وتعانقها، وتناسب السور وانتظامها.

كالدُّرِّ يزدادُ حُسْناً وهْوَ منتظمٌ ... وليس ينقصُ قدراً غيرَ منتظمِ

وفي السطور التالية أتناولُ جملةً من أوجه المناسباتِ على النحو التالي:

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب المناقب بَاب قِصَّة زمزم وجَهْلِ الْعَرَبِ - حديث ٣٣٣٤.



١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

تدور السورة الكريمة حول دحض شبهات وأباطيل المشركين في العقيدة والأحكام وبيان جهلهم وسفههم، والذي تجلى واضحا في مواقفهم المتناقضة في شأن الأنعام من تحليلٍ وتحريمٍ حسب أهوائهم وأوهامهم.

من هنا يظهر الارتباط بين اسم السورة ومحورها، حيث أوردت السورةُ الكريمةُ صورا ومشاهدَ لما عليه المشركون من جهلٍ وضلالٍ، وشركٍ في العقيدةِ والأحكام والسلوك، وقد تمثَّل ذلك في موقفِهم من الأنعام، فمع كونهم يُقِرُّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق إلا أنهم يحرِّمون ما أحلَّ اللهُ افتراءً عليه.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* بدأت السورة الكريمة ببيان تفرُّدِه تعالى بالحمد وانتهت السورة ببيان تفرده تعالى بالوحدانية فلا ربَّ غيره ولا معبود سواه.

* استهلت السورة الكريمة بالحديث عن نعمة الإيجاد الأول « المبدأ » قال تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾، واختُتمت السورة بتقرير نعمةِ الإيجاد الثاني « المعاد » قال تعالى ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

* في مطلع السورة إشارةٌ إلى نعمة الخلق، وفي خاتمتها إشارةٌ إلى نعمة الاستخلاف في الأرض، وبيانٌ للحكمة من هذا الاستخلاف وهو الابتلاء.

* وفي مطلع السورة حديثٌ عن إحاطة علمه تعالى بأحوال عباده وأعمالهم ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ وفي خاتمتها بيانٌ لمصير الخلق إلى ربهم لينبئَهم بما عملوا ويجازيهم بما كسبوا.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

- لما قال سبحانه في ختام سورة المائدة ﴿ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ناسب ذلك بيانَ وتقريرَ تفردِه تعالى بهذا الملكِ لأنه تعالى خالقُ السمواتِ والأرض وما فيهن فقال سبحانه ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام: الآية ١].

- قال السيوطي رحمه الله «.. لما ذكر في آخر المائدة﴿ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [المائدة ١٢٠] على سبيل الإجمال..!! افتتح جل شأنه هذه السورة: بشرح ذلك وتفصيله؛ إذ بدأ - سبحانه - بذكر خلق السماوات والأرض، وضم إليه تعالى: أنه جعل الظلمات والنور، وهو بعض ما تضمنه قوله ﴿ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ في آخر المائدة.

- ثم ذكر تعالى أنه خلق الإنسان، وقضى له أجلاً، وجعل له أجلاً آخر للبعث، وأنه تعالى منشئ القرون، قرناً بعد قرن.

- كذلك لما ختمت سورة المائدة بفصل القضاء بين العباد وجزاء الصادقين قال تعالى ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة ١١٨]: ناسب ذلك حمده تعالى على نعمة القضاء بين خلقه وعلى نعمة إثابة الصادقين فاستفتح سورة الأنعام بالحمد... كما قال سبحانه ﴿ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر ٧٥].»[1]

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للإمام جلال الدين السيوطي ص ٤٧ : ٤٩ بتصرف.

- وقال الشيخ أبو زهرة رحمه الله: « كان ختامُ السورةِ السابقةِ: إثباتَ سلطانِ اللهِ تعالى الكاملِ وقدرتِهِ الشاملةِ وأنه لا يعجزه شيء في الأرضِ ولا في السماءِ، وفي مستهل سورةِ الأنعامِ يبين سبحانه السببَ في كمال سلطانه والمَظْهَرَ الأعظمَ لكمالِ قدرتِهِ سبحانه وتعالى»[1].

٤ - المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

سوف تتجلى لنا تلك المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها العام عند تناولنا لهذه المقاطع وتدبرنا فيها حيث تدور جميعُها حول المحور العام لهذه السورة الكريمة وهو تقرير العقيدة الصحيحة وإبطال ما عليه أهل الشرك من زيغٍ وانحرافٍ وجهلٍ وضلالٍ، وذلك من خلال الحجج الساطعة والأدلة المتتابعة التي اشتملت عليها السورة، وبيان أسباب إعراض المشركين وصدودهم عن الحق.

٥ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

- ومن أوجه الصلات بين سورتي المائدة والأنعام: التشابه في المضمون؛ حيث الردُّ على كثيرٍ من الانحرافات العَقَدِيَّة التي ضلَّ بها الكافرون ودحضُ شبهاتهم، وتفنيدُ مزاعمهم: ففي سورة المائدة يأتي الحديثُ موجها إلى أهل الكتاب مع بيان بعض ضلالات المشركين وفي سورة الأنعام تبين السورةُ ما عليه أهلُ الشركِ من أباطيلَ وأوهامٍ، مع بعض الإشارات إلى ضلالات أهل الكتاب.

- من هنا نلمس التنوعَ في العرض والتناسب والتكامل بين سور القرآن، فمع تفرُّد كلِّ سورة بأسلوبها ومحورها وهدفها إلى أننا نجد التناسب والتناسق بين جميع السور.

« فالمائدةُ فيها حِجاجٌ لأهل الكتاب وردٌّ على اقتراحهم الآيات، وتقريرٌ لرسالة محمدٍ ﷺ ونبوته، وللقرآن ودعوته، والأنعام فيها حجاجٌ للمشركين وردٌّ عليهم في اقتراحهم الآيات وتقريرٌ لعقيدة التوحيد ولدعوةِ محمدٍ ورسالتِهِ... فالغرضُ واحدٌ من السورتين، أو كالواحد

---

(١) زهرة التفاسير للشيخ محمد أبي زهرة رحمه الله ٥ / ٢٤٣١.

والمغزى والهدفُ واحدٌ أيضا» [١].

- كذلك تعالجُ السورتان قضية التحليل والتحريم فتصحح تلك المفاهيم التي سادت بين المشركين فدفعتهم إلى تحكيم أهوائهم وتقديم مصالحهم على شرع الله فتراهم يحرِّمون ما أحل الله ويستحلُّون ما حرم الله [٢].

- كذلك أشارت سورة المائدة إلى استئثاره تعالى بعلم الغيب وجاءت سورة الأنعام مفصلَّة ومقررةً لذلك فضلا عن إحاطته تعالى بعالم الشهادة: بكل دقائقه وتفصيلاته [٣].

مقدمة السورة

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

الاستفتاح بالحمد

قال تعالى﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾.

استُهلَّت السورةُ الكريمة ببيان تفرُّد الله تعالى بالحمد، فهو تعالى وحده المستحقُّ للثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال والجلال، وهو المحمود ولا يزال لما أسداه من نعم وأبداه من كرم، وهو تعالى المحمود في الأولى والآخرة، وفي جميع الأحوال، وله الحمد على أن علمنا

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، محمد عبد المنعم خفاجي ٧/ ٢٠٣ بتصرف.

(٢) من ذلك ما جاء في سورة المائدة الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) والآيتان (٨٧، ٨٨) وسورة الأنعام (١٣٩، ١٤٠).

(٣) من ذلك ما جاء في سورة المائدة الآية (١٠٩) وسورة الأنعام (٥٠، ٥٩: ٦٧).

كيف نحمده.

والفرق بين الحمد والشكر أن الشكر لا يكون إلا في مقابل نعمة لذلك أُمِرْنَا أن نشكر من أحسن إلينا، أما الحمد فإنه على النعمة وعلى ذات المنعِم.

ومن أعظم النعم وأجلِّها نعمةُ خلق السموات والأرض وما بينهما وما بثَّ فيهما من عوالم ومخلوقات، وما أودع فيهما من دلائل وآيات، تشهد له بكمال القدرة وتنطق بجمال الصنعة.

قال الإمام الشوكاني: « ثم وَصَفَ نفسه بأنه الذي خلق السموات والأرض؛ إخباراً عن قدرته الكاملة، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده، هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد» [1].

﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ جعل بمعنى: صيَّر، والفرق بين الخلق والجعل: أن الخلق إيجاد من عدم، أما الجعل فيتضمن معنى « التصيير والتحويل»، ذلك أن الظلمات والنور متولدة عن حركاتِ الأجرام وناتجةٌ عن التغيرات الطارئة في الكون والتي بسببها يكون الظلام والنور ويتعاقب الجديدان الليل والنهار.

وجمع الظلمات لتعددها واختلافها من ذلك ظلمات البر وظلمات البحار وظلمات الأرض وغير ذلك، كما يراد بها الظلمات المعنوية مثل ظلمة الكفر وظلمة الضلال وظلمة الهوى وظلمة النفاق وظلمة المعاصي، وعلى هذا فالنور واحد وهو نورُ الحق لا يتعدد: كما قيل: الطرقُ شتى وطريقُ الحقِّ واحدةٌ والسالكون طريق الحقِّ آحادُ، فَجَمَعَ الظلماتِ وأَفْرَدَ النور لأن الهدى واحد، والضلال متعدد، كما قال تعالى في آخر السورة ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (١٥٣)، فوحَّد الصراط المستقيم وجمع السبل وسيأتي مزيد بيان لذلك في موضعه.

---

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكاني ٢ / ٩٨

فالظلماتُ والنورُ هنا تشملُ الماديَّ منها والمعنويَّ بدليلِ السياقِ العام للسورةِ الكريمةِ التي دار الحديثُ فيها عن الظلماتِ الحسيةِ والظلماتِ المعنويةِ.

قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

وتقديم الظلمات على النور: لأن الظلمات كانت أولا ثم خَلَقَ اللهُ النورَ ولقد أثبت ذلك العلمُ الحديثُ.

﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

مع وضوح الدلائل وظهور الحجج التي تقرر استحقاق المولى عز وجل للحمد وتفردَه بذلك فإن الكافرين يعدلون به غيره؛ إذ يسوون الأصنام به.

لذا جاء التعبير ب «ثم» لاستبعاد الشرك بعد وضوح الأدلة والبراهين المقررة للتوحيد.

كما تقول: يا فلان أعطيتُك وأكرمتُك وأحسنتُ إليك ثم أنت تشتمُني، أي بعد هذا كلِّه تقابلُ الإحسانَ بالإساءةِ والإكرامَ بالإهانةِ!.

« فيا للمفارقة الهائلة بين الدلائل الناطقة في الكون، وآثارها الضائعة في النفس!» [1].

---

(١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٢ / ١٠٣٠.



ويا عجبا كيف يجحده الجاحدون وكيف يُعْرِضُ عن آياته المعرضون؟

* فيا عجبا كيف يُعصَى الإلهُ	أم كيفَ يجحدُهُ الجاحدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ	تدلُّ على أنَّهُ واحدُ
* تِلكَ الطَبيعَةُ قِف بِنا يا ساري	حَتّى أُريكَ بَديعَ صُنعِ الباري
لِلأَرضُ حَولَكَ وَالسَماءُ اِهتَزَّتا	لِرَوائِعِ الآياتِ وَالآثارِ
مِن كُلِّ ناطِقَةِ الجَلالِ كَأَنَّها	أُمُّ الكِتابِ عَلى لِسانِ القاري
دَلَّت عَلى مَلِكِ المُلوكِ فَلَم تَدَع	لِأَدِلَّةِ الفُقَهاءِ وَالأَحبارِ
مَن شَكَّ فيهِ فَنَظرَةٌ في صُنعِهِ	تَمحو أَثيمَ الشَكِّ وَالإِنكارِ

خلق الإنسان، وإمكانية البعث

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ ﴾

ينتقل الحديث من خلق السموات والأرض إلى خلق الإنسان وهذا من باب ذكر الخاص بعد العام؛ تشريفا وتكريما وعنايةً؛ إذ الإنسان جزءٌ من هذا الكون، لكنه من أشرف المخلوقات وأكرمها على الله تعالى.

والطين: هو المادة التي خُلِقَ منها آدمُ ﷺ ومنه خلق الله زوجه حواء رضي الله عنها أما سائر البشر: فإن الطين عنصرٌ أساسي في تكوينهم؛ ذلك أن الغذاء يستخلص من الأرض، ومن الغذاء ينمو الإنسان.

﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾

أصل الأجل في استعمال اللغة: الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان الوقت المضروب لانتهاء عمره، والمعنى هنا: أن الله تعالى قدر للإنسان أجلين: الأجل الأول هو انقضاء عمره في الدنيا، فكل يوم يمر عليه انتقاصٌ من أجله واقترابٌ من موعده

والمرءُ يفرحُ بالأيامِ يقطعُهَا   وكلُّ يومٍ مضى نقصٌ من الأجلِ

والأجل الثاني: ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ : هو ما بعد الموت حيث ينتقلُ إلى الحياة الآخرة، فإذا مات الإنسانُ انقضى أجلُهُ الأولُ وابتدأ أجلُه الآخرُ.

وقيل الأجلُ الثاني: هو انتهاء الدنيا بما عليها وبعث الناس من قبورهم.

ولا تعارض بين المعنيين إذ النص القرآني يستوعبهما.

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾

أبعد هذه الحجج النيرات والآيات البينات والدلائل الباهرة الناطقة بكمال قدرته تعالى وعجائب صنعه تمترون في أمر البعث وغيره من أصولِ الإيمان!

إحاطة علمه تعالى.

قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

لما استهل الحديثَ بنعمة الخلق والإيجاد: خلق السموات والأرض وخلق الناس: نَاسَبَ ذلك بيانُ إحاطةِ علمِهِ تعالى بهذا المخلوقِ واطلاعِهِ على أحوالِهِ، ونحو ذلك قوله تعالى ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

ولما كان الحكمةُ من البعثِ مجازاةَ المحسنِ بإحسانِهِ والمسيءِ بإساءته: أشار هنا إلى علمه بأحوال البشر محسنهم ومسيئهم، كما في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ) [(١)].

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذرٍّ ﷺ عن نبينا ﷺ عن رب العزة جلَّ وعلا - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم حديث ٥٥- (٢٥٧٧)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٩٣ وابن حبان في صحيحه حديث ٦٢١ والطيالسي في مسنده حديث ٤٥٩.

الصلة بين مقدمة السورة ومحورها

إذا كان محور السورة كما ذكرنا آنفا يدور حول تقرير العقيدة الصحيحة بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة والدلائل المتتابعة والأدلة المتنوعة: فلقد استهلت السورة الكريمة بالحديث عن الركيزة الأساسية للعقيدة الإسلامية، وهي الإيمان بالله تعالى، حيث يُعرِّفُنا ربُّنا بذاتِه وصفاتِه وأفعالِه ويُذكِّرُنا بنعمه وعنايته ولطفه بعباده، وسنرى كيف أجملت المقدمة ما فصلته السورة الكريمة.

الهدايات المستنبطة من مقدمة السورة

* استُهلَّت السورة الكريمة ببيان تفرُّد الله تعالى بالحمد، وهو الثناء على الله تعالى بما هو أهله من صفات الكمال والجلال.
* من أعظم النعم وأجلِّها نعمةُ خلق السموات والأرض وما بينهما وما بثَّ فيهما من عوالم ومخلوقات وما أودع فيهما من دلائل وآيات تشهد له بالوحدانية، وتنطق بكمال قدرته وبديع صنعه، ومع التقدم العلمي الهائل فسوف يظلُّ خلق السماوات والأرض سرّاً يعجزُ عن إدراكه العلماءُ مهما تقدموا ومهما تعمقوا في البحوث والدراساتِ.
* جمع الظلمات لتعددها واختلافها من ذلك ظلمات البر وظلمات البحار وظلمات الأرض وغير ذلك، وقد يراد بها الظلمات المعنوية مثل ظلمة الكفر وظلمة الضلال وظلمة الهوى وظلمة النفاق وظلمة المعاصي وقدَّم الظلمات على النورِ لتقدمها في الوجودِ.
* مع وضوح الدلائل وظهور الحجج التي تقررُ استحقاق المولى عز وجل للحمد وتفرده بذلك فإن الكافرين يعدلون به غيره ويسوُّون أصنامهم به!
* وفي خلق الإنسان من طينٍ دليل على قدرة الله عز وجل وإبداعه في صنعه، وفيه أيضا دليلٌ على إمكانية البعث فالذي خلقهم من طينٍ قادرٌ على أن يعيدهم كما بدأهم.
* وفي مطلع السورة الكريمة ردٌّ على كافة المشركين الذين يسوون بين الله وهو الخالق سبحانه

وبين الآلهة التي يعبدونها من دون الله، وفيها إبطالٌ لما عليه بعضُ طوائفِ المجوس من عبادةِ إلهينِ من دون الله أطلقوا عليهما: إله النور وإله الظلمة، فبيَّن تعالى أنه هو الذي أوجد الظلمات وأوجد النور فكيف تعبد من دون الله! و ردٌّ على منكري البعث مع وضوح الحجج والبراهين القاطعة، وردٌّ على منكري القدر حيث بيَّن عز وجل قضاءه في عباده، وتقديره لآجالهم، وبيانٌ لإحاطة علمه عز وجل بكل الأمور والتفصيلات والكليَّات والجزئيَّات، والجليَّات والخفيَّات، وتقريرٌ لكمالِ قدرتِه عز وجل والتي تجلَّت في خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وفي خلق الإنسان وتقدير الآجال، مع ذلك فإن الكافرين يمترون! ويعرضون ويكذبون ويستهزئون ويتعنَّتون كما ستكشف لنا الآيات التالية.

- ١ -

موقف المشركين

(إعراض المشركين)

قال تعالى ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

المناسبةُ: ما زال الحديثُ موصولا عن موقفِ المشركين من تلك الحقائقِ الدامغةِ و الحجج البالغةِ بين امتراءِ وامتعاضٍ، وصدودٍ وإعراضٍ، وغفلةٍ وتكذيبٍ، وسخريةٍ واستهزاءٍ، فوق

ما اقترحوه من مطالبَ تنمُّ عن تعنتهم وعنادِهم، وفي هذه الآيات تفصيلٌ لما أُجْمِلَ في مقدمةِ السورةِ حول موقفِ المشركين: وهو العدولُ عن عبادةِ الله تعالى، وتسويتُه سبحانه بأصنامِهم التي يعبدونها من دونه، وامتراؤُهم مع وضوحِ الحججِ وتجلي الآيات.

التفسير الإجمالي

صدودٌ وإعراضٌ

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾

قال الإمام الألوسي رحمه الله: « كلام مستأنف سيق لبيان كفرهم بآيات الله تعالى وإعراضهم عنها بالكلية بعد بيانِ كفرهم بالله تعالى وإعراضِهم عن بعضِ آياتِ التوحيدِ وامترائهم في البعث» [1].

فالإعراض ديدنُهم أمام كلِّ الآياتِ الجليَّاتِ آيات القرآن المسطور وآيات الكون المنظور آيات الأنفس والآفاق، آياتِ الأجواء والأعماق، فهم في غفلة عنها وإعراض، ونظير هذا قوله تعالى في سورة القمر ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾.

فهم معرضون عن جميع الآيات الكونية والإنسانية مع وضوحها وجلائها، وتجددها وتتابعها، كما يستفاد من التعبير بالفعل المضارع ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم ﴾ - ومع قربها منهم ومجيئها إليهم دون تكلف البحث عنها كما يفيده التعبير ب﴿ وَمَا تَأْتِيهِم ﴾ أنها تقبل عليهم وتتجلى أمامهم، ومع ذلك فهم معرضون عنها بالكلية، وموقفهم في الإعراض ثابت - كما يفيد التعبير عن ذلك باسم الفاعل ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ الدال على ثبات موقفهم وإصرارهم وعتوهم ونفورهم من أي آيةٍ.

---

(١) روح المعاني للألوسي ٧/ ١١٨.

وإضافة الآيات إلى «ربهم»: بيانا لمصدرها، وتفخيما لشأنها، وتعظيما لها، ومع ذلك فقد أعرضوا عنها!

وهذا الإعراض كما أسلفنا: ليس مرجعُه إلى خفاءِ الأدلةِ وغموضِ البراهينِ بل إنها واضحةٌ وضوحَ الشمسِ في رابعةِ النهار، وإنما مرجعُ الإعراض إلى قلوبهم القاسية ونفوسهم المعتلَّة، وقد قيل:

* قد تنكر العينُ ضوءَ الشمسِ من رمدٍ وينكرُ الفمُ طعمَ الماءِ من سَقَمٍ

* وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

فنفوسُهم غيرُ مهيئةٍ لتقبلِ الحقِّ، وآذانُهم صُمَّت عن سماعِه، وقلوبُهم غُلفٌ عن تدبر الآيات والانتفاع بها، وصدق الله تعالى إذ يقول﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[يوسف: ١٠٥]

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١].

يقولُ صاحبُ الظلال: « إنهم يتخذون موقفَ الإعراضِ عناداً وإصرارا، فليس الذي ينقصُهم هو الآياتُ الداعيةُ إلى الإيمان، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة، هي التي يُدْعَون إلى الإيمان بها والاستسلام لها.. ليس هذا هو الذي ينقصُهم، إنما تنقصُهم الرغبةُ في الاستجابة، ويمسك بهم العنادُ والإصرارُ، ويقعد بهم الإعراضُ عن النظرِ والتدبر:﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾، وحين يكون الأمرُ كذلك: حين يكونُ الإعراضُ متعمَّدا ومقصوداً - مع توافر الأدلة، وتواتر الآيات ووضوح الحقائق -: فإن التهديد بالبطش قد يُحْدِثُ الهزَّةَ التي تفتح نوافذَ الفطرة حين تسقط عنها حواجز الكبر والعناد» [1].

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٣٦، ١٠٣٧ بتصرف يسير.



تكذيبٌ واستهزاءٌ

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ليس إعراضهم عن هذه الآيات: توقفا في شأنها، أو انشغالا عن النظر فيها، أو تسويفا للبحث في شأنها: وإنما هو التكذيب والاستهزاء، ولو أنهم تجردوا من الأهواء وأبصروا الآيات بعين النظر والتأمل وأعملوا عقولهم: لما كذبوا بكل ما جاء به النبي ﷺ وطرق قلوبهم وقرع أسماعهم وهو الحق من عند ربهم! ولكنهم عمُوا وصمُّوا!

قال الإمام الرازي رحمه الله: « اعلم أنه تعالى رتَّب أحوالَ هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب، **فالمرتبة الأولى**: كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل والتفكر في البينات، **والمرتبة الثانية**: كونهم مكذبين بها وهذه المرتبةُ أزيدُ مما قبلها، لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذباً به، بل يكون غافلاً عنه غير متعرض له، فإذا صار مكذباً به فقد زاد على الإعراض، **والمرتبة الثالثة**: كونهم مستهزئين بها لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار، فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب» [(١)].

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وعيدٌ شديدٌ لما ينتظرُهم من الويلِ والثبورِ وعظائِم الأمورِ؛ جزاءَ تكذيبِهم الواقع واستهزائهم المستمر، ولسوف يعلمون حين تنكشف لهم الحقائق، وترفع الحجب، ويعاينون العذاب أنهم كانوا على ضلال مبين.

قال صاحب الكشاف: « ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ ﴾ الشيء الذي ﴿ كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وهو القرآن، أي أخباره وأحواله، بمعنى: سيعلمون بأي شيء استهزءوا، وسيظهرُ لهم أنه لم يكن بموضعِ استهزاءٍ، وذلك عند إرسالِ العذابِ عليهم في الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهورِ

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٤ / ٤٨٣.



الإسلامِ وعلوِّ كلمتِهِ» [(١)].

وقال صاحب الظلال: « ويتركهم أمام هذا التهديد المجمل، الذي لا يعرفون نوعه ولا موعده.. يتركهم يتوقعون في كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون! حيث يتكشف لهم الحق أمام العذاب المرتقب المجهول!» [(٢)].

وإذا لم يتهيئوا لقبول الحق فليتهيئوا لهذا العذاب المقيم الذي ينتظرهم، ولقد جاء تفصيلُ هذه الأنباء في ثنايا السورة الكريمة.

غفلةٌ عن السنن الربانية

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

إلى جانب الامتراء والإعراض والتكذيب والاستهزاء فلقد ضمُّوا إلى سجلِّهم الحافل الغفلةَ عن سنن الله تعالى في الأمم الماضية ومن ذلك سنةُ الاستدراج، وسنةُ إهلاك المكذبين.

فلما توعد اللهُ المشركين في الآية السابقة بسوء العاقبة: أمرهم أن يصرفوا أنظارهم ويسترجعوا تاريخ الذين مضوا من المكذبين المعرضين لعلهم يعتبرون بهم، « وقد كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاف، وثمود بالحجر، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء للجنوب وفي رحلة الصيف للشمال، كما كانوا يمرون بقرى لوط المخسوفة ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث - فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب» [(٣)].

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾: دعوة لهم إلى النظر والاعتبار في سنن الله الماضية، وتوبيخٌ لهم: إذ كيف يمرون على مصارعِ أولئك الأقوامِ دون أن يعتبروا ويتعظوا بتلك الأممِ

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٥

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٣٧

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٣٧

الغابرةِ والحضاراتِ البائدةِ كيف أصبحت أثراً بعد عينٍ، وأطلالا خربةً بعد أن كانت مدائنَ عامرةً وقصوراً زاخرةً.

﴿ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ : أي جعلنا لهم مدائن عامرة وقرى ظاهرة وآلاتٍ ومرافقَ ومزارع ومصانع وغير ذلك من مظاهر الحضارة والرقي.

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ « أمطرت فأخرجت لهم الأشجارُ ثمارها، وأعطتهم الأرض رَيْع نَباتها، وجابوا صخورَ جبالها، ودرَّت عليهم السماء بأمطارها، وتفجرت من تحتهم عيون المياه بينابيعها، فغمَطُوا نعمة ربهم، وعصوا رسولَ خالقهم، وخالفوا أمرَ بارئهم، وبغَوْا حتى حقَّ عليهم قَوْلي، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم، وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم، وأهلكت بعضهم بالرَّجفة، وبعضهم بالصيحة، وغير ذلك من أنواع العذاب» [1].

والخطاب في ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾: لقريش خاصة وللعرب عامة: ولا شك أن الأمم ذات الحضارات البائدة كالفراعنة والرومان والإغريق والفينقيين والبابليين قد مكَّن الله لهم ما لم يمكن لقريش ولا لغيرهم من سائر العرب.

ولكن: هل يمكن حمل الخطاب هنا على عمومه فيشمل العرب وقت نزول القرآن ويشمل كل من بلغه الخطاب في جميع العصور؟ بما فيها عصرنا هذا؟

أقول: التمكين مسألة نسبية؛ فنحن في عصرنا هذا - والذي كثرت مسمياتُه وكلها تدور حول التقدم العلمي الهائل: فسمي: عصر العلم وعصر الذرة وعصر الفضاء وعصر الحاسوب - حيث تمكن العلمُ من ارتياد الفضاء والغوص في أعماق البحار والمحيطات، إلى جانب الثورة العلمية الكبرى في عالم الاتصالات، وعالم البنايات ناطحات السحاب وعلم الهندسة الوراثية وغيرها من العلوم، مع ذلك فلا يزال العلم عاجزا عن معرفة أسرار وهندسة

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ٧ / ١٧٦.



البناء والتشييد عند الأمم البائدة من ذلك الأهرامات، وغيرها، كذلك أسرار التحنيط عند الفراعنة، بل وجدنا العودة إلى الطب الشعبي القديم القائم على التداوي بالأعشاب والأغذية وغيرها، بعد المخاطر والأضرار التي سببتها الأدوية الكيماوية، كذلك شهدت هذه العصور الغابرة من فنون العمارة والزخرفة والصناعات اليدوية الدقيقة: ما يثير الدهشةَ والإعجابَ وما يعجز عنه المهرة من الصناع والحرفيين.

ألا يُفْهَمُ من هذا كلِّه أن الأممَ السابقةَ قد مُكِّن لها في أمورٍ لم يمكن لنا فيها؟

ومن حكمة الله عز وجل وأقداره أن وعت لنا ذاكرة التاريخ وبواطنُ الأرض وظواهرها وجدرانُ الكهوفِ وودائعُها: كثيرا من أخبار وآثار الأمم البائدة والحضارات الغابرة لتكون عبرةً على مر العصور وكرِّ الدهور، وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

تعنتٌ وعنادٌ

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

طلبهم كتابا من السماء!

ما زال السياق في تتبع مواقف المشركين الذين جمعوا بين الإعراض والتكذيب والسخرية والاستهزاء وبين الجحودِ والعناد من خلال مطالبهم المتعنتة لآياتٍ اقترحوها، لو نزلت عليهم لما ازدادوا إلا عنادا وإعراضا؛ فكان في ذلك هلاكهم، وماذا يُنتظرُ ممن عَمُوا وصَمُّوا عن الشواهدِ اليقينيةِ والبراهينِ الإيمانيةِ ولجُّوا في عُتُوٍّ ونُفُورٍ وأوغلوا في الضَّلالِ والغرورِ؟

والمعنى ولو نزلنا عليهم كما طلبوا كتاباً من السماء، فلمسُوه بأيديهم، لقالوا إن هذا إلا

سحرٌ مبين، فهم لن يؤمنوا مهما تنزلت عليهم الآياتُ وتواترت الحُجَجُ وتتابعت الدلائلُ.

طلبهم ملكا رسولا!

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾؟ أي قال الكافرون: هلا كان مع محمد مَلَكٌ نراه ونصافحه ونسمع حديثه، ونحاوره! ومع أن هذا المطلب صدر عن بعضهم إلا أن الآخرين لم يعترضوا عليه فكان إقرارٌ منهم بذلك، والراضي عن القول كقائله.

﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾: إن نزول المَلَكِ سيعجِّل بعذابهم لأنهم لن يؤمنوا به وحينئذٍ لن يُمْهَلُوا ولن يُؤخَّروا؛ فإن سنةَ اللهِ قد جَرَتْ في الكفارِ أنهم متى اقترحوا آيةً، ثم لم يؤمنوا: استؤصلوا بالعذاب.

قال تعالى في سورة الحجر ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

قال قتادة: « لو أنزلنا ملكا ثم لم يؤمنوا لعُجِّل لهم العذابُ ولم يؤخروا طرفَةَ عينٍ» [١].

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا ﴾: أي ولو جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا، أو أنزلنا مع الرسول ملكا كما طلبوا: ﴿ لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾: أي لأرسلناه في صورة رجل لأنهم لن يطيقوا رؤيته بصورته الحقيقية، لأنهم لم يتهيئوا لذلك، لأن الحواسَّ البشرية تقصرُ عن إدراك بعض الموجودات بل ولا تطيقُ أشياء كثيرة؛ فالأذن مثلا لا تسمع الأصوات التي تقلُّ ذبذبتها عن ١٣ ذبذبة في الثانية، ولا تطيق سماع الأصوات التي تزيد عن ٣٠٠٠٠ ذبذبة في الثانية، وكذلك العين لا ترى كثيرا من الأشياء المحيطة بها مع أنها محسوسة فما بالنا بعالم الغيب!

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٣/ ١٢٩.



﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾: أي لأوقعناهم في اللبس والإشكال والخلط، كما يفعلون ذلك مع أتباعهم من الضعفاء وكما يسعون إلى التلبيس عليك، وهنا يختلط الأمر عليهم أملكٌ هو أم بشرٌ؟

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم؛ لأنهم إذا رأوه في صورة إنسان قالوا هذا إنسان وليس بملَك، فإن استدلَّ لهم بأنه مَلَكٌ كذبوه، قال الزجاج: المعنى للبسنا عليهم، أي على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفتهم، وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم، فأعلم الله عزّ وجلّ أنه لو نزل ملكاً في صورة رجل، لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون»[1].

عاقبة المستهزئين المكذبين، وتسليةٌ وتثبيت لخاتم النبيين.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ بعد أن قطعت عليهم الآياتُ السابقةُ كلَّ السبلِ المفضيةِ إلى التكذيب والإعراض، وفنَّدت مزاعمهم وبددت مطالبهم وأفصحت عن عنادهم، وكشفت عن تعنُّتهم في طلبَ الآيات، ينتقلُ الحديثُ إلى النبي ﷺ تسليةً لقلبه وتسريةً لروحِه وتثبيتا لفؤادِه وترويحاً عن نفسِه ببيانِ أن ما يحدثُ من تكذيبٍ وإعراضٍ وسخريةٍ وعنادٍ إنما حَدَثَ لإخوانِه النبيين من قبله على أيدي الكفرة ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

حلَّ بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه تكذيباً واستبعاداً له واستخفافاً واستهانةً به.[2]

---

(١) فتح القدير للإمام الشوكاني - ٢ / ١٠١ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٢٣١.

(٢) فائدة في الفرق بين السخرية والاستهزاء: هما مترادفتان، إذا افترقتا اجتمعتا وإذا اجتمعتا افترقتا أي دلت كلُّ واحدةٍ على معنى، وقد يكون ورودهما في آيةٍ واحدة من قبيل التفنن والتنوع في الكلام، والاستهزاء أعمُّ من السخرية فالاستهزاء قد يكون بذات الشخص أو بفعله أو بكلامه أو بوعيده، أما السخرية فإنها تكون من فعلٍ أو قولٍ أوحالٍ، ويقال سَخِرَ بنفسه أو سَخِرَ من حاله ولا نقول استهزأ بنفسه، واستهزأ=

دعوةٌ إلى السيرِ والنظر

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

هذه دعوةٌ إلى السيرِ والنظر للاستبصارِ بالقرون الذاهبة، والاعتبارِ بالأمم الغابرة والتأمل في الحضارات الآفلة، ويحملُ لنا التعبير ب (ثم) ضرورة النظرة المتأنية والتأمل العميق في مصير الأمم البائدة: « أنعِمُوا النظرَ وبالغوا في التفكر وأطيلوا التدبر إذا رأيتم آثار المعذَّبين لأجل تكذيب الرسل، فإنكم إذا شاهدتم تلك الآثار كَمُلَ لكم الاعتبارُ وَقَويَ الاستبصارُ، وذلك إشارةٌ إلى أن الأمرَ في غايةِ الانكشافِ، فكلما طال الفكرُ فيه ازداد ظهوراً» [١].

قال أبو السعود: « وكلمة (ثم) إما لأن النظر في آثار الهالكين لا يتسنَّى إلا بعد انتهاءِ السيرِ إلى أماكِنهم، وإما لإبانةِ ما بينهما من التفاوتِ في مراتبِ الوجوبِ وهو الأظهرُ، فإن وجوبَ السيرِ ليس إلا لكونِهِ وسيلةً إلى النظرِ» [٢].

وقال ابن عاشور: « و { ثم } للتراخي الرُّتبي، كما هو شأنها في عطف الجمل، فإنَّ النظر في عاقبة المكذِّبين هو المقصدُ من السيرِ، فهو ممَّا يُرتقى إليه بعد الأمر بالسير، ولأنَّ هذا النظر محتاج إلى تأمُّل وترسُّم فهو أهمُّ من السير» [٣].

وقال ابن المنيَّر رحمه الله: «... حيث دخلت الفاء فلإظهار السببية وحيث دخلت ثم فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير، وأن السير وسيلةٌ إليه لا غير وشتان بين المقصود والوسيلة والله أعلم» [٤].

= تتعدى بالباء لتفيد الإلصاق إلصاق الاستهزاء بالشخصِ وإن لم يستحقه، أما سخر فإنها تتعدى بمن. والله أعلم.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي ٢ / ٥٩٣

(٢) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود ٢ / ٣٥٩

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢ / ٣٥٩.

(٤) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام أحمد بن المنير الإسكندري بهامش الكشاف ٢ /٨.

الصلة بين آيات المقطع ومحور السورة

تبدأ الآياتُ الكريمةُ في محاورةِ المشركين وعرض الحجج واستجلاءِ البراهين، مع تفنيد الأباطيل والشبهاتِ، والإجابةِ المُفْحِمةِ على اعتراضات المشركين ومطالبهم التي علقوا إيمانَهم بحصولها، كنزول الملائكة عليهم ومعهم الكُتُبِ التي يبصِرُونَها بأعينِهم ويلمَسُونها بأيديهم وفي هذا ما لا يخفَى من الامتراءِ والتعنتِ.

الهدايات المستنبطة

* كشفت لنا الآياتُ مواقفَ المشركين من الحقِّ لمَّا جاءهم، فهم بين صدودٍ وإعراضٍ وسخريةٍ وعنادٍ ونفورٍ واستكبارٍ ومكابرةٍ ولجاجٍ وصدٍّ عن الحق ومكرٍ بأتباعه وغفلةٍ عن سنن الله وآياته.

* تضمنت الآيات دعوة إلى النظر والاعتبار في سنن الله الماضية والجارية وفي مصير الأمم الغابرة، والاستبصارِ بالقرون الذاهبة، والتأمل في الحضارات الآفلة.

* التمكين مسألةٌ نسبية فلقد مكن الله تعالى لبعض الأمم الغابرة ما لم يمكن لنا كما مكن الله لنا ما لم يمكن لمن سبقنا.

* السياحةُ مستحبَّةٌ إذا كان الهدف منها النظر والاعتبار في آيات الله تعالى المبثوثة في أرجاء الكونِ والتأمل في مصيرِ الأمم والشعوب البائدة وآثارهم الشاهدة، أما سياحةُ العري والابتذال والخمر والميسر والتمرغ في أوحال الرذيلة فهي محرمةٌ شرعاً.

* جمع المشركون بين الإعراض والتكذيب والسخرية والاستهزاء وبين التعنت والعناد من خلال مطالبهم المتعنتة لآياتٍ عجيبة لو نزلت عليهم لما ازدادوا إلا عنادا وإعراضا فكان في ذلك تعجيلٌ بهلاكهم.

* اتهام المشركين الرسول ﷺ بالسحر وهو لونٌ من ألوان التخييلِ والخداع: اتهامٌ قديم تواطأ عليه المشركون في كل العصور وكأنهم يتوارثونه أو يتواصون به قال تعالى في سورة

الذاريات﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣ ﴾: وهو نفس الاتهام الذي « يوجهه الماديون في كل عصر؛ لتغطية تمسكهم بالماديِّ وحده، وإنكارهم ما عداه من القيم العليا في حياة الإنسان، فبالأمس رموا دين الله بأنه سحرٌ وأساطير، ويُرمى اليوم بأنه أفيون الشعوب، والسحر والأفيون كلاهما لا يعرض الواقع، ولكن يموه به في التصور فحسب، مع أن الماديين أنفسهم لا يسايرون الواقع؛ لأنهم انتهازيون وأنانيون ونفعيون ومخادعون؛ ومسايرة الواقع تقضي بالصراحة وسلوك الطريق المكشوف» [1].

* تضمنت الآيات الكريمة تسليةً لقلب نبينا ﷺ وتسريةً لروحه وتثبيتا لفؤاده وترويحا عن نفسِه، ببيان أن ما يحدثُ من تكذيب وإعراض وسخرية وعناد إنما حدث من قبله لإخوانه النبيين عليهم السلام.
* تضمنت الآيات الكريمة الإيمان بالقدر فهو ركنٌ من أركان الإيمان لا يتمُّ إلا به.
* الكفر والمعاصي من أسباب زوال النعم وحلول النقم، فليحذر الكفرةُ والعُصاةُ من سوءِ العاقبةِ.
* لو جاءهم الملَكُ في صورتِهِ الحقيقيةِ لما أطاقوها ولو تشكلَ في صورةٍ بشريةٍ لأنكروا كونَه ملَكا.
* التكذيبُ والاستهزاءُ بالرسل دأبُ الجهلةِ والمعاندين في كلِّ العصور، وقد جرت سنةُ الله تعالى بإهلاك المكذبين المستهزئين بعد إقامةِ الحججِ عليهم وإمهالهم.

---

(١) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم – تفسير سورة الأنعام لمحمد البهي رحمه الله ص١٨ بتصرف.

-٢-

مع الله

حججٌ بالغةُ

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

المناسبة

تستأنفُ هذه الآيات الكريمة جولةً جديدةً بعد استفتاح السورة بالحمد وبيانِ جملةٍ من دلائل القدرة وآياتِ الوحدانية، ثم الحديث عن موقف المشركين الذين أعرضوا وكذبوا واستهزؤوا، وتعنتوا وعاندوا، ثم أعقب ذلك تسلية نبينا ﷺ وتثبيته، والدعوة العامة إلى السير والنظر للتبصُّرِ والاعتبار.

بعد هذا البيان: يأتي الحديث عن تفرد الله تعالى بالملك واتصافه بالرحمة، وما يستتبع ذلك من جمع الخلائق يوم القيامة، وبيان أن الخسران لمن حرم نفسه من نعمة الإيمان، يعقب ذلك بيان دلائل قدرة الله وشواهد عظمته جلَّ في علاه وبراهين تفردِه فلا ربَّ غيره ولا معبود سواه.

* ولما كانت السموات والأرض من الآيات الجليلة الظاهرة ناسب ذلك الحديث عن الآيات اللطيفة الخفية فقال تعالى﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ .

* ومن وجوه المناسبة أيضا أنه تعالى لما تحدث عن الجمع يوم القيامة وما يستتبعه من حساب: بين هنا إحاطةَ علمه تعالى بأحوال البشر ما خفي منها وما ظهر، فهو السميع لكل قول، العليم بكل فعل، المحصي لأفعال العباد، وبهذا تنتظم هذه الآياتُ مع الهدفِ العامِّ للسورة الكريمة، وهو تقرير العقيدة وبيان أركانها.

التفسير الإجمالي

سعة رحمته.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ ﴾: في تعاقب الأمم وتوالي الأجيال وتبدُّل الأحوال وتداولِ القوى وانهيار الحضارات أعظمُ العبر؛ فلا يبقى أحدٌ على حاله ولا يحتفظُ ملِكٌ بملكه، ويظلُّ المُلكُ الحقيقيُ لله تعالى وحده، فالملكُ ملكُهُ والتدبيرُ تدبيرُه وإليه المرجعُ والمآبُ.

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾: قضى بذلك وكتبه على نفسه، ووعد وعدا مؤكداً لا يُخلِفُهُ، وقال﴿ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ﴾ لإفادة الاختصاص ونفي أي وساطةٍ بينه وبين خلقه.

﴿ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ تقريرٌ للإيمان بالبعث فهو من الأمور اليقينية، وتذكير بيوم الحشر.

﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾: وهذا من أعظم الخسران، خسرانٌ لا يعقبه ربحٌ أبداً.

ونظير ذلك قوله تعالى﴿ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا إِنَّ

﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الشورى ٤٥]

عموم ملكه وشمول علمه:

﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾: فكل ما في هذا الكون ملكٌ له تعالى، وتحت قهره وتدبيره وتصريفه.

قال صاحب اللطائف: « الحادثاتُ للهِ مِلْكاً، وباللهِ ظهوراً، ومِنْ الله بدءاً، وإلى اللهِ رجوعاً»[1].

والتعقيب بصفتي السمع والعلم﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أفاد الإحاطة التامة بجميع الخلائق، وبكل ما يصدر عنها، وفي هذا وعيدٌ للمشركينَ بأن الله مطلِّعٌ عليهم، وتسليةٌ للمؤمنين بأن الله تعالى لا يخفى عليه حالهم.

الوليُّ

قال تعالى﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

بعد تلك الأدلة والبراهين التي تُقوِّض معتقداتِ أهل الشرك وتقررُ عقيدة الحقِّ: استنكر هنا إصرار المشركين على الشرك مع صاحبِ الملك وهو الخالق الرازق، وَأَمَرَ أهل الإيمان بالإعلان عن الإيمان والبراءةَ من الشركِ والعصيان، ثم بين عز وجل أن من يُصرفُ عنه العذاب يوم القيامة فهو المرحومُ حقّاً والفائزُ صدقا.

ولما جاء الحديث في الآيات السابقة عن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بين هنا من هم الفائزون؟ وهم الذين نالوا رحمة الله، ولما قال فيما سبق﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ بين هنا من يستحقُّها، ولما أشار فيما سبق إلى جمع الخلائق يوم القيامة، قسَّمهم إلى فريقين: فريقٌ نال الخسران، وفريقٌ فاز بالرضوان.

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٢٠٧.



وأمر الله تعالى رسوله الكريم أن يُعلِن البراء من اتخاذ وليٍّ من دون الله، أي ناصرا ومعينا، فهو تعالى فاطر السموات والأرض أبدعهما وأنشأهما، ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾وفي هذا ردٌّ على من ادعى ألوهيةِ إنسانٍ أو حيوانٍ.

فالولاية لا تكون إلا لله فهو تعالى الخالق الرازق وهو الضارُّ النافعُ.

وهنا يُفسَحُ المجالُ لإعلان الحقِّ، وإظهار المسلم لهويته في وجه هذا العالم المادي، ورفع لواء التوحيد وتنكيس راياتِ الشرك: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾: ومع هذا الولاء لله تعالى والبراء من الشرك وأهله فإنه يُعلن خوفه ورهبتَه من الله تعالى وحَذَرَه من عذابه ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾، «، ففي الآية تحذيرٌ شديدٌ من مقاربة المعاصي ومقارفتها»[1] .

أمر الله رسوله الكريم أن يصدع بهذا الحق ويعلن استنكاره على المشركين الذين لجئوا تارة إلى أسلوب الملاينة والمداهنة وتارة أخرى يستخدمون منطق القوة وسلاح الإيذاء ولغةَ العنف والتنكيل.

وفي وجه هذا الأسلوب المزدوج أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بهذا الاستنكار في الوقت الذي يعلن فيه خطورة الأمر﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾: وأيُّ فوز أعظم من النجاة من النيران والفوز بالجنان!

القادر

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.

بعد بيان إحاطةَ ملكِهِ وعموم تصرِّفه سبحانه في الآخرة، بين أن الأمر كذلك في الدنيا،

(١) بصائر الحق في سورة الأنعام للشيخ عبد الحميد طهماز ص ٢٧.

فالتصرُّف فيها لله وحده، وفي هذه الآية تقريرٌ لتفرده تعالى بالولايةِ لأنه لا يدفع الضر ولا يجلب الخير سواه.

والمعنى إن تنزل بك شدةٌ من فقرٍ أو مرض أو خوفٍ أو أذى فلا كاشف لها ولا يصرفها إلا الله، وإن يصبك بعافيةٍ أو رخاءٍ أو نعمةٍ فهو على كل شيء قدير.

أما تلك الآلهة المزعومة فهي لا تملك نفعا ولا ضرا؛ فكيف يتخذونها أولياء من دون الله! وإنما قابل الضر بالخير لأن الضر من الله ليس شرا في الحقيقة بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهل للاستفادة أخلاقا وأدباً وعلماً وخبرة. وقد بدأ بذكر الضر لأن كشفه مقدَّم على نيل مقابله، كما أن صرف العذاب في الآخرة مقدَّم على النعيم.

القاهر

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.

هذه الآيةُ تقريرٌ لما سَبَقَ، وبيانُ أن ما يصيب الإنسان من خير أو شر إنما جرى بإرادة المولى عز وجل وسلطانه لا بإرادة العبد واختياره، وإرادته تعالى مبنيةٌ على حكمة وخبرة بما يُصلحُ هذا الكون ويحقق التوازنَ في هذه الحياة.

فهو تعالى القاهر فوق عباده: فسبحان من خضعت له الرقاب، وذلت لقدرته الصعاب وعنت له الوجوه، وسجدت له الجباه، ودانت له الخلائق تواضعا لعظمته وخشوعا وهيبة لجلاله وكبريائه وعلوه وقهره وإذعانا لحكمته.

قال الألوسي: « والفوقية بمعنى الفوقية في الفضل مما يثبتها السلف لله تعالى أيضاً وهي متحققة في ضمن الفوقية المطلقة، وكذا يثبتون فوقية القهر والغلبة كما يثبتون فوقية الذات ويؤمنون بجميع ذلك على الوجه اللائق بجلال ذاته وكمال صفاته سبحانه وتعالى، منزهين له سبحانه عما يلزم ذلك مما يستحيل عليه جل شأنه، ولا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ولا يعدلون عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً، لئلا يثبتوا معنى فاسداً أو ينفوا معنى صحيحاً فهم

يثبتون الفوقية كما أثبتها الله تعالى لنفسه»[١].

الشهيد

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ۘ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ما زال السياق في بيانِ عظمته تعالى، وتفرُّده بصفات الكمال، ونقض الشرك وتبديد ظلماته وأوهامه، ودحض شبهاته.

ومن قبل طلب المشركون نزولَ الملائكةِ والكتبِ في قراطيسَ عليهم وما زالت قائمتُهم حافلةً بالمطالبِ العجيبة والتي من بينِها أنهم طلبوا من يشهدُ لرسول الله ﷺ : بصدق رسالتِهِ:

روى الإمام الواحدي في أسباب النزول: « قال الكلبي: إن رؤساء مكة قالوا: يا محمد ما نرى أحداً يصدقُك بما تقولُ من أمرِ الرسالةِ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكرٌ ولا صفةٌ، فأرنا من يشهد لك أنك رسولٌ كما تزعم، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[٢].

وبين سبحانه أن القرآن أعظم شهادة وأبلغ إنذارٍ وأجلى بيان وأقوى حجة وأظهر محجةً لكل من بلغته الدعوة من عُرْبٍ ومن عَجَمٍ في كلِّ عصرٍ ومصرٍ.

ثم أنكر عليهم شهادتهم الباطلة ودعواهم الكاذبة دعوى الشرك التي لن ينحاز لها عاقل ولن يقرَّ بها صادقٌ ثم أعقبَ ذلك بالإعلانِ عن شهادةِ الوحدانيةِ، شهادةِ الحقِّ، وأتبعها بالبراء مما هم عليه من شركٍ، قال تعالى ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

---

(١) روح المعاني للألوسي- ٧/ ١٤٩.

(٢) أسباب النزول للإمام الواحدي ص١٢٢ ومعالم التنزيل للبغوي ٧/ ١٣٣.

موقف أهل الكتاب

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ بعد الحديث عن إعراضِ المشركين مع ظهور الحجج وتجلِّي البينات، أشارت الآيات إلى موقف أهل الكتاب الذين يعلمون أن النبي ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين، وهو المبشَّر به في التوراة والإنجيل وقد جاءت كثيرٌ من أوصافه وشمائله فيهما، لكن كثيرا منهم كَتَمَ شهادتَه، وآثَرَ الشركَ؛ بغياً وحسداً وإيثاراً للهوى، بدلا من المسارعةِ إلى الدخولِ في الإسلامِ والانضواءِ تحت لواءِ النبي الخاتمِ الذي بشرت به كتُبهم.

قال ابن عادل: « اعلم أنَّ الكُفَّار لمَّا سألوا اليهود والنَّصارى عن صِفَةِ مُحَمَّد ﷺ، فأنكروا دلالة التَّوْرَاةِ والإنجيل على نُبُوَّتهِ بَيَّنَ اللَّهُ - تعالى - في الآية الأولى أنَّ شهادةَ اللَّه على صِحَّةِ نُبُوَّتهِ كافيةٌ في ثبوتها، ثُمَّ بَيَّن في هذه الآية أنهم كذبوا في قولهم: لا نعرف محمداً، لأنهم يعرفونه بالنُّبُوّةِ والرسالة، كما يعرفون أبناءهم» [١].

وهذه الآية الكريمة من الآيات التي قيل عنها مدنية، والصحيح أنها مكية، وإنما كان أهل الكتاب طرفا في تلك المعركة بين أهل الكفر وأهل الإيمان؛ حيث كان المشركون يرجعون إليهم للتحقق من نبوة نبينا محمدٍ ﷺ حيث كانوا يرسلون إليهم، أو يقابلونهم في أسفارهم، ولعلَّ بعضَهم كان يعيشُ في مكة.

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾: « جمعوا بين أمرين باطلين، فكذبوا على الله مالا حجة لهم عليه وكذبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وسمّوا القرآن والمعجزات سحراً!» [٢].

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ٦ / ٣٧٧، ويراجع: لطائف الإشارات للقشيري ٢/ ٢١٤.
(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي ٢/ ٧.



فجمعوا بين الكذب والتكذيب، بين الافتراء على الله وتكذيب أنبيائه، فكذبوا على الله وكذَّبوا بآيات الله، فوقعوا في تناقضٍ عجيبٍ!

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا والآخرة، بل يبقون في الحرمان والخذلان، وكيف يُفلحُ من كان الكذبُ له ديدناً، والظُّلم له معدنا!

الصلة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظم هذه الآيات الكريمة مع المحور العام لهذه السورة الكريمة؛ حيث بيانُ دلائلِ القدرةِ وشواهدِ الوحدانيةِ، وشهادةُ المولى جلَّ وعلا لرسوله الكريم بصدق نبوته، ونزولِ القرآن الكريم بالإنذارِ والتبليغِ، واشتمالِ الكتبِ السابقةِ على أوصافِهِ ﷺ، وبيانِ صدودِ المشركينَ وجحودِ فريقٍ من أهلِ الكتاب.

الهدايات المستنبطة

* تحملُ لنا الآياتُ الكريمةُ نسماتٍ حانيةً تفوحُ منها عبيرُ الرحمة وتفتحُ بابَ الأمل والرجاء أمام المحرومين من نعمةِ الإيمان بأن يستدركوا ما فاتَهم، ويلحَقُوا بقافلةِ الهُدى ويستقلوا سفينةَ النجاة.
* في الآياتِ الكريمةِ بيانٌ وتقريرٌ: لعمومِ ملكه وإحاطةِ سمعه وشمولِ علمه.
* أفاد التعقيبُ بصفتي السمع والعلم الإحاطةَ التامةَ بجميع الخلائق، وبكل ما يصدر عنها، وفي هذا وعيدٌ للمشركينَ بأن الله مطلِّعٌ عليهم، وتسليةٌ للمؤمنين بأن الله تعالى لا يخفى عليه حالهم.
* إن الولاية لا تكون إلا لله فهو تعالى الخالق الرازق وهو الضارُّ النافعُ، وإن منطق الحقِّ وميزانَ العقل يقضي بأن الذي يستحقُّ العبودية هو الخالق الرازق.
* من أراد السلامة في الدنيا والآخرة فعليه بالتوجه إلى خالقه، وإنزال حوائجه بربه، ولزوم بابه والمداومة على عبادته والإقامة على خدمته، وانتظار فرجه، واستمطارِ رحمته.
* على المسلم أن يُعلن الحقَّ ويصدعَ به، وأن يُظهرَ شعائر دينه، ويعلن عن هويته في وجه هذا

العالم المادي، ويرفع لواءَ التوحيد ويُنكِّس راياتِ الشرك بالحجةِ والبيانِ، وفي هذه الآيات الكريمة توجيهٌ لإخواننا المستضعفين والأقليات المسلمة في بلاد الغرب وغيرها من الدول ذات الأغلبية الكافرة أن على المسلم أن يعلن عن هويته ويُصرِّح بدعوتِه ويقيم شعائر دينه، ويحذر من الاندماج الذي يؤدي إلى الذوبان والانصهار والتبعية للغرب والتخلي عن جوهر الإسلام ومظاهرِه، مستعينا على ذلك بالعقيدةِ الراسخةِ.

* استشعارُ المؤمن خشيةَ الله تعالى، واستحضارُه عظمتَهُ سبحانه وتذكره عذاب الآخرة كلما غفلت نفسُه عن الله تعالى، أو شردت عن باب فضله ورحمته، أو همت بمعصيته.

* درس عظيم للرسول الكريم ﷺ ولصحابته الذين اختاروا طريق الهدى وواجهوا في سبيل ذلك الكثير من العقبات، وبذلوا كثيرا من التضحيات، فجاءت هذه الآية ببيان حقيقةٍ كونية وسنة إلهية على دعاة الحق أن يتمثَّلوها ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

* ما يصيب الإنسان من خير أو شر إنما يجرى بإرادة المولى عز وجل وسلطانه لا بإرادة العبد واختياره، وإرادتُه تعالى مبنيةٌ على حكمةٍ وخبرةٍ بما يُصلحُ هذا الكونَ ويحقق التوازنَ في هذه الحياة.

* قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: « صرح في هذه الآية الكريمة بأنه ﷺ منذرٌ لكل من بلغه هذا القرآنُ العظيمُ كائناً من كان، ويفهمُ من الآية أن الإنذارَ به عامٌّ لكل من بلغه، وأن كلَّ من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار، وهو كذلك، وأما من لم تبلغه دعوة الرسول ﷺ فله حكم أهل الفترة الذين لم يأتهم رسول، والله تعالى أعلم» [(١)].

* معرفة أهل الكتاب بالنبي الخاتم من خلال كتبهم التي يؤمنون بها، فمع ما حدث لهذه الكتب من تحريف بالزيادة والنقصان والتبديل إلا أنها لا تزالُ تحملُ أثاراتٍ من الحق تشهد بصدق النبي ﷺ .

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ١ / ١٨٨ باختصار.

* أما كان من الأحرى لأهل الكتاب أن يكونوا من أول المؤمنين بالنبي ﷺ المناصرين له؟ بلى ولكنهم عرفوا الحق فجحدوه إلا من شرح الله صدورَهم منهم لقبول دينه.

فائدة حول حديث السورة عن رحمة الله.

ومع أن هذه السورة سيقت لإقامة الحجج على أهل الشرك وتفنيد شبهاتهم ومواجهة عنادهم وإعراضهم وتبديد أوهامهم وإبطال معتقداتهم الفاسدة وتقاليدهم البالية إلا أنها حملتْ لنا نسائمَ معطرةً بعبقِ الرحمة الإلهية ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ فقدّم تعالى رحمته على إعلامه عبادَه بهذا اللقاء الموعود وذلك اليوم المشهودِ، ومن رحمته تعالى أن أمهل العصاة والمسرفين علَّهم يرجعون ويثوبون.

ثم تهبُّ نسائمُ الرحمات التي اختصَّ الله بها أحبابه الذين آمنوا بآياته وصدَّقوا برسله: قال تعالى﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ومن رحمته تعالى أن أمهل المعرضين وهو الغني عنهم:﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾، ثم يهزُّ تعالى بهذه الرحمة الواسعة قلوب المكذبين هزّاً علَّهم يخجلون من تكذيبهم ويستحيون من ربهم الذي لو شاء لعجَّل لهم العذابَ البئيسَ حيث لا رادَّ له ولا رجعةَ فيه ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ويبين سبحانه أن الرحمة من المقاصد الأساسية لإنزال الكتب: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

ثم كان مسكُ الختام بالرحمة التي تجلَّت مظاهرها وظهرت آثارُها وهبَّت نسائمُها ولاحت معالمُها في نهايةِ المطاف:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

وحول رحمة الله تعالى نقتطفُ من كنوز السنة ما يلي:

* عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مائَةَ جُزْء فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءاً وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءاً وَاحِداً فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ)[١].

* وعنه ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي)[٢].

وعنه ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٣].

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيّاً فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ) قُلْنَا: لا وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لا تَطْرَحَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا)[٤].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب بَاب جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ حديث ٥٦٥٤، وصحيح مسلم كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ١٧- (٢٧٥٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨] حديث ٦٩٦٩، وصحيح مسلم كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ١٦- (٢٧٥١).

(٣) صحيح مسلم كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ١٩- (٢٧٥٢).

(٤) صحيح البخاري كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله - حديث ٥٦٥٣، وصحيح مسلم كتاب التوبة. باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ٢٢- (٢٧٥٤).

-٣-

في موقف الحشر

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

المناسبة

بينت هذه الآيات مصير أولئك الظلمة المعاندين عند المواجهة الحاسمة حين يحشرهم الله جميعا، فيسألهم سؤال التهكم والسخرية في موقف العرض حيث لا مفرَّ من الحقيقة التي طالما أعرضوا عنها في الدنيا وكذَّبوا بها، فيُعربون عن أسفهم ويُبدون ندمهم وحسرتهم على ما فاتهم ويُقرُّون بضلالهم وانحرافهم بعدما كان منهم في الدنيا من مكابرةٍ وبَطَرٍ وامتراءٍ.

فيُقرعون بهذا الاستفهام الإنكاري ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾؟ أين تلك الآلهة المزعومة؟ وهكذا تنقلهم الآياتُ إلى هذا المشهد المهيب الذي ينتظرُهم بين يدي الحقِّ فهل يتعظون؟ ويتراجعون عن إعراضهم وصدودهم، ويقبلون على الحقِّ قبل فوات الأوان؟

التفسير الإجمالي

توبيخٌ وتهكُّم!

قال تعالى﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

تنتقلُ بنا هذه الآياتِ الجليلةُ إلى صورةٍ حيَّةٍ من صورِ القيامةِ ومشهدٍ من مشاهدِ الحشر حين يُعرض أولئك المُعرِضون المتعنتونَ المكابرون على ربِّهم، ويمثلون أمام المحكمةِ الإلهيةِ العادلة، لا يتخلَّفُ منهم أحدٌ، ويسألهم ربهم سؤال تهكُّمٍ وتوبيخٍ ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾؟

براءةٌ وحسرة

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

- **الفتنة:** بمعنى الاختبار والسؤال، والفتنة أيضا بمعنى الإعجاب يقال فلان افتتن بكذا إذا أعجبه ووقع في حبه، وعلى هذا فالمعنى: ثم لم تكن نهاية حبِّهم للأصنام لما سئلوا عنها ووقفوا على عجزها إلا التبرؤ منها وإنكارها، أو المعنى ثم لم يكن جواب اختبارهم عن آلهتهم يوم القيامة إلا التبرؤ منها، «... وفي هذا توبيخ لهم كما تقول لرجل كان يدّعي مودّة آخر ثم انحرف عنه وعاداه يا فلان لم تكن مودَّتُك لفلان إلا أن عاديته وباينته...»[1]، أو ثم لم يكن جوابهم إلا الكذب على الله طمعا في النجاة بأي وسيلة[2].

قال مجاهد: إذا جمع الله الخلائق ورأى المشركون سعة رحمة الله وشفاعة رسول الله ﷺ للمؤمنين قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد فإذا قال لهم الله: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فيختم الله على أفواههم

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٤ / ١٦٥، ويراجع معالم التنزيل للبغوي٣ / ١٣٥.

(٢) مدارك التنزيل للنسفي ٢/ ٧ ويراجع: معالم التنزيل للبغوي٣ / ١٣٥ وروح المعاني للألوسي ٥/ ٢٧٦.

فتشهد عليهم جوارحهم(١).

ويؤيد هذا المعنى ما في الصحيح عَنْ أَنَس بْنِ مَالِك ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مِمّ أَضْحَكُ؟) قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاّ شَاهِداً مِنّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُوداً قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَىَ فِيهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمّ يُخَلّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْداً لَكُنّ وَسُحْقاً، فَعَنْكُنّ كُنْتُ أُنَاضِلُ)(٢).

- أو المعنى ثم لم تكن فتنتهم إلا الاعتراف بأنهم كانوا يعلمون الحقيقة وما منعهم من الإقرار بها إلا الجحود والكبر واتباع الهوى.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

تأمل يا محمد: كيف كذبوا على أنفسهم في الدنيا حيث عبدوا تلك الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولم تغن عنهم من الله شيئا!

ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لتجردوا للحق وأخلصوا في طلب الهداية حتى يهتدوا لكنهم خدعوا أنفسهم قبل أن يخدعوا غيرهم. ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٤].

صدودٌ وإعراض

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ

---

(١) يراجع معالم التنزيل للبغوي٣ / ١٣٥ ويراجع الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٥٤٣ وزاد المسير ٣/ ١٦.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - حديث ١٧ - (٢٩٦٩).

وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

موقفان للمشركين: هذا الموقف موقف في الدنيا حيث الكبر والعناد والغرور والإعراض والصد عن سبيل الله كما ورد في هاتين الآيتين، والموقف الذي أخبرت عنه الآيات السابقة واللاحقة موقف الذل والهوان والخزي والعار والحسرة والندامة والتجرد والتعري والمصارحة والإقرار.

وبيانٌ لأسباب الصدود والإعراض وموانع القبول بالحق والإذعان له: ومنها ما على قلوبهم من أكنةٍ تحجبُ عن الحق، وما في آذانهم من وقر يحول دون سماعه وتدبره.

وإصرارهم على الكفر وشبهات المعاندين منهم التي تنطلي على عامتهم ومن بينها قولهم ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ أي: يأتون إليك ليسمعوا قراءتك، فلا ينتفعون بها؛ لأن الله جعل ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ والأكنة جمع كِنان وهو ما يُستر به الشيءُ ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي: صمما عن السماع النافع، فهُم كما قال تعالى ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات: لا يؤمنوا بها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ أي يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومقتبسٌ منهم.

نهيٌ ونأيٌ

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

ينهون الناس عن الاستماع إلى الحق واتباعه، وينأون بأنفسهم عن الاستماع إلى الحق خوف أن يتأثروا به فيقبلوا عليه، وقد غاب عنهم أن هذا الصدود والإعراض سيعجِّل بهلاكهم لكنهم لا يشعرون بذلك.

وقال أبو السعود رحمه الله: « ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي لا يقتنعون بما ذكر من تكذيبه وعدِّه من قبيل الأساطير، بل ينهَوْن الناسَ عن استماعه لئلا يقِفوا على حقِّيته فيؤمنوا به ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم إظهاراً لغاية نفورهم عنه وتأكيداً لنهيهم عنه، فإن اجتنابَ الناهي عن المنهيِّ عنه من متمِّمات النهْي، ولعل ذلك هو السرُّ في تأخير النأْي عن النهْي»[1].

وقال الثعالبي: « ونَفْيُ الشعور مذمَّةٌ بالغة؛ إذ البهائم تشعر وتحسُّ»[2].

من مشاهد القيامة.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ **خزيٌ وندامةٌ!**

تحمل هذه الآيات وعيدا لأولئك المشركين المعاندين وتذكيرا لهم بموقف من مواقفهم العصيبة بين يدي رب العالمين، وفي الآيات تسليةٌ لخاتم النبيين والمرسلين: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾: والتعبير بالفعل المضارع ﴿ تَرَىٰٓ ﴾: لاستحضار تلك الصورة في ذهن المخاطب، ولو شرطية وجوابها محذوفٌ لدلالةِ السياقِ عليه، أو لتذهب النفسُ في تصوُّرِهِ كلَّ مذهب، وهذا من روائعِ الأساليب القرآنية.

لو تراهم يا محمد وهم خاضعون خانعون خاشعون من الذل، وعلى حافة جهنم واقفون قبل أن يُقذفَ بهم إلى قعرها السحيقِ، وقد تذكروا ما كان منهم في الدنيا من كفر وعناد وصدود وإعراض فندموا أشد الندم وتمنوا العود لإصلاح ما قد فات وطيي تلك الصفحات، وأنى لهم

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٢ / ٣٦٨.

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ١ / ٥١٢.



ذلك؟ وقد حقَّ القولُ ووقعوا في المهالك!.

ولو ردوا كما يتمنون لعادوا إلى سالفِ عهدِهم وانتكسوا على أعقابهم وانغمسوا في شهواتهم وملذاتهم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

حين يرون النار رأي العين ويوقفون عليها يُعلنون الندم على جرائمهم والتبرؤ من شركهم ويتمنون العودَ للدنيا الفانية ﴿ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا ﴾[1].

تجلت لهم الحقيقة التي كانوا يعرفونها، الحقيقة التي واجهوها بجحودٍ وإنكارٍ، الحقيقة التي اجتهدوا في طمسها وإخفائها، وسعى الجبابرةُ الطغاةُ منهم إلى حجبِها عن العامة والمستضعفين، الحقيقة التي كانوا يهربون من مواجهتها.

لكنها الآن متألقةٌ ومشرقةٌ، الآن يرونها رأي العين شاخصةً أمامهم ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾، بدا لهم الحقُّ الذي طالما تفانوا في طمس معالمه وتشويه صورته، بدت لهم نفوسُهم عاريةً بقبحها الذي كانوا يخفونه بتجمُّلهم وتزيينهم الأباطيل وزخرفتهم الأقاويل، بدت لهم النار رأي العين وكانوا في الدنيا ينكرونها ويُخفون أمرها ويمنعون الحديثَ عنها.

مع ذلك ومن العجيب من حالهم الذي يعلمه الله تعالى أنهم لو أجيبوا إلى ما يأملون لعادوا إلى سيرتهم الأولى، فما إنكارُهم وتكذيبهم إلا إتباعا للهوى وإعراضا عن الحق وتعاليا على أتباعه وجحودا وإنكارا، وأنفة واستكباراً ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ شأنُهم في ذلك شأنُ إبليس لعنه الله: عاين من آيات الله ثم عاند.

«وحاصل هذه الأقوال: أنهم عندما يقفون على جهنم ويرونها رأي العين تنكشف لهم

(١) قراءة حفص وحمزة بالنصب بـ (أن)المضمرة بعد جواب التمني ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ ﴾، ﴿ وَنَكُونَ ﴾وقرأ ابن عامر برفع الأول ونصب الثاني والباقون برفعهما. يراجع النشر في القراءات العشر ٢/ ١٩٣.

الحقائق وتظهر الخفايا والسرائر، ولهذا ينكشف يوم القيامة أهل الرياء والنفاق وأهل الزور والخداع، يظهرون جميعا على حقيقتهم التي كانوا يتسترون عليها في الدنيا»[(١)].

النظرة القاصرة لحقيقة الدنيا.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

بين الله تعالى في هذه الآيات سببا من أسباب صدودهم عن الحق وهو نظرتهم القاصرة للدنيا وغفلتهم عن حقيقتها واغترارهم بها، وفتنتهم بمتاعها القليل، في مقابل إنكارهم للبعث وما وراءه من ثوابٍ أو عقابٍ، وتحمل لهم الآيات وعيدا شديدا وتذكرهم بموقفهم بين يدي الملك الجبار، خاشعين من الذل وهو يسألُهم سؤالَ تبكيت وتوبيخ ﴿ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ فيجيبون وأنى لهم الهرب من الجواب الذين يعرفونه منذ أن كانوا في الدنيا لكنهم امتنعوا هناك عن الإجابة حين كانت تنفعهم، لكنهم اليوم يجيبون حين لا يجدي الجواب بل يصير حجةً عليهم ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾: وبعد أن شهدوا على أنفسهم وأقروا بما كانوا يجحدونه في الدنيا، فليذوقوا جزاء تكذيبهم بعد شهادتهم وإقرارهم بجريمتهم، وهنا يأتي الأمر الإلهي الذي لا رجعة فيه ولا معقِّب له يجيء بالحكم العادل والقضاء الحق والأمر النافذ ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾.

فيا حسرةً عليهم من هذا الموقفِ العصيبِ، ويا لهولِ هذا المشهد الرهيب وهم واقفون على أقدام الحسرة، يقرعون أصابع الندم ويذرفون دموعَ الألم حيث لا شكوى تُسْمَعُ منهم ولا رحمة تنزل عليهم.

الخسران الأعظم

﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا

(١) بصائر الحق في سورة الأنعام تأليف الشيخ عبد الحميد طهماز ص٣٣ بتصرف.

وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

خسروا كلَّ ما ربحه المؤمنون في الدنيا من الرضا واليقين والأنس برب العالمين، والبهجة والسرور وطمأنينة القلب وانشراح الصدور، خسروا لذة المحبة في الله ولذة البذل والعطاء ومتعةَ التضحية والإيثار، وفي الآخرة الحرمان من الجنان والخلود في النيران فضلا عن الكُربةِ بخسارة الأهل وفراقِ الأحبة.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ خسروا أنفسهم وأهليهم وخسروا دنياهم وأخراهم بسبب تكذيبهم بلقاء الله، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ أبدوا الندم عندما باغتتهم الساعةُ، وأعلنوا الحسرة على تفريطهم في الدنيا وهي رأس مالهم، وتفريطهم في شأن الساعة حيث لم يؤمنوا بها ولم يستعدوا لها، وهم مع اشتداد الخطوب وإحاطة الكروب مع شدة الزحام وتلاصق الأقدام: يكابدون حمل الأوزار على ظهورهم وقد أثقلت خطاهم وأنهكت قواهم وأرهقت أجسادهم فبئس الحامل والمحمول.

﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾.

حقيقة الدنيا

ثم أبطل الله تعلقهم بالدنيا فبين أن متاعها قليل وإلى الفناء تصير لا تدوم لأحد ولا يدوم لها أحد فقال سبحانه ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾. فلحظات الصفا وأوقات الهنا فيها قليلة ضئيلة سرعان ما تزول، أما الآخرة: فنعيم مقيم، ومقام كريم، وعيش رغيد، وعطاء مديد، وملك لا يبيد، في جنات الخلود.

الصلة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظم هذه الآيات الكريمة مع المحور العام لهذه السورة الكريمة: حيث تعرِضُ لركنٍ أساسيٍّ من أركان العقيدة وهو الإيمان باليوم الآخر ومواقف المشركين في هذا اليوم العظيم، وإقرارهم واعتذارهم وأسفهم وحسرتهم على ما كان منهم في الدنيا من تكذيب وإعراض،

وصدودٍ واغترارٍ وتعلُّقٍ بأهداب الدنيا الفانيةِ وحبالها البالية، وتمنيهم عند معاينةِ أهوالِ الحشرِ وعرَصاتِ القيامةِ العودةَ إلى الدنيا ليستدركوا ما فاتهم ويغيِّروا مسارَهم ويُصَحِّحوا عقيدَتهم ويُصلِحوا آخرتهم، بعد أن أدركوا حقيقة الدنيا الفانية ونعيمها الماحِل ومتاعها الزائل.

الهدايات المستنبطة

* مصير الظلمة المعاندين عند المواجهة الحاسمة حين يحشرهم الله جميعا حيث المذلة والهوان والحسرة والندم والتراجع عن مواقفهم التي أصروا عليها في الدنيا.
* من أسباب صدودهم عن الحق: ما على قلوبهم من أكنةٍ تحجب عن الحق، وما في آذانهم من وقر يحول دون سماعه وتدبره، فضلا عن نظرتهم القاصرة للدنيا وغفلتهم عن حقيقتها واغترارهم بها، وفتنتهم بمتاعها القليل.
* إن الخُسارة الحقيقية، هي الخُسارةُ التي لا تعدلها خُسارة، ولا يمكن جبرُها أو تعويضُها أو النهوضُ منها أو التفلُّت من مغبَّتها ونتائِجها وتبِعاتِها، هي خُسارة الكافرين لدنياهم وأخراهم؛ ففي الدنيا خسروا كلَّ ما ربحه المؤمنون من الرضا واليقين والأنس برب العالمين، والبهجة والسرور وطمأنينة القلب وانشراح الصدور، خسروا لذة المحبة في الله ولذة البذل والعطاء ومتعةَ التضحية والإيثار، وفي الآخرة الحرمان من الجنان والخلود في النيران فضلا عن الكُربةِ بخسارة الأهل والأحبة.
* تخليهم عن ماضيهم كله وإقرارهم بربوبية الله وحده؛ وتعريهم من الشرك الذي مارسوه في حياتهم الدنيا، ولكن بعد فوات الأوان وانطواء صحائف الأعمال واستحالة العودة إلى الدنيا.
* « ألا فليتأمل العاقل مصير هؤلاء، وما يؤول إليه حالهم من الاضطراب والقلق وتمني الخلاص من العذاب الشديد»[1].

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د وهبة الزحيلي ٤/ ١٨٢ .

-٤-

تسلية وتثبيت

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

المناسبة

بعد الحديث عن أحوال المشركين في الدنيا ومواقفهم المخزية في الآخرة وإقرارهم بما كانوا يجحدونه في الدنيا وفي هذا إنذارٌ لهم مع ما تحمله الآياتُ من تثبيتٍ لفؤادِ النبي ﷺ وتسليةٍ له: يعودُ السياقُ إلى بيانِ جملةٍ من أسبابِ صدودِهم وإعراضِهم عن الحقِّ، لإقامةِ الحجَّةِ عليهم ولتسليةِ النبي ﷺ الذي واجه كثيرا من المحن والعقبات على طريق الدعوة، وفوجئ بما لم يكن يتوقعه من تكذيب قومه وهم الذين كانوا يصفونه بالصادق الأمين ويودِعون عنده أماناتهم ثقةً به واطمئنانا له.

التفسير الإجمالي

بينت هذه الآيات الكريمة إحاطة علمه تعالى بما يفعله أولئك المشركون، وأن علةَ ما هم عليه من صدودٍ: هو ما تنطوي عليه نفوسهم من مكابرةٍ وجحود، قال تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ولقد ذكر الواحدي في سبب نزول هذه الآية عن السدي قال: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هنا من يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما

كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية [1].

أيكذبونه حين يجيئهم بالخير من عند ربهم؟ لقد كاد قلبه ﷺ ينفطرُ حزنا عليهم وحسرةً على بعدهم عن الحق، فتجيء الآياتُ بتسليته ﷺ وتعزيته وبيان أنهم لا يكذبونه بل يعلمون صدقه وأمانته، ولكنه الجحود بآيات الله والاستكبار عن الحق، وهذه سنة الله عز وجل في الدعوات أن تواجه بالتكذيب والصدود، فيثبت الله قلوب أنبيائه وأوليائه ويلهمهم الصبر واليقين، حتى ينالوا النصر والتمكين.

قال تعالى﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وماذا تملك لهم يا محمد وهم مكابرون معاندون، وليس لديهم أدنى استعداد لقبول الحق، مهما عاينوا من الآيات.

قال الإمام القاسمي في محاسن التأويل: « في هذه الآية ما لا يخفى من الدلالة على المبالغة في حرصه ﷺ على إسلام قومه إلى حيث لو قدر أن يأتيهم بآيةٍ من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم وشفقةً عليهم» [2].

وفي المقابل أفادت الآية بيان إصرار المشركين على الإعراض والتكذيب مهما عاينوا من آيات.

وقال الإمام الطبري: « يقول تعالى ذكره: إن الذين يكذبونك من هؤلاء الكفار، يا محمد، فيحزنك تكذيبهم إياك، لو أشاء أن أجمعهم على استقامة من الدِّين، وصوابٍ من محجة الإسلام، حتى تكون كلمة جميعكم واحدة، وملتكم وملتهم واحدة، لجمعتهم على ذلك، ولم

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ١٢٣.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٥١٠ .



يكن بعيداً عليَّ، لأنّي القادرُ على ذلك بلطفي، ولكني لم أفعل ذلك لسابق علمي في خلقي ونافذ قضائي فيهم، من قبل أن أخلقهم وأصوِّر أجسامهم»[(١)].

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ لو شاء تعالى هدايتهم لهداهم، فلا تكونن بحرصك على ما لم يشأ الله لهم﴿ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾بمقام الله تعالى وسننه في خلقه؛ فلا تأسف ولا تحزن على أمر أراده الله وأمضاه، فهو تعالى أعلم بخلقه.

الصلة بين محور السورة وآيات المقطع

كشفت لنا هذه الآيات عن جملةٍ من أسبابِ إعراضِهم وتعنتهم وهو ما هم عليه من مكابرةٍ وجحودٍ، ثم دعا الله نبيه ﷺ للتأسي بمن سبقه من الرسلِ عليهم السلام فلقد كُذِّبوا وأوذوا فصبروا وثابروا على دعوتهم، حتى أتاهم النصر المبين، وتلك سنةٌ من سننه تعالى التي لا تتحول ولا تتبدل، سنةُ إهلاكِ المكذبينَ، ونصرِ عبادهِ المؤمنين.

الهدايات المستنبطة

* جرت سنة الله عز وجل في الدعوات أن تواجه بالتكذيب والصدود، ويثبت الله قلوب أنبيائه وأوليائه ويلهمهم الصبر واليقين حتى ينالوا النصر والتمكين.
* الدعوة إلى التحلي بالصبر والثبات في مواجهة أعداء الدعوة، فهو السلاح المضَّاء في مواجهة المكائد والتحديات.
* الدعوة إلى التأسي بالأنبياء عليهم السلام في صبرهم وثباتهم ففي ذلك ما يهوِّن المصاب ويثبت الفؤاد ويُجِمُّ القلب ويسرِّي عن النفس، وهو سلوة الحزين، ودواءُ المبتلى: وقديما قالت الخنساء في رثاء أخيها:

يـذكـرني طـلـوعُ الـشـمـسِ صخراً		وأذكـــرُهُ عـنـد غـــروبِ شمسي

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري ٧/ ٢١٥، ٢١٦.

فـلـولا كـثـرةُ الـبـاكـينَ حـولي   عـلى إخـوانِهـم لـقـتـلـتُ نـفـسي
ومـا يـبـكـون مـثـل أخـي ولكن   أُعَـــزِّي الـنـفـسَ عـنـه بـالـتـأسي

* طريق الدعوات ليس مفروشا بالورود والرياحين بل محفوف بالعقبات والأشواك والمخاوف والمكاره، وبالصبر والثبات واليقين يتحقق النصر ويتم التمكين.

* سنن الله تعالى في هذا الكون ثابتةٌ لا تتبدل ولا تتحول؛ فعلى الدعاةِ أن يتبصَّروا بها.

- ٥ -

لماذا الإعراض؟

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

المناسبة

ما زال الحديث موصولا حول تسليةِ النبي ﷺ وتثبيتِ فؤادِه، وإقامةِ الحجج على المعرضين، وبيان أسبابِ صدودِهم عن الحقِّ وإعراضِهم عنه، وهو أنهم لا يسمعون سماعَ حرصٍ على الهُدى، وأنهم في عدادِ الأموات، صُمَّت آذانُهم وعميَتْ بصائرُهم وماتت قلوبُهم فأنى لهم الاستجابة: وقد قيل:

وقــد أسـمـعـتَ إذ نــاديــتَ حــيّــاً   ولــكـــن لا حــيــاةَ لمــن تــنــادي

أما عن مطالبهم المتعنتةِ فما هي إلا مكابرةٌ وعنادٌ، وجهلٌ بسننِ خالقِ العبادِ، فإنهم والله ما عرفوه حقَّ معرفته وما قدروه حق قدره، وكيف يُطالبون بآياتٍ وقد عمُوا وصموا عما حولهم

من آياتٍ مبثوثةٍ وأدلةٍ ملموسةٍ وشواهدَ جليَّةٍ تنطقُ بعظمةِ الخالق وكمالِ قدرتِه وبالغِ حكمتِه، وسعة ملكِهِ، وعظيم سلطانِهِ وإحاطةِ علمِه!

التفسير الإجمالي

موتى القلوب!

لماذا يُعْرِضُونَ والآياتُ تتلى والحجَجُ تَترى؟ لماذا يُعْرِضُونَ وهم يعلمون صدق النبي ﷺ فيما جاء به؟ لماذا يُعْرِضُونَ والبراهين تهزُّهم هزّاً؟ لماذا لا يستجيبون لصوت الحقِّ النقيِّ الشجيِّ؟

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾:

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ﴾ لدعوتك، ويلبي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع القلب والاستجابة، ويتلقون البراهين بالقبول، وإن من تحرص على هدايتهم واستجابتهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، وإنما يستجيب لك من يسمع.

أما الموتى: موتى القلوب فإن موعدهم حين يبعثهم الله ثم يحاسبهم حسابا عسيرا ويعذبهم عذابا شديدا جزاءَ إعراضِهم ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾.

ونظير هذا قوله ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[النمل: ٨٠، ٨١]

قال الإمام الرازي: « وأما قوله﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾: ففيه قولان: **الأول**: أنه مثلٌ لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة، والمراد: أنه تعالى هو القادر على أن يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ثم إليه يرجعون للجزاء، فكذلك هاهنا أنه تعالى هو القادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان وأنت لا تقدر عليه.

والقول الثاني: أن المعنى: وهؤلاء الموتى يعني الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون، فحينئذ

يسمعون وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم»[١].

إصرارٌ عجيبٍ ومنطقٍ غريبٍ!

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

إصرارٌ عجيب على مطالبَ تدلُّ على تعنتهم وعنادهم وجهلهم؟ فالآياتُ تتجلى من حولهم: آيات الأنفس والآفاق، وآيات القرآن وهو المعجزةُ الكبرى.

ومع ذلك يصرون على المزيدِ من الآياتِ! وهل قدرةُ الله تعالى تحتاج إلى إثباتٍ؟ كلا! واللهِ، ولكنه الصدودُ والإعراضُ، ولو أجابهم الله تعالى إلى ما طلبوه ما آمنوا بل تمادوا في مطالبهم التي لن تتوقف.

وفي اللباب: «لمَّا ظهرت المعجزةُ القاهرةُ، والدلالة الكافية لم يَبْقَ لهم عُذْرٌ ولا عِلَّةٌ، فبعد ذلك لو أجَابَهُمُ الله – تعالى – إلى اقتراحهم فَلَعَلَّهُمْ يقترحون اقْتِرَاحاً ثانياً وثالثاً ورابعاً إلى ما لا نهاية له، وذلك يفضي إلى ألاَّ يَسْتَقِرَّ الدليل ولا تَتِم الحجة، فوجب سَدُّ هذا الباب في أوَّلِ الأمر والاكتفاء بما سَبَقَ من المعجزة القاهرة»[٢].

وإنما هذه المطالب: بسبب تعنتهم وعنادهم وغفلتهم وجهلهم بقدرة الله تعالى التي تنطق بها مخلوقاته، وتشهدُ له بالعظمة المتجلية في كلِّ ما أبدعه من كائناتٍ وما بثَّه في هذا الكون من عوالم ومخلوقات ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾: أممٌ وعوالمُ لا يحصيها عداً إلا خالقُها وباريها.

والكتاب هنا هو اللوح المحفوظ بدليل سياقِ الآيةِ الكريمةِ ومضمونها: ويدلُّ على ذلك ما ورد في نفس السورة:﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ

(١) التفسير الكبير للرازي ٤/ ٥٢١.

(٢) اللباب لابن عادل ٦ / ٤١٩، ويراجع: فتح القدير للشوكاني ٢ / ١١٣.

وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

وقوله ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَتُؤَدُّنَ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ)[1].

فإذا كان الله تعالى يحشر تلك العجماء ليفصل بينها ويقتصَّ لمن ظُلِم منها، فإن حشرَ أولئك الذين ملئوا الدنيا ظُلما وجورا من باب أولى؛ فالله تعالى لا يغفل عن أولئك الطغاة ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

حُجَّةٌ بالغةٌ

من مظاهر القدرة الإلهية

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ إن هذه العوالم التي تعيش من حولنا لتشهد بقدرة الله تعالى وبديع صنعه؛ فالله تعالى قادرٌ على أن ينزل الآيات التي طلبوها لكنهم لن ينتفعوا بها.

تخبطٌ في الظلمات

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

---

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم حديث ٦٠ - (٢٥٨٢) ورواه الترمذي في السنن أبواب صفة القيامة باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص- حديث ٢٥٣٥.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أولئك المكذبين بآيات الله المعرضين عن الحجج الساطعات مثلهم في تخبطهم وضلالهم وعجزهم وضياعهم كمثل أصمٍّ أبكم لا يسمع ولا يتكلم وهو مع ذلك يتخبط في الظلمات فلا يرى بصيصَ نورٍ ولا يبصرُ طريقَ هدى.

ظلمات عديدة يتخبطون فيها: ظلمة التكذيب والإعراض، وظلمة الشرك، وظلمة الجهل، وظلمة التعصب الأعمى، والتقليد المذموم، وظلمة الشهوات والأهواء، ولو شاء الله تعالى لبصَّرَهم وهداهم صراطَه المستقيم، ولكنه تعالى عليمٌ بخباياهم مطَّلعٌ على أحوالهم، ولو علم فيهم خيرا لهداهم وأسمعهم سماعَ إجابةٍ وقبولٍ.

ضعف وافتقار!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

وهم مع هذا العناد والإنكار والإعراض والاستكبار ضعفاء مفتقرون إلى ربهم، فإذا حل بهم بلاء أو نزلت بهم نازلة علموا أنه لا يكشفها إلا الله وحده فتوجهوا إليه مخلصين تاركين أصنامهم التي نافحوا عنها وهم يعلمون أنها لن تغني عنهم من الله شيئا، فإذا كشف الضرَّ عنهم عادوا إلى شركهم وإعراضهم، فهذا حالهم عند الشدة والبلاء ضعفٌ وانكسارٌ واستكانةٌ وافتقارٌ، فإذا انكشفَ البلاءُ عادُوا إلى الجحودِ والاستكبارِ.

فالآية تخاطبُ ضمائرهم ومشاعرهم وتذكرهم بحالهم وعودتهم إلى الفطرة حيث الإخلاص والتجرد في الدعاء عند الشدائد والمحن؛ طمعا في النجاة﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ إن كنتم صادقين مع أنفسكم؟ ألستم تتوجهون إلى الله وحده في لحظة من الصدق تفرضها عليكم وطأةُ المحنةِ؟ إن كنتم صادقين مع أنفسكم؟ أليست هذه هي حالُكم عند الشدائد؟ أترجعون إلى الله في حال الشدة والبلاء وتنسونه في حال اليسر والرخاء؟ ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ بل تخصُّونه وحده بالدعاء وتتوجهون إليه وحده بفطرتكم وقلوبكم فيستجيب لكم ويكشف عنكم ما نزل بكم.

الصلة بين هذا المقطع ومحور السورة

تنتظمُ آيات هذا المقطع مع محور السورةِ الكريمة؛ حيث تقريرُ العقيدة الصحيحة بما تضمنته الآياتُ من بيانِ كمال قدرته تعالى وعظمةِ سلطانه وإحاطةِ علمه وشمول ملكه، وبما أبانته من أسبابِ صدودِ المشركين، مع تتابعِ الحجج وتسلسل البراهين، فأنى لهم الاستجابة وهم موتى لا يسمعون؟ وكيف يطلبون المزِيد من الآيات، وهم عما حولهم من آياتٍ ظاهرةٍ ودلائلَ باهرة عَمُونَ غافلون؟ كما تكشفُ لنا الآياتُ عن حالهم عند الشدائد والمحن وهم ضارعون خاشعون مخلصون لله في الدعاء، فإذا انكشف البلاء وارتفعت المحنة عادوا إلى سالف عهدهم وارتدوا على أعقابهم!

الهدايات المستنبطة

* إنما يستجيب لدعوتك أحياء القلوب، الذين صفت سرائرهم، وتعلقت نفوسهم بالحق، أما موتى القلوب فأنى لهم الإستجابة؟
* الإستجابة للحق تتطلب سماع إصغاءٍ وفهمٍ وتدبُّرٍ، وحرصٍ على الانتفاع، وهذا مسلك الحريصين على الحق الناشدين له، أما المعرِضون فإنهم لا يسمعون سماع تدبرٍ ولا ينظرون نظر إمعانٍ ورويَّةٍ فقد ماتت قلوبهم وصُمَّت آذانهم.
* في قوله تعالى﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾: « دليلٌ على أن الكتاب الأول، قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب: علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقه لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد»[1].
* الإيمان حياة القلوب ونور البصائر، وأولئك الكفرة المعاندون حرموا أنفسهم من هذه الحياة ورضوا بالعيش في الظلمات، ورضوا بأن يحسبوا في عداد الأموات وقد قيل:

النـاسُ صنفانِ مـوتَـى في حياتِهُمُ ... وآخـــرونَ ببطنِ الأرضِ أحـيـاءُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٥٥، ٢٥٦.

* ما زال المشركون مصرين على طلب الآيات، وقد علقوا إيمانهم بها، والله تعالى قادر على إنزال الآيات التي اقترحوها، ولو شاء لأنزلها، ولكنهم يغفلون عن سـنته تعالى ولا يعرفونه سبحانه حق معرفته.

* بيَّن تعالى أن في الكون آياتٍ باهرة وعوالمَ ظاهرةً تشهد لله تعالى بكمال قدرته وعظيم حكمته فكيف يغفل عنها الغافلون! أم كيف يعرضُ عنها المعرضونَ! وهي آياتٌ محسوسةٌ وملموسةٌ، آياتٌ حسيةٌ ماديةٌ تشهد لله تعالى بوحدانيته.

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أقول: الهداية والإضلال بمشيئة الله تعالى وفقا لعلمه وحكمته، وهذه الآية مجملةٌ لها بيانٌ في آياتٍ أخرى عديدة منها قوله تعالى ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقوله ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦] ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٧] وقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

* ما من سالكِ طريقَ الحقِّ بصدقٍ وتجرُّدٍ وعزيمةٍ واجتهادٍ إلا وُفِّقَ إليه.

* في الآيات الكريمة أدلة متنوعة وحجج ساطعة، منها أدلة العناية وأدلة الفطرة وغيرها من الأدلة التي تشهد بأن لهذا الكون إلها واحدا قادرا عليما حكيما هو الله تعالى الذي تتجلى قدرتُه في كلِّ ذرَّةٍ من ذراتِ هذا الكون.

* يخاطب الله تعالى فطرتهم حين يصدُقُ توجهُهُم إلى ربهم ويخلصون له الدعاء عند الشدائد والمحن، وهذا من البراهين الدالة على أن التوحيدَ قضيةٌ بديهيةٌ، يسلم لها القلب إذا صفا وتجَرد، أما تلك الأصنام التي ينافحون عنها ويستبشرون بذكرها ويقدمون لها القرابين فإنها في غمرةِ النسيان عندما تدلهم الخطوب وتنزل المحن ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

- ٦ -

سننٌ ربانيّة

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

المناسبة

جولةٌ أخرى مع أولئك المعرضين المعاندين، وجملةٌ من الحجج والبراهينِ، وتذكيرٌ بسننِه تعالى في الأوَّلين، وبأسِه الذي لا يردُّ عن القوم المجرمين، وفي ذلك أبلغ العبرِ وأعظم النذر لأولئك المكابرين الجاحدين، ومن بين هذه السنن التي تُذكِّرُ بها الآياتُ: سنة الابتلاء وسنة الاستدراج، كما تُذكِّرُ بنعمه تعالى التي إن شاء سلبها عمن لا يؤدي حقَّها ويرعى أمانتها.

التفسير الإجمالي

يدورُ الحديثُ في هذه الآيات عن إرسال الله تعالى إلى الأمم السابقة وابتلائهم وموقفهم من تلك الرسالات، وأسباب صدودهم وإعراضهم عن تلك الدَّعوات، وعاقبة ذلك، وهذا من أبلغ النذر، وأعظم العبر، ولكنَّ المشركين قد صُمَّت آذانهم وعميت أبصارهم وقست قلوبهم فلا ترعوي ولا تعتبر بمصارعِ السابقين، وعاقبةِ المُكذِّبين، وهنا يلتفتُ الخطابُ إليهم مُذّكِّرا بتلك النعم التي لم ينتفعوا بها نعمة السمع والبصر والقلب، ومحذِّرا من سلب تلك النعم التي لم يؤدُّوا شُكرها ولم يوفوا بحقِّها، ثم توعدهم الله تعالى بمصير من سبقهم من المكذبين، وماذا يكون حالُهم حين يباغتهم العذاب أو يأتيهم جهرةً قد لاحت في الأفق مقدماتُه وظهرتْ

بوادرُه وبدتْ علاماتُه.

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

بيانٌ لسنة الابتلاء: حيثُ الابتلاءُ الجماعيُّ للأمم والشعوب كالابتلاء بالحروب والمجاعات والأوبئة والأزمات؛ وذلك تمحيصاً لها وتَصحيحاً لمسارها، وإصلاحاً لفسادها وإزالةً لتراكمات السنين من آثار المعاصي والذنوب، وتجريدا للقلوب وترقيقا للمشاعر وتوجُّها إلى الله تعالى، فترى الأكفَّ ضارعةً والأعينَ دامعةً والقلوبَ خاشعةً، لكن أهل الجحود والهوى لا تزيدهم الشدائدُ إلا قسوةً وعنادا، وصدودا وإعراضا، فتصبُّ أنهارُ المحنِ في بحارِ الذنوبِ، فلا يخرجون من هذا الابتلاء إلا بالخيبةِ والخسرانِ.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

تلك هي سنة الاستدراج: حيثُ يُستأنفُ الاختبار من جديدٍ، لكنه هذه المرة يكون أشدَّ صعوبةً لأنه ابتلاء بالنعمة، إنها فتنةُ الاستدراج، وقد أقبلت الدنيا عليهم وفتحت لهم أبوابَها ففرحوا بما أوتوا فَرَحَ العُجبِ والاغترارِ والخُيلاءِ والاستكبارِ، فَرحوا بالنعم وانشغلوا بها عن المنعم، أعلنوا عن فرحِهم بالمعاصي والموبقات؛ تعبيرا عن الفرحة بما أوتوا من ظلٍّ زائلٍ وعاريةٍ مستردَّة، حتى يبلغَ بهم هذا الفرَحُ المذمومُ المشئومُ نهايةَ الطريق: طريقِ الهاوية﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾: حزانى آيسون من كلِّ خير، نادمونَ على كلِّ ما وَقَعَ منهم﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾: قَطع الله دابرهم فأهلك أولهم وآخرهم ونجّا عباده الصالحين من شرورهم ومفاسدهم وعافاهم من ظلمهم وشؤمهم فالحمد لله على أن أراح منهم العباد والبلاد.

تعقيبٌ

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾: ما زال السياق في محاورة المشركين وقرعهم بالحجج والبراهين، وفي هذه الجولة يتوعدهم الله تعالى بسلب نعم من أجلِّ النعم عليهم: نعمة السمع ونعمة البصر؛ ونعمة القلب، كما سلب الله تعالى نعمَه عن المكذبين من الأمم الخالية، « وإنما ذكر هذه الأعضاء الثلاثة، لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء، اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا»[(١)].

﴿ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ فإذا سلبهم الله هذه النعم التي أنعم عليهم بها فمن يضمنُ لهم ردَّ تلك النعم المسلوبة؟ وأين آلهتهم المزعومة؟

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾: حججٌ باهراتٌ وآياتٌ بيناتٌ، متنوعةٌ ومتتابعة، تدلُّ على قدرة الله تعالى وتفرده بالوحدانية، وهم يصدفون عنها مع وضوحها وجلائها! وأصل الصدف: الميل والإعراض[(٢)].

قال أبو السعود رحمه الله: «... انظر كيف نكرِّرها ونقرِّرها مصروفةً من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، تارةً بترتيب المقدِّمات العقلية وتارةً بطريق الترغيب والترهيب، وتارةً بالتنبيه والتذكير ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾... ﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد صدوفهم أي إعراضِهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديعِ الموجبِ للإقبال عليها»[(٣)].

(١) لباب التأويل للخازن ٢/ ١٣٤.

(٢) يراجع المصباح المنير للفيومي ص ١٧٥ ومختار الصحاح للرازي ١٥٠ ص مادة ص د ف.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٣٨٣، ٣٨٤ باختصار.

ثم يتوعدهم جل وعلا بعذاب يأتيهم بغتةً دون سابق إنذار أو جهرةً قد ظهرت أماراته ولاحت في الأفق علاماته ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ «ما يهلَكُ هلاكَ تعذيبٍ وسُخْطٍ إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم»[1].

الصلة بين المقطع ومحور السورة

من أصول العقيدة الإسلامية الإيمانُ بالسننِ الربانيةِ الثابتةِ في هذا الكونِ والتي تدلُّ على قدرة الله تعالى وحكمتِه وإحاطة علمِه وتمام عدلِه وسعةِ رحمتِه ولطفِه بأوليائِه، وقد تضمنت آياتُ هذا المقطع جملةً من هذه السننِ الربانية مع التذكير بأعظم النعم الإلهية: نعمة السمع والبصر والفؤاد، في سياق تقرير أصول الدين وتسليةِ المصطفى الأمين، وإقامةِ الحجج على الكافرين، وتنبيهِ الغافلينِ.

الهدايات المستنبطة

* من السنن الربانية الواردة في هذه الآيات: سنةُ الابتلاء، وسنةُ الاستدراج وسنةُ إهلاك المكذبين.

* في قوله:﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي على هلاكهم: « تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه سبحانه عند نزول النعم التي منْها هلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين، واقطع دابرهم، وأبدلهم بالعدل الشامل لهم»[2].

* في الآيات الكريمة تهديد لهم بأن يصيبهم مثلُ ما أصاب من قبلهم من الأمم الهالكةِ أو أن يسلبَهم اللهُ تعالى تلك الحواس المعطلةَ: حاسةَ السمعِ والبصرِ، ويختمُ على تلك القلوبِ

---

(١) مدارك التنزيل للنسفي ٢/ ١٢.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١١٦.

القاسيةِ التي لا تعتبرُ بالآياتِ ولا تسلِّم بالحججِ ولا ترعوي بالنذر.

* إعراض المشركين عن الآيات مع مجيئها على وجوه متعددة وبأساليب متنوعة تارة بالإجمال وتارة بالتفصيل وتارة بالعرض وتارة بالتحليل ومرة بالترغيب وأخرى بالترهيب، مع تتابع الحجج وتجلي البراهين ثم هم يميلون عن الحق مع هذا التصريف البديع.

- ٧ -

مهمة الرسل عليهم السلام

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

المناسبة

وجوه الارتباط بين هذه الآيات وما قبلها واضحةٌ جليَّةٌ: منها الحديث المشترك عن

الرسل والرسالات، فآيات المقطع السابق تحدثت عن موقف أمم سابقة من دعوات المرسلين، وما ترتب على تكذيبهم وإعراضهم من ابتلاء أعقبه استدراجٌ ثم استئصالٌ وفي هذه الآيات حديث عن الحكمة من إرسال الرسل وتصحيحٌ لتصورات المشركين الخاطئة حول الرسلِ والرسالات وبيان مهمةِ الرسولِ ﷺ والإجابةِ عن مقترحاتهم التي يصرُّون عليها.

التفسير الإجمالي

في هذه الآياتِ الكريمةِ: بيانٌ لمهمةٍ أساسيةٍ أرسلَ اللهُ تعالى من أجلها رسلَه عليهم السلام، هذه المهمة الجليلة: هي التبشير والإنذار:﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

البشارة لأهل الإيمان بصلاح الدارَينِ، والإنذار للمكذبين بالخسران المبين والعذاب المهين

وفي تلك الآيات ردٌّ على اقتراحات المشركين التي تدلُّ على جهلهم بحقيقة الرسالةِ ووظيفةِ الرسلِ من ذلك قولهم آنفا كما أخبر القرآن ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾، وقولهم كما ورد في سورة الإسراء ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

- ثم تصحح الآيات نظرةَ المشركين المادية، وتصورَهم الخاطئ لمهمة الرسول ﷺ قال تعالى﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ثم يبين حدودَ مهمته التي أُرْسِلَ من أجلها: وهي إتباع الوحي﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ أي فما أنا إلا متبعٌ للوحي لا أحيدُ عنه، ثم يوجه لهم هذا الاستفهام﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فلا يمكنُ بأي حالٍ أن يستوي الأعمى والبصير، الضال والمهتدي، من عرف طريق الحقِّ فلزمه، ومن أعرض عن الحق وتنكَّب عن الصراط! ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أفلا تتفكرون في هذه الأمور الواضحة، التي لا لبس فيها ولا غموض؟ وفي هذا تعريضٌ بعماهم عن الآيات وقد تجلت، وإنكارٌ عليهم تعطيلَهم لعقولِهم، كيف تغفلُ عن هذه الحججِ الواضحةِ، وتتخبطُ في ظلماتِ الجهلِ ومتاهاتِ الكفرِ.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُعْلِمَهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي، وأنه لا يعلم الغيب فيخبر بما كان وما سيكون، وأنه ليس بملَكٍ حتى يطلع على ما لا يطلع عليه البشر، إنما هو نبيٌّ مرسَلٌ، مُتَّبِعٌ لما يوحى إليه من ربه عز وجل، فإذا أخبر عن غيبٍ فبوحيٍ من الله إليه.

ذلك: أن القوم كانوا يَقْتَرِحُون عليه إظْهَارَ معجزاتٍ قاهرةٍ، كقولهم: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠] فقال تعالى في آخر الآيات: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] يعني: أنَا لا أدَّعِي إلاَّ الرسالةَ والنُّبُوَّة، وهذه الأمور التي طلبتموها لا يمكن تحصيلها إلاَّ بقدرة الله.

منطلقٌ حواريٌّ

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾: أنذر بهذا القرآن من ينتفعُ بهذا الإنذار من المؤمنين المخلصين الذين يخافون من يوم الحشرِ، فيعملون لهذا اللقاء الذي لا يغيب عن بالهم ولا يفارق خواطرَهم، وأنذر به كل من يؤمن بهذا اليوم ويقر به من طوائف المشركين

وأهل الكتاب، وذلك بأن يكون الإيمان بيوم الحشر: قاعدةً مشتركة وركيزة ثابتة ومنطلقا حُوَارِيّاً؛ للبحث عن الزاد الحقيقي لهذا اليوم والطريق الصحيح للنجاة من أهواله وعقباته فالطريق: طريق القرآن والزاد: مخافة الرحمن.

قال الإمام الشوكاني: « وخص الذين يخافون أن يحشروا، لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حلّ بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به وإنكاره له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك»[(١)].

وقال الخازن: « قال ابن عباس: يريد المؤمنين لأنهم يخافون يوم القيامة وما فيه من شدة الأهوال. وقيل: معنى يخافون يعلمون والمراد بهم كلُّ معترف بالبعث من مسلم وكتابي وإنما خصَّ الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم وإن كان إنذاره ﷺ لجميع الخلائق لأن الحجة عليهم أوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر»[(٢)].

﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه سبحانه إن أراده بهم ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم به الله يوم القيامة من عذابه.

لفتةٌ إلى المؤمنينَ

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١١٩.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل ٢ / ١٣٥ باختصار.



ﭐﻟۡﺄٓﻳَٰﺖِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

في خضم هذه المعركة الفاصلة بين الحق والباطل، بين أساطين الكفر وجهابذةِ الضلال ودعاةِ الحقِّ ومصابيح الهدى، لا ينبغي للنبي ﷺ أن يصرفَ كلَّ جهده في محاورة خصومه ومقارعتهم بالحجج والبراهين فينشغلَ عن أتباعه المؤمنين، بل عليه أن يتوجه بقلبه ومشاعره ووجدانِه وجُهده إليهم فإنهم غرسٌ مثمر وثمرةٌ مباركةٌ.

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ سَعْدٍ ﷺ قال فِيَّ نَزَلَتْ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ قَالَ نَزَلَتْ فِي سِتَّةٍ: أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ مِنْهُمْ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَالُوا لَهُ تُدْنِي هَؤُلَاءِ؟ [(١)].

وفي روايةٍ أخرى لمسلم بسنده عَنْ سَعْدٍ ﷺ قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ [(٢)]

والظاهر أنه ﷺ همَّ بأن يعقد مجالس خاصةً بالأغنياء؛ إجابةً لمطلبهم، وحرصا على هدايتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة بيانا لمنزلةِ أولئك المؤمنين وإن كانوا فقراء مستضعفين فإن منزلتهم عند الله عظيمةٌ، والإسلام: منهجٌ واضح ودين واحد، ينضوي تحت رايته جميعُ الناس فقيرُهم وغنيهم، ضعيفُهم وقويهم فكلهم في دين الله وشرعه سواء، قال تعالى﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾[الحجرات: ١٣].

---

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ حديث ٤٥- (٢٤١٣).

(٢) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ﷺ باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ حديث ٤٦- (٢٤١٣).

وروى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَىَ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىَ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» [(١)].

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة ﷺ قال حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: (يا أيها الناسُ ألا إنَّ ربَّكُمْ واحدٌ وإنَّ أباكم واحدٌ ألا لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا لعجميٍّ على عربيٍّ ولا لأحمرَ على أسودَ ولا أسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى[(٢)].

وقد بينت الآيةُ الكريمةُ حالَ أولئك المؤمنين ومداومتَهم على الذكر والعبادة، وتعلقَ قلوبِهم في جميع أحوالهم وسائر أوقاتهم بالله تعالى ذكرا وقُرباً وتضرُّعاً وحبّاً، وسعيا إلى رضاه وابتغاء وجهه الأعلى﴿ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾.

﴿ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: فإن حسابهم على أنفسهم، وحسابك على نفسك، والغنى والفقر أمرٌ قدَّره الله تعالى وقسَّمه بين خلقه لتستقيم الحياة، والداعيةُ لا يقبل المساومات والإغراءات على حساب دعوته فيستجيب لأهواء المشركين ويسلِّم لهم بما لديهم من تكبُّرٍ وازدراء لمن دونهم، إذ كيف يرضى بهذا الظُّلم البيِّن والتعصُّب المقيتِ؟ وإنما جاء الإسلام لتحقيقِ العدالة والمساواة بين الناس.

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله حديث (٣٤ - (٢٥٦٤).

(٢) حديث صحيح: رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة ٥ / ٤١١ وإسناده صحيح إلى أبي نضرة إلا أنه مرسل لأن أبا نضرة ليس صحابيا، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣ / ٥٧٨ برقم ٥٦٢٢ - وقال: « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، ولقد ورد الحديث متصلا عند الطبراني والبزار حيث رواه البزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري ﷺ كما في كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي ٢ / ٤٣٥ حديث ٢٤٤ - ورواه الطبراني في المعجم الأوسط عنه ٥ / ٣٧٦ حديث ٤٧٤٦ - وقال الهيثمي في المجمع: " رواه البزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري ورجال البزار رجال الصحيح ورواه الطبراني في المعجم الأوسط عنه ". مجمع الزوائد ٨ / ٨٤.

علمه تعالى بمن يستحقُّ الهداية

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾: ثم بين تعالى أنه جعل إيمان هؤلاء المستضعفين فتنةً لجهابذة الكفر الذين قالوا كبراً وعناداً كما أخبر القرآن الكريم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الأحقاف: ١١]، لكنه تعالى أعلم بمن يستحقُّ الهداية، وهم لا يفهمون حقيقةَ هذا الدين الجديد الذي جاء بعقيدة التوحيد ومبدأ الوحدة والمساواة بين الناس فلا فرق بين عربيٍّ ولا عجميٍّ ولا بين فقير وغني إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وسنة الله في تاريخ الدعوات الصادقة أن أغلب من يحمل لواءها ويسير في موكبها هم الفقراء والضعفاء، ولذلك لما سأل هرقلُ أبا سفيان عن أحوال النبي ﷺ ودعوته وأتباعه... قال هرقلُ: فأخبرني عن أتباعه منكم، من هم؟ قال أبو سفيان: قلتُ: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه، فلم يتبعه منهم أحدٌ... ثم قال هرقل لأبي سفيان:... وسألتُك عن أتباعه، فزعمتَ أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء؛ وكذلك أتباعُ الأنبياء في كل زمان.(١)

فكان المشركون يسخرون من المؤمنين ويزدرونهم، وكانوا يقولون: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾؟ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيرا - ويدعنا، كما قالوا﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾ [مريم: ٧٣].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢ / ٢٨ والبداية والنهاية لابن كثير ذكر خروج رسل رسول الله ﷺ ٢/ ٢٨.



قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [مريم: ٧٤]، وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ يعلم أقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطاً مستقيما.

سلام عليكم

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾. (سورة الأنعام).

ثم تمضي الآيات الكريمة بهذه اللفتة الحانية إلى تلك القلوب المؤمنة، وقد أقبلت على مجلس النبي ﷺ متشوقةً ومتلهفةً إلى سماع الحق، وطامعةً في الرحمةِ والمغفرةِ والقبولِ والرضوانِ، فلتبلِّغْهم يا محمد سلام ربهم عليهم وشوقه للقائهم، ولتبشرْهم بالرحمةِ التي كتبها الله على نفسه؛ تفضلا منه وإحسانا وإكراما لعباده المؤمنين، والمغفرةِ على ما سلف منهم من إساءة أو تقصير فتابوا منه وأصلحوا.

تعقيب ومفاصلة

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

إشارة إلى ما ورد في هذه السورة من تفصيل وبيان وتفريق بين ظلمات الكفر ونور الإيمان وبين سبيل الحق وسبيل المجرمين، لنكون على حذر من تلك المناهج الضالة والأديان الباطلة، ونظلَّ على بصيرةٍ بمفاتيح التعامل وأساليب التصدي لهذه الفتن والتحديات التي تواجهنا[١]

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بالياء (وليستبين) على التذكير وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث أو الخطاب، واختلفوا في (سبيلُ) فقرأ المدنيان بنصب اللام وقرأ الباقون بالرفع: والمعنى لتتضح سبيل المؤمنين أو لتستوضح يا محمد ويا أيها المخاطب سبيل المجرمين، فتكون منها على حذرٍ يراجع النشر في=

منهجٌ واضحٌ

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ﴾

أمره المولى جل وعلا أن يعلن براءته من الشرك وأهله، ومن كلِّ ما يتعلق به من أهواءٍ وضلالاتٍ، ومطالب متعنتة، كما أمره أن يعلن عن المنهج الحق المبين، القائم على الحجج النيرات والآيات الباهرات، وإن كذب به المشركون فإن هذا لا يضيره ولا يقلل من شأنه ولا ينقص من قدره، أما هم فحججهم داحضةٌ وشُبَهُهُمْ مُفنَّدة ومقترحاتُهم مردودةٌ.

﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء واستبعادا، نحو قولهم كما أخبر الله عنهم: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٢]، وقولهم: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقولهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سبأ: ٢٩].

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾: أي يقضي القضاء الحقَّ، أو يقصُّ القصصَ الحقَّ ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ أي بين الحق والباطل، بما يقضي به بين عباده ويفصِّلُه لهم في كتابه.[1]

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي لو أن ما تتعجلونه: مقدوراً إليّ وفي وُسْعِي ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي لقضى الله الأمر بيننا بأن ينزله الله سبحانه بكم بسؤالي له وطلبي ذلك، أو

= القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ١٩٤.

(١) قرأ المدنيان وابن كثير وعاصم (يقصُّ) بالصاد وقرأ الباقون (يقْضِي) من القضاء: يراجع النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ١٩٤.

المعنى: لو كان العذاب الذي تطلبونه وتستعجلون به عندي، وفي قبضتي لأنزلته بكم، وعند ذلك يقضى الأمر بيني وبينكم﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ فهو تعالى أعلم بمن يستحق العذاب وأعلم متى يُنزلُهُ بهم.

المناسبة بين المحور والمقطع

تدورُ آياتُ هذا المقطع مع المحورِ العام لهذه السورة الكريمة؛ حيث تقويضُ دعائم الشرك، وتفنيدُ شبهات المشركين وأباطيلهم وردُّ مقترحاتهم ومطالبهم، وتصحيح تصوراتهم ومفاهيمهم حول الرسولِ والرسالةِ، مع تقرير العقيدة الصحيحة وبيان المنهج الحقِّ.

الهدايات المستنبطة من الآيات

* بينت الآياتُ الكريمةُ المهمةَ الأساسية التي أرسل الله تعالى من أجلها رسلَه عليهم السلام، هذه المهمة الجليلة: هي التبشير والإنذار، البشارة لأهل الإيمان بصلاح الدارَينِ، والإنذار للمكذبين بالخسران المبين والعذاب المهين.
* وفي تلك الآيات ردٌّ على اقتراحات المشركين التي تدلُّ على جهلهم بحقيقة الرسالةِ ووظيفةِ الرسلِ.
* وفيها تعريضٌ بعماهم عن الآيات وقد تجلت، وإنكارٌ عليهم تعطيلَهم لعقولهم، كيف تغفلُ عن هذه الحجج الواضحة، وتتخبطُ في ظلمات الجهل ومتاهات الكفر.
* الردُّ على تصورات المشركين الخاطئة حول الرسل والرسالة ببيان وظيفة الرسل عليهم السلام، وأنهم متبعون للوحي، مؤيدون من قِبَلِ الله تعالى.
* اتباع الأنبياء عليهم السلام للوحي لا ينفي عنهم رتبة الاجتهاد فيما لا نصَّ فيه، فلقد ثبت اجتهاده ﷺ في مسائل كثيرة، وكذلك اجتهد الأنبياء من قبله - عليهم الصلاة والسلام -[(١)].

---

(١) انظر كتاب «الوسيط في تاريخ التشريع والفقه الإسلامي» الباب الأول الفصل الثالث المبحث الأول ص ١٠٣.

* من أصول الحوار الارتكاز على القضايا المسلمة والمسائل المتفق عليها، وجعلها منطلقا لما بعدها، فمن طوائف المشركين فضلا عن أهل الكتاب من يؤمن بيوم الحشر ويحذرُ من أهواله وشدائده، فلنجعل هذه المُسَلَّمَةَ ركيزةً ومنطلقا للحوار معهم.

* في خضم هذه المعركة الفاصلة بين الحق والباطل، بين أساطين الكفر وجهابذةِ الضلال لا ينبغي للنبي ﷺ أن يصرفَ كلَّ جهده في محاورة خصومه ومقارعتهم بالحجج والبراهين فينشغلَ عن أتباعه المؤمنين، بل عليه أن يتوجه بقلبه ومشاعره ووجدانه إليهم فإنهم غرسٌ مثمر وثمرٌ مباركٌ، وفي هذا درسٌ للدعاة أن لا تشغلَهم هموم الدعوةِ في الخارجِ عن هموم الداخلِ، فترى من يهتمّ بمتابعة أحوال العالم الإسلامي عن متابعةِ نفسِه وإصلاحِها والنهوضِ بها، أو يغفل عن أهل بيته، أو عن محيطِه الدعوي، أو يُعْنى بجانبٍ من جوانب الدعوة والإصلاح على حساب جوانب أخرى.

* ابتلى الله تعالى المستضعفين من المؤمنين بأكابر المجرمين، فالمؤمنون المخلصون ثبتوا في هذا الابتلاء ولم يغتروا بما عليه المشركون من رَغَدٍ في العيش مع ما هم عليه من كفرٍ وضلالٍ أما المشركون فإنهم احتقروا المستضعفين من المؤمنين واستنكفوا من مشاركتهم في الإيمان لما يستدعيه من مؤاخاتهم ومخالطتهم التي يأنفون منها، كما غلب على ظنِّهم أنه لو كان في الإيمان خيرٌ لما سبق إليه أولئك الضعفاء.

* الإسلام: منهجٌ واضح ودين واحد ينضوي تحت رايته جميعُ الناس فقيرهم وغنيهم ضعيفهم وقويهم، فكلهم في دين الله وشرعه سواء.

* حين يبين القرآن الكريم معالم طريق المشركين وأساليبهم وشبهاتهم وتلبيسهم فإنه يجعلنا على حذر من هذه المناهج الضالة، ويضع بين أيدينا مفاتيح التعامل وأساليب التصدي لهذه الفتن والتحديات التي تواجهنا.

* أمر الله نبيه ﷺ أن يعلن براءَه من الشرك وأهله، كما أمره أن يعلن عن المنهج الحق المبين، القائم على الحجج النيرات والآيات الباهرات، وإن كذَّب به المشركون فإن هذا لا يَضِيره

ولا يقلل من شأنه ولا يَنْقُصُ من قدره، فقد سلكوا طريق الرَّدى، وتعلَّقوا بحججٍ داحضةٍ وشُبَهٍ مُفنَّدة.

* عزةُ المؤمنِ بإيمانِهِ وثقتُهُ بدينِهِ؛ وحرصُه على إعلان هويته والإعلان عن دعوتِهِ وإظهار شعائره، سيَّما إذا كان في بلاد يغلب عليها الكفار، حيث أمر النبي ﷺ وهو في مكة أن يعلن براءته من الشرك وأتباعه، وولاءه للحق وأهله، ورفضه لجميع المساومات والإغراءات التي يقدمها أهل الباطل لاستقطاب أهل الحق أو لدفعهم إلى طريقِ المداهنة أو التنازلات التي لا نهايةَ لها.

- ٨ -

مفاتِحُ الغيبِ

قال تعالى ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

المناسبة

لما خُتمت الآية السابقة ببيانِ إحاطةِ علمه جلَّ وعلا بالظالمين، ناسب ذلك الحديث عن

شمول علمه الدقيق لعالم الغيب فضلا عن عالم الشهادة فقال سبحانه ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الآيات.

التفسير الإجمالي

استئثاره تعالى بعلم مفاتح الغيب.

بعد أن خُتِمَتِ الآيات السابقة ببيان علمه تعالى بالظالمين وإحاطته بأحوالهم ومعرفته بعاقبتهم وساعة الهلاك التي ترتقبهم، والعذاب الذي يتربص بهم: بينت هذه الآيات استئثاره تعالى بمعرفة مفاتح الغيب التي لا يعلمها سواه.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: « ويندرج تحت هذه الآية علمُ ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجاً أوّلياً، وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم، ولقد ابتُلِيَ الإسلامُ وأهلُهُ بقومِ سوءٍ من هذه الأجناسِ الضالةِ، والأنواعِ المخذولةِ ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خُطَّةِ السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق ﷺ « مَنْ أَتَى عَرَّافا أو كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كفرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» [(١)].

ولقد جاء في سورة لقمان تفصيلٌ لهذه الآية الكريمة قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾وورد في السنة النبوية تقريرُ ذلك: فعَنْ سَالِم بْن عَبْدِ اللَّه عَنْ أَبِيهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَفَاتِحُ الْغَيْبِ: خَمْسٌ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ٤٢٢، والحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٤٢٩ والبيهقي في السنن ٨/ ١٣٥ والحاكم في المستدرك ١/ ٨ وقال صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي. سنن أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ورواه الترمذي في السنن عنه ونصه »مَنْ أَتَى حَائِضاً أَوْ امْرَأَةٍ فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِناً: فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ . سنن الترمذي - أبواب الطهارة- بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ إِتْيَانِ الْحَائِضِ حديث ١٣٥.

وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[لقمان: ٣٤])[1].

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ لما ذكر علم الغيب، أتبعه بعالم الشهادة،﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ خصَّهما تعالى بالذكر لأنهما من أعظم المخلوقات، ومستقرُّ معظم الكائنات على وجه الأرض،﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾: « فإحاطةُ علمه تعالى لحركة الورقة الساقطة أُنموذجٌ لأحوال سائرها؛ لأن الذي لا يغفل عن الورقة الميتة الساقطة، لا شكَّ أن علمَه محيطٌ بغيرها من الأحوال والحركات، ويمتدُّ علمُه تعالى من حركةِ الورقةِ الميتةِ الساقطةِ إلى حركة البزوغ والنَّماء لكل حبةٍ في بطن الأرض»[2].

﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾: يعلمها سبحانه، وهي مكتوبة عنده في اللوح المحفوظ الذي سجَّلَ اللهُ فيه ما كان وما يكون وما سيكون.

وقال الإمام الخازن رحمه الله: « قدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيها من المعادن والحيوان، وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن إدراكها، ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد، لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة، ثم ذكر بعد ذلك مثالاً يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الأشياء وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الأمثال منبهةً على حكمةٍ عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير»[3].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: « هذه الآية العظيمة: من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ حديث ٤٣٥١

(٢) بصائر الحق للشيخ عبد الحميد طهماز ص ٦٢

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل ٢/ ١٤١ بتصرف

المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طَوَى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها»[1].

بين الميتة الصغرى والموتة الكبرى

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

ثم تنتقل بنا الآيات من علم الله الشامل بمفاتح الغيب، وبما يجري في أرجاءِ الكون، إلى مجالٍ من مجالاتِ هذا العلم، في عالم البشر، وجانبٍ من جوانبِ الهيمنة الإلهية، فتُلقي الضوءَ على آيةٍ ظاهرةٍ متكررةٍ، آيةٍ باهرةٍ كم يغفلُ الناسُ عن التأملِ فيها والاعتبارِ بها! آيةٌ صغرى تُبينُ عن آيةٍ كبرى غيبية: آية النوم: الميتة الصغرى.

والنوم لا يزال سرًّا عجز العلماءُ عن إدراكِ كُنْهِهِ وسبر أغواره، فمع كثرة البحوث والدراسات حول ظاهرة النوم فلا يزال العلماء والباحثون يطوفون حول مظاهره ويسجِّلون بعض الملاحظات عن التغييرات التي تحدث أثناء النوم أو بعده، ويكشفون لنا عن عجائبه ولطائفه، أما عن سرِّه المكنون فأنى لهم الوصولُ إليه، والنوم كما نعلم قرينُ الموت، واليقظةُ دليلٌ من أدلة البعث، والرؤى والأحلامُ التي يراها الإنسان في المنام قطرةٌ من بحار الغيب، ولما كان النوم أشبه بالموت جاء التعبير عنه بالوفاة:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ ﴾ ولما كان النهار للحركة والسعي بين عز وجلَّ إحاطةَ علمه بكل ما يُحصِّلُهُ الإنسانُ في نهارِهِ وما يكتسبه من

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٥٩ ويراجع: في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٠.

أعمالٍ، فدلَّ هذا على أن العبدَ خاضعٌ لله تعالى في ليله ونهاره في نومه وصحوه.

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي يوقظكم في النهار للكسب والمعاش فدلَّ على أن اليقظة آية كما أن النوم آية وكلاهما من نعم الله تعالى التي تستوجب الشكر عليها، وتذكّرٍ بالبعث، مصداقا لقول نبينا ﷺ إذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِه (باسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا) وقولِه عند صحوِه: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [(١)]

﴿ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ ففي انقضاء الأيام استيفاءٌ للآجال المحددة في علم الله تعالى:

كما قيل:

حياتك أنفاسٌ تُعدُّ فكلما مَضى ... نَفَسٌ منها انتقصتَ به جزءاً

والمرءُ يفرحُ بالأيام يقطَعُها ... وكلُّ يومٍ مضى نقصٌ من الأجلِ

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بعد انقضاء آجالكم فمرجعكم إلى ربكم للعرض والحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقابٍ.

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ لما بين كمال قدرته وإحاطة علمه أخبر هنا عن عظمة سلطانه وجبروته فالخلائق جميعا تحت قبضته، فهو القهار الذي جبر الخلق على مراده فلا يقع في ملكه إلا ما أراده، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، القهار: قهر النور بالظلمة والظلمة بالنور، والنهار بالليل والليل بالنهار وقهر البشر بالنوم الذي لا يمكن مدافعته والتغلب عليه حين يغشى الإنسان، حتى قيل: النوم سلطان فإذا حلَّ فلا يمكن صرفه، وإذا تمنَّع فلا يمكن جلبُه.

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ المتصرِّفُ في أمورهم المدبِّر لشئونهم، المهيمن عليهم، يجبرهم

---

(١) الحديث: رواه البخاري في صحيحه عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ كتاب الدعوات - باب ما يقول إذا نام حديث ٥٩٥٣.

على مراده فلا يقع في سلطانه إلا ما أراده.

قال السعدي: « ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئا، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه»[١].

وقال القشيري: « فوق عباده بالقهر والرفعة، وفوقهم بالقدرة على أن يُعَذِّبهم من فوقهم بإنزال العقوبة عليهم»[٢].

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ وذلك من جملة القهر أن يحفظ عباده بالملائكة الموكلين وهم الحفظة الذين قال الله عنهم ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ إذا حضرته الوفاة عند انقضاء أجله ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾: ملك الموت وأعوانه﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ يعني: لا يؤخرون طرفة عين.

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ثم كان مصيرهم ومرجعهم إلى ربهم، فله تعالى وحده الحكم وهو أسرع الحاسبين.

ظلمات البر والبحر

ونداء الفطرة

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يأمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يخاطب المشركين هذا الخطاب الذي يلامسُ فطرتَهم التي تتجرد لله تعالى فتناجيه وحده في ساعات المحن والشدائد التي تواجههم في ظلمات البر

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ٢٥٩.

(٢) لطائف الإشارات للقشيري - ٢ / ٢٤٨.



والبحر: فظلمات البرِّ هي ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح وما قد يترتب على ذلك من الخوف الشديد، وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضاً الخوف الشديد.

تلك الساعات العصيبة التي تردُّهم إلى فطرتهم فتغيبُ عن بالهم تلك الآلهةُ التي لا تضرُّ ولا تنفعُ، ويُعلنون العزم الأكيد على التوحيد الخالص بعد نجاتهم، لكنهم سرعان ما ينقضون عهدهم مع الله بإصرارهم على التردِّي في مهاوي الشرك.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أبعد أن نجاكم تشركون به سبحانه؟ وبعد أن أحسَن إليكم بتخليصكم من الشدائد: ترجعون إلى سالف عهدكم من التخبُّطِ في ظلمات الشركِ؟

وعيدٌ وتهديدٌ

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وكما أن نجاتكم بيد الله تعالى وحده، فهو تعالى القادر على إهلاككم بإنزال العذاب وبشتى السبل التي تتصورها عقولكم والتي لا تخطر لكم ببال، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ وتحذيرٌ وتهديدٌ لأولئك المشركين المعاندين، أن يُلحقَ العذاب بهم من فوقهم أو من تحت أرجلهم أو من بينهم، لكنهم مع كثرة هذه النذر وتكرر الوعيد وتنوع العبر والتفنن في الخطاب لا يفقهون ذلك.

قال الإمام الماوردي: « فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: أن العذاب الذي من فوقهم الرجم، والذي من تحت أرجلهم الخسف، قاله ابن جبير، ومجاهد، وأبو مالك.

والثاني: أن العذاب الذي من فوقهم أئمة السوء، والعذاب الذي من تحت أرجلهم عبيد

السوء، قاله ابن عباس.

والثالث: أن الذي من فوقهم الطوفان، والذي من تحت أرجلهم الريح، حكاه علي بن عيسى.

ويحتمل أن العذاب الذي من فوقهم طوارق السماء التي ليست من أفعال العباد لأنها فوقهم، والتي من تحت أرجلهم ما كان من أفعال العباد لأن الأرض تحت أرجلهم»[١].

وقال ابن الجوزي: « قوله تعالى:﴿ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا ﴾ قال ابن عباس: يَبُثُّ فيكم الأهواء المختلفة، فتصيرون فِرَقاً، قال ابن قتيبة: يلبسكم: من الالتباس عليهم. والمعنى: حتى تكونوا شِيعَاً، أي: فرقا مختلفين. ثم يذيق بعضكم بأس بعض بالقتال والحرب. وقال الزجاج: يلبسكم، أي: يخلط أمركم خلط اضطراب، لا خلط اتفاق. يقال: لَبَسْتُ عليهم الأمر، ألبَسه: إذا لم أبيِّنه. ومعنى شِيَعاً، أي يجعلكم فرقاً، فإذا كنتم مختلفين، قاتل بعضكم بعضاً»[٢].

وهذا الخطاب وإن كان موجها في الأصل إلى الكفار إلا أن هذه الفتن ينبغي الحذرُ منها والتعوذُ بالله من شرورها كما فعل ذلك نبينا ﷺ:

روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ قال رسول الله ﷺ: « أعوذ بوجهك». ﴿ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ ﴾ قال ﷺ: «أعوذ بوجهك». ﴿ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذه أهون -أو قال: هذا أيسر»[٣].

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) النكت والعيون للماوردي ١/ ٤١٤.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٣/ ٥٩

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ حديث ٤٣٥٢، ورواه النسائي في السنن الكبرى حديث ٧٧٣١.

وكذبوا بالقرآن وبما جاء فيه من وعدٍ وعيد وحكم وأحكام وهو الحق المبين، ﴿ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾: فلا أتحملُ تَبِعَةَ تكذيبكم ولا أحاسبُ عنكم.

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧ ﴾: لكل نبأ أي لكل خبر عظيم وقت استقرار وحصول لا بد منه، وسوف تعلمونه في المستقبل عند حلوله بكم متى شاء الله ذلك، ومثال هذا: قوله تعالى﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨ ﴾[ص: ٨٨].

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظمُ هذه الآيات الكريمة مع المحور العام لهذه السورة، وهو **تقرير العقيدة، وتعميق الإيمان**؛ وذلك: ببيان إحاطةِ علمه وكمالِ قدرتِهِ وقهره، وعظيمِ سلطانِهِ، ونقضِ دعائمِ الشركِ وتصوراته الضالة حول عالمِ الغيبِ والشهادةِ، والاستدلالِ على إمكانيةِ البعثِ، وإقامةِ الحججِ وتصريفِ الآياتِ.

الهدايات المستنبطة

* بينت هذه الآيات استئثاره تعالى بمفاتح الغيب التي لا يعلمها سواه.
* وفي هذه الآيات ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم.
* بينت الآيات الكريمة إحاطة علمه تعالى بعالم الغيب فضلا عن عالم الشهادة، فسبحان من أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا.
* جعل الله لهذا الكون سنناً ثابتة، وأطلع الإنسان منها بقدر ما يلزم له لعمارة الأرض والقيام بمهمة الاستخلاف، كما منحه الله القدرة على تسخير قوى الكون وفق هذه السنن لتعمير الأرض، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها، وفق تقدير الله تعالى وتدبيره.
* في الآيات الكريمة ردٌّ على الماديين الذين ينفون كلَّ ما وراء المادة ويقولون ب « الحتمية التاريخية» ولقد أثبتت الأيام كذب ادعائهم وبطلان مزاعمهم وانهيار بنيانهم الذي أُسِّس

على شفا جُرُفٍ هارٍ.

* لا يزال النوم سرًّا يعجز العلماءُ عن إدراكِ كُنْهِهِ وسبر أغواره وهو قرينُ الموت و دليلٌ من أدلة البعث، وما الرؤى والأحلامُ التي يراها الإنسان في المنام إلا قطرةٌ من بحار الغيب.

* لما بين كمال قدرته وإحاطة علمه أخبر عن عظمة سلطانه وقهره، فالخلائق جميعا تحت قبضته، فهو القهار الذي جبر الخلق على مراده فلا يقع في ملكه إلا ما أراده، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

* إقامة الحجة على المشركين بدليل الفطرةِ التي أودعها الله في كل إنسان؛ حيث التجرد الخالص لله وحده في ساعات المحن والشدائد التي تعتري الإنسان فيتوجه إلى الله تعالى بصدقٍ ويقين، وينسى الكافر آلهته المزعومة التي يدرك عجزها ويدعو الله تضرعا وخُفية موقنا بالإجابة، لكنه سرعان ما ينقض عهده مع الله بإصراره على الشرك.

* « تكذيب قريش وهم قوم النبي ﷺ بدعوته يبرئ الدعوة الإسلامية عن أي شبهة يمكن أن يتعلق بها أعداء الإسلام، فقد نزَّه الله الدعوة الإسلامية عن العصبية القومية والعرقية فهي دعوة إنسانية شاملة في نشأتها وفي أهدافها» [(١)].

* الحذر من التفرق وأسبابه المفضيةِ إليه؛ فهو من أخطرِ عواملِ ضعف الأمة وتراجعها.

---

(١) بصائر الحق للشيخ عبد الحميد طهماز ص ٦٨.

- ٩ -

تجنب مجالسة الخائضين وصحبتهم

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

المناسبة

لما تكرر الأمر بإقامة الحجج وتجلية البراهين المقررة لأصول الدين وتبديد شبهات المشركين وتفنيد أباطيلهم، ولا يتم هذا إلا بمحاورتهم ومجالستهم أمر تعالى بالإعراض عن مجالس الحوار إذا خرجت عن هدفِها وانحرفت عن مقصودِها وهو تجليةُ الحقائق ونقضُ الأباطيل، ومجانبةِ مجالسِ الظالمينَ وتحاشي إضاعة الوقت مع العابثين الهازئين، فهؤلاء لا يعنيهم الوصولُ إلى الحقِّ، وإنما اتخذوا من الدين مجرد وسيلةٍ للتلهِّي والتسليةِ؛ فلا فائدة من محاورتهم؟

التفسير الإجمالي

نهى الله عز وجل رسوله الكريم عن حضور مجالس الخائضين من أعداء الدين؛ لما يقع فيها من خوض وتخبطٍ وسخرية واستهزاءٍ واستخفافٍ بالحق وأهله، فإذا اضُطرَّ إلى حضورِ هذه المجالس أو حضرها ناسيا ووقع فيها الخوض فليسارع إلى مفارقتها إن لم يستطع صرفهم عن غيِّهم، كما نهى القرآن الكريم عن مصاحبة أولئك الذين يخوضون في آيات الله بغير علمٍ مع ضرورة تذكيرهم.

ونحو هذا قوله تعالى ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾الآية [النساء: ١٤٠] أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه.

والحوارُ إذا خرج عن الضوابط والمقاصد التي أُقيم على أساسها، فينبغي أن ينصرف الداعيةُ عنه، كأن يرى من الآخرين استخفافا أو استهانةً.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحاً، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ)[(١)].

﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وما على المتقين إثمٌ ولا حرجٌ فيما فعله المشركون من خوضٍ في آيات الله واستهزاءٍ بدين الله، ولكن واجبَهم النصحُ والتذكيرُ، إذا حضروا تلك المجالسَ بنية الإنكار عليهم ودعوتهم،

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في حسن الخلق سنن أبي داود حديث ٤٨٠٠، ورواه الترمذي في السنن عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ كتاب البر والصلة باب ما جاءَ في المِرَاء سنن الترمذي حديث ١٩١٦ وقال: " وَهَذَا الْحَدِيثُ حَدِيثٌ حَسَنٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ وَرْدَانَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ " ورواه النسائي في السنن عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ كتاب الجهاد باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد سنن النسائي حديث ٣١٢٤ ورواه ابن ماجة في السنن عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: افتتاح الكتاب في: الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم باب اجتناب البدع والجدل سنن ابن ماجه ١ / ٥٨ حديث ٥١، ورواه الحاكم في المستدرك عن فضالة بن عبيد وقال « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » وأقره الذهبي المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢ / ٦٩، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ١ / ٤٤ حديث ٤٢، وأورده الألباني في الصحيحة ١ / ٤٩١ حديث ٢٧٣، وقال حديث حسن، قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" ١ / ٤٩١: وقوله " في رَبَض الجنة " بفتح الباء: ما حَوْلها خارجا عنها تَشْبيها بالأبْنيَة التي تكون حول المُدُن وتحت القِلاَع يراجع النهاية في غريب الأثر ٢ / ٤٦٠.

من هنا فلا بأس من حضور مجالسهم واجتماعاتهم بنية الإنكار عليهم وتنبيه أتباعهم على ضلالهم.

قال البيضاوي:﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ ﴾: « ولكن عليهم أن يذكِّروهم ذكرى ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها»[١].

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ لعلهم يجتنبون الخوض؛ رهبةً أو حياءً أو كراهةً لمساءتهم، فعلى هذا يعود الضمير في ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ إلى المشركين، ويجوز أن يكون الضمير للذين يتقون، أي يذكرونهم إرادة أن يثبتوا على تقواهم ويزدادوا منها.

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

دعهم ودعْ مجالستَهم ولا تعلِّق قلبك بهم ولا تحزنْ عليهم؛ فإنهم أهلُ باطلٍ وتعنتٍ، وتلاعبٍ وهَزْلٍ، واستهزاءٍ حتى بدينهم الذي يتعصبون له فإنهُ عُرضةٌ لعبثهم ومثارا لاستهزائهم، فما بالك باستهزائهم بدين الحقِّ! وقد اغتروا بما نالوه في الدنيا من حظوظٍ زائلةٍ حملتهم إلى بطرِ الحقِّ وغمطِ الناس وازدرائهم، فالوصول إلى الحق لا يعنيهم.

﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ذكر بالقرآن تلك النفوس قبل أن تُسْلَمَ إلى الهلاكِ وتُرهَنَ بسوءِ عملِهَا، وأصلُ الإبسال والبَسْل: المنع، ومنه أسدٌ باسلٌ، لأن فريستَهُ لا تفْلِتُ منهُ.

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يدفع عنها العذاب ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ وإن تقدم أي فديةٍ مهما كانت قيمتُها فإنها لا تُقْبَلُ، ومثال ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١ / ٤٩٧ .



مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧].

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أولئك المكذبون المعاندون الخائضون في آيات الله المستهزؤن بدين الله، والتعبير بأولئك وهي إشارة للبعيد « بلام البعد» لبيان بعدهم عن الله وتوغلهم توغلا بعيدا في طريق الضلال، وبعدِ منزلتهم في قعر جهنم.

﴿ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ سُلِّمُوا إلى العذابِ بسببِ أعمالِهِمُ القبيحةِ وعقائدهم الباطلة، وأهوائهم المتَّبعة، وبسبب عنادهم وصدودهم وإعراضهم وخوضهم في آيات الله تشكيكاً وإبعادا عن الحق، وتزيينا وزخرفةً للأباطيل.

﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ بسبب كسبهم وكفرهم فهم بين الماء المغلي الذي يشوي الوجوه ويقطع الأمعاءَ وبين العذاب الأليمِ الذي استحقوه بإصرارهم على الكفر وبقائهم عليه.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

لما كان مدارُ السورة حول تقرير العقيدة بإقامة الحجج وتجلية البراهين وما يستدعيه ذلك من محاورات ومناظراتٍ، تستلزمُ من الداعيةِ أن يغشَى مجالسَ الكفارِ ومنتدياتهم فيحاورهم وربما أدى ذلك إلى خوض بعضهم في آيات الله: بينت هذه الآياتُ الكريمةُ منهجَ التعاملِ مع أولئك الخائضين، وهو الإعراضُ عنهم حتى ينصرفوا عن خوضهم ويكفُّوا عن تطاولهم، كما أمرت بتجنبِ مجالسِ الظلمةِ لأن حضورَها لا يأتي بخيرٍ، وأن لا يضيع الداعيةُ وقته وجهده مع من لا يعنيهم الوصولُ إلى الحق.

الهدايات المستنبطة

* نهى الله عز وجل رسوله الكريم عن حضور مجالس الخائضين من أعداء الدين؛ لما يقع فيها من خوضٍ وتخبطٍ وسخرية واستهزاءٍ واستخفافٍ بالحق وأهله.

* كما نهى القرآن الكريم عن مصاحبة أولئك الذين يخوضون في آيات الله بغير علمٍ مع ضرورة تذكيرهم.

* قال الإمام الشوكاني: « أمره الله سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التي يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوض في غير ذلك، وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمَّح بمجالسة المبتدعة، الذين يحرّفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردُّون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقلُّ الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسيرٌ عليه غيرُ عسيرٍ. وقد يجعلون حضورَه معهم مع تنزِّهه عما يتلبسون به شبهةً يُشَبِّهُونَ بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدةٌ زائدةٌ على مجرد سماع المنكر، وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه، وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حقَّ معرفتِهَا، عَلِمَ أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعافُ أضعافُ ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرَّمات، ولا سيما لمن كان غيرَ راسخِ القدمِ في علمِ الكتابِ والسنةِ، فإنه ربما يَنْفِقُ عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضحِ مكانٍ، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدّة عمره ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر»[1].

وقال صاحب المنار: « وقد حذر السلف الصالح من مجالسة أهل الأهواء، أشد مما حذروا من مجالسة الكفار، إذ لا يُخْشَى على المؤمن من فتنة الكافر ما يُخْشَى عليه من فتنة المبتدع لأنه يحذَرُ من الأول على ضعف شبهتِهِ ما لا يحذَرُ من الثاني وهو يجيئُه من مأمنه، ولا يعقل أن يقعد المؤمن باختياره مع الكفار في حال استهزائهم بآيات الله وتكذيبهم بها وطعنهم فيها كما يقعد مختارا مع المجادلين فيها المتأولين لها، وإنما يتصورُ قعودُ المؤمن مع الكافر المستهزئ في حال الإكراه وما يقرب منه، كشدة الضعف ولا سيما إذا كان في دار الحرب ولم تكن

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ٤٢٩ وينفق: يلقى في نفسه قبولا من نفقت السلعة إذا راجت.

مكة دار إسلام عند نزول هذه الآيات، ويدخلُ في أهل الأهواء المقلدون الجامدون الذين يحاولون تطبيق آيات الله وسنن رسوله على آراء مقلديهم بالتكلف، أو يردونها ويحرمون العمل بها بدعوى احتمال النسخ أو وجود معارضٍ آخرَ»[١].

* فعلى كلِّ مسلمٍ غيورٍ أن يُعرض عن تلك المجالسِ التي يُستهانُ فيها بآياتِ الله إذا لم يتسنى له صرفُهم عنْ خوضهم واستهزائهم.

من هنا: فإن الأصل عدم حضور مجالس الكفار مثل منتديات أو مؤتمرات الحوار التي يرددون فيها أباطيلهم ويدعون إلى ضلالاتهم إلا إذا كان الحضور بنية عرض الإسلام ودحض الشبهات التي يثيرها أعداؤه والرد على أباطيلهم وضلالاتهم فلا بأس من ذلك.

* أما إن كان حضورها بنية التقريب بين الأديان والمذاهب، أو بنية الإقرار والاعتراف بهذه الأديان المحرفة والوضعية وتلك المذاهب الباطلة الهدامة، أو بنية تبادل المجاملات والابتسامات ومداهنة أعداء الله، مع ما يرتكبونه من جرائمَ وما يحيكونه من مكائد ومؤامرات ومن تحريضٍ على قتل الأبرياء من إخواننا المستضعفين في كثيرٍ من بقاع الأرض التي تراقُ فيها دماؤنا وتنتهك فيها أعراض أَخواتنا على أيدي اليهود والصليبيين فهذا لا يجوز شرعاً.

قال صاحب الأساس: «إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية في الحدود التي حددها الشرع، أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحظور، لأنه في ظاهره إقرارٌ للباطل، وشهادة ضد الحق، وفيه تلبيس على الناس ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله وفي هذه الحالة يكون النهي والمفارقة»[٢].

* قد يطرأُ النسيانُ على الأنبياء في غير ما يتعلق بأمور الوحي ومهام الرسالة كالسهو في

(١) تفسير المنار ٧/ ٥٠٦.

(٢) الأساس في التفسير ٣/ ١٦٧٥، ١٦٧٦.



الصلاة أو النسيان في الأمور الحياتية، شأنهم في ذلك شأن سائر البشر، وإن كان المتتبع لمواقف النسيان في ضوء ما ورد في الكتاب والسنة يجدها نادرة.

* قوله تعالى ﴿ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾: سُلِّمُوا إلى العذابِ بسببِ أعمالِهِمُ القبيحةِ وعقائدهم الباطلة، وأهوائهم المتَّبعة، وبسبب عنادهم وصدودهم وإعراضهم وخوضهم في آيات الله تشكيكاً وإبعادا عن الحق، وتزيينا وزخرفةً للأباطيل، وهذا ينطبق على ما يقع في كثيرٍ من وسائل الإعلام سِيَّمَا في هذا العصر، عصر الفضائيات والانفتاح الإعلامي، حيث القنواتُ التي قامت على شفا جرف هارٍ؛ بغرض تشويه الحقِّ وزخرفةِ الأباطيلِ وترويجِ الشبهاتِ وتجميلِ الوجه القبيح للحضارةِ الغربيةِ بأصباغ زائفةٍ ومساحيقَ برَّاقةٍ وأقنعةٍ خدَّاعة، فيستضيفون في تلك القنواتِ الهدَّامةِ أصحابَ الأقلام المأجورة والألسنة الحدادِ التي تتقنُ الصراخَ والعويلَ وزخرفةَ الأباطيلِ والقدرة على التمثيلِ لإقناعِ العوامِّ بما هم عليه من كذبٍ وتضليلٍ.

* وقد صار ذلك التمويهُ والتضليلُ مهنةً يتكسبون منها، فهم عملاءُ مأجورونَ للباطلِ وأهلِهِ.

* قوله تعالى:﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾: بسبب كسبهم وكفرهم نالوا هذا الشراب الذي يستقبلهم، ألم يكونوا يجتمعون في مجالس الكفارِ الوثيرة؟ ألم يكن ما لذَّ وطاب من الطعام والشرابِ يقدَّم لهم في منتدياتهم التي كانوا يُسارعون إليها ويتنافسون على حُضورِها؟ ويلهثون وراءها؟

* إمهاله تعالى الكفارَ والعاصين لحكم بالغة، فإنه تعالى أحاط بكلِّ شيء علما وأحصى كلَّ شيء عددا، وإنما يؤخرهم لأجل محدود ويوم موعود.

* تحدثت السورة الكريمة حديثا مستفيضا عن وظائف الملائكة عليهم السلام فمنهم الحفظة ومنهم الموكلون بقبض الأرواح ومنهم الموكلون بإنزال العذاب وإلحاقه بمن حقَّ عليهم القولُ وغير ذلك.

- ١٠ -

معالم على طريق الهدى

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

المناسبة

كيف يدعو المشركون لما هم عليه من ضلال، بعد لوامع الحجج وبوارقِ الأدلة وتدفُّقِ البراهينِ وتجلِّي الآياتِ التي تنطق وتشهد وتقرر تفردَه تعالى بالوحدانية؟ وأن منهجه الذي بيَّنه لعباده هو منهج الهداية ومسلك النجاة.

التفسير الإجمالي

أبعد هذه الحجج النيرات والآيات المتتابعات: نترك هذا الطريق الواضح الأبلج ونسلك طرق الغواية والضلالة مع غموض معالمها، والتواء مسالكها! أبعد أن منَّ الله علينا بنعمة الهداية والرشاد نرتد على أعقابنا ونهوى طريق أهل الشرك والزيغ! أبعد أن تذوقنا حلاوةَ الإيمان وتنسمنا عبيرَه الفوَّاح، نحيدُ عن هذا الطريقِ الوضَّاح!

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

تلك الأصنام التي تواترت الحججُ؛ وانطلقت البراهينُ تدحضُ عبادتَها وتُبددُ أوهامَها أتُدعى بعد ذلك من دونِ الله، وقد تبينَ لكلِّ ذي عقلٍ أنها لا تضرُّ ولا تنفع!

فيكون حالُ من انتكس وارتدَّ على عقبه كحال من استهوته شياطينُ الإنس والجنِّ، استحوذت عليه، سلبت عقله، استعارتْ نورَ بصرِه، استولتْ على مسامِعِه فلا يرَى ولا يسمعُ،

ولا يعقِلُ إلا ما تُمْليه عليه! وقد هيمنتْ على كل أحاسيسِهِ ومشاعِرِهِ وتسللتْ إلى قلبِهِ وتمكنتْ من عقلِهِ ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ فصار في حيرةٍ من أمرِهِ، يتخبطُ في ظلمات التيه وفي خضم الفتن، ويأتيه نورُ الحقِّ من بعيدٍ وينادي عليه أصحابٌ له يدعونه إلى طريق الهداية ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ﴾ أَقْدِمْ وهلمَّ إلينا: تجد الهُدى والنور! أقبل علينا واجعل الباطلَ من وراءِ ظهرِكَ تنجُ وتسلمْ من شياطين الإنس والجن.

قال الإمام الطبري: « قل يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ والأنداد، والآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعو من دون الله حجراً أو خشباً لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت...»[(١)].

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

ذكِّرهم وكرِّرْ على مسامِعِهِمْ أن طريق الهدى طريقٌ واحد هو الذي حدَّده ربُّنا وبيَّنه لنا، وأمرنا أن نسلمَ له تعالى بقلوبِنا وأرواحنا وجوارحنا، أن نسلم له ظاهرا وباطنا وهو طريق النور والاستقامة وطريق العزة والكرامة، ذاك هو طريق النجاة لمن سلكه

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ وأمرنا ربُّنا بإقامة الصلاة فهي الصلة بين العبدِ وربِّه، كما أمرنا أن نثبت على طريق التقوى ونتزود منها فهي زادنا في معاشنا ومعادِنا، وأن نتمثَّل دائما يومَ حشرنا وموقفنا بين يدي ربِّنا، فنتأهب دائما لهذا اللقاء الموعودِ.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أمرنا لنسلم له تعالى فهو الذي خلق هذا الكون وأبدعه، وهو قادرٌ على إعادة الخلق يوم القيامة بقوله﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾، قال تعالى في سورة إبراهيم ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ

---

(١) جامع البيان للإمام الطبري ٧/ ٢٧٣.

عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس ٨١].

﴿ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾: قوله الحقُّ وله الملكُ؛ فلا يتكلمُ أحدٌ إلا بإذنِه، ولا مُلْكَ في هذا اليوم لأحدٍ سواه، كما قال سبحانه ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [هود: ١٠٥] ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴾ [طه: ١٠٨].

﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ النفخةُ الأولى والنفخةُ الثانية ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ عالم الغيب والشهادة فلا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة ولا يعزب عن علمه شيءٌ، وهو الحكيم في أفعاله وأقواله وتقديره وتدبيره، الخبير في ملكه وتصريفه يعلم بواطن الأمور فضلا عن ظاهرها.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظم آيات هذا المقطع مع السياق العام للسورة، حيث أنكرت على المشركين ما هم عليه من زيغ وضلال مع ظهورِ الحجج وتجلي البراهين، ثم تنتقل إلى بيان المنهج الحق والطريق السوي طريقِ الهدايةِ والنجاة، وهو الإسلام التامُّ لله تعالى ظاهرا وباطنا، كما تضفي الآيات المزيد حول التعريف بأسماء الله تعالى وصفاته بما ينتظم مع الهدف العام للسورة وهو تقرير العقيدة.

الهدايات المستنبطة

* طريق الهدى طريقٌ واحد هو الذي حدَّده ربُّنا وبيَّنه لنا، وأمرنا أن نسلم له تعالى بقلوبنا وأرواحنا وجوارحنا ظاهرا وباطنا.
* الصحبةُ الصالحةُ مسلكٌ من مسالكِ النجاة، وعصمةٌ من مكائد الشيطان.
* على من يسعى للوصول إلى الحقِّ أن يُحرِّر نفسه من أسر شياطينِ الإنسِ والجن، ويستعيذَ

بالله تعالى من شرورهم ووساوسهم، ويعتصمَ باللهِ تعالى ويتوجَّه إليه متضرعا خاشعا؛ فالهدايةُ منه تعالى وهو سبحانه المعين عليها والموفِّقُ إليها، فمن طلبها بصدقٍ وإخلاصٍ وتجرُّدٍ وعزيمةٍ نالها.

* على من أراد النجاةِ في دنياهُ وأخراهُ أن يسلك طريقها ويقتفي أَثَرَ من سبق إليها، أما أن يرتجيها من لا يسلكها ويتوقعها من انحرف عنها فهذا من الغفلة والعجز، وقد قال أبو العتاهية: تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ

* أمرنا ربُّنا بإقامة الصلاة فهي الصلة بين العبدِ وربِّه، وهي عمادِ الدين وركنِهِ الحصين، كما أمرنا أن نثبت على طريق التقوى ونتزود منها فهي زادنا في معاشنا ومعادِنا، وأن نتمثَّل دائما يوم حشرنا بين يدي ربِّنا فنتأهب دائما لهذا اللقاء الموعودِ بالإيمان الراسخِ والعمل الصالحِ. وبهذا المنهج يُحصِّنُ المسلمُ نفسه من كل ضلالٍ وحيرةٍ، ويسلم من وساوس الشياطين.

* وأمرنا أن نسلم له تعالى فهو الذي خلق هذا الكون وأبدعه، وهو قادرٌ على إعادة الخلق يوم القيامة.

* الإيمان بالصور، فقد ورد الحديث عنه في الكتاب والسنة فهو من المعلوم من الدين بالضرورة.

* هو تعالى: عالم الغيب والشهادة فلا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة ولا يعزب عن علمه شيءٌ، يعلم ما حضر وما غاب وما خفي وما ظهر وما جلَّ وما لطف وما كان وما يكون وما سيكون، وهو الحكيم في أفعاله وأقواله وتقديره وتدبيره، الخبير في ملكه وتصريفه.

-١١-

قصة إبراهيم عليه السلام

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

المناسبة

وتتجلى من وجوهٍ عديدة منها:

* لما بينت الآيات السابقة طريقَ الهدى والنجاة: وهو الإسلام لله ظاهرا وباطنا: ناسب ذلك بيان أن هذا الطريق هو طريق جميع الأنبياء عليهم السلام، وذكرت قصة إبراهيم ﷺ ومنهجه في الحوار، وثمرة دعوته وعاقبة صبره وثباته.
* لما ورد في الآيات السابقة أن السموات والأرض مخلوقةٌ مملوكةٌ لله تعالى ومسخرة بأمره، وفي هذا برهان قاطع على بطلان عبادة الأفلاك والأجرام السماوية: ناسب ذلك الاستطراد إلى الحديث عن إقامة إبراهيم ﷺ الحجة على بطلان عبادة تلك الأجرام.
* المتأمل في هذه السورة الكريمة يجدها قد اشتملت على أساليب كثيرةٍ متنوعةٍ؛ لإقامة الحجج على المشركين فتجد فيها البيان والتقرير والاستفهام الإنكاري والتقريري، والوعد والوعيد والقصص والأمثال والوصايا والأحكام، وتنتظم هذه القصة مع غيرها من أساليب الإقناع وألوان الحجج التي اشتملت عليها السورة الكريمة؛ لتقريرِ دعائمِ هذا الدينِ، وتقويض أدرانِ الشركِ ومظاهرِه.
* ولما كان لإبراهيم ﷺ مكانةٌ عند مشركي العرب، سيقت قصته للاحتجاج به، عليهم ولبيان توحيده في مقابل شركهم، فكيف يعظِّمونه وهم مخالفون له في الاعتقاد! وكيف يدَّعون متابعتَه وهم بعيدون عن هديه، راغبون عن ملته.
* وفي سردها في هذا السياق تسليةٌ وتسريةٌ للنبي ﷺ ، ودعوةٌ للتأسي بأبي الأنبياء ﷺ في صبره وثباته، وسَعةِ صدرِه وصفاءِ سريرتِه وحلمِه وأناتِه.

التفسير الإجمالي

إنكارٌ وتقرير

قال تعالى ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ

مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

تبدأُ القصةُ الكريمةُ بهذا المطلعِ الذي يلفتُ الأنظار ويسترعِي الأسماعَ، داعيا إلى معايشةِ هذه القصةِ واستنشاقِ عبقِ الماضي لتنسُّم عبير العِبَرِ واستحضار تلك المشاهد والصورِ والتدبر في تلك الحواراتِ والأحداثِ التي انطوت عليها القصة.

وقوله تعالى﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ أي اذكر ذلك الوقت واستحضر هذا المشهد حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه ناصحا له ومُنكرا عليه عبادة الأصنام من دون الله.

وظاهر النصِّ الكريم أن اسم أبيه ﴿ ءَازَرَ ﴾ والذي نصَّت عليه السنة النبوية أن اسمه آزر، وكونه في التوراة (تارح) لا يعدُّ دليلا على ذلك فكم في التوراة من تحريف وتبديلٍ وافتراءٍ! أو ربما كان (تارح): لقبا له.

وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»[1].

وفي الآية الكريمة إنكارٌ وتقريرٌ، أَنْكَرَ عليه ما هو عليه من اتخاذ الأصنام آلهة، وتقريرٌ لما عليه أبوه وقومُهُ من ضلالٍ بين.

ومن الواضحِ أن إبراهيم عليه السلام قد بذل جُهداً مضنيا في محاجَّةِ أبيه، ولقد سجَّل القرآن الكريم صورةً من صور الحوار الذي كان يدور بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه من ذلك ما جاء

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء باب: قول الله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[النساء:١٢٥] حديث ٣٣٥٠، وَالذِّيخ بِكَسْر الذَّال الْمُعْجَمَة بَعْدَهَا تَحْتَانِيَّة سَاكِنَة ثُمَّ خَاء مُعْجَمَة ذَكَر الضِّبَاع، وَقِيلَ لَا يُقَال لَهُ ذِيخ إِلَّا إِذَا كَانَ كَثِير الشَّعْر. يراجع النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٣٥.

في سورة مريم ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم: ٤١ - ٥٠].

في ملكوت السموات والأرض

يقول الحق جلَّ وعلا ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي وكما هديناه إلى الحقِّ وبصَّرناه بطريقنا: ثبتناه على هذا الطريق وزدناه يقينا، وأطلعناه على ملكوت السموات والأرض ليتمعَّن ويتدبر ويستنبط العبرَ ويستخلص الفوائد ليزداد يقينا وإيمانا .

قال النسفي: « أي نُرِي بصيرتَهُ لطائفَ خلقِ السماواتِ والأرضِ»[(١)] .

وقال القاسمي: « أي نُطلعه على حقائقهما، ونبصره في دلالتهما على شئونه عز وجل، من حيث إنهما بما فيهما مملوكان له تعالى، والملكوت مصدر على زنة المبالغة كالجبروت، ومعناه الملك العظيم والسلطان القاهر، وقيل ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما»[(٢)] .

ويقول صاحب الظلال: « بمثل هذه الفطرة السليمة، وهذه البصيرة المفتوحة؛ وعلى هذا النحو من الخلوص للحق، ومن إنكار الباطل في قوة.. نُرِي إبراهيم حقيقة هذا الملك.. ملك

(١) مدارك التنزيل النسفي ٢/ ٦٩.

(٢) محاسن التأويل للإمام القاسمي ٦ / ٥٨٧ .



السماوات والأرض.. ونطلعه على الأسرار المكنونة في صميم الكون، ونكشف له عن الآيات المبثوثة في صحائف الوجود، ونصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدى في هذا الكون العجيب»[1].

محاورة لطيفة

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

أراد عليه السلام أن يقيم الحجةَ على قومه وذلك بمجاراتهم والتدرج بهم من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ ومن حجةٍ إلى حجةٍ حتى يأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى.

إنها محاورةٌ عملية ومناظرة واقعيةٌ ومساجلةٌ ميدانيةٌ لتكون أدعى إلى القبول وأبلغ في الاحتجاج.

قال الخازن رحمه الله: « الذي عليه جمهور المحققين: أن هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ إبراهيم وحين شرَّفه الله بالنبوة وأكرمه بالرسالة... أراد أن يستدرج قومه بهذا القول ويعرفهم جهلهم وخطأهم في تعظيم النجوم وعبادتها لأنهم كانوا يرون أن كل الأمور إليها، فأراهم إبراهيم أنه معظِّمٌ ما عظموه، فلما أَفَلَ الكوكبُ والقمرُ والشمسُ أراهم النقصَ الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والأفول ليثبت خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الألوهية...،... قال إبراهيم عليه السلام ذلك على وجه الاحتجاج على قومه، يقول هذا ربي بزعمكم فلما غاب قال لو كان إلهاً كما تزعمون لما غاب»[2].

---

(١) في ظلال القرآن ٢ / ١١٣٩

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢ / ١٥٢ بتصرف، ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن=

و قال الزمخشري: «... وكان أبوه [آزر] وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى أن شيئاً منها لا يصحُّ أن يكون إلها، لقيام دليلِ الحدوثِ فيها، وأن وراءَها مُحدِثاً أَحْدَثَهَا، وصانِعاً صَنَعَهَا، ومدبراً دبرَ طُلُوعَهَا وأفولَها وانتقالَها ومسيرَها وسائرَ أحوالها «[1].

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ ﴾

لما أقبل الليل وخيَّم الظلام وأزهر هذا الكوكب في السماء، قال إبراهيم على سبيل مجاراة قومه واستدراجهم ﴿ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾غاب ﴿ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ ذلك أن الأفول والانتقال من حال إلى حال لا يمكن أن يكون من صفات الإله الحق، والنفس بفطرتها لا تركن إلى من يعتريه النقص والتغيُّر.

قال الزمخشري: قوله ﴿ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكرُّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ لا أحبُّ عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى آخر، المحتجبين بسترٍ، فإنّ ذلك من صفات الأجرام»[2].

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ ﴾ تدرَّج بهم في مصاعدِ النَّظَر ومراقي الوصول إلى العقيدةِ الصحيحة، حيث وجَّه أنظارهم إلى القمر حين رآه بازغا في أفق السماء فقال على سبيل المجاراة ﴿ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ أي غاب واستتر ﴿ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾: فوجَّه أنظارهم إلى حاجةِ الإنسان إلى الهداية الربانية، حتى ينجو من طريق الضلال، وأن الهداية لا تكون إلا من الله تعالى.

= كثير ٢/ ٢٧٦.

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٠ باختصار.

(٢) نفس المرجع ٢ / ٣١ بتصرف.

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ ﴾

انتقل بهم إلى المرحلة الأخيرة في رحلة البحث عن الحقيقة، وقد كان من بينهم من يُعظِّمُ الشمسَ ويعبدُها من دون الله مع أنها كغيرها من النجوم يعتريها التغييرُ وتدورُ في هذا الفَلَكِ العظيم، وتغربُ هنا لتشرق هناكَ فلا يدومُ لها حالٌ.

وليس بعد هذه الحجج الساطعة إلا إعلان البراءة من الشرك وأهله﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ ثم تقريرُ العقيدة الصحيحة وترسيخُها في النفوس﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ ﴾.

جعلتُ الله تعالى هو قصدي ووجهتي، وتوجهتُ إليه تعالى بالعبودية فهو تعالى الذي فطر السموات والأرض: أبدعهما وأنشأهما، وقد دلَّ تعالى على نفسه بما أودعه في النفس الإنسانية من فطرةٍ نقية تشهد له بالوحدانية، وبما بثَّه في هذا الكون من دلائلَ نيِّرةٍ وحججٍ ظاهرة.

قال ابن كثير رحمه الله: « أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخِّرُها ومقدرُها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه»[(١)].

مُحاجَّةُ المشركين

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣ ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٢٧٦

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ ﴾: وحاجَّه قومه طمعا في صرفه عن الحق وأنى لهم ذلك! وقد فُنِّدت شبهاتهم وبُدِّدتْ أوهامهم! وأقيمت عليهم الحججُ الباهرةُ والأدلةُ الظَّاهرةُ! وهم رغم ذلك يصرُّون على الكفر ويتمادون في الضلال!

﴿ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ﴾ أتجادلونني في الله وقد أخذ بيدي إلى الحق وأنفذ بصري ونوَّر بصيرتي وشرح صدري وآنس وحشتي وأضاء دربي وفَطَرَني على الإيمانِ! فأيُّ حجةٍ تُغويني عن طريق الرشاد وقد سلكته؟ وأيُّ قوةٍ تُثنيني عن الحق وقد آنستُه، وأيُّ ظلامٍ يحجبُ عني النورَ وقد أبصرتُه؟

﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ ﴾ هددوه ﷺ وتوعدوه أن يبطشوا به ويفتكوا بعد أن أعيتهم الحجج، فبين لهم ثباتَه على الحقِّ، وصمودَه أمام وعيدِهم ويقينه بقدر الله تعالى، ومعرفته بحكمته سبحانه في ابتلاء أنبيائه وأصفيائه لِحَكَمٍ بالغةٍ، ثمَّ حثهم على التذكُّر والتفكُّر فقال لهم ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

وكيف يخافُ منهم أو يخشى آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع؟ وهم مع ذلك لا يخافون من الإله الحق وقد أشركوا به آلهةً ما أنزل الله بها من سلطان فلا إله غيره تعالى ولا معبود سواه! فمن أجدرُ بالخوف ومن أحقُّ بالأمن!

﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ﴾

« وأي خوفٍ يقع على قلبي ظِله ولم أُلِم بِشِرْكٍ ولم أَجْنَحْ قطُّ إلى جُحْدٍ؟ وأنتم ما شممتم رائحةَ التوحيد في طولِ عُمُرِكُم، ولا ذقتم طعمَ الإيمانِ في سالفِ دهرِكُم! ثم بسوء ظنّكم تجاسرتم وما ارعويتم، وخسِرتم وما باليتم، فأيُّنا أَوْلى أن يُعْلِن بسرِّه ما هو بصدده من سوءِ مَكْرِه وعاقبةِ أَمْرِه؟»[1].

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٢/ ٢٦٥.



﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ : إن الحياةَ الآمنةَ المطمئنَةَ الطيبةَ الكريمةَ الراضيةَ المرضيةَ لا ينعمُ بها إلا المؤمنون المهتدون، الذين آمنوا إيمانا خالصا من شوائبِ الشركِ، فهم الأحق بالأمن في الدنيا والآخرة.

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أصحاب رسول الله ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَأَيُّـنَا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فقال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ ذَلِكَ، إِنَّمَا هو الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ:﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: ١٣])[(١)].

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ إشارةٌ إلى ما سبق من أدلة باهرة وحججٍ ظاهرة أَيَّد الله تعالى بها نبيه إبراهيم عليه السلام ليُفحِمَ بها المشركين من قومه فتلك الحجج إنما كانت بتوفيق الله تعالى ومَعونته وتأييده سبحانه، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾بالعلم والفهم والحكمة والحجة والفضيلة والنبوة التي يختصُّ الله بها من يشاء من عباده، كما رفعنا إبراهيم عليه السلام على أهل عصره، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ التفاتٌ إلى الحبيب المصطفى ﷺ تسليةً له وتثبيتاً وإظهاراً لمزيد لُطفٍ وعنايةٍ به ﷺ، ببيان أنه تعالى مطَّلعٌ عليه لا يخفى عليه حالُه مع قومه.

قال ابن عاشور: « وقدَّم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ على ﴿ عَلِيمٌ ﴾ لأنَّ هذا التَّفضيل مَظهرٌ للحكمة ثمَّ عقَّب بـ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ليشيرَ إلى أنَّ ذلك الإحكام جارٍ على وِفق العلم»[(٢)].

(١) صحيح البخاري ك التفسير – باب: ﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] – حديث٤٧٧٦، و كتاب الأنبياء باب – باب قول الله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥] حديث ٣١٨١، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب صدق الإيمان وإخلاصه صحيح مسلم حديث ١٧٨ – (١٢٤).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٧ / ٣٣٦.

مواهب ربانية

قال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾

بعد هذا الاصطفاء لنبي الله إبراهيم عليه السلام بالنبوة والعلم والحكمة والفهم، فقد منَّ الله عليه بالذرية الطيبة التي تفرَّعت من ذلك الأصل الطيب، وتشعَّبت من تلك الشجرة المباركة: شجرة الأنبياء من بعده عليه السلام.

قال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ قال الرازي: « وأما قوله:﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ فالمرادُ أنه سبحانه جعل إبراهيم في أشرف الأنساب، وذلك لأنه رزقه أولاداً مثل إسحق، ويعقوب، وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلهما، وأخرجه من أصلاب آباءٍ طاهرين مثل نوح. وإدريس. فالمقصود بيان كرامة إبراهيم عليه السلام بحسب الأولاد وبحسب الآباء»[1].

وبيان سيره عليه السلام على نهج من سبقه من المرسلين، وإنما خصَّ نوحاً عليه السلام لأنه أولُ المرسلين، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ الضمير لإبراهيمَ، « لأن مَساقَ النظم الكريم لبيانِ شؤونه العظيمةِ من إيتاءِ الحجةِ ورفعِ الدرجاتِ وهبةِ الأولادِ الأنبياءِ وإبقاءِ هذه الكرامةِ في نسله إلى يوم القيامة، كلُّ ذلك لإلزام مَنْ ينتمي إلى ملتِه عليه السلام من المشركين واليهود، وقيل: لنوح، لأنه أقربُ، ولأن يونُسَ ولوطاً ليسا من ذرِّية إبراهيمَ، فلو كان الضميرُ له لاختصَّ بالمعدودين في هذه الآية والتي بعدها، وأما المذكورون في الآية الثالثةِ فعطفٌ على (نوحاً)، وروي عن ابن عباس أن هؤلاءِ الأنبياءَ كلَّهم مُضافون إلى ذرِّية إبراهيمَ وإن كان منهم من لم يلْحَقه بولادةٍ من قِبَلِ أمٍّ ولا

(١) التفسير الكبير الرازي ٥ / ٥١، ٥٢.



أب، لأن لوطاً ابنُ أخي إبراهيم، والعربُ تجعل العمَّ أباً، كما أخبر الله تعالى عن أبناءِ يعقوبَ أنهم قالوا: ﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] مع أن إسماعيلَ عمُّ يعقوب عليهم السلام [(١)].

والذي يرجحه السياق أن الضمير في ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ لإبراهيم عليه السلام.

وسرُّ تقديم إسحاق أن إبراهيم عليه السلام رزق به وهو في شيخوخته وكانت امرأته عاقرا فكان معجزةً لإبراهيم وتكريما له ولزوجه وَقَرَنَ ذكره بذكر يعقوب لأنه ولدُه ولأن الملائكة بشرت بهما قال تعالى ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] .

« وإنما عدَّ اللهُ سبحانه هدايةَ هؤلاء الأنبياء من النعم التي عدَّها على إبراهيم، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء» [(٢)].

وإنما قدَّم داود وسليمان على أيوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام لأن الله تعالى جمع لهما بين النبوة والملك وفي ذلك شرف لهما ولإبراهيم عليه السلام، والمقام مقام تشريفٍ وامتنان.

وفي اقتران أيوب بيوسف عليهما السلام لقربهما في الزمان ولتشابه حالهما حيث ثباتهما وصبرهما الجميل وصمودهما أمام أمواج الابتلاء وأعاصير المحن ورياحِ الفتن، وعاقبة صبرهما وتقواهما.

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٦ ﴾

« وأخر ذكر إسماعيل عليه السلام لأنه ذكر إسحاق عليه السلام وذكر أولاده من بعده على نسق واحد» [(٣)].

﴿ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فضلهم الله بالنبوة والعلم والحكمة.

---

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٤١٠ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٣٦.

(٣) فتح البيان لصديق حسن خان ٣ / ١٩٥ .

﴿ وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾

﴿ وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ أي: وهدَيْنا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعاتٍ، فـ «مِنْ» للتبعيض، والمراد: مَنْ آمن منهم، نبيّاً كان أو غير نبيٍّ، ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ ﴾، أي: تخيَّرناهم، والاجتباء: الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار، مشتق من جبيت الماء في الحوض جمعته، فالاجتباء: ضمُّ الذي تجتبيه إلى خاصتك، ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ أيْ: أرشدْناهم إلى الإيمان، والفوز برضا الله عزَّ وجلَّ.

تعقيبٌ على القصة

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

ذلك المشار إليه من تلك الهدايات الربانية وأنوار النبوة: ﴿ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ فالهدايةُ دلالةٌ وبيانٌ، وتوفيقٌ ومعونةٌ من الله تعالى، يختصُّ تعالى بها من يشاء من عباده، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي على فرض وقوعهم في الشرك وهذا مستبعدٌ لحبط عملُهم، لكن الله تعالى عَصَمَ أنبياءَهُ من الشرك.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ أولئك: إشارة إلى الأنبياء المذكورين وعددهم ثمانية عشر نبيا، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ الذين منَّ الله عز وجل عليهم بالهداية وأنعم عليهم بالكتب المنزَّلة، ﴿ وَٱلْحُكْمَ ﴾ وهو الحكمةُ والفهمُ، ﴿ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾: وهي من أجلِّ المواهبِ الربانية يختصُّ الله بها من يشاءُ من عباده.

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾

الضمير في بها للحكم والنبوّة والكتاب، أو للنبوّة فقط، ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ ﴾ (إن) شرطية والإشارة بهؤلاء إلى كفار قريش المعاندين لرسول الله ﷺ وجواب الشرط ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أي وفقنا إلى الإيمان بها قوماً، وهم الصحابة وهو الأظهر لمقابلة إيمانهم بكفار قريشٍ الذين أصروا على كفرهم وإعراضهم، أو الأنبياء المذكورون سابقاً وأتباعهم.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ أولئك: إشارةٌ إلى الأنبياء عليهم السلام، فهم نجومُ الهدى وأعلامُ الرشاد ومناراتُ الحقِّ، وهم الذين أُمِرَ نبيُّنا ﷺ أن يقتدي بهم ويسير على نهجهم، وقد عرَّفه الله تعالى بهم وحدَّثه عن إيمانهم وإخلاصهم، وهداهم وتقواهم وصبرهم وثباتهم وتحلِّيهم بمكارم الأخلاق.

قال الإمام البيضاوي: « والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع المختلف فيها، فإنها ليست هدى مضافاً إلى الكل، ولا يمكن التأسي بهم جميعاً. فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام متعبدٌ بشرع من قبله»[(١)].

﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

أي: ﴿ قُل ﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾أي: في مقابل دعوتي لكم وإبلاغي إياكم، وفي هذا دفعٌ لما قد يتوهمونه من أنه جاء لطَلَبِ دنيا أو تحصيلِ مالٍ فيكون من أسباب امتناعهم.

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١ / ٥٠٣.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ما يصلح دينهم ودنياهم، من عقيدةٍ صحيحة وشريعةٍ سمحة وأخلاقٍ كريمةٍ ومواعظ رقيقة وقصصٍ هادفةٍ وأمثالٍ نافعةٍ وحِكَمٍ جامعةٍ.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

المتأمل في هذه السورة الكريمة يجدها قد اشتملت على أساليب كثيرةٍ متنوعةٍ؛ لإقامة الحجج على المشركين فتجد فيها البيان والتقرير والاستفهام الإنكاري والتقريري، والوعد والوعيد والقصص والأمثال والوصايا والأحكام، التي سيقتْ لإقامةِ الحجةِ وإبراز المحجَّةِ وتقرير أركان هذا الدين وتقويض دعائمِ الشركِ.

ولما كان لإبراهيم عليه السلام مكانةٌ عند مشركي العرب، سيقت قصته للاحتجاج به، عليهم ولبيان توحيده في مقابل شركهم، فكيف يعظمونه وهم مخالفون له في الاعتقاد! وكيف يدَّعون متابعتَه وهم بعيدون عن هديه، راغبون عن ملتِه.

كذلك سيقت القصة احتجاجا على أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم أولى الناس بإبراهيم وهم أبعدهم عن هديه وملته.

فكانت قصة إبراهيم نموذجا للقصة كأسلوب من أساليب الإقناع والاستدلال، فضلا عما انطوت عليه من دروسٍ وعبر وفوائد وأحكام.

وفي سردها في هذا المقام تسليةٌ وتسريةٌ للنبي ﷺ ، ودعوةٌ للتأسي بأبي الأنبياء عليه السلام في صبره ويقينه، ومنهجه في دعوة قومهِ.

وقد وردت قصةُ إبراهيم عليه السلام في سورٍ عديدة وفي سياقاتٍ متعددةٍ وفي كلِّ مرةٍ يُكشفُ عن جانبٍ من جوانب هذه القصة؛ بقدر ما يتوافق مع السياق الذي وردت فيه، أما الآياتُ الواردةُ هنا في شأن إبراهيم عليه السلام فإنها تُركِّزُ على دعوته ومحاورته لقومه وأسلوبه البديع ومنطقه العذب وطريقته السهلة الواضحة في إقامة الحجة على قومه وإقناعهم.

ذلك أن مدارَ السورةِ الكريمةِ هو إقامةُ الحججِ على الكفارِ على اختلافِ مللهم ونحلهم، وتفنيد ما هم عليه جميعا من أباطيل وأوهام، وتفنيد شبهاتهم وافتراءاتهم، وإزالة شكوكِهم ومواجهة صدودهم وإعراضهم.

الهدايات المستنبطة

* أهمية الحوار في إقامة الحجة والإقناع مع جواز مجاراة الخصم للوصول إلى الحقيقة.
* حرصُ إبراهيم عليه السلام على دعوةِ أبيه، يرشدُنا إلى دور الداعية مع أهله وعشيرته، وتدرُّجه في الدعوةِ.
* أراد عليه السلام أن يقيم الحجةَ على قومه، وذلك بمجاراتهم والتدرج بهم من مرحلةٍ إلى مرحلة ومن حجةٍ إلى حجةٍ حتى يأخذَ بأيديهم إلى طريقِ الهدى، إنها محاورةٌ عملية ومناظرة واقعيةٌ ومساجلةٌ ميدانيةٌ لتكون أدعى إلى القبول وأبلغَ في الاحتجاج.
* على المؤمن أن يستحضر دائما نعمة الله عليه بالهداية، ويؤدي حقَّها بدعوة من حُرِمُوا منها.
* على المحاورِ أن يخاطب عقل من يحاوره كما يخاطب مشاعره ووجدانه، فيجمع بين الحكمة وهي خطاب العقل، والموعظة الحسنة وهي أقربُ وسيلةً للروح والوجدان، كما فعل إبراهيم عليه السلام.
* كما اصطفى الله إبراهيم عليه السلام بالنبوة والعلم والحكمة والفهم فقد منَّ الله عليه بالذرية الطيبة التي تفرَّعت من ذلك الأصل الطيب، وتشعَّبت من بعده تلك الشجرة المباركة شجرة الأنبياء عليهم السلام.
* من كمال نبوته ﷺ وتمام دعوتِه: اقتداؤُه وتأسيه بجميعِ الأنبياءِ فلم يجتمع ذلك لغيره من الأنبياء كما في الحديث: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَاراً فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا

وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ)[١] وصدق الله تعالى﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة ٣].

* على المحاورِ أن يستعين بالله تعالى فالتوفيق والسداد منه تعالى، والتأييدُ بالحجج والبراهين فضلٌ منه سبحانه قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾.

* التحذيرُ من الشرك، وبيانُ أنه من محبطاتِ الأعمال.

* قوله تعالى ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ قال الرازي رحمه الله: « دلت هذه الآية على أنه تعالى سينصر نبيَّه ويُقَوِّي دينَه، ويجعلُه مستعلياً على كل من عاداه، قاهراً لكل من نازعَهُ، وقد وقع هذا الذي أخبر الله تعالى عنه في هذا الموضعِ، فكان هذا جارياً مجرى الإخبارِ عن الغيب، فيكون معجزاً. والله أعلم»[٢].

* **أقول**: ووعد الله تعالى بنصر دينه والتمكين لأوليائه وانتشار دعوة الإسلام بين سائر الأمم والشعوب وعدٌ قائمٌ، وها نحن نرى كل يوم مدى إقبال غير المسلمين على هذا الدين وتمسكهم به وسعادتهم بدخوله وحملهم لواء الدعوة وهمومها، في الوقت الذي تزداد فيه الحملات ضد الإسلام وتضطرم نيران الشبهات والافتراءات من قبل الأعداء والأدعياء، وتنفق المليارات على الحملات التنصيرية بهدف صدِّ الناس عن الحقِّ: نجد شموعا مضيئة في خضم هذه الفتن تتمثل في أولئك الذين شرح الله صدورهم لقبول دينه، ليقدِّموا برهانا ساطعا وشهادة صادقة على عظمة هذا الدين، كما يكشف هذا الإقبال الكثيف عن زيف الحضارة الغربية وإفلاسها، وأن الأديان المحرفة لا يمكن أن تنهض بالإنسان أو تحقق له النجاة، وأن الإسلام قدم منهجا عمليا واقعيا لصلاح البشرية وسعادتها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب - باب: خاتم النبيين ﷺ صحيح البخاري حديث ٣٣٤١ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين صحيح مسلم حديث ٤٢٣٧.

(٢) التفسير الكبير الرازي ٥ / ٥٥.



وكأني بهذه الآية الكريمة وهي تشير إلى سنة التغيير والاستبدال، لتنتظم مع غيرها من السنة التي تضمنتها السورة الكريمة.

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ أقول: أمر اللهُ نبيَّه ﷺ وكافةَ المؤمنين به أن يقتدوا بسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فهم نجومُ الهدى ومصابيح الدجى وجوامعُ العلوم والحكم وينابيع الفضائل، ومعادن الخيرات وشآبيبُ الرحمات، فعلى كلِّ مسلم أن يُعنى بدراسة سيرتهم العطرة في ضوء الكتاب والسنة ويقتطف منها العبر ويلتمس الفوائدَ، ويستنبط الدروس والحِكم سيَّما في هذا العصر، وما يشهده من غربةٍ في أحوال المسلمين، وفرقةٍ بين دعاةِ الحقِّ، مع تسلطِ الأعداء وكيد الأدعياء، واختلاط المفاهيم، وتخبُّطٍ في بعض المناهج ما بين يائسٍ ومداهنٍ ومتعجِّل ومتعصِّب، من هنا تبرز أهمية دراسة حياة الأنبياء جميعا، فالدراسةُ المتجردةُ الواعيةُ لهذه الحياةِ الحافلةِ المباركة: حصنٌ مكينٌ، ومنارٌ للسالكين، ومبعثٌ إلى الوحدة والاعتصامِ بحبلِ الله المتين، واتباعِ صراطه المستقيم، ومنطلقٌ إلى النصرِ والتمكين».

- ١٢ -

الاحتجاجُ على مُنْكِرِي الوحْيِ

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

المناسبة

أبعد الحديث عن قصة إبراهيم عليه السلام وقد تواترت بها الأنباء وسارت بذكرها الركبان، ثم الحديث عن جملة من الأنبياء من ذريته عليهم السلام قد بلغت سيرتهم أطباق الأرض وأركانها يوجدُ من بين العقلاء من ينكر الوحي؟ فهل ينكرُه إلا مكابرٌ جاحدٌ، أو جاهلٌ معاندٌ، لم يقدُرِ اللهَ حقَّ قدرِهِ ولم يعرفْهُ حقَّ معرفتِهِ؟

التفسير الإجمالي

أبعد الحديث عن الأنبياء عليهم السلام تلك النجوم الزاهرة والبدور النيِّرة ينكرُ الجاحدون تلك الأضواء الباهرة؟ إنه الجحود والإنكار، والصدود والاستكبار، الذي يُعْمِي القلوبَ والأبصارَ.

إنه الجهل المطبقُ بالحقِّ والضلالُ المبينُ الذي يحملهم على إنكار الرسل والرسالات وقد

تعطرت الدُّنى[١] بسيرتِهم، وأضاءت صفحاتُ التاريخ بمآثرهم ومناقبهم، فتواتر ذكرُهم على مرِّ العصورِ والأجيالِ حتى أصبح من الحقائق المسلمة التي يُسلِّمُ بها كلُّ منصفٍ.

أما أولئك الجاحدون فإنهم ما قدروه حقَّ قدره، وما عرفوه حقَّ المعرفة ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ حين نطقوا بكلمة الكفرِ والإلحاد، حين قالوا مقولتهم الظالمة التي تعبِّر عن تصوراتهم المظلمة.

ما عظَّموا ربهم حقَّ التعظيم ولا عرفوه حقَّ معرفته حين أنكروا ما تواترت به الأخبار وما جاء به الوحي فقالوا مكابرينَ مقولة الجاحدين ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ وهذا قدحٌ في حكمته تعالى وعدلِه، وزعمٌ أنه ترك عباده هملاً بلا شرعةٍ ومنهاجٍ، ونفيٌ لأجلِّ النعم التي أنعم الله بها على عباده وهي إرسال الرسل.

وهنا يتبادر هذا التساؤل: من القائل؟ أهم كفار قريش؛ حيث نزلت السورة في محاجتهم؟ فكيف احتجَّ عليهم بنبوة موسى وإنزال التوراة عليه؟ أم أصحاب هذه المقولة الظالمة هم أهل الكتاب؟

ذهب ابن جرير الطبري إلى أن الآية نزلت في مشركي قريش واستدلَّ على ذلك بأن سياق الآيات إنما نزلت فيهم، وردَّ رأي من زعم أن الآية نزلت في يهود، فبين أن اليهود لم يجرِ لهم ذكرٌ متصلٌ بهذه الآيات ولم يُعْرَفْ عنهم إنكارٌ للرسل والرسالات، كما لم يرد ما يدلُّ على أن الآية نزلت في يهود[٢].

وقال ابن كثير: « يقول تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله، قال ابن عباس، ومجاهد، وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش، واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود؛ وقيل: في فنحاص رجل منهم، وقيل: في مالك بن الصيف.

---

(١) الدُّنى: جمع الدنيا، نحو الكبرى والكبر، والصغرى والصغر.

(٢) يراجع جامع البيان للطبري ٧ / ٣٠٩



﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ والأول هو الأظهر؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب كانوا ينكرون إرسال رسول من البشر، كما قال تعالى ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥]، وقال هاهنا: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ يعني: التوراة التي قد علمتم أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظُلَم الشبهات»[1].

وقوله تعالى ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ أي: يجعلها حَمَلَتُها قراطيس أي: أجزاءً من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٩]، أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله؛ ولهذا قال ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾

أقول: الآية في أولها حديث عن المشركين﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ثم جاء الالتفات إلى اليهود في قوله تعالى ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ حيث كان اليهود على علم ببعثة النبي ﷺ وكانوا على اتصال بالمشركين يُمِدُّونهم بالأسئلة والشُّبه، أو أن قوله تعالى ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾

(١) يراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ٢٨٠.



﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ كان في بعض مشركي مكة الذين كانوا على علمٍ بالتوراة وما فيها من بشاراتٍ بالنبي الخاتم ومع ذلك لم يؤمنوا.

وقال أبو حيان: « إن كان المنكرون بني إسرائيل فالاحتجاج عليهم واضح لأنهم ملتزمون نزول الكتاب على موسى وإن كانوا العرب فوجه الاحتجاج عليهم أن إنزال الكتاب على موسى أمر مشهور منقول»[1].

حتى صار من المتعارف عليه عند العرب قبل ظهور الإسلام إقرارُهم بنزول الكتاب على موسى عليه السلام.

ويدلُّ على ذلك قوله تعالى﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾، ومن ذلك رجوعهم إلى أهل الكتاب في مسائل عديدة ففي رجوعهم ما يفيد تصديقهم بما عندهم.

وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾: أي: قل: الله أنزله، ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، فقد خلطوا بين الجدِّ والهزْلِ فصاروا لا يميزون بينهما، فَدَعْهُمْ: حتى يأتيَهم من الله اليقين، فسوف يعلمون من تكون له العاقبة؟

التفاتٌ إلى مقاصد القرآن

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

بعد بيان وتقرير إنزال التوراة على موسى عليه السلام نورا وهدايةً للناس، جاء الحديث عن المعجزة الكبرى والرسالة الخاتِمة المتمِّمة القرآن الكريم الذي جاء مهيمنا على ما سبقه من كتبٍ،

(١) البحر المحيط ٥ / ٢٠٢.



والإشارة إليه بالقريب: لقربه منهم وقربه إلى أفهامهم وعقولهم وملامستِه لواقعهم وأحوالهم ومواكبته لكل العصور، أنزله الله مباركا لمن تلاه حقَّ تلاوته وعَمِلَ به ودعا إِلَيْهِ، مباركا بما حوى من منافع الدارين وعلوم الأولين والآخرين وفوائد لا نهاية لها، وجاء مصدقاً لما بين يديه: أي للكتب السابقةِ مصدقا بنزولها على الأنبياء عليهم السلام ومصدقا بمقاصده وما تضمنته من أحكام وأخبارٍ، قبل أن تحرَّف وتبدَّل، أو مصدق بما بين يديه من أحداث الحاضر وأمور المستقبل، ومن أهمها ما يتعلق بالساعة من مقدمات وعلامات وما يقع فيها من أهوالٍ عظامٍ وأحداثٍ جسام.

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ومنذراً لأهل مكة ولمن حولها، وفي هذا إشارةٌ إلى ما ذهب إليه بعض أهلِ العلم من أن مكة مركز العالم حيث تتوسط الكرة الأرضية، فكأن البلادَ من حولها أبناءٌ قد تحلَّقوا حول أمِّهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ فمن كان مؤمنا باليوم الآخر فحريٌّ به أن يؤمن بآخر الكتب الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ ، وحريٌّ به أيضا أن يحافظ على الصلوات فهي طريقُ الفلاحِ في الدارين ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

مصير أهل الكذب والافتراء

قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

إذا كان من يكذب بآيات الله تعالى وينكر الوحي لم يَقْدُرِ الله حقَّ قدره إذا كان هذا حال المكذبين بالله: فهل هناك أظلم ممن افترى على الله الكذب؛ أو ادعى النبوةَ وتظاهرَ بأنه يوحى

إليه ولم يوح إليه بشيء، شأنُ مدعي النبوة على مر التاريخ، أو من ادعى الألوهيةِ أو شيئا من خصائصها، كالذين يُحِلُّون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، أو من يزعم قدرته على الإتيان بمثل القرآن.

ونظير ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ ولو ترى يا محمد أولئك الطغاةَ في ساعة الاحتضار وهم في خضم الشدائدِ وغمرةِ السَّكَرَاتِ، وحولهم الملائكةُ الذين كانوا يتعجَّلون نزولَهم، فهاهم قد حلَّ الموتُ بهم وجاءهم العذابُ الذي لا رجعةَ فيه ولا مفرَّ منه، وغشيتهم سكراتُ الموت، وحضرتهم ملائكةُ العذابِ، يستعجلون خروج أرواحهم الخبيثة، لو تراهم وهم على هذه الحال: لرأيت أهوالا عظاما وأمورا جساماً!

﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ يبسطونها بالضربِ المُؤلمِ والعذابِ المُهينِ فيضربون وجوههم وأدبارهم، فبئس التوديع للدنيا! وبئس الخروج منها خزايا محرومين! ولبئسَ استقبالُ الآخرة، ودخولها بذنوبٍ تقصِمُ الظهورَ، وحسرات تُقطِّعُ الأكباد! ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ حيث كان ضرب الأدبار وما فيه من مهانةٍ بمثابة توديعهم للدنيا، وضرب الوجوه وما فيه من تحقيرٍ لهم بمثابةِ استقبالهم في الدارِ الآخرة، ويبسطونها لقبض الأرواح قائلين لهم على سبيل التعجيز والاستهانة ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾: من هذه الغمرات التي وقعتم فيها، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم إن استطعتم؛ تبكيتٌ لهم وتعجيزٌ، وسخريةٌ واستهزاءٌ، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب، يا من افتريتم على الله الكذب وكذبتم بآياته واستهنتم بها: « هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارةٌ عن العنفِ في السياقِ والإلحاحِ والتشديدِ في الإزهاقِ، من غير تنفيسٍ وإمهالٍ وأنهم يفعلون بهم

فعلَ الغريم المسلطِ يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له أَخْرِجْ إليّ مَا لي عليكَ الساعةَ ولا أبرح مكاني حتى أنزعه من أحداقك!»[1].

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يوبخونهم ويقرعُونَ مسامعَهُم بتلك الجرائمِ التي استحقوا بها هذا العذابَ المُهين، كما تُتْلى على الجاني صحيفةُ جنايتِه عند القَصَاصِ منه، فهذا العذابُ إنما كان بافترائهم وتكذيبهم ومكابرتهم وعنادِهم.

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

جُرِّدوا من كل شيء، فخرجوا من الدنيا كما دخلوها، وجاءوا حُفاةً عراةً غُرْلا كما ولدتهم أمهاتُهم، ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ تركوا الأهل والخلان والأموالَ والسلطانَ وراء ظهورهم، ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ﴾لم تنفعهم آلهتُهم التي عبدوها زاعمين أنها تقربُهم إلى الله زُلفى، ولم تدفع عنهم بل كانت وبالا عليهم، ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ تقطع ما بينكم من صلاتٍ وروابط، وتقطع بينكم: تبدَّد شملُكم وتفرَّقَ جمعُكم، وتشتت أمرُكم، وخابَ سعيُكم، وانقطعَ رجاؤكم.

﴿ وَضَلَّ عَنكُم ﴾ أي ذهب وبطل وغاب ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي من تلك الضلالات والأباطيلِ كلِّهَا.

ومثـال ذلك قولـه تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقـاف: ٥، ٦]، وقوله ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨٢]، وقوله ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن

(١) الكشاف للزمخشري ٢/ ٣٦ بتصرف .

دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة

المناسبة بين آيات هذا المقطع وبين المحور العام للسورة واضحةٌ جلية فلقد ردَّت على منكري الوحي من أهل الكفر والإلحاد والجحود والعناد، فمن ينكر الوحي الإلهي كمن ينكرُ الشمسِ وهي ساطعةٌ في كبد السماء، ولكن كما قال البوصيري:

قد تنكرُ العينُ ضوء الشمسِ من رمدٍ ويُنكرُ الفمُ طعمَ الماءِ منْ سَقَمٍ

كذلك بينت الآيات أن من أشنع ألوان الظلم: الافتراء على الله ثم ذكرت صورا منه وأعقبته ببيان عاقبته في الدنيا من سوء الخاتمة، وفي الآخرة من الخزي والهوان والعذاب الشديد.

الهدايات المستنبطة

* من جحد رسالة رسله تعالى فما قدره حق قدره ولا عرفه حقَّ معرفته ولا عظمه حقَّ تعظيمه ولا نزهه حقَّ تنزيهِه، لكنه الهوى المتبعُ والتقليدُ الأعمى والجهلُ المطبقُ الذي يحمل صاحبَه على إنكار الرسل والرسالات، كيف وقد تواترَ ذكرُهم على مرِّ القرون والأجيالِ، وأضاءت أنوارُهم أرجاء الكونِ، حتى أصبحَ من الحقائقِ المسلماتِ ومن كبرى اليقينياتِ.

* وحول قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ يقول القرطبي رحمه الله: « قلت: ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف يقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا؛ فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوها من الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات، ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات،

ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص! وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المُفتون؛ ويستدلون على هذا بالخضر؛ وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم! وهذا القول زندقةٌ وكفرٌ، يُقْتَلُ قائلُه ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب؛ فإنه يلزم منه هدُّ الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام»[(١)].

* **تعقيبٌ لسيد قطب:** « وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم، يقوله أمثالهم في كل زمان؛ ومنهم الذين يقولونه الآن؛ ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر؛ وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم، لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم، كالوثنيات كلها قديماً وحديثاً، ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم، ولكنها تظل خارج دين الله كله. وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله، وهي ثابتة على أصولها الأولى؛ جاء بها كل رسول؛ فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة؛ ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد، بذات الدين الواحد الموصول...»[(٢)].

* حريٌّ بأهل الكتاب أن يؤمنوا بآخر الكتب الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ ، وفصَّلَ في أمور الآخرة أدقَّ تفصيل وأصدق بيانٍ، وحريٌّ بمن آمن باليوم الآخر أن يؤمن بآخر النبيين مبعثا نبينا محمد ﷺ قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ وحريٌّ به أيضا أن يحافظ على الصلوات، فهي طريق الفلاح في الدارين وهي عماد الدين وأفضل القربات وأجلُّ الطاعات، ومحور العباداتِ.

* ليس هناك أظلم ممن افترى على الله الكذب؛ أو ادعى النبوةَ وتظاهرَ بأنه يوحى إليه ولم يوح

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٧/ ٢٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٢ / ١١٤٦.

إليه بشيء شأن مدعي النبوة على مر التاريخ، أو من ادعى الألوهيةَ أو شيئا من خصائصها كالذين يُحِلُّون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، أو من يزعم قدرته على الإتيان بمثل القرآن فهذا من أشنع ألوان الظلم.

* شدة سكرات الموت على الطغاة المستكبرين وما يلاقونه من أهوالٍ عظامٍ وتوبيخٍ وإيلامٍ حين يودِّعون دنياهم ويستقبلون أخراهم، وقد انقطعت الصلات وتكشفت الغيبيات.

- ١٣ -

من دلائل القدرة

قال تعالى﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

المناسبة

هذه جولةٌ أخرى من جولاتِ هذه السورة سيقت لبيان دلائلِ قدرتِهِ وآياتِ عظمتِه وبدائع صنعه وعجائبِ خلقِهِ سبحانَه، وتقريرِ وحدانيته فهو الخالقُ المُدبِّرُ لهذا الكونِ، وما يعبدونه من آلهةٍ مزعومةٍ من شجرٍ أو حجرٍ أو بشرٍ أو شمسٍ أو قمرٍ أو حيوانٍ أو طير فإنما هي مخلوقةٌ وخاضعةٌ لله تعالى.

التفسير الإجمالي

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ والفلق هو الشقُّ والحبُّ: مثل حبة الحنطة والشعير

وسائر الأنواع، والنوى هو ما يكون في داخل الثمرة، مثل نوى التمر وغيره.

قال الإمام الرازي: « واعلم أنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مر بها قَدْرٌ من المدة أظهر الله في أعلاها شقاً ومن أسفلها شقاً، أما من أعلاها فتخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء، وأما من أسفلها: فتخرج منه الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة، وهاهنا عجائب... منها: أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية فيه ولا يغوص السكينُ الحاد القوي فيه، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللطافة بحيث لو دلَّكها الإنسانُ بأصبعه بأدنى قوةٍ: لصارت كالماء، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة والغوص في بواطن تلك الأجرام الكثيفة، فحصولُ هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة التي هي في غاية اللطافة لا بد وأن يكون بتقدير العزيز العليم...»[1].

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ فكما أن شق الحب والنوى آيةٌ عجيبةٌ وحجةٌ باهرة، وخروج النبات الغض الطري الأخضر من الحب اليابس واليابس من النبات الحي النامي، فكذلك إخراجُهُ الحيَّ من الميت، والميتَ من الحي، والأمثلةُ على ذلك في هذا الكونِ الرحيب لا تحصى ولا تُعدُّ.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ ذلكم الخالق الرازق المدبِّر المحي المميتُ هو الله، فكيف تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره! كيف تنصرفون عنه سبحانه وتعرضون عن هداه، مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته وعجائب مخلوقاته؟

لطيفة: قال ابن عاشور: « وقد جيء بجملة: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ فعليّة للدَّلالة على أنَّ هذا الفعل يتجدَّد ويتكرَّر في كلّ آن، فهو مُرادٌ معلومٌ وليس على سبيل المصادفة والاتّفاق، وجيء في قوله: ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ اسماً للدّلالة على الدّوام والثّبات، فحصل بمجموع

(١) التفسير الكبير للرازي ٥ / ٧٢ بتصرف .



ذلك أنّ كلا الفعلين متجدّد وثابت»[١].

﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ ﴾ كما أنه فالقُ الحبِّ والنوى فهو تعالى فالقُ الإصباح شقَّ بالنورِ ستائرَ الظلام قال أبو السعود: « فالقُ عمودِ الفجر عن بياضِ النهار وإسفارِه، أو فالق ظلمةِ الإصباحِ وهي الغَبَشُ الذي يلي الصبحَ»[٢].

﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا ﴾ للسكونِ والراحةِ والنوم ﴿ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا ﴾ أي يسيران بحساب دقيق يعرف به عدد السنين ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ كلُّ ذلك بتقدير الله تعالى وتدبيره، فهو تعالى العزيز لا يمتنعُ عليه شيء، وبعزته انقادت له هذه الأجرام، تسيرُ بأمره وتخضعُ لعظمته، العليمُ فلا تغيبُ عنه غائبةٌ ولا يخفى عليه شيء.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٩٧ ﴾ أي: خلقها للاهتداء بها ﴿ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ التي بيناها بياناً مفصلاً لتكون أبلغ في الاعتبار ﴿ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ بما في هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته.

قال الشيخ السعدي: « جعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم، منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها، ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيرَه أهلُ المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ۝٩٨ ﴾ تذكيرٌ بنعمةٍ أخرى من نِعَمه تعالى دالةٍ على عظيم قدرته ولطيفِ صُنعه، هذه النفسُ هي نفسُ أبينا آدم عليه السلام كما قال تعالى في سورة النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٣٨٩.

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٤١٨.

عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾: مستقرٌّ على ظاهرِ الأرض كما قال تعالى ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ ومستودعٌ في بطنها كما قال سبحانه ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ أو مستقرٌّ في بطون الأمهات ومستودعٌ في بطون الأرضِ.

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ قد بينَّا دلائل التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ يعني لقوم يفهمون عن الله آياته الدالة على توحيده.

وقال هنا « يفقهون « لأن إنشاءهم من نفس واحدة مع اختلاف ألوانهم وألسنتهم ومشاربهم أمرٌ يحتاج إلى إعمال عقلٍ وتدقيق نظرٍ»[(١)].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يعني كل شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات، وقيل معناه أخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء غذاء كل شيء من: الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم مما يتغذون به فينبتون عليه وينمون، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ يخرج من ذلك الخَضِر سنابل فيها الحب يركب بعضها فوق بعض مثل: سنبل القمح والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب وفي تقديم الزرع على النخيل دليل على الأفضلية ولأن حاجة الناس إليه أكثر لأنه القوت المألوف.

وفي هذه العبارة القرآنية إشارة علمية إلى ذلك المصنع الرباني لاستخراج وتراكيب واستخلاص وإنتاج النبات من ذلك الخَضِر «مادة اليخضور» وهو ما دلَّت عليه الأبحاث والدراسات التي امتدت لقرون عديدة لتصل في النهاية إلى هذه الحقيقة القرآنية[(٢)]

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١ / ٥٠٨.

(٢) قدر الله سبحانه وتعالى أن تعتمد النباتات وكذا الإنسان والحيوانات في غذائها على ما ينتجه النبات =

قال السعدي: « وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حبوبه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضا إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار»[(١)].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ ﴾ يعني من ثمرها، يقال: أطلعت النخلة إذا أخرجت طلعها، قنوان: جمع قنو مثل: صنوان وصنو، ودانية أي قريبة التناول ينالها القائم والقاعد.

قال الخازن: « وفيه اختصارٌ وحذفٌ: تقديرُه ومن النخل ما قنوانها دانيةٌ قريبةٌ ومنها ما هي بعيدةٌ عاليةٌ فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولأنها أسهل تناولاً من البعيدة لأن البعيدة تحتاج إلى كلفة»[(٢)].

﴿ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ وأخرجنا جنات من أعنابٍ وأشجار الزيتون والرمان.

﴿ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ﴾ قال السعدي: يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبها في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك، إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضا، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، وكل ذلك التنوع لينتفع به العباد، ويتفكَّهون، ويقتاتون، ويتاجرون، ويعتبرون.

= في مصانعه الخضراء، وهذه المصانع الخضراء يخرجها النبات بأمر ربه عند بداية نموه وتسمى في كتب العلوم النباتية «البلاستيدات الخضراء» والتي تحتوي على الكلوروفيل الذي عبّر عنه القرآن بالخضر حيث يقوم بالاستفادة من الطاقة الضوئية ويحولها إلى طاقة كيمائية ينتج عنها تكوين الحبوب والثمار المختلفة وسائر أجزاء النبات التي نراها في الحدائق والبساتين. لمزيد بيان يمكن الرجوع إلى موقع جامعة الإيمان - البيئة العلمية في القرآن الكريم، وموقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٦٧

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢ / ١٦٥



وقال ابن عاشور: « والتّشابه: التماثل في حالة مع الاختلاف في غيرها من الأحوال، أي بعض شجره يشبه بعضاً وبعضه لا يشبه بعضاً، أو بعض ثمره يشبه بعضاً وبعضه لا يشبه بعضاً، فالتّشابه ممّا تقارب لونُهُ أو طعمُهُ أو شكلُهُ ممّا يتطلّبُهُ النّاسُ من أحواله على اختلاف أميالهم، وعدم التَّشابه ما اختلف بعضُه عن البعض الآخر فيما يتطلّبه النّاس من الصّفات على اختلاف شهواتهم، فمن أعواد الشّجر غليظ ودقيق، ومن ألوان ورقه قاتم وداكن، ومن ألوان ثمره مختلف ومن طعمه كذلك،... والمقصود من التّقييد بهذه الحال التّنبيه على أنّها مخلوقة بالقصد والاختيار لا بالصدفة»[1].

ثم قال تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾ يعني: نضجه وإدراكه.

والمعنى: انظروا نظر استدلال واعتبار: كيف أخرج الله تعالى هذه التمرةَ الرطبةَ اللطيفةَ الليِّنةَ من هذه الشجرةِ الكثيفةِ اليابسة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ فلا يعتبرُ بهذه الآيات ولا ينتفعُ بها إلا المؤمنون، وهذه دعوةٌ للنظر والتأمل في روائع المخلوقات.

المناسبة بين آيات المقطع وبين محور السورة

وهي واضحةٌ جليَّة؛ إذ تدورُ الآياتُ حولَ دلائلِ القدرةِ الإلهيةِ وبدائعِ الصنائعِ الربانيةِ التي تتجلى في عجائبِ مخلوقاتِه، ولطائفِ ما أودع في هذا الكون من حكم باهرةٍ، في تدبرها ما يعمِّقُ الإيمانَ ويَزيده، وهي تقريرٌ لأصول الدين وإجابةٌ مسكتةٌ لِشُبَهِ الجاحدينَ والمشككين.

الهدايات المستنبطة

* احتج الله عليهم بتلك الشواهد المحسوسة؛ لأنهم أنكروا البعث فأعلمهم أنه قادرٌ على بعثهم.
* من الأدلة العقلية على إحاطة علمه: تسخيرُ هذه المخلوقات العظيمة على تقديرٍ دقيقٍ ونظام بديع، تحارُ العقولَ في حسنه وكماله ودقته وإبداعه، وموافقته للمصالح والحِكَم.

---

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٤٠٢ بتصرف.

* جعل الله النجومَ هدايةً للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم.

* مشروعيةُ تعلم علمِ الفلك ومعرفة سير النجوم والكواكب وكل ما يتعلق بهذا الفضاء الرحيب لما في ذَلك من فوائد وعبر، وللاهتداء بها في ظلمات البرِّ والبحر، من ذلك ما ثبت بالملاحظة العلمية الدقيقة وبالمناظير المقربة أن النجم القطبي هو أحد نجوم السماء التي تبعد عنا آلاف الملايين من الأميال، وأنه يبعد عن الكرة الأرضية بنحو ٣٠٠ سنة ضوئية لوحظ أن هذا النجم يقع جهة الشمال دائما بالنسبة لسكان نصف الكرة الشمالي، وبواسطة هذا النجم يمكننا أن نعرف الاتجاهات، وقد استطاع الفلكيون بوسائلهم وأجهزتهم العلمية وحساباتهم أن يرصدوا كثيرا النجوم ويحددوا مواقعها بالنسبة للأرض، لتكون مرشدا للمسافرين في البر والبحر وفى رحلات الفضاء إلى الكواكب.

* لكن تعلمها على مذهب الكهان والمنجمين حرامٌ شرعا، ففي الإبانة لابن بطة: « وأمر النجوم على وجهين: أحدهما واجب علمُه والعمل به، فأما ما يجب علمه والعمل به: فهو أن يتعلم من النجوم ما يهتدي به في ظلمات البر والبحر ويعرف به القبلة والصلاة والطرقات فبهذا العلم من النجوم نطق الكتاب ومضت السنة، وأما ما لا يجوز النظر فيه والتصديق به ويجب علينا الإمساك عنه من علم النجوم: فهو أن لا يحكم للنجوم بفعل ولا يقضي لها بحدوث أمرٍ كما يدَّعي الجاهلون من علم الغيوب بعلم النجوم ولا قوة إلا بالله»[(١)].

* وفي النونية للقحطاني:

لا تتَّبعْ علمَ النجومِ فإنه		متعلقٌ بزخارفِ الكهانِ

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي ١/ ٢٤٤، ويراجع: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، للشيخ حافظ بن أحمد حكمي رحمه الله ٢/ ٥٦٠.

علـمُ النجـومِ وعلـمُ شـرعِ محمـدٍ		في قلـبِ عبـدٍ ليـس يجتمعـانِ [(١)]

* في هذا التنوع العجيب والنظام الدقيق ما يدل على قدرة الله تعالى وتقديره، وفيه ردٌّ على الملاحدة الذين قالوا إن الكون خلق صدفة فهل يُعقلُ أن توجِد الصدفة مثلَ هذا النظام العجيب وهذا النسقِ المحكم!

* استحباب النظر في آيات الله تعالى الكونية، والتأمل في بديع صنعه، والتفكر في عجائبِ المخلوقات، والاستمتاعِ بجمالِ الكونِ وروعته، ليستشعر المؤمنُ عظمةَ الخالقِ جلَّ وعلا وقد قيل:

تـأملْ سُـطُـورَ الـكـائـنـاتِ فإنها		مـن المـلأ الأعـلى إلـيـك رسـائـلُ
وقـد خـطَّ فيها لـو تأملتَ خطَّها		ألا كـلُّ شيءٍ مـا خـلا الله باطلُ

* وقد رأينا في هذه السورة وهي تقيم الحجج وتعرضُ الأدلة كيف تدعو مرارا إلى النظر والتبصُّر والتفكر والاعتبار والتعقُّل والتبين والتذكر حتى صارت هذه الدعوات سمةً غالبةً ومعلما مُميَّزا لهذه السورة الكريمة.

---

(١) نونية القحطاني – لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي.

- ١٤ -

ردٌّ على مزاعمِ المشركين

وتقريرٌ للعقيدةِ الصحيحة

قال تعالى﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

المناسبة

بعد هذه الآيات البينات والحجج النيرات التي تشهد للحقِّ بكمال قدرته، وتُقرِّرُ تفردَه تعالى بالوحدانية فلا رب غيره ولا معبود سواه، عاد السياقُ إلى تفنيد شُبَهِ المشركين وبيان بطلانِ ما هم عليه من معتقداتٍ فاسدةٍ وتصوراتٍ خاطئةٍ.

من ذلك أنهم جعلوا من الجنِّ شركاء لله يدعونهم ويعوذون بهم، فضلا عن إطاعتهم لشياطين الجن، واستجابتهم لوساوسهم، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ينعى القرآن الكريم ما عليه طوائفُ من المشركين من تعظيم الجنِّ والخنوع لهم، أو عبادتهم من دون الله.

ولقد حذر الله تعالى من إطاعتهم وموالاتهم وعبادتهم قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ

مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ [مريم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦١،٦٠].

ومن طوائفِ الكفرةِ عَبَدَةُ الشياطينَ الذين يتقربون إليهم بالنجاساتِ ويتوددون لهم بالموبقاتِ، فجعلوا الشياطينَ شركاءَ للهِ في تدبير الكون، وتجاهلوا كون الشياطين مخلوقةً من جملةِ المخلوقاتِ.

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

جاء في اللسان:» خَرَق الكذبَ وتَخَرَّقه وخَرَّقَه كلُّه اخْتلَقه قال الله عز وجل ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ افْتَعلوا ذلك كذباً وكُفراً، وخرَقوا واخْترقُوا وخلَقوا واخْتَلَقُوا واحد»[(١)].

والمعنى: ادَّعوا واختلقوا لله سبحانه الولد، فقالت اليهود عزيرٌ ابنُ الله، وقالت النصارى المسيح ابنُ الله، وقال بعض مشركي العرب الملائكةُ بناتُ الله، ادعوا ذلك بلا علم ولا دليلٍ وإنما هو محضُ افتراءٍ على الله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فهو تعالى منزهٌ مُقدَّسٌ عن كلِّ ما لا يليق بهِ، متعالٍ على تلك الافتراءات والمعتقدات الباطلة.

ومن ذلك أنهم كانوا يتعوذون بهم في أسفارهم إذا نزلوا واديا، والتعوذ لا يكون إلا بالله تعالى، قال تعالى في سورة الجن ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [الجن ٦].

كما اختلقوا من تلقاء أنفسهم، بنين وبنات لله بغير علم منهم، سبحانه وتعالى عما يصفون.

---

(١) لسان العرب ١٠ / ٧٣ بتصرف .



﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ﴾ مبدعها فلا شيء قبله، وكلُّ شيء في هذا الكون فإن الله مبدعُهُ ومن كان كذلك فأنّى يكونُ له ولدٌ؟ وكيف يتأتّى الولدُ بلا صاحبةٍ؟ وكيف الولدُ والصاحبةُ وهو تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ؟

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾

بعد نقضِ عقائدِ الشرك، وبيان زيفِها وبطلانِها، قررَ سبحانه العقيدةَ الصحيحة، عقيدةَ التوحيدِ، فهو تعالى الواحدُ لا ربَّ غيره ولا معبودَ سواه.

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ « متولي أمورَ جميعِ مخلوقاتِه التي أنتم من جملتها، فكِلوا أمورَكم إليه وتوسلوا بعبادته إلى نجاح مآربِكم الدنيويةِ والأخروية»[1].

﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

لا تدركه الأبصار إدراك إحاطة؛ لأنه تعالى لا تحيطُ به العقول ولا البصائر، فلا يفهم من هذه الآية أن رؤية الله تعالى مستحيلة كما زعم المعتزلة، وقد استشهدوا بهذه الآية الكريمة مع أنها لا تنفي رؤية الله تعالى بل تنفي إدراك الأبصار أي إحاطتها به تعالى وقد ورد ما يفيد صراحةً رؤيةَ المؤمنين لربهم في الآخرة: من ذلك قوله جلَّ وعلا ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقوله سبحانه ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ ﴾ [يونس: ٢٦] والحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، وقوله تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين: ١٥] فإذا كان الكفار محجوبين عن ربهم؛ فإن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه سبحانه.

﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء، فعلمه تعالى يشملُ كلَّ ما لطف ودقَّ

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٤٢٤.



فضلا عما جلَّ وعظُم، اللطيف بعباده في كل شئونهم وجميع أحوالهم ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الذي أحاط علمُه بكل شيء.

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ والبصائر: هي الآياتُ البيناتُ والحججُ الساطعات التي اشتمل القرآن عليها، وجاء بها الرسولُ ﷺ فمن أبصرها وانتفع بها واستضاء بنورها فلنفسه ومن عمي عنها وأعرضَ عن هديِها فقد حَرَمَ نفسه الخيرَ وساقها إلى الهلاكِ.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أي لست عليكم بحافظٍ ولا رقيبٍ فمهمةُ الرسولِ ﷺ هي الدعوةُ والإرشادُ، وكلُّ إنسانٍ موكلٌ بنفسه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وكذلك نصرف الآيات بما فيها من تنوعٍ في العرضِ والأسلوبِ وتفننٌ في الخطاب وتقريرٍ للمعاني وترسيخٍ لها في النفوس وما يتطلَّب ذلك من وعدٍ ووعيدٍ وقصصٍ وأمثالٍ، وتقريرٍ وتلقينٍ، ومحاجَّةٍ وحوارٍ، ودعوة إلى النظرِ والاعتبار، وليقولوا ما يقولون فإنّ قولهم لن يضيرَكَ ولن يقدح فيما جئتَ به.

﴿ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾ هذا قول المكابرين المعاندين ممن أدرك بلاغةَ هذه الآيات ووجد نفسه عاجزا عن معارضتها![1]

أي: فصلناه بهذا النظم البديع والأسلوب المحكم لتقول طائفةٌ إنما تعلمه من آخرين وتدارسهُ معهم، ولتؤمن به طائفةٌ أخرى حين تدركُ بعلمها وفهمها أنه من عند الله، فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء.

ونظير هذا قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو { دارستَ } أي تدارسته مع غيرك أي تعلمته من البشر أهل الكتاب أو غيرهم وقرأ ابن عامر ويعقوب { درَسَتْ } أي بليت وقرأ الباقون { دَرَسْتَ } النشر ٢/ ١٩٧ .



كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٤ ١٢٥]

فتصريف هذه الآيات على هذا النحو العجيب لا يدعُ للمكابرين المعاندين حجةً يتعللون بها إلا ما ترده أفواهُهُم من مقولةٍ خاطئة كاذبةٍ: هي أن القرآن مقتبسٌ من العهد القديم والجديد تعلمه محمد وتدارسه على أيدي الأحبار والرهبان! مع أنه النبي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يعرف في سيرته العطرة وحياتِه المباركة التي سجلها التاريخ لحظةً بلحظةٍ، أنه جالس اليهود والنصارى واختلف إليهم وأخذ عنهم، كما أن الناظر في القرآن الكريم مقارنةً بالعهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل بعد تحريفهما يدرك من أول وهلة ما بينهما من اختلافٍ وتباعدٍ بُعدَ المشرقين.[١]

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

ما زال السياق في تقويض دعائم الشرك ونقض مظاهره وكشفِ صوره المتباينة والتي من بينها تعظيم الجن والاستعانة بهم وعبادتهم من دون الله كما وقع من بعض طوائف الكفر علما بأن الجنَّ خلق من خلق الله تعالى خاضعين له تعالى، وادعاء بعض طوائف المشركين نسبةَ بناتٍ وبنينَ لرب العالمين تعالى الله عما يقولون، ثم بين الله تعالى كذب هذه الدعوى وزيفها وتنزهه سبحانه عن الولد والصاحبة فهو خالق كل شيء ومبدعه لا شبيه له ولا مثيل ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به العقول ولا تخفى عليه خافيةٌ مهما لطفت ولا تغيب عن علمه غائبة ولو كانت تحت أطباق الثرى فهو اللطيف الخبير.

(١) يراجع كتاب المرأة في القصص القرآني ففيه عقد المؤلف في نهاية كل فصل مقارنة بين ما جاء في القرآن الكريم من حقائقَ ناصعةٍ، وما ورد في التوراة والإنجيل من تحريف وتبديل وضلال وأباطيل.

الهدايات المستنبطة

* تضمنت الآياتُ الكريمةُ ردّاً على عبدة الشياطين والذين يختلقون الكذب على الله بادعاء البنين والبنات له سبحانه وتعالى عما يشركون، والذين يعظمون الجنَّ ويتعوذون بهم.

* هو تعالى مبدع هذا الكون فلا شيء قبله، وكلُّ شيء في هذا الكون فإن الله مبدعُهُ ومن كان كذلك فأنَّى يكونُ له ولدٌ؟ وكيف يتأتَّى الولدُ بلا صاحبةٍ؟ وكيف الولدُ والصاحبةُ وهو تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ؟ ولا شبيه له ولا مثيل له ولا ندَّ له فأنى له الشريك!

* بعد نقضِ عقائدِ الشرك، وبيان زيفِها وبطلانها، قرر سبحانه العقيدةَ الصحيحة عقيدة التوحيد فهو تعالى الواحدُ لا ربَّ غيره ولا معبود سواه، فهو المستحقُّ للعبادةِ الخالصةِ، وهو تعالى المتولي لأمورِ جميع مخلوقاتِه.

* لا تدركه الأبصار إدراك إحاطةٍ؛ لأنه تعالى لا تحيطُ به العقول ولا البصائر، فلا يفهم من هذه الآية أن رؤية الله تعالى مستحيلة كما زعم المعتزلة وقد استشهدوا بهذه الآية الكريمة مع أنها لا تنفي رؤية الله تعالى، بل تنفي إدراك الأبصار، أي إحاطتها به تعالى، وقد ورد ما يفيد صراحةً لرؤية المؤمنين لربهم في الآخرة.

* قال ابن كثير: « وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخصُّ من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم، ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى، وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة: قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠]، وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا: (لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا

أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ) ولا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هذا»[(١)] .

وفي السنة النبوية أحاديث صحيحة صريحةٌ في هذا الباب منها:

* ما رواه الشيخان عن جَرير بْن عَبْد الله قال: كُنّا جُلُوساً عِنْدَ رَسُول الله ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَر لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: « أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لاَ تُضَامّونَ فِي رُؤْيَتِه...»[(٢)]
* وعَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ أُنَاساً فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَة قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « نَعَمْ هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَة الشَّمْس بالظَّهِيرَة ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لاَ قَالَ: « وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَة الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ» قَالُوا: لاَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا...»[(٣)] .
* في تصريف الآيات على هذا النحو العجيب قطع الطريق أمام المكابرين المعاندين، فلا تقوم لهم حجةٌ أمام هذه الحجج القرآنية المتتابعة المتنوعة.
* قراءة ابن عامر ويعقوب { درَسَتْ } بمعنى بَلِيَتْ: فيُفهم منها اتهامهم للقرآن الكريم بأنه لا يناسب عصرهم ولا يواكب مجتمعهم، وهذه تهمةٌ قديمةٌ حديثةٌ، قالها المشركون من قبل واليوم يقولها أعداء الدين من المنصِّرين والمتعصِّبين من المستشرقين والعلمانيين والحداثيين

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير٣/ ٣١٠ الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود حديث ٢٢٢ - (٤٨٦) ورواه الإمام مالك في الموطأ ٢ / ١٤٩ حديث ٤٤٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب مواقيت الصلاة - باب: فضل صلاة العصر- حديث ٥٢٩، ورواه مسلم في صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، حديث ٢١١- (٦٣٣).

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير باب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ ﴾ [النساء:٤٠] حديث ٤٣٠٥ وصحيح مسلم كتاب الإيمان - باب معرفة طريق الرؤية حديث ٢٩٩- (١٨٢).

الذين يتهمون القرآن الكريم بالرجعية والجمود مع كونه هو الرسالة المتجددة والمعجزة الخالدة والمعين الذي لا ينضب والفيض الذي لا ينقطع والخطاب الذي يواكب جميع العصور والبيئات، ولا تنتهي عجائبه ولا يشبع منه العلماء ولا يملُّه البلغاء.

* وأما الباحثون عن الحقيقة المتجردون لها المشمرون عن ساعدِ الجدِّ أملا في الوصولِ إليها فإنهم يفرحون بما أنزل الله وينتفعون بهذا المنهج القرآني القويم وذلك المسلك البلاغي الحكيم وذلك البيانِ الواضحِ، والتصريف البديع.

-١٥-

منهج التعامل مع المشركين

قال تعالى ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

المناسبة

بعد مناقشةِ شبهات المبطلين وحجج المنكرين وإبطالها: وجَّه الله تعالى رسوله الكريمَ ﷺ أن يسير على منهجِ الله تعالى الذي هداه وبينه له وأعانه على المُضيِّ فيه؛ ويمضي في طريق الحقِّ ولا يلتفت إلى أولئك الضالينِ، ولا يعبأ بهم، بل يُعرِضُ عنهم، فإنَ الله تعالى لو علم فيهم خيرا لهداهم ونجاهم من طريق الشركِ، وإنه ﷺ ليس برقيبٍ لهم ولا مسيطراً عليهم ولا مُتوليًا لأمورهم.

التفسير الإجمالي

قال تعالى﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

أمر الله تعالى نبيه بعد أن بين له طريق الحق وأقام الحجج والبراهين الدالة عليه المقررة له: أمره تعالى باتباع الوحي الرباني فهو مصدر العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد الخالص كما أمره

تعالى أن يعرض عن المشركين ولا يلقي لهم بالا.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ أي ولو شاء الله ألا يشركوا لما أشركوا بأن يخلق البشر المؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، لكنه خلقهم مستعدين للإيمان والكفر والتوحيد والشرك، والطاعة والفسق، ومضت سنته بان يكونوا مختارين في أعمالهم»[1].

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ وما جعلناك عليهم حفيظا تحفظ عليهم أعمالهم وما كنت متوليا لأمورهم متصرفا في شئونهم، ولن تُحَاسَبَ عنهم، ونظير ذلك قوله تعالى في نهاية سورة الغاشية بعد أن أقام الحجة على الكافرين﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾.

ولما كان عرضُ شبهات المشركين وأباطيلهم والحديث عن جهلهم وإعراضهم وتعنتهم قد يُثير بعضَ النفوس المؤمنة فتصلُ بها الغيرةُ إلى سبِّ آلهةِ المشركين حذَّر اللهُ تعالى من ذلك لما يترتب عليه من ردةِ فعلٍ سيئةٍ.

فقال تعالى ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

فلا يجوز سبُّ آلهة المشركين لما يُفضي إليه من سبٍّ لرب العزة جل وعلا، وذلك من قِبَلِ المتعصبين لما هم عليه من أهواءٍ وضلالاتٍ، حتى يُخيَّلُ إليهم أنهم على الحق﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾: قال ابن كثير رحمه الله: « وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حبّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره»[2].

(١) تفسير المراغي ٧/ ٢١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ٢٨٧.



قال ابن عطية: « وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ إشارة إلى ما زين الله لهؤلاء المشركين من التمسك بأصنامهم والذبِّ عنها وتزيين الله عمل الأمم هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير والشر والاتباع لطرقه، وتزيين الشيطان هو بما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطرات السوء»[١].

وقال ابن الجوزي: « قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أي: كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام، وطاعة الشيطان، كذلك زينا لكل جماعة اجتمعت على حق أو باطل عملهم من خير أو شر »[٢].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فيفصلُ الله تعالى بين جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

وجه الترابط بين هذا المقطع ومحور السورة الكريمة واضحٌ بيِّنٌ: فبعد دحض شبهات المبطلين وإزهاق حجج المنكرين: وجَّه الله تعالى رسوله الكريمَ ﷺ أن يسير على منهج الله تعالى الذي هداه وبينه له وأعانه على المُضيِّ فيه؛ ويمضي في طريق الحقِّ ولا يلتفت إلى أولَئك الضالينِ، بل يُعرضُ عنهم ويحاذر من سفَههم وجهالتهم وتعصُّبهم الأعمى لما عليه من ضلالٍ فإن مرجعَهم ومردَّهم إلى الله تعالى.

الهدايات المستنبطة

* تقرر الآيات الكريمة أصلا من أصول هذا الدين وهو حرية الاختيار فلا إكراه في الدين، فالإسلام يُعرَضُ ولا يُفرضُ، ولم يثبتْ على مرِّ تاريخِ الدعوةِ أن أُكره أحدٌ على الدخولِ فيه، كما وجدنا في تاريخ الأديان المحرفة والوضعية كيف فرضت، ولا تزالُ تُفْرَضُ بالإكراهِ

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٣١٣.

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣/ ١٠٣.

أو بالإغراءاتِ الماديةِ، أما دينُنا الحنيفُ فإنه يُعلنُ عن نفسِهِ بما تضمنهُ من عقيدةٍ صحيحةٍ وشريعةٍ سمحةٍ وأخلاق كريمةٍ.

* لا يعني الإعراض عن المشركين التخلي عن واجبِ الدعوةِ، فالدعوة فريضةٌ شرعية، ومن حقِّ غير المسلمين علينا أن نبلغهم هذه الدعوة بلغتهم، فالدعوةُ مسئوليةٌ وتكليفٌ فضلا عن كونِها رِفعةً وتشريفا.

* مهمة الداعية أن يبلغ دعوة ربِّه دون النظر إلى النتائج، ولا يتعجَّل الثمرة بل يتحلى بالصبر والمثابرة.

* توجيهٌ وتحذيرٌ من سبِّ آلهةِ المشركين فإنه ذريعةٌ إلى سبِّهم اللهَ تعالى بجهلهم وحنقهم.

قال الإمام الشوكاني: « وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق، والناهي عن الباطل إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حُرَم، ومخالفة حق، ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به، بل كان واجباً عليه، وما أنفع هٰذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله، المتصدين لبيانها للناس، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه، وتركوا غيره من المعروف، وإذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات؛ عناداً للحق وبغضاً لاتباع المحقين، وجراءةً على الله سبحانه، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف، وهو الحَكَمُ العَدل لمن عاند الشريعة المطهرة وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها ديدنه وهجيراه، كما يشاهد ذلك في أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق وقعوا في كثير من الباطل، وإذا أرشدوا إلى السنة، قابلوها بما لديهم من البدعة، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع، وهم شرٌّ من الزنادقة، لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون إلى البدع، ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين، والزنادقة قد ألجمتهم سيوف الإسلام، وتحاماهم أهله، وقد يتفق كيدهم، ويتمّ باطلهم وكفرهم نادراً على ضعيف من ضعفاء المسلمين، مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة، وهي أصل أصيل في سدّ الذرائع،

وقطع التطرّق إلى الشبه»[1].

وقال الشيخ السعدي: « وفي هذه الآية الكريمة، دليل للقاعدة الشرعية وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم، ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر »[2].

-١٦-

تعنتٌ وإصرارٌ

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

المناسبة

هذه جولةٌ أخرى مع أولئك المشركين المعاندين، فيها بيانُ أسباب صدودهم وإعراضهم والإجابة عن مطالبِهِمُ المتعنتة واقتراحاتهم التي يُعلِّقون إيمانَهم بنزولِها، وقد أقسموا بالله تعالى على ذلك متناسين ما حولهم من آياتٍ بيناتٍ وبراهين ساطعاتٍ هم عنها معرضُون.

التفسير الإجمالي

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾أي غاية أيمانهم التي بلغها علمُهم، وانتهت إليها قدرتُهم، فإنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق الرازق، وأن تلك الآلهةَ وسيلةٌ تقربُهم إلى الله زلفى، وفي هذا ما يدلُّ على تناقضِ معتقداتِهم واضطرابِ أفكارهم فكيف يُعظِّمُون اللهَ تعالى وهم به مشركون وعن آياته معرضون، كيفَ يُقسمون به وقد كذَّبوا

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/ ١٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٦٨.

به وافتروا عليه؟

﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فالآياتُ عند من بيده خزائن السموات والأرض وعنده مفاتح الغيب، ولكن هل يؤمنون بها إذا نزلت أم تنزلُ بهلاكهم؟ وإذا كانت الآياتُ التي طلبوها هي أمورٌ خارقةٌ لنواميس الكون ونظامه فهل أمعنوا النظر في تلك النواميس، وهل تفكروا في هذا النظام العجيب الذي يدل على عظمته تعالى وكمال قدرته!

بيد أن سلوكهم لطريق الضلال وإصرارهم عليه لن يزيدهم إلا ضلالا وبعدا عن الله تعالى وتوغُّلا في هذا الطريق الذي سلكوه.

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

ونقلب أفئدتهم وأبصارهم، فنحول بينها وبين الانتفاع بآيات الله، فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بآيات القرآن عند نزولها أول مرة، ونتركهم في تمرُّدهم على الحق وإعراضهم عنه حيارى تائهين، لا يهتدون سبيلا .

قال الشوكاني رحمه الله: «... ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في الدنيا، أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية، كما حلنا بينهم وبين ما دعوتهم إليه أوَّل مرة عند ظهور المعجزة...»[1] .

وقال الماوردي: « وهذا من الله عقوبةٌ لهم، وفيها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها عقوبة من الله في الآخرة يقلبها في النار.

والثاني: في الدنيا بالحيرة حتى يزعج النفس ويغمها.

والثالث: معناه أننا نحيط بذات الصدور وخائنة الأعين منهم.

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٥٢.

وفي قوله: { أَوَّلَ مَرَّةٍ } تأويلان:

أحدهما: أول مرة جاءتهم الآيات.

والثاني: أن الأول أحوالهم في الدنيا كلها، ثم أكد الله تعالى حال عنتهم»[(١)].

وقال صاحب التحرير والتنوير:» ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ أي بأن نعطِّل أبصارَهم عن تلك الآية وعقولهم عن الاهتداء بها فلا يبصرُون ما تحتوي عليه الآية من الدّلائل ولا تفقه قلوبُهم وجهَ الدّلالة فيتعطَّل تصديقهم بها، وذلك بأن يحرمهم الله من إصلاح إدراكهم»[(٢)].

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ .

بين الله تعالى أن نزول الآيات التي اقترحوها لن تُجدي معهم ولن تنفعهم بسبب ما هم عليه من عُتُوٍّ وإعراض، ومكابرةٍ وعناد، حتى لو نزَّل اللهُ عليهم الملائكةَ كما طلبوا وأحيا لهم الأموات وكلموهم، ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا ﴾ « ويُقرأُ قُبُلاً فقِبَلاً عِياناً و قُبُلاً قَبيلاً قَبيلاً وقيل: قُبُلاً مستقبَلاً وقرئ أيضاً: ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا ﴾ فهذا يقوِّي قِراءة من قرأ قُبُلاً، ويجوز أَن يكون قُبُل جمع قَبِيل ومعناه الكَفِيل ويكون المعنى: لو حشر عليهم كل شيء فكفَل لهم بصحة ما يقول ما كانوا ليؤمنوا، ويجوز أَن يكون قُبُلاً في معنى ما يُقابلهم أَي لو حشرنا عليهم كل شيء فقابَلَهم ويجوز قُبْلاً على تخفيف قُبُلاً.[(٣)]

والمعنى: لو جمع الله لهم جميع المخلوقات عيانا بيانا لتواجههم وتكلمهم وتشهد أمامهم بنبوتك وتُقرُّ بذلك وتضمن لهم صحةَ ما جئتَ به: ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله إيمانهم، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ لا يُدركون سنن الله في هذا الكون، ولا يستشعرون عاقبةَ كفرهم وإعراضهم.

---

(١) النكت والعيون ١ / ٤٣١.

(٢) التحرير والتنوير ٧ / ٤٤١.

(٣) لسان العرب ١١/ ٥٣٤ والنشر في القراءات العشر ٢/ ١٩٨.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظم هذه الآيات الكريمة مع السياق العام للسورة، وهو الكشفُ عن أسبابِ صدودِهم وإعراضِهم وبيانُ تعنتِهم وإصرارِهم، وأنه تعالى لو شاء هدايَتهم لهداهم، ولكن سَبَقَ في علمِهِ تعالى اختيارَهم ورضاهم بما هم عليه من كفرٍ وضلال.

الهدايات المستنبطة

* إصرارُ المشركين على ما هم عليه من كفرٍ وضلالٍ مهما عاينوا من آيات.

* قدرة الله تعالى على إنزال الآيات التي اقترحوها ولكنه تعالى سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.

* **إثبات القدر**: فكل ما في الكون من إيمان وكفر من هدى وضلال بتقدير الله عز وجل وتدبيره وبناء على علمه تعالى وحكمته.

* إثبات ما عليه المشركون من تناقض واختلاف من ذلك أنهم يُقسمون بالله تعالى والقسم يفيد التعظيم فكيف لا يستجيبون للحق ويذعنون به، وإثباتُ ما ألفوه من الكذب والحنث في اليمين ونقض العهود وما انطوت عليه نفوسهم من خبثٍ.

* كان ختامُ هذا المقطع بقوله تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ والجهل داءٌ عُضالٌ لا دواء له إلا بقبولِ العلم النافع فهو الدواء الناجع، لكن المشركين لا يُقرون بما هم عليه من جهل حتى يتقبَّلون دواءَه، وتلك آفةٌ أخرى تزيدهم علَّةً على علةٍ.

* وقد قيل:

إِذا كنتَ لا تـدري ولم تكُ بالذي ... يسائلُ من يدري فكيف إذن تَدْري

جَـهِـلْـتَ ولم تعلمُ بـأنـكَ جاهلٌ ... فمن لي بـأن تـدري بأنكَ لا تدري

إِذا كنت من كُلِّ الأمـورِ على عَمىً ... فكنْ هكذا أرضاً يطاكَ الذي يَدْري

ومــن أعجب الأشـياءِ أنـكَ لا تـدري ... وأنـكَ لا تــدري بأنــكَ لا تــدري[1]

---

(١) الأبياتِ لأبي القاسم الآمدي.

- ١٧ -

إضلالٌ وغِوايةٌ

الإعلامُ المضلّل وموقف الإسلام منه

قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

المناسبة

كما اقتضت سنته تعالى أن لا يؤمن المشركون إلا بمشيئته تعالى، وأن إعراضهم لحكمةٍ يعلمها: فكذلك ابتلى اللهُ نبيَّه ﷺ بكيدِ الأعداءِ وصدِّهم عن سبيلِ الله، كما ابتُليَ الأنبياءُ من قبله بذلك؛ فالابتلاءُ سنةُ الله تعالى في أنبيائه وأوليائه، وهذه الآياتُ فيها تسليةٌ وتثبيتٌ لرسولِ الله ﷺ ، وتحذيرٌ من مكائدِ الأعداءِ وأساليبِهم الماكرةِ في محاربةِ هذا الدين، فكما ناصب المشركون هذه الدعوةَ العداءَ وحاربوها وصدُّوا الناس عنها واضطهدوا المؤمنين بها فكذلك فعل أعداءُ الأنبياءِ من قبلهم، إنها سنةُ الصراع بين الحق والباطل، وتلك هي سنةُ الله في الدعوات.

التفسير الإجمالي

في الآيات الكريمة بيانٌ لسنةٍ من السنن الربانيةِ، سُنَّةٌ ماضيةٌ وجاريةٌ وباقيةٌ، سنةُ الصراعِ بين الحقِّ والباطلِ، هذا الصراعُ الذي يضربُ بجذُورِهِ في أعماقِ التاريخِ، ويمتدُّ إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عَلَيْهَا.

ولقد بلغ هذا الصراعُ ذروتَهُ في عصرِنَا هذا في ظلِّ الأساليبِ والوسائلِ التي استغلَّها أعداءُ الإسلام في محاربةِ الحقِّ وصدِّ الناسِ عنه والتغلغلِ في المجتمعاتِ الإسلاميةِ، سِيَّما عن

طريق الإعلام المضلِّل؛ حيث جعل شياطينُ الإنس والجنِّ من ذلك الزَّخم [١] الإعلاميِّ: سبيلَ غِوايةٍ وإغفالٍ، ووسيلةَ إضلالٍ وانحلالٍ، ومِعْوَلاً من معاولِ الهدم، وعاملاً من عواملِ التخلفِ والرجعيةِ، وملهاةً للشعوب وتخديراً لها، حتى تظلَّ دائماً غائبةً عن وعيها، مغيَّبةً عنْ واقعها، منعزلةً عن ماضيها، ذاهلةً عن مستقبلها.

وكما استطاع إبليسُ اللعينُ بأساليبه الدِّعائيةِ الملتويةِ، ووسائله ووساوسه الإعلامية المضلِّلة، ووسائلِه الإعلانيَّةِ الخدَّاعةِ، دفعَ أبوينَا إلى الأكلِ من الشجرة [٢]، فلقد نجح خلفاؤُه وجنودُه من اليهودِ وغيرهم في استغلال أبواقِ الإعلام وأبوابه، وفتحِ نوافذِه، وامتطاءِ وسائله، وركوبِ متنِه؛ لتحقيقِ مآربِهِمْ وإحكام سيطرتِهِمْ بأساليبَ فائقةٍ، بلغتْ في تمويهِ الأضاليلِ الغايةَ، وفي تشويهِ الحقائقِ، وزخرفةِ الأباطيلِ النهايةَ.

ولسانُ حالهم يعبِّر عن فخرِهم بهذا المسلكِ الوَعِرِ الذي انحدروا إليه، وتلك الهوَّة السحيقةِ التي انحطُّوا إليها: حتى يقول قائلهم:

وكنتُ امرأً من جندِ إبليسَ حتى ارتقَى   بي الحـالُ فصار إبليسُ مِـنْ جندي

ولعلَّ هذا هو سرُّ التعبير بشياطين الإنس وتقديمهم على شياطين الجنِّ في قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ إنه التآمرُ بين الفريقينِ والتواطؤُ بينهما حيث تفاقمَت أخطارُهم لا سيَّما في هذا العصر، حيث يبدو ذلك واضحاً في ظلِّ هذا الظهورِ الإعلامي الفجِّ لشياطين الإنس ومن وراء [الكواليسِ]: إخوانُهم من شياطين الإنس والجنِّ؛ بوساوسهم وتزيينهم وإلهاماتهم وإيحاءاتهم وإمدادهم لتلك الحشودِ، من الكُتَّابِ والمخرجينَ

---

(١) الزَّخم: « لحمٌ زَخِم: دَسِمٌ خَبيث الرائحة. وخصّ بعضُهم به لُحوم السِّباع، وقد زَخِمَ زَخَماً، وفيه زَخَمَةٌ، وزَخَمَه يَزْخَمُه زَخْماً: دَفعه دفعاً شديداً. لسان العرب لابن منظور ١٢ / ٢٦٢ وتهذيب اللغة للأزهري ٢/ ٤٥٤.

(٢) انظر كتاب «المرأة في القصص القرآني»: عن وسوسة الشيطان لهما، يراجع الفصل الأول من هذا الكتاب ١ / ٤٣: ١٣٥.

ومهندسي الإضاءة و الزِّينات [الديكور]، والمنتجينَ والممثلين والنقاد والمحكمين والمذيعين الذين يَلبِسون الحقَّ بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون، ويجرُّون الناسَ إلى المعاصي جهارا نهارا.

كما ورد عن مالك بن دينارٍ رحمه الله أنه قال: « شياطينُ الإنس أَشَدُّ عَلَيَّ من شياطينِ الجِنِّ؛وذلك أني إنْ تعوَّذْتُ باللهِ مِنْ شياطينِ الجِنِّ ذهبتْ عني، وشياطينُ الإنسِ تجيئُني فتَجُرُّني إلى المعاصي عَيَاناً»[1].

﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

والوحيُ هو مطلقُ الإعلام، سواءً كانَ في العلنِ أم في خفيةٍ، بقولٍ أم بإشَارَةٍ أو إيماءةٍ

عَن ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما قال: « إِنَّ لِلْجنِّ شَيَاطِينَ يُضِلُّونَهُمْ مِثْلَ شَيَاطِين الإِنْس يُضِلُّونَهُمْ، قَالَ: فَيَلْقَى شَيْطَانُ الإِنْس شَيْطَانَ الْجِنِّ، فَيَقُولُ هَذَا لِهَذَا: أَضْلِلْهُ بِكَذَا، وَأَضْلِلْهُ بِكَذَا، قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ تعالى ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾»[2].

فتأمل! كيف يقومُ إعلام أعداء الإسلام وأذنابهم من الأدعياء على البريق الخادع، مع زخرفةِ الأباطيل، والسعي إلى طمسِ الحقائقِ، وإنفاقِ الأموال الطائلةِ على ذلكِ الطلاءِ الزائف والبريقِ الخاطفِ لأهل الباطلِ ودعمِ دعواتِهم الهدَّامة التي تنطلي على أصحاب العقولِ القاصرة والنفوس الضعيفة والقلوب المريضةِ.

وكم من كلامٍ لا يوافقُ حكمةً لقيَ الرواجَ بسوقِ من لا يعلمُ!

قال ابن الجوزي « وأما ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ ﴾، فهو ما زُيِّن منه، وحُسِّن، ومُوِّه»[3].

﴿ غُرُورًا ﴾ « أي لأجل أن يَغُرُّوهُمْ بذلِكَ، أي يخدعُوهُم، فَيَصِيرُوا لِقَبُولِهِم كلامَهم

(١) معالم التنزيل للإمام البغوي ٣/ ١٨٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٤ / ١٣٢٧ .

(٣) زاد المسير لابن الجوزي في علم التفسير ٢ / ٣٩٦.

كالغافلين الذين شأنُهم عدمُ التحفُّظ، والغُرورُ هو الذي يُعْتَقَدُ فيهِ النفعُ وليسَ بِنَافعٍ»[(١)].

« يزين بعضُهم لبعض ما يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغترَّ به السفهاءُ، وينقاد له الأغبياءُ، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المَموَّهة، فيعتقدون الحق باطلا والباطلَ حقّاً»[(٢)].

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ فلا يظنّ ظانٌّ أنَّ في الكون إرادةً نافذةً غير إرادة الله، وليعلمْ أن هذه السننَ الإلهيةَ: تتمخَّضُ عن حكمٍ وغاياتٍ، فلا يقعُ في ملكِ الله إلا ما أراده وقدَّره.

« ومن حكمة الله تعالى في جعلِهِ للأنبياءِ أعداءً، وللباطلِ أنصاراً قائمين بالدعوة إليه: أن يحصُلَ لعبادِه الابتلاء والامتحان، ليتميز الصادقُ من الكاذب، والعاقلُ من الجاهلِ، والبصيرُ مِنَ الأعْمَى، ومن حكمتِه أن في ذلك بياناً للحقِّ، وتوضيحاً له، فإن الحقَّ يستنيرُ ويتضحُ إذا قام الباطلُ يصارعُه ويقاومُه، فإنه -حينئذٍ- يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافَسُ فيها المتنافسون»[(٣)].

وحول هذا المعنى يقول أبو تمام:

وإذا أراد الله نَشـــرَ فَضيلةٍ طُـويـت: أتـاح لهـا لـسـانَ حَسُـودِ
لـولا اشـتـعـالُ الـنـار فيما جـاوَرَت ما كـان يُـعْـرف طِيبُ عَـرْف العُودِ

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ وفي هذا تهوينٌ وتحقيرٌ من شأن أولئك الشياطين الذين هيمنوا على وسائلِ الإعلام، وردٌّ على من يُهوِّلُ من شأنهم وَيَيْأَسُ من مواجهتِهم ويخشى من التصدِّي لهم، بل وربَّما ينجرفُ في تيارِهم؛ رغبةً ورهبةً وخوفا وطمعا، فيصير أداةً طيِّعةً ووسيلةً سهلةً لتحقيقِ مآربهم.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ٣/ ١١٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي ص ٢٦٩.

(٣) نفس المرجع.



﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾: فَدَعْهُمْ وَأَعْرِضْ عنهم وعن أكاذيبِهم وافتراءاتِهم.

وتنطوي هذه العبارةُ القرآنيةِ ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ على تهديدٍ لهم ووعيدٍ.

وفي هذا دعوةٌ إلى مقاطعةِ كلِّ ما يُصوغونه ويَحيكونه من ضلالات وافتراءات، ومن ذلك وسائلُ إعلامهم المضلِّلةِ، فينبغي الدعوةُ إلى هجرِها بل والتصدِّي لها؛ حتى لا تقومَ لها قائمةٌ ولا تُروَّجَ لها بضاعةٌ.

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾

الإصغاءُ: استماعٌ مع ميلٍ، قال الإمام الراغب: « وأصغيت إلى فلانٍ ملتُ بسمعِي نحوَه»[1] وهذا ينطبق على هذا الإعلام الفاسدِ الذي يجذبُ الانتباه ويخلبُ الأنظارَ ويسلبُ المشاعرَ ويأخذُ بالعقولِ ويستحوذُ على النفوسِ.

ولكَ أن تتخيَّلَ هيئةَ ذلك الجالسِ أمام الرائي [التليفاز] وقد مالَ إليه بقلبِه وحسِّه وأقبلَ عليه بسمعِهِ وبصرِهِ شأنُ العاشقِ الولهانِ، ولسانُ حاله يقول:

وفي حُبِّهَا بعتُ السعادةَ بالشَّقَا ... ضَلاَلاً وعقلي عَنْ هُدَايَ لَهُ عقلُ
وفَرَّغتُ قَلْبِي مِنْ وجوديَ مُخْلِصاً ... لعلِّي في شُغْلِي إِلَيهَا بِهَا أَخْلُو
وأصبُو إلى العُذَّالِ حُباً لِذِكْرِهَا ... كأنَّهُمْ ما بيننا في الهَوى رُسْلُ
فإن حدَّثُوا عَنْهَا فَكُلِّي مسامعٌ ... وكُلِّي إنْ حَدَّثْتُهُم ألسنٌ تَتْلُو.

أليسَ: أولئك الرابضون كلَّ يوم بالساعاتِ الطوالِ أمام هذا الفسوقِ والضلال هم من المغترِّين بالدنيا المتعلقين بأهدابها الواهية وحبالها البالية، حين خلت قلوبهم من الإيمان باليوم الآخر؟ أليس ذلك شأنُ من أصبح وأمسى في غفلةٍ عن هذا اليوم فانشغل بدنياه الباطلة فلم يبالِ بإضاعةِ الأوقات، وتعطيل الساعات، وإهدار الأعمارِ، وقضاءِ السَّهراتِ: أمام الأفلام والمسلسلات؟

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ت ٥٠٢هـ/ ٢٨٣.

قال الشيخ السعدي: «﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولا فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزُيِّنَ في قلوبهم، وصار عقيدةً راسخةً، وصفةً لازمةً، ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقا قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظا غير وافية، وإن كانتْ باطِلا ردُّوها على من قالها، كائنا من كان، ولو ألبستْ من العباراتِ المستحسنةِ، ما هو أرقُّ من الحرير»[1].

﴿ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ ألا ينطبق هذا على الإعجاب الزائف بتلك النجوم الحالكة، نجوم العفن الفني ومن وراءهم من حشودٌ وجنودٌ، لنيل إعجابَ الجماهيرِ الغافلةِ، بأعمالهم المبطِلَةِ، والانبهار بما يقدمونه من مسلسلاتٍ هابطةٍ وأفلامٍ ساقطةٍ ومسرحياتٍ هزليةٍ وبرامج عبثيةٍ، تخطفُ الأبصار، وتؤجج المشاعر، وتثير الغرائزَ، وتهيِّج الشهواتِ، فيتحوَّلُ هذا الإعجاب والرضا إلى تبعيَّةٍ وضلالٍ وفسادٍ وانحلالٍ، وسيرٍ على نهج تلك الشياطينِ واتباعٍ لِسَنَنِهِمْ ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ فقد سلكوا طريقَهم واقتفَوا آثارهم مقلِّدين لهم حتى في مِشيتهم وملابسهم ومجالِسهم وأحاديثِهم، مشاركين لهم حتى في أمانِيهم وطموحاتهم، ورؤاهم وأحلامهم، وأفراحهم وأتراحِهم.

قال صاحب روح البيان: «﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ لأنفسهم بعدما مالت إليه أفئدتهم، ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ ﴾ أي يكتسبوا بموجب ارتضائهم له﴿ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ له من القبائح التي لا يليق ذكرها وهى ما قضى عليهم في اللوح المحفوظ»[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي ١ / ٢٦٩.

(٢) روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي ٤ / ٢١.



وقال صاحب اللطائف: « وُكِّلَتْ أسماعُ الكفارِ باللغوِ وقلوبُهُمْ بالسُّوءِ، فَرَضُوا لأنفسهم أخَسَّ الأنصباءَ» [(١)].

ويقول الشيخ عبد الحميد طهماز: « ولا يخفى ما في الآية من تحذير للمؤمنين من الوقوع في شراكِ الضالينَ المضلينَ، فعليهم أن يتجنبوا استماعَ كلامِهم المُزَوَّقِ المُزَخْرَفِ الذي يُخفون في طيّاتِه السُّمَّ الناقعَ، فما أكثرَ ما يخلطون السُّمَّ بالدَّسم، فالاستماع إلى أقوالهم قد يؤدي إلى الرضا بها، ثم الاستجابةِ الفعليةِ لما فيها من إثم وفجورِ.

وكأني بالآية الكريمة قد نزلت لهذا العصر الذي أصبح فيه لوسائل الإعلام سلطانٌ كبير، وتأثيرٌ شديدٌ على الناس، لقد وجه شياطينُ الإنس من أعداء الإنسانية بوحيٍ من شياطين الجن كثيرا من وسائل الإعلام المسموعة والمرئيةِ والمقروءةِ إلى الشعوب الإسلاميّة، ليفتنوا المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، وقد ملئوها بالبرامج المزخرفة المموهةِ التي تستهدف في حقيقتها تشكيك المسلمين بدينهم، وإشاعة الفواحش والفجور في مجتمعاتهم» [(٢)].

المنهج الصحيح والميزانُ القويم

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

بعد بيان ما عليه أهل الضلال من زخرفةٍ للأباطيل وقلبٍ للموازين وصدٍّ عن سواء السبيل، جاءت هذه الآية بالمنهج القويم والصراط المستقيم والميزانِ الدقيقِ في التلقي والقبول وهو تحكيم شرع الله عز وجل في كلِّ أمرٍ من الأمور، ومن ذلك في كلِّ ما يردُ إلينا من رؤى وأفكار ومقالات وتحليلاتٍ وسائرِ ما تبثُّهُ وسائلُ الإعلام، نحتكمُ فيها إلى شرعِ الله فهو الحَكَمُ والميزانُ وهو الفُرقانُ والتبيانُ الذي يُرشِدنا إلى الحقِّ، لا أن نحتكم إلى أعدائِنا ونركنَ إليهم

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٢٩٢.

(٢) بصائر الحق في سورة الأنعام، للشيخ عبد الحميد محمود طهماز ص ١٠٦، ١٠٧.

ونلتمسَ الهُدى منهم، كما هو واقعٌ الآن من احتكام إلى بلاد الغرب وتبعيَّةٍ لها واتباع لسَنَنِ من قبلنا من اليهودِ والنصارى مع ما هم عليه من ضلالٍ، ومع أنهم يعلمون أننا على الحق المبين، فهل نسيرُ في ركابِ أولئك الجاحدين المكابرين؟ ونؤثِرُ الظنَّ والتخمين، ونتركُ الحقَّ اليقينَ: كتابَ الله وسنةَ خيرِ المرسَلين؟.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾أأميلُ إلى زخارفِ الشياطينِ وأُخدَعُ بالبريقِ الزائفِ فأبتغيَ حكماً غيرَ الله يحكمُ بيننا ويفصل المحِقَّ منا من المبْطِلِ؟

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ أنزل الكتاب إليكم لهدايتكم﴿ مُفَصَّلًا ﴾ فيه تفصيلٌ وبيانٌ لكلِّ ما يحتاجه الإنسان، فكيف تحتكمون إلى غيره؟

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فاليهودُ والنصارى يعلمون أنه الحق لكنهم يعدلون عنه؛ جحودا وعنادا، ومع ذلك يُحتكمُ إليهم ويُقتفى أثرُهم مع ما هم عليه من كفرٍ بواحٍ وكذبٍ صُراحٍ!

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ والامتراء لم يقع منه ﷺ ولكنه خطابٌ يُرادُ به غيرُه: فلا تكونن أيها المستمع لهذا القرآنِ في شكٍّ أنه منزل من عند الله، كيف وهو المعجزة الخالدة، والحجة المتجددة.

« فعلى المسلمين لحمايةِ أنفسهم وأبنائهم من تأثير وسائل الإعلام الموجَّهةِ إليهم أن يُحكِّموا كتاب الله تعالى، الذي فصلَ الله فيه كلَّ ما يحتاجُه الإنسان»[(١)].

وفي الآية ردٌّ على من ينكر وجود التصادم والصراع الحضاري بين الإسلام والغرب فالصراع بين أهل الباطلِ والطغيانِ وأهل الحقِّ سنةٌ من سنن هذا الكون. قال تعالى ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال جلَّ وعلا ﴿ وَلَا يَزَالُونَ

(١) بصائر الحق للشيخ عبد الحميد طهماز ص ١٠٨.



يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

لا يزال حديث السورة موصولا حول أسباب الصدود والإعراض مع تجلي الآيات وتدفُّق الحججِ وتهافتِ الشُّبه وسقوطِ الأباطيل؛ لكنه الصدود والإعراض والتمويه وقلب الحقائق وزخرفة الأباطيل وتلبيس الشياطين، وأساليب الخداعِ والتغرير والافتراءِ والتضليلِ وحجب الحقائقِ وإشاعةِ الضلالِ، التي يمارسُها شياطينُ الإنسِ بالتواطؤِ مع شياطينِ الجن لصرف الناسِ عن الحقِّ وتغييبِ عقولهم، وغير ذلك من الوسائل والأساليب التي تصدُّ الناس عن سبيل الله.

الهدايات المستنبطة

* كما ابتلى اللهُ نبيَّه ﷺ بكيدِ الأعداءِ وصدِّهم عن سبيلِ الله فقد ابتُلِيَ الأنبياءُ من قبله بذلك فالابتلاءُ سنةُ الله تعالى في أنبيائه وأوليائه.
* وفي الآيات الكريمة بيان لأسباب الصدودِ عن الحقِّ والإعراضِ عنه.
* وفيها بيانٌ لسنةٍ من السنن الربانيةِ، هي سُنَّةٌ ماضيةٌ جاريةٌ وباقيةٌ، سنةُ الصراع بين الحقِّ والباطلِ، هذا الصراعُ الذي يضربُ بجذُورِهِ في أعماقِ التاريخِ، ويمتدُّ إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عَلَيْهَا.
* وجدنا: كيف يقومُ إعلام أعداء الإسلام وأذنابُهم من الأدعياء على البريق الخادع، مع زخرفةِ الأباطيل، والسعي إلى طمسِ الحقائقِ، وإنفاقِ الأموال الطائلةِ على ذلك الطلاءِ الزائف والبريقِ الخاطفِ لأهل الباطلِ، ودعمِ دعواتهم الهدَّامة التي تنطلي على أصحاب العقولِ القاصرة والنفوس الضعيفة والقلوب المريضة.
* ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصارا قائمين بالدعوة إليه: أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليتميزَ الصادقُ من الكاذبِ، والعاقلُ من الجاهلِ

والبصيرُ مِنَ الأعْمَى.

* الردُّ على من يُهوِّلُ من شأنِ شياطين الإعلام وَيَيْأَسُ من مواجهتِهم ويخشى من التصدِّي لهم، بل وربُّما ينجرفُ في تيارِهم؛ رغبةً ورهبةً، وخوفاً وطمعاً، فيصير أداةً طيِّعةً ووسيلةً سهلةً لتحقيقِ مآربهم.

* الردُّ على من ينكرُ وجودَ التصادُمِ والصراعِ الحضاري بين الإسلام والغرب.

* بيانُ المنهج الصحيح في التلقي والقبول وهو تحكيم شرع الله عز وجل في كلِّ أمرٍ من الأمور، ومن ذلك في كلِّ ما يردُ إلينا من رؤى وأفكارٍ ومقالاتٍ وتحليلاتٍ وسائر ما تبثُّهُ وسائلُ الإعلام، نحتكمُ فيها إلى شرعِ الله فهو الحَكَمُ والميزانُ وهو الفُرقانُ والتبيانُ الذي يُرشِدنا إلى الحقِّ.

* وفي هذه الآيات الكريمة ردٌّ على من ينكرون وجود الغزو الفكري على العالم الإسلامي من قبل الغربيين، حتى وصف أحد الانهزاميين من أدعياء العقلانية والحداثة هذا الغزوَ بأنه غذاءٌ فكري، ولا يخفى ما لهذا الغزو من مخاطر على المسلمين، سيَّما في عصر الفضائيات والانترنت والتبعية والانهزامية للغرب باسم الحداثة والعلمانية والتحرر والنهوض والتغريب.

* الإيمانُ بأركانِهِ وشعبِهِ: حصنٌ متينٌ من الفتنِ المتتابعةِ والمكائدِ المستمرةِ والخطوبِ المدلهمَّة، والمحرومون من نعمة الإيمان كشموعٍ في مهبِّ الريح أو أشجارِ أرزٍ جاءتها ريحٌ عاصف. عن أَبِي هرَيْرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ المؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لاَ تَزَالُ الرِّيَاحُ تُفَيِّئُهُ وَلاَ يَزَالُ المؤْمِنُ يُصِيبهُ بَلاَءٌ، وَمَثَلُ المنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الأُرْزِ لاَ تَهْتَزُّ حَتّى تُسْتَحْصَدَ»[1].

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار - باب مثل المؤمن كالزرع، ومثل الكافر كشجر الأرز حديث ٥٨- (٢٨٠٩)، ورواه الترمذي في السنن كتاب الأمثال باب ما جاءَ في مَثَلِ المُؤْمِنِ القَارِيءِ لِلْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقَارِيء حديث ٣٠٢٦، وقوله: (تُسْتَحْصَدَ) أي لا تلبثُ حتى تنقلع مرةً واحدة كالزرع الذي انتهى يبسه، فليس من طبيعتها الصمود أمام الريح.

- ١٨ -

قواعدُ وأصولٌ

في العقيدة والدعوةِ والسلوكِ

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

المناسبة

بهذه الحجج المتتابعة والدلائل الساطعة التي أقامتها آيات هذه السورة: يتبين لنا المنهج الرباني، وقد اكتملت معالمه وتجلَّت مقاصده، وسلَّم كل ذي إنصافٍ أنه منهج الحق وميزان العدل.

التفسير الإجمالي

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾: فالمنهج القرآني منهج تامٌّ: صدقٌ في الأخبار، وعدلٌ في الأحكام، وسننُ الله تعالى وأحكامُه لا تتبدلُ ولا تتغيرُ.

﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وعدٌ ووعيدٌ: وعدٌ للمؤمنين الصادقين المتبعين لمنهج الله المصدِّقين بكلماته، ووعيدٌ للكفرةِ المبطلين المعطِّلين لشريعةِ الله المُكذِّبين بآياتِه المستخِفِّينَ بكلماتِه، المعرضينَ عن حججه ودعواتِه.

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ كيف وبين أيدينا هذا النهج القويم والتشريع الحكيم والذكرِ الحكيم والصراطِ المستقيم؟

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ فكيف نتبعُ من يسيرُ وراءَ الظنون والأوهام، ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ والخرص: تقديرهم أنفسهم على الحقِّ، دون دليلٍ أو برهان، وإنما مجرد الظن والوهم والتخمين.

وإذا كان الأمر كذلك: فامضِ على طريقِ الحقِّ ولا تلتفتْ إلى أولئك المضلينَ ولا تعبأ بهم.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

والله تعالى حينما يحذرُك من اتباع أهل الضلال، فهو تعالى الأعلمُ بهم يعلمُ من يضلُّ عن سبيله فيحذِّرُ من مسلكهم ويكشفُ عن سوءِ نيتهم وخبثِ طويَّتِهم، ويفضحُ تعالى مخططاتِهم وأساليبِهم في الصدِّ عن سبيل الهُدى، وهو تعالى أعلم بالمهتدين فيبصرُ بطريقهم.

وهو تعالى أعلم بمن رضي بطريق الضلال وعمى وصمَّ عن الحق، وهو سبحانه أعلم بالمهتدين الذين أخلصوا للحق وأبصروا نورَه ولبوا نداءه.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

بما تقدم من الحجج المتتابعة والدلائل الساطعة التي أقامتها آيات هذه السورة: يتبين لنا معالمُ المنهج الرباني، وقد اكتملت أصولُه، وتجلَّت مقاصدُه، وسلَّم كل ذي لُبٍّ وبصيرةٍ بأنه منهجُ الحق وميزانُ العدل الذي يجب اتباعه والإعراض عما سواه من مناهج ضالةٍ حائرة، قاصرةٍ جائرةٍ، مهما كَثُرَ أتباعُها وارتفعت راياتُها.

الهدايات المستنبطة

* المنهج القرآني منهجٌ تامٌّ، وسنن الله تعالى وأحكامه لا تتبدل ولا تتغير.
* القرآن الكريم كتابٌ محفوظٌ من التغيير والتبديل لأن الله تعالى تعهَّد بحفظه، ولأنه الخطاب الإلهي المتجدد والدستور الرباني الخالد، فلا يُقدَّمُ عليه منهجٌ؛ فهو المنهجُ القويمُ في كل شؤونِ الدنيا والدينِ، ولا سبيلَ لعزِّنا إلا به، ولن تجتمعَ لنا كلمةٌ ولن تتوحدَ لنا رايةٌ، ولن تقوم لنا نهضة إلا بتقديمه وتحكيمه والاستضاءةِ بنورِهِ والانضواء تحت لوائه والعيشِ في رحابِهِ والحياةِ في ظلالِه، فهو زادُنا ونورُنا وهو حياتُنا وروحُنا وهو مجدُنا وأملُنا.
* أقامت السورةُ الكريمةُ الحججَ الساطعة والشهادةَ الكبرى على صدقِ الرسولِ والرسالةِ،

وأي شهادةٍ أكبر من شهادة الحقِّ جلَّ وعلا والتي تجلت لنا في رحابِ آيات هذه السورة الكريمة، وفي هذا ردٌّ مفصَّلٌ على المشركين الذين طلبوا من يشهد بصحة نبوته ﷺ واقترحوا حَكَماً بينه وبينهم.

* تجنب الاغترار بما عليه أهل الكفر والضلال والبدع والأهواء مهما كثر عددُهم وشاع ضلالُهم، وقويت شوكتُهم؛ فإن مصيرهم إلى الزوال.

* عقد ابن مفلح رحمه الله في كتابه الآداب الشرعية فصلاً بعنوان: فَصْلٌ (يَنْبَغِي الْإِنْكَارُ عَلَى الْفِعْلِ غَيْرِ الْمَشْرُوعِ وَإِنْ كَثُرَ فَاعِلُوهُ). قال فيه رحمهُ اللهُ: « وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ كَثِيراً مِنْ الْأُمُورِ يَفْعَلُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ خِلَافَ الْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ، وَيَشْتَهِرُ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ، وَيَقْتَدِي كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ بِهِمْ فِي فِعْلِهِمْ، وَالَّذِي يَتَعَيَّنُ عَلَى الْعَارِفِ مُخَالَفَتُهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلاً وَفِعْلاً، وَلَا يُثَبِّطُهُ عَنْ ذَلِكَ وَحْدَتُهُ وَقِلَّةُ الرَّفِيقِ، وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ: وَلَا يَغْتَرُّ الْإِنْسَانُ بِكَثْرَةِ الْفَاعِلِينَ لِهَذَا الَّذِي نُهِيْنَا عَنْهُ مِمَّنْ لَا يُرَاعِي هَذِهِ الْآدَابَ، وَامْتَثِلْ مَا قَالَهُ السيد الجليل الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: لَا تَسْتَوْحِشْ طُرُقَ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهَا، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ، وَقَالَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ فِي الْفُنُونِ: مَنْ صَدَرَ اعْتِقَادُهُ عَنْ بُرْهَانٍ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ تَلَوُّنٌ يُرَاعِي بِهِ أَحْوَالَ الرِّجَالِ.... »[(١)].

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي ١/ ٢٨٠، ٢٨١

- ١٩ -

قواعدُ وأصولٌ

في التحليلِ والتحريمِ

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

المناسبة

الصلةُ بين هذه الآيات وما قبلها واضحةٌ، فما سبقها تمهيدٌ لها وهي تقريرٌ لما سبقها، فبعد ترسيخِ العقيدةِ في القلوب وتثبيتها في النفوس، بعد جلاء أركانِها وبيانِ أصولِها، يكتمل هذا البناءُ بتقريرِ أصولِ الشريعةِ وآدابِها، وبعد التحذير من مكائد وشبهات أهل الباطلِ والنهي عن اتباعهم والانخداع بغُثائِهم يستطرد السياق إلى ذكر مثالٍ لضلالهم وإغوائهم وتشكيكهم.

التفسير الإجمالي

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أمرهم الله تعالى أن يأكلوا مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه أي عند ذبحه، ﴿ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم مؤمنين بآياته فسوف تمتثلون لما أمركم به، وهذا الأمر مترتبٌ على ما سبقه من ترسيخِ الإيمانِ والتحذير من اتباع أهل الكفر والعصيان.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ وأيُّ شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه، وقد بيَّن سبحانه لكم جميع ما حرَّم عليكم؟ لكن ما دعت إليه الضرورةُ بسبب المجاعة، مما هو محرمٌ عليكم كالميتة، فإنه مباحٌ لكم، وإنَّ كثيراً من الضالين

ليضِلُّون عن سبيل الله أشياعَهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال بأهوائهم؛ جهلا منهم، واعتداءً على حدودِ الله، والله تعالى أعلمُ بهم وبما يُضمرونَه.

﴿ وَذَرُواْ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

﴿ وَذَرُواْ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ أي دعوا علانيته وسرَّه، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ ﴾ أي يكتسبونه في الدنيا من آثام، ﴿ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾ سينالون جزاء ما اقترفوا

﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

تقريرٌ وتأكيدٌ للنهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه وإن فَعَلَهُ عامةُ المشركين فإنَّ فعلَهم لا اعتبارَ له، والأكلُ من الميتة ومما ذُبِحَ لغيرِ الله تعالى فسقٌ: أي خروجٌ عن طاعةِ الله ومجاهرةٌ بالعصيانِ.

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ شياطين الإنسِ والجن بالوساوس يوحون، وبالشُّبهِ والأباطيل يبوحونَ، وعلى الكيدِ والتآمر يجتمعونَ، ويتواصون لجدالكم جدالا يُثنيكم عن الحقِّ بما يُثيرونه من حججٍ واهيةٍ وعللٍ متردِّية.

من ذلك قولهم على سبيل التلبيس والتشكيك كما روى عَن ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما قال: « يُوحِي الشَّيَاطِينُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِيُجَادِلُوكُمْ، أَنْ يَقُولُوا: تَأْكُلُوا مِمَّا قَتَلْتُمْ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي قَتَلْتُمْ يُذْكَرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الَّذِي مَاتَ لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ» (١).

(١) رواه أبو داود في السنن كتاب الذبائح – باب في أكل ذبائح أهل الكتاب. حديث ٢٨١٩، ورواه الطبري في تفسيره بإسنادٍ صحيح عن ابن عباس جامع البيان للإمام الطبري – ١٢ / ٨٠ ورواه ابن أبي حاتم عنه وإسناده صحيح تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٤ / ١٣٧٩ برقم ٧٨٤٣وراه الحاكم في المستدرك ٤/ ١١٣، ٢٣١ وقال في كلا الموضعين صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ مثلهم، إذ أحللتم ما حرَّم الله، وحرَّمتم ما أحلَّ الله، ومثالُ ذلك قوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

بعد تقريرِ العقيدةِ الصحيحة وترسيخ أركانها ينتقلُ السياق إلى تقرير أحكامٍ لها صلتها بالتطبيق العملي لقواعدِ التوحيد، من ذلك الأكل مما ذكر اسم الله تعالى عليه فإنه من مقتضيات الإيمان وتفصيلاتِ شرائعه، واجتناب الإثم ما ظهر منه وما بطن وتجنب ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح، فامتثالُ أوامرِ الله واجتنابُ ما نهى عنه جزءٌ من التوحيد العملي الذي دعت إليه السورةُ الكريمة.

الهدايات المستنبطة

* أفاد قوله تعالى ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ أن العمل بالأحكام الشرعية من مقتضيات الإيمان، أي إن كنتم مؤمنين فسوف تمتثلون لأوامر الله وتجتنبون ما نهى الله عنه.
* التمسك بشرع الله تعالى عصمة ونجاة من الفتن ومزالقِ الضلال.
* جاءت الشريعةُ الإسلامية وافيةً مستوفيةً لمطالب الحياة وملبيةً لكل حاجيات الإنسان مع مراعاتها لحالات الضرورة.
* من يرغب في محبة الله تعالى ويسعى إلى رضاه فإنه يجتنب ما نهى الله عنه، وكيف يدَّعي محبته أو يطمع في حبه وهو بعيدٌ عن منهجه! مقيمٌ على معصيته! متبعٌ لغير هديه! ناكبٌ عن طريقه!

وفي هذا المعنى قال الشافعي رحمه الله:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ يُطِيعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَدِيكَ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ ... وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ

* حذَّر الله تعالى من الشبهات الداحضةِ التي يثيرها أعداء الإسلام ويرددها أدعياؤه المُغْرِضونَ من شياطين الإنس والجن ويتلقفها بعضُهم من بعضٍ ليقدحُوا في الشريعة الغرَّاء.

- ٢٠ -

من مظاهرِ الصدودِ وأسبابِه

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

المناسبة

لا يزال السياقُ يعرضُ لِشُبَهِ المشركين، ويكشف المزيدَ من أسباب صدودهم عن الحق ومطالبِهم المتعنتة التي علَّقوا إيمانهم بها، ويفضحُ جهلَهُمْ بحقيقةِ النبوةِ ومقامِ الرسالةِ، ويكررُ الوعيدَ لهم بما ينتظرُهم، ويقررُ أن الهدايةَ لا تتحقق إلا بمشيئةِ الله تعالى وما سبق في علمه تعالى من استعدادِ العبدِ لها وحرصِه عليها.

التفسير الإجمالي

الإيمانُ حياةُ القلوبِ ونورُ البصائر وضياءُ الدروب وصحوةُ الضمائر، أما الكفر فإنه ظلماتٌ مُتراكمة في قلبِ ميتٍ، وهل يستوي من عاش بنور الإيمان مع من يتخبطُ في ظلمات الكفر ويتردَّى في دركاتِه فلا يسعى إلى الخروج منها، بل استسلم لهذه المعيشةِ الضنك؟ لكنَّه دورُ شياطينِ الإنسِ والجن في تزيينِ الكفر وزخرفةِ الضلال.

فهل يستوي من أحيا اللهُ قلبَه بالعلم والإيمان بمن مات قلبه بداء الجهل وآفةِ الكفر وظُلمةِ العصيان!

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِه		فأجسامُهُمْ قبلَ القبورِ قبورُ
وإنِ امرأً لم يَحْيِ بالعلم ميِّتٌ		فليس له حتى النشورِ نشورُ!

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ وكما وقع لأولئك الذين ينحدرون إلى الهاويةِ ويتخبطون في ظلمات التيهِ ودروبِ الحيرةِ من تزيينٍ وزخرفةٍ وأضواءٍ براقةٍ مبهرةٍ تذهبُ بالأبصارِ وتسلبُ الأفكار وتغشى القلوبَ: فمن أسبابِ الصدودِ ودواعي الإعراض ذلك الدورُ المؤثِّر الذي يؤديه أكابرُ المجرمين من مكرٍ وخديعةٍ وصدٍّ عن سبيل الرشادِ وطغيانٍ واستبداد، ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[فاطر: ٤٣].

أو كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قريةٍ أكابر مجرميها ليمكروا، وتلك هي سنةُ الصراع بين الحق والباطلِ، وسنةُ الاستدراجِ.

ومن أسبابِ صدودِ أولئك المجرمينَ ما في صدورهم من كبرٍ وحسدٍ وعجرفةٍ وجهالة، وما تحمله نفوسهم من مطامحَ ماديَّةٍ ومفاهيمَ ينبغي أن تُصَحَّحَ ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ فهل فهِموا حقيقةَ النبوة وأساسَ الاصطفاء؟ فالنبوةُ منحةٌ إلهيةٌ ورحمةٌ ربانيةٌ يختصُّ اللهُ بها من يشاء من عباده ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فالرسلُ هم أصفى

الناس معدناً، وأحسنُهم خُلُقاً، وأخلصُهم وأتقاهُم وأزكاهم وأنقاهم، قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج: ٧٥].

أما أولئك الكفرة المعاندين من أكابر المجرمين ومن وراءهم، فأنى لهم حملُ تلك الأمانة العظيمة! وقد بانت لهم الحجج وزالت الشُّبهِ وانكشف سوءُ أدبهم مع الله تعالى مع جهلهم وجمودِهم، ولجاجِهم وعنادهم.

ثم توعدهم الله تعالى بما سيصيبهم من جنسِ عملهم فقال سبحانه ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴾ فهذا هو جزاؤهم الذي يستحقونه ومصيرهم الذي ينتظرونه الصغارُ والهوانُ والعذابُ الشديد؛ عقابا لما دأبوا عليه من المكرِ والإجرام.

وفي معاني القرآن للفراء « لما اختاروا الكفر تعززا وأنفةً من اتباع محمدٍ ﷺ فجعل الله ذلك صغارا عنده»[(١)].

بعد ذلك بين سبحانه أن من شاء هدايته للإسلام شرح صدره إليه وأعانه عليهُ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيِّقا لا يتسع لقبولِ الحقِّ ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا ﴾، ثم ضرب له مثلا بالذي يصَّعد في السماء فيضيق صدره كلما ارتفع في طبقاتِ الجوِّ فقال سبحانه ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ « أي كذلك الفعل في الهداية والإضلال يجعل الله الرجس أي يلقي بكل ما لا خير فيه على قلوبهم من الكبر والحسد والشرك والكفر والشيطان لقبول المحل لكل ذلك نتيجة خلوه من الإيمان بالله ولقائه»[(٢)].

وبهذا البيان الوافي والجوابِ الشافي تنتهي هذه الجولةِ بتقرير المنهج الرباني والدعوةِ إلى الصراطِ السويِّ الذي لا خلل فيه ولا اعوجاج ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٥٣.

(٢) أيسر التفاسير للشيخ أبي بكر جابر للجزائري ٢ / ١١٦.



لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ فلقد جاءت هذه الآيات على هذا الوجه العجيب وبهذا التفصيلِ البديع لينتفع بها المؤمنون الذاكرون، وفي هذا تعريضٌ بأولئك المعرضين عن هذه الآيات المحرومين من الانتفاعِ بها.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

ترتبطُ آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة من وجوهٍ عديدة: منها اتساقُها مع المحور العام في تقريرِ العقيدة، وبيانِ الأسباب المُفضِيَة إلى الهدايةِ، في مقابل أسباب الصدود والإعراض، والتي من بينها تزيينُ الشياطينِ ومكرُ المجرمينَ، ومنها بيانُ حالة المهتدي من انشراح الصدر وضياء القلب، وحالة الكافرِ من الحَيرة والشقاء والسآمة وضيق الصدرِ ومنها الدعوة إلى الصراط المستقيم بعد أن تجلت معالمُه ومناراتُه.

الهدايات المستنبطة

* الإيمانُ حياةُ القلوبِ ونورُ البصائر وضياءُ الدروب وصحوة الضمائر، أما الكفر فإنه ظلماتٌ مُتراكمة في قلبٍ ميتٍ، وهل يستوي من عاش بنور الإيمان مع من يتخبطُ في ظلمات الكفر، ويتردَّى في دركاتِهِ، فلا يسعى إلى الخروج منها؟

* من أسباب الصدودِ ودواعي الإعراض ذلك الدورُ المؤثِّر الذي يؤديه أكابرُ المجرمين من مكرٍ وخديعةٍ وصدٍّ عن سبيل الرشادِ وطغيانٍ واستبداد.

* ومن أسبابِ صدودِ أولئك المجرمينَ ما في صدورهم من كبرٍ وحسدٍ وعجرفةٍ وجهالةٍ، وما تحمله نفوسهم من مطامحَ ماديَّةٍ ومفاهيمَ ينبغي أن تُصَحَّحَ.

* النبوةُ منحةٌ إلهيةٌ ورحمةٌ ربانيةٌ يختصُّ اللهُ بها من يشاء من عباده، فالرسلُ هم أصفى الناس معدناً، وأحسنُهُم خُلُقاً، وأخلصُهم وأتقاهُم وأزكاهم وأنقاهم.

* من شاء اللهُ هدايتَه للإسلامِ شرح صدره إليه وأعانه عليهُ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيِّقا لا يتسع لقبولِ الحقِّ.

* لكل من الهداية والإضلال سننٌ تتبع في ذلك، فمن طلب الهداية ورغب فيها صادقاً علم الله ذلك منه فسهَّل له طُرُقَها وهيأ له أسبابَها، ومن طلب الغواية وأخلد إليها تهيأت له أسبابُها وفتِّحت عليه أبوابُها، فضاق صدرُه عن قبول الإيمان واستقبالِ أنواره، حتى لكأنه يتكلفُ الصعود إلى السماء وما هو بقادر، وفي هذه الآية معجزة من أبلغ المعجزات القرآنية، وذلك أن الضغط الجوي يخف كلما ارتفع الإنسان في الجو حتى يتلاشى، وأن الإنسان كلما صعد إلى السماء ضاق صدره حتى يصل لدرجة الاختناق، فتشبيه الحالة المعنوية بهذه الحالة الحسية التي لم تكن معروفة يوم نزول القرآن، ولم تعرف إلا بعد ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنا، معجزةٌ عظيمةٌ تشهدُ أن هذا القرآن أنزله الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض.

- ٢١ -

وعدٌ ووعيدٌ

قال تعالى ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

المناسبة

بعد أن فصلت الآياتُ السابقةُ طريقَ الهداية وأقامت الحججَ عليه وكشفتْ طريقَ الضلال والأسبابَ المفضيةَ إليه، بينت عاقبة كلٍّ من الطريقين، فاشتملت على وعدٍ ووعيدٍ: وعدٌ للمؤمنين الصادقين الذاكرين الذين سلكوا طريق الهدى وثبتوا عليه، ووعيدٌ للكفرة المجرمينَ الذين اختاروا طريق الضلال وتوغَّلوا فيه.

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ أي لأولئك المؤمنين دار السلام: دار الأمن والأمان، والسلامة من كل مكروه وسوءٍ والعافية من جميعِ الآفات والبلايا والهموم والرزايا، وعدٌ من الله لهم والله تعالى لا يخلفُ وعدَه، وعدٌ بالقرب من رحابِه، ومرافقةِ أنبيائه وأوليائهِ في دار الكرامةِ والسلامةِ، والله تعالى وليُّهم يتولاهم في الآخرةِ كما تولاهم في الدنيا بحفظه ولطفه، وتأييده وعطائه، وكرمِهِ وإحسانه ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بأعمالهم الصالحة التي كانت مطيَّتَهم إلى الجنان، ووسيلتهم إلى ولايةِ الرحمنِ.

من مواقف الحشرِ وشدائدِه

اعترافات متأخرة!

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

واذكر واستحضر هذا اليوم يومَ يحشر الله تعالى أولئك المكذبين المعرضين من الجنِّ والإنسِ، ثم ينادي في هذا الموقف العصيب على الجنِّ:﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ

ﭐلْإِنسِۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ ينادي على ذلك تحالف الشيطان الذي يضمُّ شياطينَ الجنِّ فيخاطبون خطاب الزجرِ والتوبيخ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ أي: من إضلالهم وإغوائهم فأضللتم منهم كثيرا، أو استكثرتم منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم، كما يقال: استكثر الأمير من الجنود، وهذا بطريق الإنكارِ والتقريع.

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾: أي تبادلوا المنافع والمصالح: « أي انتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، واستمتع الجن بالإنس حيث عظَّموهم وبالغوا في أمرهم واتبعوا أوامرهم، واستعانوا بهم.

قال الإمام الشوكاني: « أما استمتاع الجن بالإنس: فهو ما تقدم من تلذُّذهم باتباعهم لهم، وأما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصي، فوقعوا فيها وتلذذوا بها، فذلك هو استمتاعهم بالجن؛ وقيل: استمتاع الإنس بالجن: أنه كان إذا مرَّ الرجلُ بوادٍ في سفرِه وخافَ على نفسه قال: أعوذُ بربِّ هذا الوادي من جميع ما أَحذر، يعني ربَّه من الجن، ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ ﴾ [الجن: ٦] وقيل: استمتاع الجن بالإنس: أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة، واستمتاع الإنس بالجن: أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكاذيب، وينالون بذلك شيئاً من حظوظ الدنيا كالكهان»[(١)].

﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ ﴾: امتدَّ هذا الاستمتاع واستمر هذا التواطؤ حتى بلغنا أجلنا بالموتِ، وبه انقضاء الأعمال أو بيوم القيامة يوم العرض والحساب والجزاءِ.

يعتذرون حين لا ينفع العذر ويعترفون حيث لا يُجدي الاعتراف! « يعتذرون فلا يُسْمَع، ويحتجون بما لا ينفع، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقلَّ منه قُبِلَ منهم، لكنْ سبقت القسمة، فحقت لهم الشقوة»[(٢)].

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٦١.

(٢) لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٣٠٧.



﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾ خطابٌ للفريقينِ وبيانٌ لمصيرهم الذي ينتظرُهم ومثواهُم الذي يستحقونه وهو النار يخلَّدُون فيها.

والمثوى: اسم مكان من ثَوى بالمكان إذا أقام به إقامةَ سكنى أو إطالة مكث، والمراد به هنا: الخلود لقوله تعالى ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾: قال الإمام الطبري: « يعني إلا ما شاء الله من قَدْر مُدَّة ما بين مبعثهم من قبورهم إلى مصيرهم إلى جهنم، فتلك المدة التي استثناها الله من خلودهم في النار»[(١)].

أو إلا ما شاء الله لهم الخروج، والله تعالى لم يشأ خروجهم من النار لأنه حكم على الكافرِ بالخلودِ فيها.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ حكيم في تصريفه وتدبيره وفي إمهالِه و حُكْمِهِ، وفي ثوابه وعقابِه، عليمٌ فلا يخفى عليه دقائقُ أمورِهم فضلا عن جليلِهَا.

سننٌ ربانيةٌ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ هذا التحالفُ الشيطاني والتواطؤ بين أهل الكفر هو سنةٌ من سنن الله في هذا الكون أن يتآمر الكفرة ويتعاون الظلمة لتحقيقِ مآربهم والوصولِ إلى مطامحهم، وهذا من باب الاستدراجِ لهم.

كما يُفهمُ من هذه الآية الكريمة معنىً آخر ترمي إليه وسنةٌ أخرى تُشيرُ إليها وهي سنةُ التعاقب: حيث يتعاقب الظلمة فيلي بعضهم بعضا دون اعتبارٍ بمن سبقهم، فلو دام الملك لمن سبقهم لما وصل إليهم، ولكنها الغفلةُ عن سنن الله! كذلك يتعاقبون في دخولِ النار، يلي بعضُهم بعضا في دخولها.

أو «سنة التداول»: تداول الأمم والشعوب، تداول القوى والسلطان، فيتناوبُ الظلمةُ الهيمنةَ على المستضعفينَ، كما سمعنا ورأينا من أفول شمس ممالك وبزوغ فجر ممالكَ أخرى،

(١) جامع البيان للطبري ٨/ ٤٣.



وقد قيل [١]:

لكل شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ	فلا يغرُّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتها دولٌ	من سره زمنٌ ساءته أزمانُ
وهذه الدارُ لا تُبقي على أحدٍ	ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ

وثمةُ سنةٍ أخرى تستفادُ من هذه الآية وهي سنةُ التسلط: تسلطُ الظلمةِ بعضهم على بعض، وهلاك الظالمين بالظالمين، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده المستضعفين، أن يدفع الظلمةَ بالظَّلمةِ، سنة التدافع، قال تعالى ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

قال الشيخُ السعديُّ رحمه اللهُ: وكما ولَّيْنَا الجنَّ المردةَ وسلَّطناهم على إضلالِ أوليائِهم من الإنسِ وعقدنا بينهم عقدَ الموالاةِ والموافقةِ، بسبب كسبِهم وسعيِهم بذلك.

كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالما مثله، يؤزُّه إلى الشر ويحثُّه عليه، ويزهده في الخير وينفرُه عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها، البليغ خطرها... ومن ذلك، أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنْعهم الحقوق الواجبة، ولَّى عليهم ظَلَمَةً، يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعافَ ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجهٍ غير مأجورين فيه ولا محتسبين، كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف» [٢].

وقال صاحبُ أضواء البيان: « قال بعض العلماء: المراد بالرسل من الجن نُذُرُهُمْ الذين يسمعون كلام الرسل، فيبلِّغونه إلى قومهم، ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في

---

(١) الأبيات لأبي البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى في رثاء الأندلس أعاد الله أمجادَها يراجع نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن المقري التلمساني ٤/ ٤٨٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٧٣ باختصار.

قوله: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩]؟ وقال بعض العلماء: ﴿ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس: لأنه لا رسل من الجن، ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مراداً بعضه، كقوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ [نوح: ١٦]، وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس: ١٤]، مع أن العاقر واحد منهم، كما بينه بقوله: ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر: ٢٩] [1].

توبيخٌ وإقرارٌ

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

ثم يأتيهم النداءُ من قِبَلِ الحقِّ جلَّ وعلا نداءُ التوبيخ والتقريع ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ ﴾ ألم يأتكم رسلٌ من بينكم بالآياتِ والنُّذر! فيجيبون إجابةً لا مفرَّ منها، إجابةَ الحسرةِ والمهانةِ، ويشهدون على أنفسهم ﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾

فانصرفوا عن الحقِّ واستحبوا الكفرَ ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ أقرُّوا بجرمهم واعترفوا بذنبهم كما في قوله تعالى ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ [الملك ٨: ١١].

قال الإمام القاسمي رحمه الله: « إن قيل: ما السببُ في أنهم أقروا في هذه الآيةِ بالكفرِ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٢ / ٢١٠ .



وجحدوهُ في قولهم ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام ٢٣]؟ قلنا: يوم القيامة يومٌ طويلٌ، والأحوالُ فيه مختلفةٌ، فتارةً يُقِرُّونَ وأخرى يجحدون، وذلك يدلُّ على شدةِ خوفِهم واضطرابِ أحوالهم فإن من عظُمَ خوفُه كثر الاضطرابُ في كلامه»[1].

وقال الإمام الخازن: « فإن قلت لم كرر شهادتهم على أنفسهم، قلت: شهادتهم الأولى اعتراف منهم بما كانوا عليه في الدنيا من الشرك والكفر وتكذيب الرسل وفي قوله ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ذمٌّ لهم وتخطئةٌ لرأيهم، ووصفٌ لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها، فكانت عاقبةُ أمرهم أن اضطُّروا إلى الشهادةِ على أنفسهم بالكفر»[2].

عدلهُ سبحانه.

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

أنه تعالى لا يهلك القرى بظلمهم، إلا بعد أن يرفعَ الغفلةَ عنهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإقامة الحجج عليهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أي لكلٍّ من الجنِّ والإنس على وجهِ العموم: درجاتٌ متفاوتةٌ مما عملوا، فيُجازَونَ بأعمالِهم، كما في قوله تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٩]، وفيه دليلٌ على أن المطيعَ من الجنِّ في الجنةِ، والعاصي في النار، وأن للظلمةِ من الجنِّ والإنس درجاتٍ متفاوتةً بقدر ظلمِهم وحسبِ جُرمِهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ من أعمال الخير والشر.

غناه تعالى عن خلقه ورحمته بهم

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٧٢٥.

(٢) لباب التأويل للخازن٢ / ٤٦٠.

كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ هو تعالى الغني: في ذاته وصفاته وأفعاله وفي أحكامه، الغني عن عباده، والكلُّ مفتقرٌ إليه، قال تعالى في سورة فاطر ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ وقال جلَّ وعلا في سورة محمد ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ وهو سبحانه الغني: فلا ينفعُه إيمانُ المؤمنين ولا طاعةُ الطائعين كما لا يضرُّه كفرُ الكافرين أو معصيةُ العاصين، وهو تعالى مع غناه عنهم متفضِّلٌ عليهم برحمتِهِ وحلمِه فلو شاء لعجل لهم العقابَ وسارع إلى إهلاكهم واستخلاف غيرهم، كما أهلكَ أسلافهم الذين خرجوا من أصلابهم، وهذه إشارةٌ إلى سنةِ الاستبدال والتغييرِ لكنه تعالى يمهلُهم لعلهم يرجعونَ ويؤخرُهم فعساهم يتوبون.

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

أي من البعثِ والحساب والجزاء، فهو وعدٌ حقٌّ وميعادُ صدقٍ ولقاءٌ لا سبيل إلى التفلُّتِ منه.

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

وعيدٌ وتهديدٌ لأولئك المصرِّين على الإعراضِ والجحودِ فليبقوا على حالِهم وليتمادوا في طغيانهم، ولتبقَ أنت يا محمد على الحق وتثبت على طريقِه فلكلٍّ عاقبتُه، والظالمُ لن يجني من جرَّاءِ ظُلمه إلا الخسرانَ والبوارَ.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

تتسقُ آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة حيثُ تقريرُ العقيدة من خلال الحديث عن اليوم الآخر، حيثُ تضفي لنا الآياتُ المزيدَ من أنباء هذا اليوم، ثم تَزيدُنا معرفةً بأسماء الله وصفاته العُلى، وسننه العادلة في هذه الحياة وأقداره النافذة وإعذاره وإنذاره لعباده.

الهدايات المستنبطة

* بشَّر الله تعالى عباده المؤمنين بدار السلام: دار الأمن والأمان، والسلامة من كل مكروهٍ وسوءٍ والعافية من جميعِ الآفات والبلايا والهموم والرزايا.

* في يوم الحشر يعترف المجرمُ بجريمته ويقرُّ العاصي بمعصيته، ومن ذلك تلك الاعترافات المتأخرة بالاستمتاع والمصالح المتبادلة بين شياطين الإنس والجن، انتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها واستمتع الجن بالإنس حيث عظَّموهم وبالغوا في أمرهم واتبعوا أوامرهم، واستعانوا بهم.

* **ولغة تبادل المصالح**: لغةٌ شائعةٌ وعرفٌ سائدٌ بين طوائف المجرمينَ في كلِّ العصور على اختلاف سطوتِهم ونفوذِهم، حيث يتحالفون على الشرِّ ويتسترون على الجرائم في مقابل مصالح ومنافع متبادلة، وها نحن نرى في واقعنا المعاصر كيف استمتعت الدول الكافرة الظالمة بعملائها من الحكامِ المأجورين المُسلَّطين على الشعوبِ المقهورةِ وتسترت على جرائمِهم حتى إذا قضت نهمتَها وحققت منهم مآربها وأشبعت أطماعَها، ووصلت على أكتافهم إلى أهدافِها البعيدة وأطماعِها الكبرى، تبرأتْ منهم، وطوت صحائفهم وربما نشرت بعض سجلاتهم أمام محاكم صورية مواليةٍ لها، لتتخلص منهم باسم ما يزعمونه من «ديموقراطية» مزيفة، هي في الحقيقة صورةٌ مقنَّعة من صور ظلم الأمم والشعوب وتبادل الأدوار بين الظلمةِ وتداولٍ شكليٍّ للسلطة بين المحتكرين لها باسم صناديق الانتخابات التي يساومُ عليها الشواذُّ والجماعات العنصرية، فضلا عن بني صهيون، والله غالب على أمره...

* في قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ إشارةٌ إلى جملة من السنن الإلهية منها:

سنةُ الولاء: حيث يتآمر الكفرة ويتعاونُ الظلمة لتحقيقِ مآربهم والوصولِ إلى مطامعهم،

وهذا من باب الاستدراجِ لهم.

سنةُ التعاقب والتداول: حيث يتعاقب الظلمة، يلي بعضهم بعضا دون اعتبارٍ ممن سبقهم، فلو دام الملك لمن سبقهم لما وصل إليهم، ولكنها الغفلةُ عن سنن الله. كذلكٍ يتعاقبون في دخولِ النار، يلي بعضُهم بعضا في دخولها.

* **سنةُ التسلط:** تسلطُ الظلمةِ بعضهم على بعضٍ، وهلاك الظالمين بالظالمين، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده المستضعفين، أن يدفع الظلمةً بالظلمةِ.

* **سنة الاستبدال:** وهي المشار إليها في قوله تعالى ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾

* وعيدٌ وتهديدٌ لأولئك الكفرةِ المصرِّين على الإعراضِ والجحودِ فليبقوا على حالِهم وليتمادوا في طغيانهم، ولتبقَ أنت يا محمد على الحق وتثبت على طريقِه، فلكلٍّ عاقبتُه، والظالمُ لن يجني من جرَّاءِ ظُلمه إلا الخسرانَ والبوارَ.

* في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ دليلٌ على ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من العذر بالجهلِ وذلك من رحمةِ الله وعدله.

* ردٌّ على إنكارهم واستبعادِهم الذي يصل بهم إلى حد استعجالِ هذا الموعد فبين تعالى أنه آتٍ ،وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ.

* الله تعالى هو الغني: في ذاته وصفاته وأفعاله وفي أحكامه، الغنيُّ عن عباده، والكلُّ مفتقرٌ إليه، وهو سبحانه الغنيُّ: فلا ينفعُه إيمانُ المؤمنين أو طاعةُ الطائعين كما لا يضرُّه كفرُ الكافرين أو معصيةُ العاصين، وهو تعالى مع غناه عنهم متفضِّلٌ عليهم برحمتِه وحلمِه فلو شاء لعجل لهم العقابَ وسارع إلى إهلاكهم واستخلاف غيرهم.

-٢٢-

من جهالات المشركين

قال تعالى ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠ ﴾.

المناسبة

بعد الحديث عن فساد معتقدات المشركين وإقامةِ الحجج على بطلانها: تمضي بنا الآياتُ في جولة أخرى لتكشف المزيد من جهالاتِ أولئك المشركين الذين حرموا ما أحلَّ الله لهم واستحلُّوا ما حرم عليهم، من ذلك: أنهم جعلوا من الزروع والأنعام التي خلقها الله سبحانه نصيباً له تعالى يعطونه للفقراء والمساكين ويطعمون به الضيفان وغيرهم، وجعلوا لأصنامهم نصيباً آخر يقدمونه للسدنة والكهنة.

التفسير الإجمالي

لا تزالُ آياتُ هذه السورة الكريمة تكشف لنا المزيدَ عن تقاليد المشركين البالية التي اقتفوا بها سَنَنَ آبائهم وأجدادِهم، ومنها تلك القسمة الباطلة الجائرة التي تتحدث عنها الآيات

الكريمة، قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾ أي: بتقولهم ووضعهم الذي لا علم لهم به ولا هدى مع علمهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، ﴿ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ يُصرف للكهنة والسدنة، ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ ﴾

فما كان لشركائهم فإنه يصل إليها بتمامه دون انتقاص منه فيذهب إلى القرابين لتلك الأصنام وينتفع به سدنتُها وكهنتها، وما كان لله بزعمهم فإن النصيبَ الأكبرَ والحظَّ الأوفرَ ينصرفُ إلى الأصنام وكهنتها وسدنتها لا إلى الفقراء والمساكين.

قال الشوكاني رحمه الله: « هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم وجهلهم وإيثارهم لآلهتهم على الله سبحانه، أي جعلوا لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاجِ دوابِّهم نصيباً، ولآلهتهم نصيباً من ذلك، يصرفونه في سدنتها والقائمين بخدمتها، فإذا ذهبَ ما لآلهتهم بإنفاقه في ذلك عوَّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غنيٌّ عن ذلك، وقيل معنى الآية: أنهم كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنى الوصول إلى الله، والوصول إلى شركائهم»[1].

وكانوا يجعلون لله من حروثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيباً وللأصنام نصيباً فما جعلوه من ذلك لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها، فإن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه، وقالوا: إن الله غنيٌّ عن هذا وإن سقط شيءٌ من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان.

﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فيما فعلوا من إيثار آلهتِهم على الله تعالى وعملهم بما لم يُشرَعْ لهم مما يدلُّ على جهلهم وحمقهم وكذبهم وافترائهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/ ١٦٥ بتصرف.



﴿ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

كذلك من جهالاتهم وحماقاتهم وجرائمهم ومن تزيين الشيطان لهم: أن زيَّنوا لهم قتل أولادهم سفها بغير علمٍ وذلك بوأدهم للبنات بحجج ساقطةٍ وعللٍ مُتهافتةٍ، وكان الرجل في الجاهليةِ يحلف بالله لئنْ ولد له كذا من الذكور لينحرنَّ أحدهم.

قال ابنُ العربي: « وَحَقِيقَةُ التَّزْيِينِ إظْهَارُ الْجَمِيلِ، وَإِخْفَاءُ الْقَبِيحِ، وَقَدْ يَتَغَلَّبُ بِخُذْلَانِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ، كَمَا يَتَحَقَّقُ بِتَوْفِيقِهِ لَهُ، وَمِنْ الْبَاطِلِ الَّذِي ارْتَكَبُوهُ بِتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ تَصْوِيرُهُ عِنْدَهُمْ جَوَازُ أَكْلِ الذُّكُورِ مِنْ الْقَرَابِينِ، وَمَنْعُ الْإِنَاثِ مِنْ أَكْلِهَا، كَالْأَوْلَادِ وَالْأَلْبَانِ، وَكَانَ تَفْضِيلُهُمْ لِلذُّكُورِ لِأَحَدِ وَجْهَيْنِ، أَوْ بِمَجْمُوعِهِمَا: إمَّا لِفَضْلِ الذَّكَرِ فِي نَفْسِهِ عَلَى الْأُنْثَى، وَإِمَّا لِأَنَّ الذُّكُورَ كَانُوا سَدَنَةَ بُيُوتِ الْأَصْنَامِ؛ فَكَانُوا يَأْكُلُونَ مِمَّا جُعِلَ لَهُمْ مِنْهَا؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ تَعَدٍّ فِي الْأَفْعَالِ، وَابْتِدَاءٌ فِي الْأَقْوَالِ، وَعَمَلٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ مِنْ الشَّرْعِ»[1].

﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ أي: ليهلكوهم. ﴿ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ أي: ليخلطوا. قال ابن عباس: « ليُدخلوا عليهم الشكَّ في دينِهم؛ وكانوا على دين إسماعيل، فرجعوا عنه بتزيين الشياطينِ»،[2] الذين أمروهم أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، أو قربانا أو وفاء لنذرٍ وسميت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من معصية الله وقتل الأولاد فأشركوهم مع الله في وجوب طاعته، فهم شركاءٌ في هذه الجرائم النكراء، وأضيف الشركاء إلى المشركين لأنهم أطاعوهم واتخذوهم أرباباً، وقال الكلبي: شركاؤهم سدنة آلهتهم يعني خدامها وهم الذين كانوا يزينون ويحسنون للكفار قتل الأولاد وكان الرجل في الجاهلية يقوم فيحلف لئن ولد له كذا وكذا غلامٌ لينحرن آخرهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله فعلى هذا القول، الشركاءُ هم السدنةُ وخدامُ الأصنام سموا شركاء لأنهم أشركوهم في الطاعة»[3].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٢٧٨.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٣/ ١٣١ ومعالم التنزيل للبغوي ٣/ ١٩٣.

(٣) لباب التأويل للخازن ٢ / ١٨٨.

فعن عَدِيّ بن حَاتِم ﷺ قال: « أَتَيْتُ النّبيّ ﷺ وَفي عُنُقي صَليبٌ مِنْ ذَهَب، فقال: يَا عَدِيّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ في سُورَةِ بَرَاءَةَ: (اتّخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله)، قال: أَمَا إِنّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلّوا لَهُمْ شَيْئاً اسْتَحَلّوهُ، وَإِذَا حَرّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئاً حَرّمُوهُ» [١].

« فدينهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، فهذا الذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق. وقيل: دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه، وقيل: وليوقعوهم في دين ملتبس» [٢].

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ « ولو شاء الله أن يمنعهم ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمتُه التخلية بينهم وبين أفعالهم، استدراجا منه لهم، وإمهالا لهم، ولهذا قال: ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي: دعهم مع كذبهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضرُّوا اللهَ شيئاً» [٣].

ثم ذكر تعالى ضربا آخر من ضروب جهالتهم وسفاهتهم وحمقهم وافترائهم:

قال تعالى ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

حيث حرموا ما أحلَّ الله واستحلُّوا ما حرَّم الله فجعلوا من الأنعام والزروع ما لا يطعمها إلا من يشاءون من الكهنة والذكور حسب أهوائهم ووفق معتقداتهم الفاسدة،

(١) حديث حسن: رواه الترمذي في السنن وقال: « هذا حديثٌ غريبٌ لا نَعْرِفُهُ إلاّ مِن حديثِ عبدِ السّلاَم بن حَرْب. وَغُطَيْفُ بنُ أَعْيَنَ لَيْس بمَعْرُوفٍ في الحديثِ ». سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن عن رَسُولَ الله ﷺ - باب وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَة حديث ٥٠٩٣ والطبراني في المعجم الكبير ١٢ / ٧ حديث ١٣٦٧٣ ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٤ / ١٣٩٠ حديث ١٠٢٩١.

(٢) الكشاف للزمخشري ٢ / ٥٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٧٥.



﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يعني الحوامي وهي الأنعام التي حموا ظهورها عن الركوب فكانوا لا يركبونها ﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ يعني لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح بل كانوا يذكرون عليها أسماء أصنامهم، « وقيل معناه لا يحُجُّون عليها ولا يركبونها لفعل الخير؛ لأنه لمَّا جرت العادةُ بذكر الله على فعل كل خير ذمَّ هؤلاء على ترك فعل الخير» [(١)].

وعَنِ السُّدِّيِّ: قال: «كَانُوا لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِذَا وَلَّدُوهَا، وَلا إِنْ نَحَرُوهَا» [(٢)].

﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾فيه وعيدٌ وتهديد لهم على افترائهم على الله الكذب.

ومن جملةِ ظلمهم وسفههم وجورهم وهضمهم لحقوق الإناث ما أخبر الله عنه في قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾

فعَن ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما قال: قَوْلُهُ تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ يَعْنِي: اللَّبَنَ، كَانُوا يُحَرِّمُونَهُ عَلَى إِنَاثِهِمْ وَيُشَرِّبُونَهُ ذُكْرَانَهُمْ، كَانَت الشَّاةُ إِذَا وَلَدَتْ ذَكَراً ذَبَحُوهُ، فَكَانَ لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى تُرِكَتْ فَلَمْ تُذْبَحْ» [(٣)].

﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ أي وإن كانت ميتةً فهم فيه شركاء، الذكورُ والإناثُ ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ « وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَام يَعْنِي بِهَا الْأَجِنَّةَ وَقَالَ غَيْرُهُمْ: أَرَادَ بِهَا الْأَلْبَانَ وَالْأَجِنَّةَ جَمِيعاً، وَالْخَالِصُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا يَشُوبُهُ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِهِ كَالذَّهَبِ الْخَالِصِ، وَمِنْهُ إِخْلَاصُ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا أَنَّثَ خَالِصَةً عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الصِّفَةِ، كَالْعَلَّامَةِ وَالرَّاوِيَةِ، وَقِيلَ: عَلَى تَأْنِيثِ الْمَصْدَرِ، نَحْوُ الْعَاقِبَةِ وَالْعَافِيَةِ، وَمِنْهُ: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم

(١) لباب التأويل للخازن ٢ / ١٨٩ ويراجع تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٩١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٤ / ١٣٩١.

(٣) نفس المرجع ٥ / ٤٠٠.



بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ص: ٤٦]، وقِيلَ: لِتَأْنِيثِ مَا فِي بُطُونِهَا مِنْ الْأَنْعَام.

وقَوْله تَعَالَى ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ يَعْنِي أَجِنَّةَ الْأَنْعَام إِذَا كَانَتْ مَيْتَةً اسْتَوَى ذَكَرُهُمْ وَأُنْثَاهُمْ فِيهَا فَأَكَلُوهَا جَمِيعاً قَالَ أَبُو بَكْر: وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما قَالَ: إِذَا أَرَدْت أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَب فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَالْمِائَة مِنْ سُورَة الْأَنْعَام إِلَى قَوْله ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[1].

﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ ﴾ أي جزاءَ وصفِهم الكذبَ على الله تعالى في أمر التحليل والتحريم من قوله تعالى في سورة النحل﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تعليلٌ للوعيد بالجزاء، فإن الحكيمَ العليمَ بما صَدَرَ عنهم لا يكاد يترك جزاءَهم الذي هو من مقتضَيات الحكمة[2].

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

قتلوا رياحين الفؤاد وفلذات الأكباد سفها فكَانَ أَحَدُهُمْ يَقْتُلُ ابنه تقربا للأحجار، ويقتل ابْنَتَهُ مَخَافَةَ الْفَاقَة والعار، وَحَرَّمُوا مِنْ الأنعام وفق أهوائهم وما تمليه عليهم شياطين الإنس من الكهنة؛ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ، فأي خسارةٍ أعظم من ذلك!

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١١ بتصرف، وأثر ابن عباس سبق تخريجه ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٥/ ٣١٩٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٤٣٩.

الصلة بين المحور وآيات المقطع

لا تزال آيات هذه السورة الكريمة تكشفُ لنا المزيدَ من المشاهدِ والمواقفِ الدالةِ على ما كان عليه المشركون من سَفَهٍ وجهلٍ وظلمٍ وظلامٍ، واتباعٍ للأهواء، وتقليدٍ أعمى، وحميَّةٍ غاشمةٍ، وجرائمَ نكراء، وكذبٍ وافتراءٍ، في ظَلِّ تلك الجاهليةِ الجهلاء.

الهدايات المستنبطة

* تمضي بنا الآياتُ في جولةٍ أخرى لتكشف لنا المزيد من ظلمِ وجهالاتِ أولئك المشركين الذين حرَّموا ما أحلَّ الله لهم واستحلُّوا ما حرم عليهم.
* من كفرهم وجهلهم وإيثارهم لآلهتهم على الله سبحانه، أن جعلوا لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج دوابهم نصيباً، ولآلهتهم نصيباً من ذلك، يصرفونه في سدنتها والقائمين بخدمتها فإذا ذهب ما لآلهتهم بإنفاقه في ذلك عوّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غنيّ عن ذلك.
* كذا من جهالاتهم وحماقاتهم وجرائمهم ومن تزيين الشيطان لهم: أن زيَّنوا لهم قتل أولادهم سفها بغير علم، وذلك بوأدهم للبنات بحججٍ ساقطةٍ وعللٍ مُتهافتةٍ، وكان الرجل في الجاهليةِ يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرنّ أحدهم.
* بمناسبةِ قوله تعالى ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ قال سيد قطب رحمه الله: «ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبسا غامضا لا يقفون منه على تصور واضح.. فأما الهلاك فيتمثل ابتداء في قتلهم لأولادهم؛ ويتمثل أخيراً في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها، وصيرورة الناس ماشيةً ضالةً يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا، وفق أهوائهم ومصالحهم! حتى ليتحكمون في أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفرا من الخضوع؛ لأن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة - وما هي منها - بكل ثقلها وعمقها، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها، وتنشئ ثقلا ساحقا لا تقف له جماهير الناس، ما لم تعتصم منه بدين واضح؛ وما لم ترجع في أمرها كلِّه إلى ميزانٍ ثابتٍ، وهذه

التصورات المبهمة الغامضة؛ وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق، لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة، فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة.. هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفرا.. هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضا، وتكلفهم أحيانا ما لا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم، ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها.. أزياء الصباح، وأزياء بعد الظهر، وأزياء المساء.. الأزياء القصيرة، والأزياء الضيقة، والأزياء المضحكة! وأزياء التنكر وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف... إلى آخر هذا الاسترقاق المذلّ.. من الذي يصنعه ومن الذي يقف وراءه؟ تقف وراءه بيوت الأزياء. وتقف وراءه شركات الإنتاج! ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها!»[(١)].

* من ضروب جهالتهم وسفاهتهم وحمقهم وافترائهم: أنهم حرموا ما أحلَّ الله واستحلُّوا ما حرَّم الله فجعلوا من الأنعام والزروع ما لا يطعمها إلا من يشاءون من الكهنة والذكور حسب أهوائهم ووفق معتقداتهم الفاسدة.

* « وصف الله المشركين بأوصافٍ سبعة: هي: الخسران والسفاهة، وعدم العلم، وتحريم ما رزقهم الله، والافتراء على الله، والضلال وعدم الاهتداء، فهذه أمور سبعة وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم»[(٢)].

* وضعُ المرأة المزري وحقوقها الضائعة، في تلك الجاهلية الجهلاء والتقاليد البالية التي لم تسلم المرأةُ من عنتها، فعانت من ظلم أقربِ الناسِ إليها وعاشت مهيضةَ الجناح كسيرةَ الفؤاد حتى أشرق شمسُ الإسلام.

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٩ بتصرف.

(٢) يراجع: التفسير الكبير للرازي ٥ / ١٦١.

- ٢٣ -

حججٌ باهرةٌ، ونعمٌ ظاهرة

قال تعالى ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

المناسبة:

تنتظم هذه الآياتُ الكريمةُ مع سابقتِها في تقريرِ أصولِ العقيدةِ والأحكامِ الشرعيةِ

وتفنيد مزاعم المشركين والردِّ على جهالاتِهم، والتي من بينها تحريمُهم ما أحل الله وتحليلُهم ما حرم الله حسب أهوائِهم، وكما تكشف لنا هذه الآيات عن ضلالات وجهالاتٍ للمشركين فإنها تبرز لنا دلائل أخرى على وحدانيته تعالى وكمال قدرته وامتنانه على خلقه بتلك النعم التي تستوجب الشكر.

قال الإمام القرطبي: « ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتروا على الله الكذب وأشركوا معه وحللوا وحرموا: دلهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم»[1].

التفسير الإجمالي

في هذه الآيات الكريمة بيانٌ لجملةٍ من نعمه تعالى على عباده، وواجبنا نحو هذه النعم، و موقف المشركين من هذه النعم، هذا الموقف العجيب الذي يكشف عن جهلهم وضلالهم.

قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ ﴾ مرفوعات على الأعمدة ﴿ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ ﴾ غير مرفوعات عليها، وقيل: المعروشات ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والزرع والبطيخ، وغير المعروشات: ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار. وقيل المعروشات: ما استنبته الناس وعرَّشوه، وغير المعروشات: ما نبت في البراري والجبال[2].

﴿ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾ في طعمه وجودتِه وفوائِده.

﴿ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ ﴾ وهذا التنوع: في اللون والطعمِ والشكلِ، من تمام نعمِ الله وبديع صنعه.

﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٦٥.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٦٨ بتصرف.



دعوةٌ إلى أكل الحلال الطيِّب، وفيه ردٌّ على ما فعله الجاهليون من تحريم ما أحل الله، وبيانٌ لحق الفقراء في هذه الزروع والثمار فقد شرعت الزكاةُ - ابتداءً - في مكةَ، ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ تحذيرٌ من الإسراف فإنه تعالى لا يحبُّ المسرفين.

قال ابن العربي رحمه الله: « الْإِسْرَافُ: هُوَ الزِّيَادَةُ، فَقِيلَ لَهُمْ: لَا تُسْرِفُوا فِي الْأَكْلِ بِزِيَادَةِ الْحَرَامِ عَلَى مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تُسْرِفُوا فِي أَخْذِ زِيَادَةٍ عَلَى حَقِّكُمْ، وَهُوَ التِّسْعَةُ الْأَعْشَارُ، حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ، وَأَدُّوا مَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْكُمْ »[(١)].

وقال الشوكاني رحمه الله: «... وقيل: هو خطابٌ للوُلاةِ، يقول لهم لا تأخذوا فوق حقكم، وقيل المعنى: لا تأخذوا الشيء بغير حقه، وتضعونه في غير مستحقه»[(٢)].

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾: الحمولة ما يحمل عليها، وهذا مختصٌّ بالإبل والفرش ما يتخذ من الوبر والصوف والشعر، فراشاً يفترشه الناس.

﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

دعوةٌ للتمتع بالطيباتِ ونهيٌ عن اتباع خطوات الشيطان، ومن ضمنها الإسراف ومجاوزة الحد في الإنفاق وتحريم ما أحل الله أو استحلال ما حرم الله، كما كان يفعل أهل الجاهلية.

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

جاءت هاتان الآيتان لإقامة الحجةِ عليهما وإبطال ما كانوا عليه من جهالةٍ وسفاهةٍ،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٢٨٩.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٦٩.



حملتهم على تحريم ما أحلَّ الله فلم تدع لهم شبهةً إلا أبطلتها ولا حجة إلا أسقطتها.

والمعنى: قل لهم يا محمد على سبيل توبيخهم وإلزامهم الحجة: أحرَّم الله الذَّكرَين وحدَهما من الضأن والمعز أم الأنثيينِ وحدهما، أم الأجنَّة التي اشتملت عليها أرحام إناث الزوجين ذكوراً كانت تلك الأجنة أم إناثا؟

وقوله: ﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: أخبروني بأمرٍ معلوم من جهتِه - تعالى - نزل به الوحي، يدل على أنه - سبحانه - قد حرم شيئاً مما حرمتموه إنْ كنتم صادقين في دعوى التحريم.

والأمر هنا للتعجيز لأنهم لا دليل عندهم من العقل أو النقل على صحة تحريمهم لبعض الأنعام دون بعض.

﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ ﴾ قل آلذكرين من الضأن والمعز حرم عليكم أم الأنثيين منهما، فإن كان حرم الذكرين من الغنم فكل ذكورها حرام، وإن كان حرم الأنثيين منهما فكل إناثها حرام﴿ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾: أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز فإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى﴿ نَبِّـُٔونِى ﴾ أي أخبروني وبينوا لي﴿ بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يعني في أن الله حرم ذلك عليكم.

وهكذا تكشف لنا السورةُ الكريمةُ زيفَ ما عليه المشركون من ضلالاتٍ وجهالاتٍ، لا برهان لهم عليها.

قال الإمام الألوسي: « والمعنى - كما قال كثير من أجلة العلماء: إنكار أن الله تعالى حرم عليهم شيئا من هذه الأنواع الأربعة، وإظهار كذبهم في ذلك، وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما في بطونها للمبالغةِ في الردِّ عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادها كيفما كانت تارة أخرى، مسندين

ذلك كله إلى الله سبحانه»[١].

فدلَّ هذا على تضاربهم وتناقضهم، وهذا شأن من يركب الأهواء ويحتكم إلى الجهل ويركن إلى التقاليد البالية، ويسلِّم بالأقاويل الواهية.

فمن أشد ظلماً وبُعدا عن الحق ممن يكذب على الله، فيدعي تحريم ما لم يحرمه الله ليضل الناس بذلك ويصدهم عن سبيل الله ثم يدعي كذبا وافتراء أن الله أمره بهذا كما فعل عمرو بن لحي لعنه الله فهو أولُ من بَحَرَ البحَائر وسيَّب السوائب وغيَّر دين إبراهيم عليه السلام ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدع شيئاً لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك إلى الله تعالى لأن اللفظ عام فلا وجه للتخصيص، فكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لا يرشدهم ولا يوفقهم.

الطريق الصحيح لمعرفة الحلال والحرام

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ ﴾

لما بين تعالى فساد ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحل الله من غير حجة ولا برهان: بين أن طريق معرفة الحلال والحرام هو الوحي، وقد أوحى الله لنبيه ﷺ ، فبيَّن له أن الذي يحرُمُ أكلُه: هو الميتةُ أو الدم المسفوح، وهو ما سال من الحيوان في حال الحياة أو عند الذبح فإن ذلك الدم حرام نجس، وما سوى ذلك كالكبد والطحال فإنهما حلال لأنهما دمان جامدان.

ولقد حرم الإسلام هذه الأشياء لما في أكلها من الأضرار البالغة على صحة الإنسان ولا يزال العلم يكشف لنا عن تلك الأضرار المترتبة على أكلها، ومن المحرمات أيضا كلُّ ما ذُبِح

---

(١) روح المعاني للألوسي ٨ / ٣٩٦.



لغير الله فلا يجوزُ الأكل من هذه المحرمات إلا لضرورةٍ بالغةٍ، والضرورة تُقدَّر بقدرها فيأكل بقدر ما يسدُّ الرمق ويحفظُ حقَّ النفسِ.

وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا التحريم لا يختص بهذه الأشياء المنصوص عليها في هذه الآية فإن المحرم بنص الكتاب هو ما ذكر في هذه الآية.

وقد حرمت السنة أشياء فوجب القول بها: منها تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير.

قال الإمام الجصاص: «قَوْله تَعَالَى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ الْآيَةُ رُوِيَ عَنْ طَاوُسٍ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَسْتَحِلُّونَ أَشْيَاءَ وَيُحَرِّمُونَ أَشْيَاءَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ مِمَّا تَسْتَحِلُّونَ ﴿ عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ الْآيَةُ وَسِيَاقَةُ الْمُخَاطَبَةِ تَدُلُّ عَلَى مَا قَالَ طَاوُسٌ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ قَدَّمَ ذِكْرَ مَا كَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ الْأَنْعَامِ وَذَمَّهُمْ عَلَى تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّهُ وَعَنَّفَهُمْ وَأَبَانَ بِهِ عَنْ جَهْلِهِمْ لِأَنَّهُمْ حَرَّمُوا بِغَيْرِ حُجَّةٍ، ثُمَّ عَطَفَ قَوْله تَعَالَى ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ يَعْنِي تُحَرِّمُونَهُ إلَّا مَا ذُكِرَ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْآيَةِ لَمْ يَجُزْ الِاسْتِدْلَال بِهَا عَلَى إبَاحَةِ مَا خَرَجَ عَنْ الْآيَةِ»[1].

محرمات على اليهود

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

لما بين عز وجل أن التحريم لا يكون إلا بوحي إلهيٍّ ناسب ذلك بيان المحرمات على من قبلنا فبين تعالى المحرمات على اليهود، حيث شدد الله عليهم عقابا لهم وتضييقا عليهم، أما أمة الإسلام فقد خفف الله عنهم ورفع عنهم الحرج تيسيرا عليهم ورحمةً بهم.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢١.



وإذا كان الله تعالى قد حرم أكل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير لما في ذلك من أضرارٍ جسيمةٍ، فقد حرم الله سبحانه على اليهود أشياءً أخرى كانت حلالا عليهم لكنه تعالى حرمها عليهم بسبب ظلمهم وتعنتهم وغلوِّهم وتشددهم وصدودهم وجحودهم.

قال تعالى في سورة النساء﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ حرم الله عليهم: كل ذي ظفر: وهو كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي حافر من الدواب ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ من الشحوم فإنها مباحةٌ، أما لحومها فإنها باقية على الحل ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ : الحوايا هي الأمعاء وكل ما احتواه البطن ﴿ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ﴾ أي كل شحم خالط عظما مثل شحم الجنب والألية.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ ﴾ شدد الله عليهم بسبب بغيهم وانتهاكهم لمحارم الله.

﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ يقول: وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عما حرمنا عليهم، وفي غير ذلك من أخبارنا.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

فمن رحمته تعالى أن أمهلكم وأقام عليكم الحجج والبراهين ودعاكم إلى الدين الحنيف دين الرحمة والتخفيف، فلا تغتروا بإمهاله لكم.

أو ﴿ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾ بعباده المؤمنين ولا يُرَدُّ بأسُهُ عن القوم المجرمين، فرحمتُه يختصُّ بها عبادَهُ المؤمنين وبأسُه لا يُردُّ عن القومِ المجرمين، والتكذيبُ بكلام الحق جريمةٌ كبرى تستوجب العقوبةَ الشديدة.

أو﴿ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾: فلا تحرموا أنفسكم منها بتكذيبكم، واحذروا من بأسه الذي لا رادَّ له إذا حل بالمجرمين، وتكذيب الوحي الإلهي من أشنع الجرائم في ذاته، وفيما يترتب عليه.

احتجاجهم الخاطئ بالقدر.

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

هنالك وبعد إقامة الحجج والبراهين على المشركين لم يبق لهم من مبررٍ إلا زعمهم أن الله تعالى قد اختار لهم هذا الطريق ولو شاء لصرفهم عنه وهداهم إلى الحق، وهذه حجةٌ واهيةٌ كثيرا ما يتعلل بها المجرمون ويتعلق بها الضالون، أن هذا قدرُ الله بهم ولو شاء هدايتهم لهداهم، ونردُّ على هؤلاءِ بأنهم سلكوا طريق الضلال باختيارهم فلم يُرغموا عليه بل اختاروه طواعيةً وارتضوه منهجا ودعوةً وصاروا له حماةً ورُعاةً.

فقد جعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجةً على إقامتهم على الكفر والشرك. وقالوا: إن الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي ما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحالَ بيننا وبين ذلك﴿ وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ ﴾يعني ما حرموه من البحائر والسوائب وغيرها ،فقال الله عز وجل رداً وتكذيباً لهم﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني ممن سبقهم إلى الكفر ﴿ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ ﴾يعني عذابنا.

ونظيرُ هذا إخبارُ الله عنهم في سورة النحل بقولهم هذا القول يوم القيامة قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النحل: ٣٥]

ومرادُهم أن الله لما كان قادراً على منعهم من الإشراك، ولم يمنعهم منه أن ذلك دليل على رضاهُ بشركِهم، ولذلك كذبهم هنا بقوله ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ ﴾ الآية، وفي سورة الزخرف ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الزخرف: ٢٠].

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

بعد أن أقام الحجج والبراهين وبدَّد ظلام وأوهام الجاهليين وفند مزاعمهم وشبهاتهم حتى لم يثبتْ لهم دليلٌ ولم تقم لهم حجةٌ قال سبحانه ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾: له وحده الحجة البالغة ولو شاء هدايتهم أجمعين لهداهم، ولكنه تعالى سبق في علمه حرصُهم على المُضيِّ في طريقِ الضلالِ، واستحبابهم العمى على الهدى وإيثارهم الهوى على الحقِّ المبين.

فالحجة، لا بد أن تكون قائمةً على العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والوهم، الذي لا يغني من الحق شيئا، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ فلو كان لهم علم- وهم خصوم ألداء -لأخرجوه ،فلما لم يخرجوه عُلِمَ أنه لا علم عندهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ومَنْ بَنَى حُجَجَهُ على الخرصِ والظنِ: فهو مبطلٌ خاسرٌ، فكيف إذا بناها على البغي والعنادِ، والشرِّ والفسادِ؟

فقولهم كما أخبر القرآن عنهم﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ حقٌّ أريد به باطلٌ فنحن نؤمن بالقدر ونوقن بمشيئته تعالى ولكن لا نعلِّقُ عليها أخطاءنا وتقصيرنا بحجةِ أن ذلك أمرٌ مقدرٌ علينا، وقد فعلنا ذلك مختارين، ولو أن كلَّ من ارتكب جريمةً شنيعةً التمسنا العذرَ له بحجة أنه فعلها قضاءً وقدراً لوجد المجرمون لهم مخرجا من كلِّ جرمٍ ولعمَّت الفوضى وشاع الهرجُ في المجتمعاتِ.

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

إذا لم يبق لكم دليلٌ ولم تسلم لكم حجة فماذا بقي لكم؟ هل عنكم من يشهد لكم؟﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ ﴾ وأنى لهم ذلك! فهذه الدعوة بإحضار الشهود إنما هي على وجه التعجيز لهم، وإلا فلن يميل إلى هذه الشهادة إلا أهلُ الزورِ فلا تغترَّ بشهادتهم، ولا تنخدع بأيمانهم ولا تتبع أهواءهم فإنهم مكذبون وبربهم يعدلون إذ يسوون بينه وبين الأصنام التي عبدوها، فلم ينتفعوا بتلك الحجج ولم يعتبروا بها بل تمادوا في كفرهم وعدلوا عن طريق الحقِّ وتوغلوا في طرقِ الضلال.

قال القاسمي رحمه الله: « والمراد ب ﴿ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ﴾ قدوتهم الذين ينصرون قولهم، وإنما أُمِروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة، ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم، وأنه لا متمسك لهم، كمن يقلدهم فيحق الحق ويبطل الباطل »[1].

الصلة بين محور السورة وآيات المقطع

تنتظم هذه الآيات الكريمة مع السياق العام للسورة وهو تقرير العقيدة الصحيحة؛ وذلك بما ورد فيها من حججٍ باهرةٍ، ودلائلَ نيِّرةٍ تدلُّ على كمال قدرته تعالى وبديع صنعِه ولطائفِ آياتِه وامتنانه على خلْقه بنعمه الظاهرةِ والباطنةِ، يعقبُ ذلك بيانُ جملةٍ من الأحكام الشرعية، ثم تكشف الآيات عن زيف دعاوى المشركين التي لا دليلَ عليها، ولا مستند لها إلا الكذب واتباع الهوى، ثم يعودُ السياق إلى بيان المحرمات الشرعية، ويستطرد لبيان ما حرم الله تعالى على اليهود، يعقب ذلك تسلية النبي ﷺ وتلقينه الجواب الشافي والموقف الراشد من تكذيب المشركين الذين حرموا أنفسهم من رحمة الله تعالى واستحقوا بأسَه الذي لا يردُّ عن الكافرين، وتنتهي آيات هذا المقطع بتفنيد شبهِ المشركين وأوهامِهم وإبطالِ عِلَلهم.

الهدايات المستنبطة

* في هذه الآيات الكريمة ردٌّ على جهالات المشركين الذين حرَّموا ما أحلَّ الله وأحلوا ما حرَّمه تعالى حسب أهوائهم.
* كما تبرز لنا دلائل أخرى على وحدانيته تعالى وكمال قدرته وامتننانه على خلقه بتلك النعم التي تستوجب الشكر.
* وجوب الزكاة في الزروع والثمار، عند حصادها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده.
* دعوةٌ للتمتع بالطيباتِ ونهيٌ عن اتباع خطوات الشيطان، ومِنْ ضِمْنِهَا الإسرافُ ومجاوزةُ

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٤/ ٧٨٠.

الحد في الإنفاقِ وتحريمُ ما أحل الله أو تحليلُ ما حرم الله، كما كان يفعلُ أهلُ الجاهلية.

* قال الإمام القرطبي: « قوله تعالى: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ عطف عليه﴿ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ نصب على الحال، وفي هذه أدلة ثلاثة: **أحدها**: ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لا بد لها من مغيِّر، **الثاني**: على المنة منه – سبحانه – علينا، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم، وإذا خلقه كذلك ألا يكون سهل الجنى، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء، لأنه لا يجب عليه شيء.

الثالث: على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأت فيها أوراق ليست من جنسها، وثمر خارج من صفته: الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجنى الجديد، والطعم اللذيذ، فأين الطبائع وأجناسها وأين الفلاسفة وأناسها، هل في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتب هذا الترتيب العجيب! كلا! لا يتم ذلك في العقول إلا لحي عالم قدير مريد، فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية!»[(١)].

* إقامة الحجةِ عليهما وإبطال ما كانوا عليه من جهالةٍ وسفاهةٍ، حملتهم على تحريمِ ما أحلَّ الله فلم تدع لهم شبهةً إلا أبطلتها ولا حجة إلا أسقطتها.

* دلَّت الآيات على تضارب المشركين وتناقضهم، وهذا شأن من يركب الأهواء ويحتكم إلى الجهل، ويسلِّم بالأقاويل الواهية.

* « قال المحققون: إذا ثبت أن من افترى على الله الكذب في تحريم مباح استحق هذا الوعيد الشديد، فمن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشد وأشق»[(٢)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٦٥.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٥ / ١٦٧.

* وفي الآيات دليل على إثبات المناظرة في العلم وإثبات القول بالنظر والقياس.[(١)]
* لما بين تعالى فساد ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحل الله من غير حجة ولا برهان: بين أن طريق معرفة الحلال والحرام هو الوحي.
* يتعلل المشركون حين تعييهم الحجج بأن الله تعالى قد اختار لهم هذا الطريق ولو شاء لصرفهم عنه وهداهم إلى الحق وهذه حجةٌ واهيةٌ كثيرا ما يتعلل بها المجرمون ويتعلق بها الضالون أن هذا قدرُ الله بهم ولو شاء هدايتهم لهداهم، ونردُّ على هؤلاءِ بأنهم سلكوا طريق الضلال باختيارهم فلم يُرغموا عليه بل اختاروه طواعيةً وارتضوه منهجا ودعوةً.

- ٢٤ -

الوصايا العشر

قال تعالى ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

المناسبة

بعد إبطال حجج المخالفين وبيان ما هم عليه من زيغٍ وضلالٍ، ونقضِ معتقداتهم

(١) قال السيوطي رحمه الله في الإتقان تحت عنوان: فصل من الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل: «السبر، والتقسيم: ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾...»، يراجع الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢ / ١٣٧.

الفاسدة وتقاليدهم الراكدة جاءت هذه الآياتُ بالمنهج القويم المتمثِّل في تلك الوصايا الخالدة الجامعة لأسسِ العقيدة وأصول الشريعة ومكارمِ الأخلاق.

قال البقاعي: « ولما أبطل دينهم كلَّه أصولاً وفروعاً في التحريم والإشراك، وبيَّن فساده بالدلائل النيرة، ناسب أن يخبرهم بالدين الحق»[1].

وثمَّة مناسبة أخرى: وهي بعد ما ذكر تعالى ما فعله المشركون من تحريم ما أحل الله، وما فعله تعالى باليهود من تحريمِ بعض الطيباتِ عليهم لتعنُّتِهم وتشددهم وظلمهم وقسوة قلوبهم: ناسب ذلك الحديث عن المحرمات الثابتة في جميع الرسالات الربانية فقال سبحانه ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى آخر الآيات.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هذه الآيَاتُ المُحْكَمَاتُ التي ذكرها الله تعالى في سُورة «الأنعام» أجمعت عليها شرائعُ الخَلْق، ولم تُنْسَخ قط في مِلَّةٍ، وقد قيل: إنَّها العَشْر كلمات المُنَزَّلة على مُوسَى عليه السلام[2].

التفسير الإجمالي

اشتملت هذه الآيات الكريمة على تلك الوصايا الخالدة الجامعة، فكان مستهلُّها تلك الدعوة العامة إلى العنايةِ بهذه الوصايا، قال تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، ثم بدأ بأولِّها وأساسها وهو النهي عن الشركِ بجميع صورِه ومظاهِرِه، وهذا يعني إخلاص العبادة لله تعالى فلا ربَّ غيره ولا معبود سواهُ، والعقيدة الصحيحة هي الركن الأول من أركان الإسلام والأساس الراسخ لهذا البنيان الشامخ، وهي المحور العام لهذه السورة الكريمة.

ثم أمر سبحانه بالإحسان إلى الوالدين ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ولم يقل سبحانه على غرار

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢ / ٧٤٠ .

(٢) اللباب لابن عادل - ٧ / ٢٢٩.



ما سبق ولا تسيئوا للوالدين كما قال أن لا تشركوا بالله شيئا، فليس الأمر مجرد كفِّ الأذى عن الوالدين وتجنب الإساءة إليهما، بل يجب الإحسان إليهما وبرُّهما.

ثم أتبع ذلك بالنهي عن قتل الأولاد؛ بحُجَّةِ الفقر كما كان يفعلُ أهلُ الجاهليةِ الأولى فقد تكفل الله برزق الأبوين والأولاد جميعا﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ وفي سورة الإسراء ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

فآية الأنعام تُفِيد النَّهْي عن قَتْل الأولاد، وإن كان الآباء مُتَلَبِّسِين بالفَقْر، وآية الإسراء نهي عن قتل الأولاد خوفا عليهم من حصولِ الفَقْر لهم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ : أَيُّ الذنب أَعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قَالَ: « أَنْ تَجْعَلَ لله نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: « ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ قُلْتُ: ثُمّ أَيُّ؟ قَالَ: « ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكِ»[(١)].

وشاع في الجاهلية وأد البنات مخافة العار الذي قد يحصُلُ عند نشوبِ حربٍ، فربما وقعن في السبي، وقتل البنينَ تقرُّبا للأحجار ووفاء بالنذورِ.

ثم نهى سبحانه عن اقتراب الفواحش فضلا عن اقترافها فقال سبحانه ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾.

وهذا نهيٌ عن مقاربةِ جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن: سرها وعلانيتها.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعودٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنْ اللَّهِ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب باب قتل الولد خشية أن يأكل معه حديث ٦٠٠١، وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده حديث ١٤١- (٨٦).

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا=

ثم نهى عن قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بحقها ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي إلا بما يوجبه الحق، ومن الحق قتلها قصاصاً، أو بالرجم لمن زنا وهو محصن أو قتلها بسبب الردّة، ونحو ذلك من الأسباب التي ورد الشرع بها.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلم يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّٰه وأَنِّي رَسولُ الله إِلاَّ بإِحْدَى ثَلاثٍ: الثَّيِّبِ الزَّانِي، وَالنَّفْس بالنَّفْسِ، وَالتَّارِكِ لِدينِهِ المُفَارِقِ للجَمَاعَةِ»[1].

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تُعمِلون عقولكم فتحجزكم عن الوقوع في هذه المحرمات، حين تعقلون مقاصد الأحكام الشرعية وحِكَمَها البالغة، ومراعاتها لمصالح الدين والدنيا، وحرصها على صلاح النفس والمجتمع، وتدركون عِظَمَها عند مُشَرِّعِها.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحُه وتثميرُه وتحصيلُ الربح له، قال مجاهد: هو التجارة فيه، وقال الضحاك: هو أن يسعى له فيه، ولا يأخذ من ربحه شيئاً هذا إذا كان القيم بالمال غنياً غير محتاج فلو كان الوصي فقيراً فله أن يأكل بالمعروف، كما قال سبحانه في سورة النساء ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾، وقال تعالى في سورة البقرة ﴿ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ ﴾ [البقرة ٢٢٠] فلا بأس من المخالطة على وجه الإصلاح والنُّصح.

﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾أي احفظوا مال اليتيم إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله.

= ﴿ وَمَا بَطَنَ ﴾ حديث ٤٣٥٨ ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب التوبة - باب غيرة اللهِ تعالى، وتحريم الفواحش حديث ٩٠١- (١).

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الديات باب قوله تعالى ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة ٤٥] حديث ٦٨٧٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب ما يباح به دم المسلم الحديث رقم ١٦٧٦ - (٢٥).

فأما الأشد فهو بلوغ سنِّ الحلم مع إيناس الرشد، كما في قوله تعالى في سورة النساء ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ أي بالعدل من غير زيادة ولا نقصان.

﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ ﴾: فينبغي تحري العدالة مع الآخرين بقدرِ ما يسعُ الإنسان﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ ﴾ فالعدلُ واجبٌ في كلِّ قولٍ وحكمٍ.

﴿ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ ﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم؛ فلا تكون القرابات مانعا من إقامة العدل.

﴿ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ﴾ دعوةٌ إلى الوفاء بجميع العهود وفي مقدمتها عهدُ الله تعالى فهو أولى بالوفاء، وما أوصى به من حقوقٍ شرعيةٍ.

﴿ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون وتنتهون، فالوصيةُ دائماً محلَّ عنايةٍ واهتمامٍ من المُوصَى، ودائما ما يتذكرُها.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

وأن هذا الذي وصيتكم به وبينته لكم هو الصراط المستقيم والدين القويم الذي لا اعوجاج فيه فاتبعوه.

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾ يعني الطرق المختلفة والملل والنحل والأهواء والبدع المضلة: كاليهودية والنصرانية وسائر الأديان المحرفة والوضعية والدعوات الهدامة والمذاهب الضالة

﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾: فتميل بكم تلك الملل والأهواء والنِّحل عن دينه تعالى وطريقه الذي ارتضاه لعباده.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطّاً، ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[(١)].

وعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعاً ولا تَعْوَجُّوا وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[(٢)].

فائدة: ذكر سبحانه: أولاً ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ ثم ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ ثم ﴿ تَتَّقُونَ ﴾ لأنهم إذا تعقلوا تفكروا ثم تذكروا، فاتقوا محارمَ الله.

وقال ابن عطية: « وفي قوله﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ ومن حيث كانت المحرمات الأول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبارة لعلكم تعقلون، والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢٨٩٢ وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه »، ورواه الإمام أحمد في المسند ١ / ٤٣٥ والبزار كما في مسنده ـ البحر الزخار ٥ / ٧٨ حديث ١٤٨٩، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩١ كتاب التفسير، باب سورة الأنعام، وقال: « رواه أحمد والبزار وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة، وفيه ضعف « ورواه النسائي في السنن الكبرى السنن الكبرى للنسائي ٦ / ٣٤٣ حديث ١١١٧٤، وابن بطة في الإبانة الكبرى ١ / ١٣٦ حديث ١٣١، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ٨١٣٠ وإسناده حسن ورواه الدارمي في السنن ١ / ٢٣٠ حديث ٢٠٨ وابن حبان في صحيحه ١/ ١٨٠ حديث ٦.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك عن النواس بن سمعان ﷺ المستدرك على الصحيحين للحاكم ١/ ١٤٤ حديث ٢٢٧وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه »ورواه الإمام أحمد في المسند ٤ / ١٨٢ والبيهقي في شعب الإيمان ٥ / ٤٤٤ حديث ٧٢١٦.

من العقلاء من لم يتذكر قال لعلكم تذكرون، وركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل وتلك درجة التقوى قال لعلكم تتقون»[1].

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

صلة آيات هذا المقطع مع محور السورة واضحةٌ بيِّنةٌ؛ إذ بعْدَ إثباتِ تهافتِ حججِ المخالفين، وإبطالِ تصوراتِهم، وتفنيدِ شبهاتِهم، وتبديدِ أوهامِهم: جاءت هذه الآياتُ بالمنهجِ القويم المتمثِّلِ في تلك الوصايا الخالدةِ، الجامعةِ لأُسسِ العقيدة وأصول الشريعة ومكارمِ الأخلاقِ، وهذا من باب التحليةِ بعد التخليةِ.

الهدايات المستنبطة

* اشتملت هذه الآية الكريمة على جملةٍ من الوصايا الراشدة والتي في مقدمتها مراعاة حقوق الله تعالى فدعت إلى اجتناب الشركِ بجميع صورِهِ ومظاهِرِهِ، وهذا يعني إخلاص العبادة لله تعالى فلا ربَّ غيره ولا معبود سواهُ، والعقيدة الصحيحة هي الركن الأول من أركان الإسلام والأساس الراسخ لهذا البنيان الشامخ، كما أوصت بالإحسان إلى الوالدين ومراعاة حقوق الأولاد، والنهي عن اقتراب الفواحش ما ظهر منها وما بطن إلى آخر تلك الوصايا الخالدة التي جمعت بين ترسيخ العقيدة الصحيحة وتقرير الأحكام الشرعية والدعوة إلى مكارم الأخلاق.
* تضمنت الآياتُ الكريمةُ دعوةً إلى تعقلِ مقاصد الأحكام الشرعية، وتبصُّرِ حِكَمِها البالغة ومراعاتها لمصالح الدين والدنيا، وحرصِها على صلاحِ النفسِ والمجتمعِ.
* أمر الله المؤمنين بالصراط المستقيم، ونهاهم عن النكوبِ عنه باتباع السبل التي تُفضي إلى الفرقةِ والبعد عن الحق.

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٤٠٠ بتصرف.

- ٢٥ -

من مشكاة واحدة

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

المناسبة

جاءت هذه الآياتُ الكريمةُ مقررةً للوصيةِ مؤكدةً لها، كما جاءت تمهيدا وتوطئةً للحديث عن القرآن الكريم والوصيةِ به، وفيها بيانُ قيام الحجةِ على المشركين فلم يعدْ لهم عذرٌ ولم تبقَ لهم حجةٌ، كيف وهذا الكتابُ بين أيديهم؟

التفسير الإجمالي

أخبر الله تعالى عن إنزاله التوراة على موسى عليه السلام وأبانَ عن مقاصدها وسماتِها فبين سبحانه أنها نزلت هدايةً ورحمةً وبيانا وحكمةً وفضلا من الله ونعمةً ونورا وعصمة ورحمة ثم استطرد السياق إلى الحديث عن نزولِ القرآن الكريم بالبركات والرحمات وأنه لا عذر لمن أعرض عنه فهو المعجزةُ الكبرى والرسالةُ الخالدةُ والحجةُ البالغةُ.

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ « ثم للتراخي في الإخبار كما في قولك: بلغني ما صنعتَ اليوم ثم ما صنعتَ أمس أعجبُ، أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل: ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً ثم أعظمُ من ذلك أنا آتينا موسى التوراةَ، فإن إيتاءَها مشتملةً على الوصية المذكورةِ وغيرِها أعظمُ

من التوصية بها فقط »[1].

أي تماماً على من أحسن من قومه لأنه كان منهم المحسن والمسيء، وقيل: معناه تماماً على كل من أحسن من الأنبياء والصالحين أي أتممنا فضلَه عليهم بالكتاب، وقيل: الذي أحسن هو موسى فيكون الذي بمعنى ما أي على ما أحسن، وتقديره وآتينا موسى الكتاب إتماماً للنعمة عليه لإحسانِهِ في الطاعةِ والعبادةِ وتبليغِ الرسالةِ وأداء الأمر.

آتاه الله التوراة هدايةً ورحمةً وتماما وتفصيلا ووفاءً لجميع ما يحتاج إليه في شريعته، كما قال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٥].

وإذا كانت التوراة تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء، فالقرآنُ الكريم هو الرسالة المتممةُ الخالدة والمعجزة الباقيةُ المتجددة والينبوعُ الفياضُ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ أخبر تعالى عن أنه أنزله ووصفه بالبركة وأمر باتباعِهِ، وتقواهُ تعالى لمن يطمعُ في رحمته.

ثم بين المراد من إنزاله وهو إقامة الحجة البالغة فقال سبحانه﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾: نزل القرآن الكريم بهذا اللسان العربي حجةً على الناس عامة وعلى العرب خاصةً؛ لئلا يتعللوا بأن الكتبَ نزلت على اليهود والنصارى، ولم يتمكنوا من دراستِها بسببِ الأميةِ التي كانت سائدةً، وكونها لم تنزل بلغتهم التي يفهمونها.

﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ ﴾ أي أهدى من تلك الأمم كما قال سبحانه عنهم في سورة فاطر ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ

(١) نفس المرجع ٢ / ٤٦٢.



ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾: فهذا كتابُ الله تعالى جاء بالهدى والرحمة، ونزل بلغتهم على رسولِ الله ﷺ الذي اصطفاه ربه من بينهم « عبر عنه بالبينة أولاً: إيذاناً بكمالِ تمكنِهم من دراستِه، وبالهدى والرحمة ثانياً: تنبيهاً على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو عين الهداية والرحمة»[1].

قال صاحب التحرير والتنوير: « والبيّنة ما به البيان وظهور الحقّ. فالقرآن بيّنة على أنَّه من عند الله لإعجازه بلغاء العرب، وهو هدى بما اشتمل عليه من الإرشاد إلى طرق الخير، وهو رحمة بما جاء به من شريعة سمحة لا حرج فيها، فهي مقيمة لصلاح الأمّة مع التّيسير...»[2].

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ إذ ما عذرهم في الإعراض والتكذيب؟.

فهل هناك أظلم ممن كذب بآيات الله بعد إذ جاءته وصدف عنها: أعرض عنها وصدَّ الناس عنها، ولما عظم جرمه بيَّن عقوبته فقال ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظم آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة، حيث تقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها في القلوب، ومن أركانها الأساسية وركائزها الجوهرية الإيمان بالكتب السماوية، حيث جاء الحديث في هذا المقطع عن التوراة نزولها ومقاصدها، تمهيدا للحديث عن القرآن الكريم والدعوة إلى الإيمان به فهو آخر الكتب، أنزله الله على خاتمِ الأنبياءِ والرسلِ نبينا محمد ﷺ ولا

(١) روح المعاني للألوسي ٨/ ٤٢٢.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٨/ ١٨٢.



حجة للمشركين ولا عذر لهم في الإعراض عنه وقد تجلت آياته وتدفَّقتْ حُجَجُه.

الهدايات المستنبطة

* نزلت التوراة على موسى عليه السلام تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء، أما القرآن الكريم: فهو الرسالة المتممةُ الخالدة والمعجزة الباقيةُ والحجج المتجددة.

* كثيرا ما يتبعُ الحديثُ عن أحد الكتابين الحديثَ عن الآخر من ذلك قوله تعالى في هذه السورة﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ وقوله تعالى في سورة الرعد﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

* وقوله جلَّ وعلا في سورة الفرقان ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

* وفي سورة فصلت ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ وجواب ذلك أدركه ورقة بن نوفل رضي الله عنه عند استماعه لأول رسالةٍ قرآنيةٍ ومن أولِ وهلةٍ، فقال عبارتَهُ المشهورةُ:

« هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ﷺ »[(١)] وقول النجاشي حين استمع إلى القرآن: إِنَّ هَذَا وَاللهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ... »[(٢)].

* نزل القرآن الكريم بهذا اللسان العربي حجةً على الناس عامة وعلى العرب خاصةً؛ لئلا يتعللوا بأن الكتبَ نزلت على اليهود والنصارى، ولم يتمكنوا من دراستها بسبب الأمية التي كانت سائدةً، وكونها لم تنزل بلغتهم التي يفهمونها.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.[(٣)].

وفيه: بيان لما كان عليه العرب قبل نزول القرآن، من الغفلة عما يعلمه أهل الكتاب.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها كتاب بدء الوحي -باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/ ٥ الحديث رقم:٣ -ورواه مسلم في صحيحه - عنها رضي الله عنها كتاب الإيمان - باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/ ١٣٩ - الحديث رقم :٢٥٢ (١٦٠) وقوله: جَذَعاً يعني شابا قويا حتى أبالغ في نصرتك.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أم سلمة رضي الله عنها مسند أحمد بن حنبل ١ / ٢٠١ حديث ١٦٤٩ وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب المغازي والسير باب الهجرة إلى الحبشة ٦/ ٢٥ حديث ٩٨٤٢ وقال " رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق وقد صرح بالسماع " ورواه ابن خزيمة في صحيحه ٤/ ١٣ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١١٥ وفي السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٨٠

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٨٠



خاتمة السورة

وماذا بعد الحُجَج؟

قال تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (١٦٥) ﴾

المناسبة

ماذا بعد ما اشتملت عليه السورةُ الكريمةُ من حُجَجٍ؟ هل بَقِيَ للمعرضين عذرٌ؟ وماذا ينتظرون بعد قيامِ الحججِ عليهم ودحضِ كلِّ شبهةٍ لديهم؟ وإزالةِ كلِّ ما يعتريهم من لبسٍ وإيهامٍ، وتبديدِ ما هم عليهم من جهالاتٍ وأوهامٍ؟

التفسير الإجمالي

ماذا بقي لهم إن لم يرجعوا بعد هذا البيانِ إلا العيانُ، ولكن حين لا ينفعُ الإيمانُ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾، فالآيةُ وعيدٌ شديد وإنذارٌ للمشركين الذين لا يزالون على صدودهم وإعراضهم بعد تمام

الحجج وتعاقب الأدلة وجلاء البراهين، فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة كما طلبوا فقد كذبوا بالآيات الجلية أو لقبض أرواحهم.

قال الشنقيطي رحمه الله: « ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة إتيان الله جل وعلا وملائكته يوم القيامة، وذكر ذلك في موضع آخر، وزاد فيه أن الملائكة يجيئون صفوفاً وهو قوله تعالى ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر: ٢٢]، وذكره في موضع آخر، وزاد فيه أنه جل وعلا يأتي في ظلل من الغمام وهو قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] الآية، ومثل هذا من صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه يُمَرُّ كما جاء ويؤمن بها، ويعتقد أنه حق، وأنه لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه: ١١٠]» [١].

وقال السعدي: «﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ لفصلِ القضاءِ بين العبادِ، ومجازاة المحسنين والمسيئين، ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ الدالة على قرب الساعة» [٢].

﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ قال الإمام البغوي رحمه الله: « أي: لا ينفعُهم الإيمانُ عند ظهور الآيةِ التي تضطرهم إلى الإيمان، ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾: يريد: لا يقبل إيمان كافر ولا توبة فاسق» [٣].

وسبب عدم نفع الإيمان عند ذلك أنه عند مشاهدة تلك الآيات يحصل العلم الضروري ويرتفع الإيمان بالغيب وهو المكلف به فيكون الإيمان حينئذ كالإيمان عند مجيء الموت كما قال سبحانه في سورة النساء ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٢ / ٧٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٨١.

(٣) معالم التنزيل للبغوي ٣ / ٢٠٧.

أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾: فستعلمون لمن تكون العاقبة.

عاقبة الاختلاف والفرقة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

بعد الحجج النيرات والآيات الباهرات يأتي الوعيدُ الشديد لأولئك المكابرين المعاندين، من الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾.

قال الطبري رحمه الله: «... وذلك أن كل ضالٍّ فلدينه مفارق، وقد فرَّق الأحزابُ دينَ الله الذي ارتضاه لعباده، فتهوَّد بعض وتنصَّر آخرون، وتمجَّس بعض، وذلك هو « التفريق» بعينه ومصير أهله شيعاً متفرقين غير مجتمعين، فهم لدين الله الحقِّ مفارقون، وله مفرِّقون»[(١)].

وهل المراد بأولئك الذين فرقوا دينهم اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الملل أم المراد بهم أهل الأهواء والبدع من أدعياء الإسلام؟

يجيب عن ذلك الإمام الطبري فيقول: « والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله أخبر نبيه ﷺ أنه بريء ممن فارق دينه الحق وفرَّقه، وكانوا فرقاً فيه وأحزاباً شيعاً، وأنه ليس منهم، ولا هم منه، لأن دينه الذي بعثه الله به هو الإسلام، دين إبراهيم الحنيفية، كما قال له ربه وأمره أن يقول ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾سورة الأنعام: ١٦١]».

وقوله تعالى ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.

---

(١) جامع البيان للطبري ٨/ ١٢٤.



إعلامٌ بالبراءةِ منهم ودعوةٌ إلى الإعراض عنهم، وتفويضُ أمرهم إلى الله تعالى فإن شاء تاب عليهم وهداهم، وردَّهم إلى الحقِّ، وإن شاء عجَّل لهم العقوبةَ في الدنيا فضلا عما ينتظرُهُم في الآخرة، أو أمهلهم في الدنيا لينالوا عقابهم في الآخرة.

وفرقوا دينهم يعني جعلوا دينهم وهو دين إبراهيم الحنيفية السمحة أدياناً مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الأصنام ونحو ذلك من الأديان المختلفة، ومن قرأ فارقوا دينهم قال: معناه باينوه وتركوه من المفارقة للشيء، وقيل: إن معنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد في الحقيقة وهو أن من فرق دينه فآمن ببعض وأنكر بعضاً فقد فارق دينه في الحقيقة[1].

العدل والفضل

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾حيث لا ينقصُ من ثوابِ الطائعِ، ولا يُزاد على عذاب العاصي، بل يضاعف الله الحسنات ويمحو السيئات.

المنهجُ القويمُ

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي (فارقوا)، وقرأ الباقون (فرّقوا) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ٢٠٠ وحجة القراءات لابن زنجلة ص ٢٧٨، وفارقوا من المفارقة وهي الترك وذلك لمن آمن ببعض وترك البعض فقد ترك الدين القيم، أو فاعل بمعنى فعل من التفرق والتجزئة أي آمنوا ببعضه كما قال تعالى في نفس السورة ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ فإن المشركين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم وقد هجروا منه وزادوا فيه الكثير والكثير.

الحنيفية السمحاء

بعد إقامة الحجج الظاهرة والأدلة الباهرة، وبعد انكشاف ما عليه أهل الكفر من زيغٍ وانحرافٍ وذمِّ سبلهم، ذكَّرَ بالمنهج القويم والصراطِ السويِّ ليكون مسك الختام لهذه السورة الكريمة، فأمر سبحانه نبيه ﷺ أَن يُؤديَ هذه الرسالة التي تتضمن معالم هذا المنهج الرباني وتعلن بوضوحٍ عن خصائصِ هذا الدين: حيث امتنَّ الله عليه بالهداية إلى صراطه المستقيم وهداه إلى الدين القيِّم والملة الحنيفية السمحاء ملة أبي الأنبياء إبراهيم ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

وفي هذا الآية الكريمة تعريضٌ بالمشركين واليهود والنصارى الذين زاغوا عن هذه الملة الغراء.

الإخلاص في كلِّ قولٍ وفعلٍ

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ أمرٌ للنبي ﷺ ولجميع المؤمنين أن يُعلنوا عن إخلاصِهم لله تعالى في سائر أمورِهم وأحوالهم وفي جميع أقوالهم وأعمالهم.

« وخصص من ذلك أشرف العبادات فقال:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ ﴾ أي: ذبحي وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى، ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله» [(١)].

التبرؤ من الشركِ وتقرير الوحدانية

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٨٢ بتصرف .

قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ومليكه، هو الخالق الرازق المدبر لشؤون خلقه المصرف لملكه!

قل أغير الله أبغي ربا: وما منا إلا وهو رهينٌ بما كسبت يداه!

قل أغير الله أبغي ربا: ولا يتحمل أحدٌ وِزْرَ أحد!

قل أغير الله أبغي ربا: وإليه سبحانه المرجعُ والمصيرُ، فماذا عن الموقف بين يديه!

قل أغير الله أبغي ربا: فكيف بي حين يفصلُ اللهُ بين العبادِ ويقضي بينهم بحكمِهِ!

وبعد قيام الحجج وتجلي البراهين يُعلن المسلمُ الإخلاصَ شعارا له في سائرِ أحواله وأساسا له في عباداته ومعاملاته وحركاته وسكناته وكلِّ لحظةٍ في حياته، ويُعلن براءته من الشركِ وأهله؛ فالله سبحانه لا ربَّ غيره ولا معبود سواه ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾: أي فإنما عليها ما اكتسبت كما قال سبحانه في ختام سورة البقرة ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة ٢٨٦]، وقال سبحانه في سورة الجاثية ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾: أي لا يتحمَّلُ أحدٌ وزرَ غيره إلا إذا كان ضالا مضلا فإنه يتحملُ ذنبَ ضلالهِ وإضلالهِ، كما قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾: فالمرجعُ إلى الله تعالى ليفصل بين جميع الخلائق قال تعالى﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾: يخلف بعضكم بعضا، بعد أن استخلفكم في الأرض، وسخَّر لكم جميع ما عليها ومنحكم كنوزها وخيراتها، ليختبركم فينظر كيف تعملون.

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾: فإن تفاضل الناس فيما بينهم لحكم بالغة منها أن يبتلي كلَّ إنسانٍ فيما آتاه وأقامه، ولتستقيم الحياة كما قال تعالى في سورة الزخرف ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف ٣٢] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾: وبهذا الترغيب الذي يبعثُ في قلوب المؤمنين الرجاء والسكينة و الترهيب الذي يزلزلُ كيان المعاندين المعرضينَ ويهزَّ وجدانهم،ويقدِّم لهم الإنذار الأخير في هذه السورة بعد ما حوته من حججٍ: نصلُ إلى ختامِ هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين خاتمة السورة ومحورها

تنتظم آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة حيث تقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها في القلوب، ومن أركانها الأساسية وركائزها الجوهرية الإيمان بالكتب السماوية، حيث جاء الحديثُ في هذا المقطع عن التوراةِ نزولِها ومقاصدِها تمهيداً للحديث عن القرآن الكريم آخر الكتب المُنزلة، أنزله الله على خاتم الرسل نبينا محمد ﷺ لتقطعَ الآياتُ كلَّ السبل أمام المشركين الذين لا عذر لهم ولا حجَّةَ لديهم في الإعراض كما جاءت هذه الآيات مقررةً لما سبقها ومُعقِّبةً على ما مضى في ثنايا هذه السورة الكريمة، من حُجَجٍ ومواعظَ لم ينتفع بها المعرضون ولم يعتبِروا بها؟ فمتى يعتبرون؟

الهدايات المستنبطة

* في آيات الختام وعيدٌ وإنذارٌ للمشركين الذين لا يزالون على صدودهم وإعراضهم بعد تمامِ الحججِ وتعاقبِ الأدلةِ وجلاءِ البراهينِ، فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة كما طلبوا فقد كذبوا بالآيات الجلية أو لقبض أرواحهم.
* الإخبار عن الله تعالى بالإتيان أو المجيء يُمَرُّ كما جاء ونؤمن به، مع تفويض الكيفِ إلى الله

تعالى، وتنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقين.

* لا ينفعُ الكفار إيمانهم عند ظهور الآيات التي تضطرهم إلى الإيمان؛ ذلك أنه عند مشاهدة تلك الآيات يحصل العلم الضروري ويرتفع الإيمان بالغيب وهو المكلف به، فيكون الإيمان حينئذ كالإيمان عند مجيء الموت.

* عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَاكَ حِينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾[1].

* الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع المضلة.

* عن العِرباضِ بنِ ساريةَ قال: وَعَظَنا رسولُ اللهِ ﷺ موعظةً وَجِلت منها القلوب، وذرفتْ منها العيون، فقلنا: يا رسولَ اللهِ! كأنها موعظةُ مُودِّعٍ فأوصِنا، قال: «أُوصيكُمْ بتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْها بالنَّواجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثاتِ الأُمُورِ فإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»[2].

* والمعنى: عليكم بطريقتي وطريقة الخلفاء الراشدين التي ساروا عليها؛ حيث التمسك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير - سورة الأنعام، باب قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ حديث ٤٣٥٩، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان، حديث ٢٤٨ - (١٥٧).

(٢) رواه أبو داود في السنن كتاب السنة باب ما جاء في لزوم السنة ٣/ ٢٠٦ حديث ٤٦٠٧، ورواه الترمذي في السنن عنه وقال هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ كتاب العلم - باب ما جاء في الأَخْذِ بالسّنّةِ وَاجْتِنابِ البِدَعِ ٤/ ٤٦٩ حديث ٢٦٧٦، ورواه ابن ماجة في السنن افتتاح الكتاب في: الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ١/ ٤٤ حديث ٤٢، ورواه ابن حبان في صحيحه ١/ ١٧٩، برقم ٥، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة ٦/ ٢٣٨ برقم ٢٧٣٤.

بالكتاب والسنة، والاجتهاد فيما لا نصَّ فيه.

* لا ينقصُ من ثواب الطائع، ولا يزاد على عذاب العاصي، بل يضاعف الله الحسنات ويمحو السيئات.

* عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» (١).

* بعد إقامة الحجج الظاهرة والأدلة الباهرة، وبعد انكشافِ ما عليه أهلُ الكفرِ من زيغٍ وانحرافٍ وذمِّ سبلهم، ذكَّرَ بالمنهجِ القويمِ والصراطِ السويِّ، ليكون مسكَ الختام لهذهِ السورة الكريمة.

* أمرٌ للنبي ﷺ أن يُعلنَ عن إخلاصِه لله تعالى في سائر أموره وأحواله وفي جميع أقواله وأعماله، « وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل.

* بالإخلاص تتحولُ العادات إلى عبادات، بل كلُّ قولٍ وكلُّ فعلٍ وكلُّ حركةٍ وكلُّ سكونٍ وكلُّ لحظةٍ في حياةِ المؤمن هي لله تعالى، فحياته كلُّها عبادةٌ.

* بعد قيام الحُجَج وتجلي البراهين: يُعلن المسلمُ براءتَه من الشركِ وأهله؛ فالله سبحانه لا ربَّ غيره ولا معبودَ سواه.

* كما يُعلن الإخلاصَ شعارا له في سائرِ أحواله وأساسا له في عباداته ومعاملاته وحركاته

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب: من همَّ بحسنة أو بسيئة حديث ٦١٢٦ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: إذا همَّ العبد بحسنة كتبت وإذا همّ بسيئة لم تكتب ١٣١ - (٢٠٧).

وسكناته وكلِّ لحظةٍ في حياته، وفي جميع شئونه؛ فالإسلام دينٌ ودولةٌ، عبادةٌ وقيادةٌ، حضارةٌ وريادةٌ، وشريعةُ الله تعالى هي الحاكمة في جميع ميادين الحياة، لا كما أطلق العلمانيون في الغرب بعد تحررهم من سلطان الكنيسة وهيمنتها: « دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» بل كل ما في الكون ملك لله تعالى وكل شيء في هذه الحياة: من الله، وإلى الله، ولله وحده لا شريك له، ومثل هذه المقولة وإن حجَّمت من دور الكنيسة وحدَّت من تسلطها: فهي كاذبةٌ خاطئةٌ، لأنهم قسَّموا نفوذ الدنيا بين قيصر وبين الله، فجعلوا الكنيسة لله، وجعلوا البيت والمدرسة والمجتمع والسوق والدولة لقيصر، وهي قسمةٌ جائرةٌ، فضلاً عن كونها خاطئةٌ!! وهنا جاء دينُنا القيِّمُ ليصحِّح المفاهيمَ وينقِّي المجتمعات من أدران الشرك ومظاهره، ويرفع لواء التوحيد الخالص من كلِّ شائبة، ويعلن أنَّ الأمرَ كلَّه لله، قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال سبحانه﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

* مهمة الإنسان عبادة الله عز وجل والقيام بحق الخلافة في الأرض بتعميرها وإصلاحها وإقامة موازين العدل وأركان الرحمة في أرجائها وفق منهجِ الله تعالى.

* ومن مقتضيات الاستخلاف في الأرض: المحافظة على ثرواتها وكنوزها، وخيراتها، والسعي إلى إصلاحها والنهوض بها وبأهلها، واتباع منهج الله تعالى فهو تعالى خالق هذا الكون.

* حكمة الله تعالى في التفاوت بين خلقه ورفع بعضهم على بعضٍ درجات وذلك لتبادل المنافع واكتمال منظومة الحياة وتحقق التعاون بين الناس وتبادل الخدمات فيما بينهم كما قال سبحانه في سورة الزخرف ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الزخرف: ٣٢]

وقد قيل: الناسُ للناسِ من بدوٍ وحاضرةٍ   بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ.

* وإذا كان الله تعالى قد بين في أول السورة ملكه للسماوات والأرض فقد أعلن في ختامها

أنه استخلف الإنسان على الأرض بما هيأه من ملكات وطاقات تعينه على القيام بهذه المهمة الجليلة الشأن التي لن تتمَّ إلا بمنطلق إيماني ومنهجٍ رباني وحول ذلك كانت السورة الكريمة. والحمد لله ربِّ العالمين.

أهم الموضوعات التي عالجتها السورة ومقاصدها.

* استهلت السورةُ ببيان أن المستحق للحمد هو الله تعالى وحده، فهو تعالى المتصف بصفات الكمال والجلال وهو المحمود ولا يزال على ما أبدى من النعم وأسدى من الكرم، خلق هذا الكون بما فيه من مخلوقات لا يحصيها عددا إلا هو وجعل الظلمات والنور الحسية منها والمعنوي لحكم بالغة.

* فاشتملت هذه السورةُ على قواعدِ التوحيدِ والتي جاء في مستهلِّها إفرادُه تعالى بالحمد فلا يتوجَّه الحمدُ إلا له تعالى، قال أبو إسحاق الإسفرائيني: « في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد»[1].

* ومما اشتملت عليه السورةُ الكريمةُ إبطالُ ما كان عليه المشركون من تصورات فاسدة في قضية التحريم والتحليل التي أخضعوها لأهوائهم وتقاليدهم الراكدة، بدون حجةٍ أو برهانٍ، بل مجرَّد الافتراء والتَّقَوُّلِ على الله تعالى بغير علمٍ، وفي السورة الكريمة تفنيدٌ لشبهاتهم وردٌّ على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم العجيبة.

* ومن الموضوعات الرئيسةِ في هذه السورة: بيان أسبابِ صدودِ المشركين وإعراضِهِم عن الحق وغفلتِهم عن السننِ.

* ومن الأصولِ التي قررتها السورةُ الكريمةُ: أن الهدايةَ من الله تعالى يوفقُ إليها ويعينُ عليها كلَّ من طلبها بصدقٍ وسلك سبيلها بإخلاصٍ وتجرُّدٍ.

* ومن جملة ما تضمنته السورةُ: بيانُ الحكمة من إرسال الرسل وأن مهمتهم التبليغ عن الله

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي ٧/ ١١٤.

تعالى ودعوة الناس إلى الدين الخالص، وأن الله تعالى يؤيدهم بالحجج والبراهين والآيات الدالة على صدقهم.

* كما تحدثت السورةُ عن نزولِ التوراةِ هدى ونورا، وتفصيلا وبيانا ونزول القرآن الكريم مباركا ومصدقا لما بين يديه وتفصيل كلِّ شيءٍ، فهو الرسالةُ الخاتمةُ المتممةُ والحُجةُ القائمةُ والمعجزةُ الدائمة، وهو الدستورُ الخالدُ، والمنهاجُ الراشدُ، والسبيلُ الواضحُ المتفرِّد، والخطابُ المتجدِّدُ.

* ومن الموضوعاتِ التي وردت في السورة الكريمة الإيمان بالملائكة عليهم السلام والحديث عن بعضِ مهامِّهم وأحوالهم.

* كما اشتملت السورةُ على كثيرٍ من الآيات الإنسانية والكونية التي تشهد لله تعالى بكمال قدرته وجمال صنعه وروعةِ مخلوقاتِهِ وعظمةِ سلطانه.

* وتضمنت السورة الكريمة جملةً من السنن الكونية مثل سنة التمكين وسنة الاستدراج وسنة إهلاك المكذبين وسنة تولي الظالمين « تسلط بعضهم على بعض، وتحالفهم، وتعاقبهم، وسنة الصراع بين الحق والباطل» وغيرها من السنن الربانية التي تُعدُّ أساساً ونبراساً على طريق الدعوة والإصلاح.

* كما اختتمت السورة بالوصايا الخالدة الراشدة، الجامعة لأصول الدين ومعالم الشريعة ومكارم الأخلاق.



الفهرس

السورة	الصفحة
النساء	١
المائدة	٢٠٥
الأنعام	٣٩٣



Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com


جامعة الشارقة
UNIVERSITY OF SHARJAH
1997


تفسير
مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies